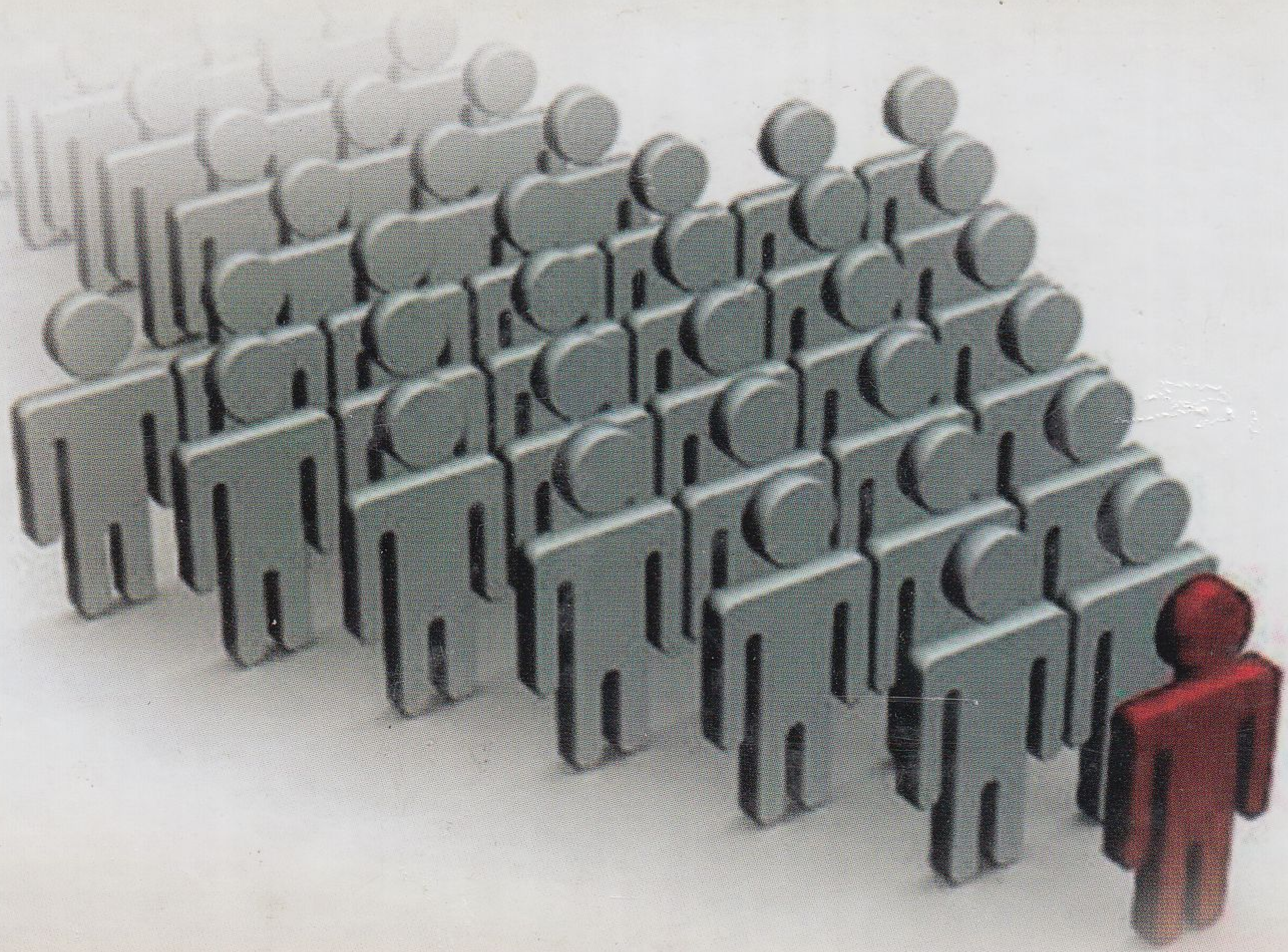
وسائل الاعلام والحرب



الدكتور موسى علي الفهد
أ. سؤود فؤاد الآلوسي

دار أسامة
للنشر والتوزيع

وسائل الإعلام

و

الحرب

تأليف

د .موسى علي الفهد - سؤدد فؤاد الآلوسي

دار أسامة للنشر والتوزيع

عمّان - الأردن

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن – عمان

- هاتف : ٥٦٥٨٢٥٢ – ٥٦٥٨٢٥٣
- فاكس : ٥٦٥٨٢٥٤
- العنوان : العبدلي- مقابل البنك العربي

ص. ب : ١٤١٧٨١

Email: darosama@orange.jo

www.darosama.net

الطبعة الأولى

٢٠١٢م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٣٢ /٥/ ٢٠١١)

٣٠٢,٢٣ الفهد، موسى علي

وسائل الاعلام والحرب/ موسى علي الفهد.- عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

( ) ص .

ر.أ :(١٩٣٢ /٥/ ٢٠١١).

الواصفات: الاعلام //وسائل الاتصال الجماهيري /

ISBN: 978-9957-22-451-6

الفهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع



المقدمة

في عالم مثل عالمنا اليوم، الذي تكثر فيه الحروب إلى حد يثير القلق، وتنقلنا وسائل الإعلام على مختلف أشكالها يومياً إلى ساحات مختلفة للحروب والصراعات المسلحة، فمستهلك أخبار وسائل الإعلام ينتقل من مشهد حرب إلى آخر اليوم، وإن نمط استهلاكنا للأخبار ولمحتوى وسائل الإعلام يسهم في تشكيل نظرتنا إلى تلك الحرب وإلى انطباعنا العام عنها، كما تفهم وسائل الإعلام أصلاً بتشكيل نظرتنا ورؤيتنا إلى العالم ككل، وذلك فإن نظرتنا إلى الحروب تسهم في تشكيل رؤيتنا للعالم ومنظورنا نحو المشهد اليومي للعام من خلال منظور يومي ضيق دموي وكئيب (ومغطى بدخان الحرب) في أحيان كثيرة، وإن كثيراً من هذه الحروب يخاض إعلامياً وفقاً للإطار الإعلامي الذي يراد لها أن تسوق من خلاله من قبل صانعي هذه الحروب ومهندسيها، كما تم تسويق حرب الخليج عام ١٩٩١ ضمن منظور أو إطار (الحرب النظيفة) الإعلامي، إن الحرب لا تصنع التاريخ فقط وتغير الخرائط الجيوبولتيكية للعالم، بل هي تعمل على تشكيل إطار معرفي وإعلامي جديد وتعمل على تقويض تلك الأطر السائدة أو تهديدها بشكل جذري.

فمنذ (ظهور وسائل الإعلام الجماهيرية ذات القدرة الهائلة على الانتشار والتأثير، أصبحت حرب الإعلام أو الحرب التي تخاض عبر وسائل إعلام، نوعاً قائماً بذاته من أنواع الحروب المختلفة، حروب

اقتصادية، تجارية، سياسية.... الخ، وجزءاً أساسياً من الحرب العسكرية التقليدية)، وإذا ما فهمنا إن الحرب التقليدية بالوسائل العسكرية، هي تمثل ذروة تأجيج التوتر والعنف من أي صراع سياسي أو عسكري، فإن توظيف وسائل الإعلام، هو يمثل مرحلة التمهيد والتحشيد للقوى المؤيدة واستمالة الأطراف المحايدة أو التي لم تبلور موقفها بعد، وهي أداة مهمة من أدوات إدارة الصراع أو الأزمة، أي أزمة، حتى ان كانت حرباً دموية قاتلة.[1]

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يلقي نظرة ذات بعد تاريخي يدرس علاقة وسائل الإعلام بالحرب عبر فترة تاريخية طويلة نسبية، تتعرض لجملة من الحروب المهمة والمؤثرة في المئة سنة الأخيرة، كما يساعدنا على تفهم كيف تعاملت الدول التي كانت في حالة حرب مع وسائل الإعلام سواء المحلية الوطنية أو وسائل الإعلام الخارجية، وكيف عملت على مواجهة الحرب الإعلامية والدعائية التي يشنها الخصوم، كما يتعرض لانعكاسات الحرب على وسائل الإعلام المختلفة، ومساهمة الأخيرة مع دخول أنواع مستحدثة جديدة منها إلى عالم الحرب، مع استحداث وسائل جديدة نتيجة للتطورات التكنولوجية المتلاحقة، ابتداء من الصحافة المطبوعة ومروراً بالإذاعة وحتى ظهور الانترنت ومن ثم ظاهرة (إعلام المواقع الاجتماعية)، وهكذا فإن الحرب، في كوسوفو عام ١٩٩٩، كانت قد سميت بـ (أول حرب انترنت)، كانت حرب احتلال العراق في عام ٢٠٠٣، هي حرب (اليوتيوب) أو أول حرب في زمن مواقع التواصل الاجتماعي!

كما كانت حرب فيتنام، هي أول (حرب تلفزيونية) أو حرب (غرفة المعيشة)، كما كان يطلق عليها، كما يظهر هذا الكتاب أن الصفة

---

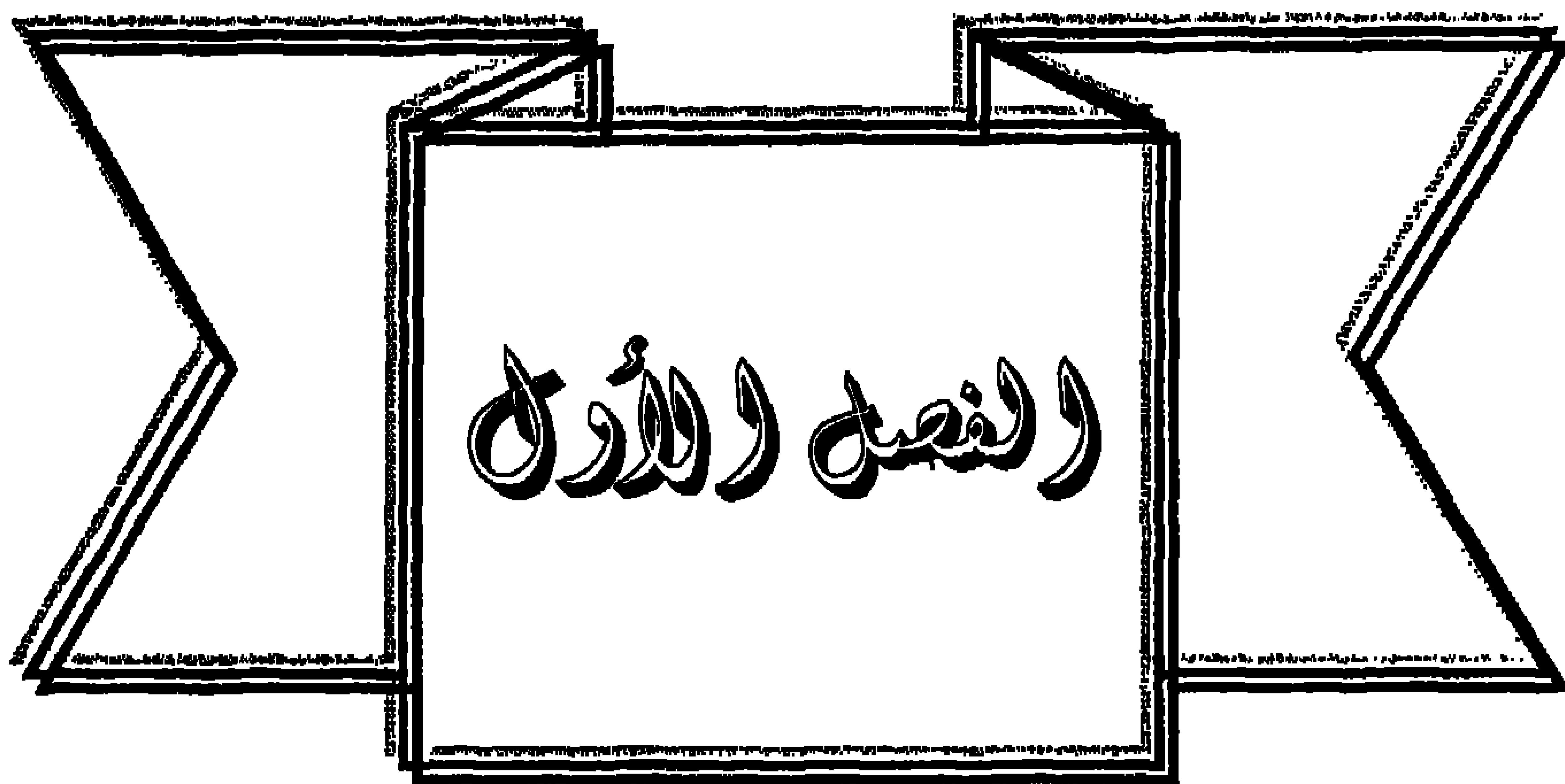
١) أنظر الدليمي، ٢٠١٠، ص ٣٠.

المشتركة بين جميع الحروب، بالإضافة إلى الدمار والخسارة في الدم البشري، هي فرض الرقابة على وسائل الإعلام واستخدامها كأداة لفرض الإجماع الوطني والتأييد الشعبي لشن الحرب، وأن الحرب الوحيدة، التي نظر إليها من قبل قيادة الجيش الأميركي على إنها كانت حرباً بلا رقابة في القرن العشرين، كانت حرباً هُزم فيها الجيش الأميركي إلى حد أنها أنتجت ما أصبح يعرف بـ (عقدة فيتنام أو متلازمة أعراض فيتنام) و التي آمنت من خلالها العسكرية الأميركية والغربية عموماً، بعد إمكانية خوض حرب أو الفوز بها في ظل عدم فرض الرقابة على وسائل الإعلام الإخبارية، كما يظهر هذا الكتاب، وجود نمط متكرر لخوض الحرب الخارجية لدى الجيش الأمريكي والتدخل في مناطق الصراع الإستراتيجية في العالم. تكرار عدة مرات في فيتنام وفي الحروب الأخيرة في فيتنام والعراق، يتضمن أولاً خوض هذه الحروب باستخدام قوة مفرطة في البداية، وعند تحول الاتجاه الشعبي العام ضد الحرب، يعمل القادة والمتلاعبون بالرأي العام على تحويل الانتباه عن الحرب وحتى ومحاولة طمس أخبارها، مع تحويل الجهد العسكري نحو (الفتنمة) أو (العرقنة) "بحسب الحالة" مع زيادة حجم القوات الأميركية لدعم القوات المحلية الموالية، ومن ثم المرحلة الأخيرة، الانسحاب في هزيمة مخزية وفشل لأهداف الحملة.

يحتوي الكتاب على سبعة فصول، تحدث الأول منها عن (التمهيد للحرب) بينما ناقش الفصل الثاني عن دور وسائل الإعلام قبل الحرب في التعبئة فيما تحدث الفصل الثالث عن مفهوم جديد نسبياً وغير مألوف نوعاً ما عن الحرب الشاملة وخصوصاً في الحرب العالمية الثانية، وتحدث الرابع عن الحروب المتلفزة. أما الفصل الخامس: فكان للحديث عن حروب الآخرين.

فيما تناول الفصل السادس، الحرب على الإرهاب وهي النمط السائد الحديث عنه في وسائل الإعلام العالمية في العقدين الأخيرين، أما الفصل السابع والأخير فهو يتناول ظاهرة الحرب في عصر الإعلام الرقمي، وهي أحدث ظاهرة للحروب في السنوات الأخيرة، والتي ما زالت في طور الجدل والنقاش، خصوصاً وان الحروب التي تتناولها نفسها لم تنته لحد الآن ولم يتبين بعد الإبعاد الكاملة لآثارها والنتائج المترتبة عليها، والله ولي توفيق....

المؤلف



التمهيد للحرب

منذ ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية ذات القدرة الهائلة على الانتشار والتأثير منذ مطلع القرن العشرين المنصرم. أصبحت حرب الإعلام، والحرب الإعلامية، أو الحرب التي تخاض وتنفذ عبر وسائل إعلام، نوعاً قائماً بذاته من أنواع وتصنيفات الحروب المختلفة، على إنها، حروب اقتصادية، تجارية، عسكرية... الخ، وجزءاً أساسياً من الحرب العسكرية التقليدية الحديثة، وإذا ما فهمنا إن الحرب التقليدية بالوسائل والتكتيكات العسكرية، هي تمثل ذروة تأجج التوتر والعنف في أي صراع سياسي أو عسكري ما، فإن توظيف وسائل الإعلام، إنما هو يمثل مرحلة التمهيد والتحشيد للقوى المؤيدة واستمالة الأطراف المحايدة، أو التي لم تبلور موقفها بعد، وتلعب حتى دوراً أساسياً في إثارة المشكلة أو النزاع، وهي أدرج أساسية مهمة من أدوات إدارة الصراع والأزمة.[١]

ولقد أدى الدور الذي لعبته وسائل الإعلام في الحرب، بحسب الباحث الفرنسي آرموند ماتلار في (إن الاقتناع بقوة وسائل الإعلام ومقدمتها على صناعة الأحداث برز في وقت مبكر جداً من تاريخ وسائل الاتصال الجماهيري، وقد رسخته الحرب أكثر، وقد نتج عن هذا الأمر إعطاء شرعية لمراقبة وسائل الإعلام، وهي الشرعية ذاتها التي تستخدمها السلطات المختصة لتبرير الإجراءات التي تتخذها للحد من نشاط وسائل الإعلام في كل نزاع مسلح، وهذا انطلاقاً من الأحداث السالفة التي أثر فيها الرأي العام على مجرى العمليات العسكرية.[٢]

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر، تمتعت الحرب ووسائل الإعلام الجماهيرية طويلاً بعلاقة مركبة ومعقدة، ومثل غيرها من العلاقات المماثلة والمطولة، وقعت في الحال في شرك من التأييد والنزاع والاتهامات المتبادلة

١- : د. عبد الرزاق الدليمي، الدعاية والإرهاب، عمان، دار جرير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٢- عبد الله الكندي، تحرير، تغطية الصحافة العربية للحروب، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

بالاستقلالية أو الانحياز بين طرفي العسكر و الصحفيين، متبوعاً في أحيان أخرى بالاعتراف بالاعتماد المتبادل، وإن نفس التكنولوجيا المتطورة والتي يتم خوض الحرب بها، قد عملت أيضاً على تشكيل وسائط الاتصال التي يتمكن من خلالها المشاهد البعيد من فهم وإدراك الحرب، ان صلة القرابة بين البندقية والكاميرا " وكليهما أدوات تضعان الأهداف تحت بؤرة نظر دقيقة قبل الإطلاق عليها" غالباً ما تم الإشارة إليها وتميزها جيداً.(١)

وإن آليات الحرب الحديثة الممكنّة، تضع اهتماماً كبيراً يدفع لتشجيع القابليات على تحديد الأهداف البعيدة بدقة أكبر من قبل، لتحل محل الأشكال القديمة الأكثر قربا وحميمة من المعارك، والتي يتقاتل فيها الجنود وجهاً لوجه أو من مسافات قريبة.

وفي نفس الوقت الذي سمحت فيه التكنولوجيات الحديثة في تخفيف أنماط الدمار الواسعة والعشوائية من خلال زيادة دقة إصابة وتحديد الأهداف فإن حروب العصر الصناعي شجعت على نمو التكنولوجيات التي تزيد من الاعتماد على المعلومات المستقاة من مسافات بعيدة، ولطالما اعتمد البشر أثناء الحروب على إرسال رسل بطيئين (سواء كانوا ينتقلون على أقدامهم، أو على ظهر الخيل، أو العربات المصفحة) بين القادة في مراكز القيادة الخلفية وبين الرجال على خط الجبهة، ولهذا فإن الجيوش الحديثة فكرت في وجوب تسريع بث الأوامر ونقلها نزولاً من سلسلة القيادة، وفي الاتجاه المعاكس، من إرسال تقارير الأوضاع في ميدان المعركة راجعة إلى القاعدة، التلغراف، والبث الراديوي، الحاسبات الرقمية والانترنت كلها طورت وابتكرت بدفع من استثمارات عسكرية.(٢)

1 -Virilio, P (1989) War and Cinema: the Logistics fl Preception, London, Verso.
2- Edwards. P (1996) the Closed world: computers and the Politics of Discourse in the Cold war, Cambridge, MIT. MIT Press.

ولهذا ليس من المفاجئ أن يكون تاريخ تقنيات الاتصال عادة، معلماً بتتابع الحروب، فالحروب تعمل على تطوير وسائل الإعلام وزيادة انتشارها بل وإنتاج أنماط جديدة من الفنون والصحفية، وخلق أنماط جديدة من الصحفيين، والمهمات الصحفية، فظهور المراسل الحربي مرتبط بالحروب الحديثة.[1]

وعلى سبيل المثال فان ذيوع وانتشار الصور الثابتة Stills (التصوير الفوتوغرافي)، مرتبط كما هو شائع بالصور المذهلة والمروعة التي ألتقطها المصور ماثيو باردي Mathew Bardy خلال الحرب الأهلية الأميركية (٦١- ١٨٦٥)، حيث أظهرت للمرة الأولى نتائج المعارك نتيجة لحركة عين الكاميرا السريعة في وقت الحدث، عوضاً عن الأعمال الفنية بالرسوم الموثقة لتلك المعارك، حيث كان لها بحسب رأي صحيفة النيويورك تايمز أثراً توجيهياً قوياً، عارضة للمدنيين الموقف العادي للخيالة تجاه الموت، عكست الذهول للرجل العادي أمام صور الموتى ووجهوهم الشاحبة، وقد لا يكون باردي، قد احضر جثث القتلى إلى عتبات منازل سكان نيويورك و(لكنه قام بشيء جداً لذلك) بحسب صحيفة النيويورك تايمز في ١٨٦٢.

وثمن انجذاب ملحوظ لصناع الأفلام لساحات المعارك، والذي يتكرر باستمرار عبر التاريخ، رغم إن دارسي السينما لا يعزّون إلى جهودهم الرائدة مثل تلك القوى الفاعلة والمذهلة التي كانت لصور باردي، ولعل السبب يعود إلى أن مصوري الفوتوغراف غالباً ما نظر إليهم على أنهم فنانون جادون وناقلون للقيم الأخلاقية عبر صورهم. أما رواد الصور المتحركة الأولى. من جانب آخر، كانوا راغبين في النظر إلى أنفسهم بصفتهم امتداداً للتقليد الشعبي الشائع في مسرح العرائس أو مسرح الفودوفيل الإبهار الذي لا يتطلب قدراً من التعليم ولا أي تظاهر بالتهذيب والتنوير الأخلاقي، بينا نُظر إلى باردي على أنه خلق ذاكرة فوتوغرافية كئيبة للأماكن والأشخاص الذين دمرتهم الحرب.

١- سؤدد الألوسي، الإعلام والعنف)، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

إن اهتمام صانعي الأفلام في الصراع يميل إلى إن يكون أكثر طمعاً وانتهازية، مغوية من قبل المشهد الحركي والمثير للفعل، وليس بالرؤية الحزينة لجثث الغير قادرة على الحراك، ان التصوير السينمائي يتطلب الدراما، وأجساد بشرية تتلاحم فيما بينها أو قوات مسلحة تتصارع فيما بينها تتلاءم متطلبات، السينما، وليس من باب المصادفة أن يكون أول المشاهد الملتقطة من قبل توماس أديسون تتضمن مشهداً يعرف بـ (مشهد البار) في ١٨٩٤، يصور رجالاً ملتحمين في شجار للسكارى.

وفي سنة ١٨٩٨، وفرت الحرب الأميركية- الأسبانية في كوبا، لصناع الأفلام في السينما التجارية التي كان لها من العمر آنذاك سنتين فقط، صراعاً على مستوى أكبر بكثير، فارضة تحديات مهمة، في تقليص مثل هذا الحدث البطولي وفقاً لأبعاد الشاشة البيضاء، وتقديم هذه الأحداث البعيدة في صورة واضحة جلية، وهما تحديان مهمان للتصوير السينمائي للحرب، وفي اللقطات العديدة التي ظهرت نتيجة لهذه الحرب، والتي قدمت على إنها لقطات أصلية من ساحة المعركة. كانت في الواقع إما تم تقليدها أو إعادة خلقها في أماكن بعيدة جداً عن مشهد الحدث، ولقد صورت شركة بايوغراف أشخاصاً بالأزياء الرسمية يندفعون على ظهور الأحصنة باتجاه الكاميرا في تامبا بولاية فلوريدا، لفيلمها المعنون (رجال روزفيلت القساة) في ١٨٩٨، وفعل فريق (أديسون) نفس الشيء في ويست إورانج، بنيوجرسي، بينما فجر رائد (أفلام الحيلة) الفرنسي جورج ميليه Mêliés، سفينة لعبة في حوض لبناء السفن الذي قدمه على أنه ميناء هافانا، و (لقد أصبحت الأفلام متطابقة في الهوية مع أخبار الحرب).

كما يرى الباحث الإعلامي روبرت. سي. ألن، (حتى ان أديسون أعاد تسمية جهازه فانوسه السحري إلى تسمية (وورغراف) War graph أو ما يعني آلة تسجيل الحرب طوال فترة استمرار الأعمال الحربية)، ومع هذه الخطوة في

(عسكرة) السينما، قام بمحاولة لجعل السينما تؤخذ بشكل أكثر جدية على إنها (الصحيفة المرئية) ما عدا كونها ذات ميزة مضافة بعرضها للأجساد والأشياء وهي تتحرك.

وفي العقود التالية، استثمرت استوديوهات هوليود بشكل متكرر ودائم في الحرب، للاستفادة من النزعة الوطنية خلال فترات الحروب، لتعزيز مكانتها و مصداقيتها خلال توسيعها لأسواقها المحلية والعالمية للعروض السينمائية التي تقدمها.

وما نجحت صناعة الفلم في عمله خلال الحرب العالمية الأولى، هو في بيع التذاكر في أرقام مسجلة، بينما كانت تقدم نفوذ نجومها إلى جهود التجنيد الرسمية وحملات بيع السندات، ولكنها أخذت بحقها لحد كبير في الحرب العالمية الثانية، ففي خضم ظروف التقنين، والنقص في الإمدادات والتجنيد الإلزامي أمنت هوليود لنفسها مكانة (صناعة الحرب) المحمية، وكنتيجة لذلك تمكنت من إنتاج المزيد من الأفلام بشكل غير مسبوق تقريباً خلال فترة الحرب، وبزغت في سنة ١٩٤٥ وبكونها الممون الأول في العالم بالأفلام المتحركة، ولقد ردَّ رؤساء الاستوديوهات الجميل للحكومة، بإعارة أكثر مواهبهم نبوغاً ومهارة في الإخراج إلى فرق الإشارة في الجيش، وفروع الجيش الأخرى للمساعدة في إنتاج أفلام تعليمية لتدريب الأفراد، وأشرطة وثائقية عن المعارك، ومع أخذ هذه الشراكة الرائعة في زمن الحرب في البال فإن البيت الأبيض استدعى مدراء تنفيذيين في هوليوود للعمل كمستشارين في العاصمة واشنطن، بفترة وجيزة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠١١، لمناقشة مشاركة الاستوديوهات في الحرب على الإرهاب) الجديدة، والعديد من هؤلاء المدراء اقتبسوا مسلسلات فرانك كابرا الشهيرة- في زمن الحرب العالمية الثانية- (لماذا نحارب؟) كنموذج محتمل، وكما يلاحظ مراسل صحيفة نيويورك جيم روتنبرغ، أن الحرب العالمية الثانية كانت هي (العصر الذي

ينظر إليه هؤلاء المدراء الآن للتوجيه) (روتنبرغ ٢٠٠١، Rutenberg).[1]

ولفهم مدى قوة وتأثير السينما الذي حظيت به في تلك الفترة، نقتبس ما كتبته صحيفة اللندن أيفنتج بوست، في افتتاحية لها في أواخر العشرينات، وهي الفترة التي شهدت تقدم السينما الأميركية على غيرها من السينمائيات الأوربية ووصولها إلى مركز الطليعة من حيث الإنتاج و الانتشار:

{ إذا أقدمت الولايات المتحدة على إلغاء أجهزتها الدبلوماسية والقنصلية وعلى إبقاء مراكبها وسياحها في وطنهم. وعلى الاستقالة من أسواق العالم، فإن مواطنيها، مشكلاتها، بلداتها، وأريافها، طرقها، سياراتها، مكاتب سياحتها، ومحاسبتها، وصالوناتها ستبقى مألوفة في أقصى زوايا العالم... فالفلم بالنسبة إلى أميركا الآن، هو مأكنة الفلم، ذات يوم بالنسبة إلى بريطانيا عن طريقه (عن طريق الفلم- يستطيع العم سام أن يحلم بإنجاز أمركة العالم ذات يوم، إذا لم يتم لجمه في الوقت المناسب}.[2]

ورغم كل قدرة السينما على الإنهاء، ورفع المعنويات، التسلية والإعلام فإنها كانت في الحرب العالمية الوسيلة الأقل بروزاً من الراديو، وكانت الإذاعة قد حلقت إلى الأعالي خلال سنوات الحرب، وتم تشجيع نموه وانتشاره من قبل دول أوروبا الشرقية الصاعدة، والاتحاد السوفييتي بزعامة ستالين، واريخ هتلر الألماني الثالث، التي انبهرت بسرعته في نقل المعلومة وسهولة الوصول إليه، ولقد خلقت برامج الإذاعة الوهم الذي يوحي بان المستمع يتم التحدث إليه مباشرة (وينعكس هذا حتى على أسلوب كتاب النصوص وطريقة توجيه السرد)، ورغم أن فعالية هذا البثّ (اللاسلكي) قد تم تحسينها وتعزيزها من خلال الاستماع والمشاركة الجماعية في عملية التعرض، فإنه على غرار السينما تمتع بميزة تخطي حاجز التعليم، والتي على عكس بعض وسائل الإعلام الأخرى المقيدة (مثل الصحف التي

1- Rutenberg, J(2001) (Holly wood Seeks Role in the War) the New gork Times, October 20.

٢- سردار وديفيز (الحلم الأميركي: كابوس العالم)، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

تحتاج إلى التوزيع مادياً)، فإن السينما عادة مقيدة بالمكان، الذي تنقل إليه بكرات الأفلام الكبيرة وتحتاج إلى معدات تقنية كبيرة ومتعددة لعرض الأفلام على شاشات كبيرة، وهذا الموقع المحدد يستوجب انتقال المتفرج إلى ذلك المكان، أو إلى حيث يمكن توفر هذه الخدمة على الأقل، أما البث اللاسلكي فيمكن التقاطه بسهولة عبر مسافات بعيدة من خلال أجهزة استقبال رخيصة الثمن يمكن نقلها بسهولة، وان موجات الإذاعة تنتقل عبر الفضاء دون أن تعوقها حدود الدول، وجميع القوى الكبرى خلال الحرب انخرطت في استخدام مكثف للإذاعة للوصول إلى الجماهير المحلية، والمحايدة، والعدوة ! وبعضاً من هذه المحطات الإذاعية مثل إذاعة BBC وصوت أميركا تمكنت من البقاء حتى يومنا هذا.

كما إن صفة عدم مرئية الإذاعة جعلت منها وسيلة مثالية، للمحاولات الخفية لتدمير معنويات العدو، طالما أن الإذاعة بإمكانها إخفاء هوية صانعيها وموقعهم، وفي محاولة لتشجيعهم على الاستسلام إلى الطرف المقابل، كان خبراء دعاية الحلفاء يبثون دعايتهم إلى جنود الجيش الألماني متخفين في هيئة ضباط ألمان ناقمين، وهي حيلة أعادة قوى المحور توظيفها لتخريب معنويات جنود الحلفاء، وفيما إذا كانت مثل هذه الأساليب قد أدت فعلاً إلى انهيار العديد من أفراد العدو هو أمر يصمت عنه مؤرخو الحرب، مما يجعلنا غير متأكدين مما يجب التصديق والأخذ به، مما كان يقوله أسرى الحرب لآسريهم عن الأسباب التي دعتهم للتسليم، [1] ولكن إغراء الإذاعة لعمليات الحرب النفسية (أو المقاتلون النفسيون) ظل بلا نهاية.

ولكن في الولايات المتحدة، فإن العقود التالية للحرب العالمية الثانية كانت سنوات ازدهار ونمو التلفاز، الذي قاطعته بشكل مؤقت سنوات الحرب، وان الصعود السريع للتلفاز كوسيلة، سهلته سنوات النمو الأميركي ما بعد الحرب، وطوال سنوات الخمسينات كانت ملكية أجهزة التلفاز في الولايات المتحدة تنمو بوتيرة متسارعة، وعلى أثرها بريطانيا وبعدها الدول الأوربية الأخرى التي كان

1 - Howe, E (1982) The Black game: British Subversive Operations against the German During the Second World War, London: Futura.

تعافيها من الحرب أبطأ قليلاً، كما تعقد بسبب أوضاع مستعمراتها الامبريالية المهلهلة. وفي أواسط الستينات، كانت أغلبية الأميركيين تملك على الأقل جهاز تلفزيون واحد وبدأت في الاعتماد عليه كمصدر للأخبار، ولقد تصادف هذا مع حرب فيتنام، مما ضمن ان التلفاز سوف يرتبط إلى الأبد مع هذا الصراع، وفي العديد من القطاعات ذات النفوذ يلقى باللوم عليه لهزيمة أميركا في تلك الحرب، وخصوصاً أن أميركا لم تخسر في حرب من قبل، إذا ما وضعنا مسألة حرب كوريا جانباً، وفقاً لهذه القطاعات، ولذلك يقف أمام الأذهان أن سبب مثل هذا الفشل أمام جيوش الفلاحين من العالم الثالث، لابد أن يرتبط بالوجود الجديد والغير مرحب به في مناطق الحرب، كاميرات التلفاز، وأن أخبار التلفاز، بنظر نقادها، كان لها صورة عن الحرب في نشراتها المسائية مع كل شرورها الملطخة بالدماء، متجاهلة البشائر المتفائلة، ومسممة عقول المشاهدين بالسلبية التي تقطر ببطء من شاشة التلفاز من خلال تأكيدها على فظائع الحرب، مما أدى إلى سحب الأميركيين تأييدهم لهذه الحرب، الذي بدونه، لم يعد بالإمكان ممارسة الحرب أكثر نحو خاتمة مكللة بالنصر، أو قصة تسير بشكل مشابه لذلك.

ولكن هذه الحقيقة التي لم تكن مدعومة بالوقائع التاريخية، لم تمنع أن تكون هذه الحكمة المستفادة هي من يلوّن المواقف تجاه أخبار التلفاز في العديد من الحروب اللاحقة، وهي وجهة نظر عن قوة التلفاز تشارك بها العديد من الأقران المتنافرين فيما بينهم ابتداء من صدام حسين وجورج بوش، ومروراً بأسامة بن لادن، وحتى مارغريت تاتشر، حيث ان كلا منهم، في لحظات تاريخية معينة اعتنقوا المفهوم القائل بأن المدنيين الغربيين، الذين لا يملكون أي قابلية على تحمل الخسائر البشرية، سوف يفزعون من منظر المعاناة البشرية ويطالبون بنهاية عاجلة أو (متعجلة) للحرب، ولضمان النصر فمن الضروري إما بتغطية صور الأجساد المشوهة والميتة الناتجة عن المعارك أو تقديم أكبر عرض ممكن لها، بحسب نقطة انطلاق المرء الإستراتيجية، وفي القرن الواحد والعشرين، فإن هذه المعركة حول الصور قد امتدت من التلفاز إلى وسيلة

الانترنت، الوسيلة البارزة في يومنا لعرض وتبادل الصور المرئية، والتي تكرر صدى وصف فيتنام بأنها (الحرب التلفزيونية) الأولى، حيث أصبح وصف حرب العراق (في ٢٠٠٣)، بأنها حرب (اليوتيوب You Tube) الأولى.

تسويق الحرب:

(الحرب تبيع War Sells)، ويقصد به أن أخبار الحرب تزيد من مبيعات الصحف وترفع من توزيعها، وهذا الشعار تم تداوله لحد الاستهلاك، ولكن نظراً لاهتمام وسائل الإعلام الكبير بأحداث الحروب وتلهفها لنقل أخبارها، فإن المغزى الكامن ورائه ليس بمحل نقاش أبداً، ولقد لاحظ أحد الكتاب الانجليز بعد الحرب العالمية الأولى:

{ ان الحرب لا تخلق وفرة في الأخبار فقط، بل تطالب بها، منغمسة بشكل عميق في الافتتان في الحرب وكل الأمور المتعلقة بها حتى ان الصحيفة ما عليها إلا إن تضع على ترويستها عبارة (معركة عظيمة) حتى ترتفع مبيعاتها}.[1]

وهذا الحكم لولا دقة مفرداته لربما كان خارجاً من شفتي تيد تيرنر أو روبرت مردوخ ان حرب الخليج في ١٩٩١، قد أعادت تأكيد الصورة التي كانت عليها الحال بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تمتعت ٢٠ من صحف أميركا الـ ٢٥ الأكثر مبيعاً، ارتفاعاً كبيراً في مبيعاتها. أما محطة تيد تيرنر (شبكة أخبار الكابل) أو الـ CNN، فقد شهدت زيادة مقدارها عشرة أضعاف في حجم جمهورها.[2]

---

1 - Lass Well (1927) Propagand Technique in the World War, London: Kegan Paul.

2 - Hallin, D. and Gitlin, T (1994) the gulf war as Popular Culture and TV drama.

انظر أيضاً الآلوسي (الإعلام والعنف)، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

ولكن مثل معظم الأحكام العمومية بخصوص وسائل الإعلام والحرب، فإن نقيض هذه الفرضية الشائعة كثيراً هي صحيحة أيضاً، بحيث يمكن القول بأن الحرب (لا تبيع دائماً)، بل في بعض الأحيان تمثل وقفاً كبيراً، كما وجد منتجو الأفلام المتعلقة بالحرب في الولايات المتحدة في السنوات اللاحقة لحرب الخليج ١٩٩١، وكما حصل أيضاً في أثناء الصدمة العنيفة التي تلت هجمات ١١ سبتمبر، يقول بيتر سكاون مؤلف كتاب (أميركا: الكتاب الأسود):

{ توقفت إذاعة البرامج الحوارية مثل آخر الليل مع ديفيد ليترمان و (عرض الليلة- نايت شو-) مع جاي لينو، لأن أحداً لم يرغب بالضحك على الملأ، وعندما أعيد بث البرنامجين بعد أكثر من أسبوع تبنى المضيفان المعروفان سابقاً بسخريتهما من الثقافة الأميركية بدلاً من ذلك النبرات الوطنية الكئيبة، ... (كما) أوقفت استوديوهات (هوليوود فيلم) في أثناء ذلك إطلاق الأفلام الجديدة (سورد فيش)، و (كواليترال داميج) اللذين اعتبرا عنيفين جداً وتتعلق قصتهما حول الإرهاب، كما تم تغيير حبكة ونهاية بعض الأفلام الأخرى}.[1]

ورغم ان نوبة الغضب والهياج الأولية لزمن الحرب غالباً ما ينتج عنها زيادة إضافية في مبيعات الصحف وترفع من عدد مشاهدي التلفاز، فإن هذا التلهف للكلمات والصور عن الحرب سرعان ما يتلاشى، وإن الدرجة التي (تبيع بها الحرب) تعتمد على حرب من هذه تكون، وإلى كم تطول، ومقدار ما تستطيع خلقه من حس بالمشاركة الشعبية، أما (حروب الأناس الآخرين) فهي على الغالب لا تستطيع التمسك لجذب انتباه وسائل الإعلام في المناطق البعيدة عن مجال الحدث، والتي غالباً ما تفترض نقص اهتمام جمهورها بالصراعات البعيدة، وان كلمات رائد الصحافة القصصية لورد كوبر Copper ما زالت ذات مغزى:

١- بيتر سكاون، (أميركا: الكتاب الأسود) ترجمة إيناس، الدار العربية للعلوم، بيروت ٢٠٠٢، الطبعة الأولى.

{أن العامة من الانجليز ليس لديهم اهتمام في الحرب التي تستمر بشكل غير حاسم، بضعة انتصارات جيدة، وبعض الأفعال الرائعة للأفراد الشجعان من جانب أنصارنا، ودخول متألق إلى العاصمة، وهذا هو السياسة الأفضل للحرب وأن ظاهرة فتور الاهتمام ليست مقصورة على حروب (الآخرين) في الأماكن البعيدة عنا، فإن حروبنا أيضاً هي خاضعة لنفس القانون من تلاشي الاهتمام، لقد وفرت حرب الخليج ١٩٩١، العديد من الأفعال والتطورات الدراماتيكية من قبل طرفي المعارك، كما اشتملت على دخول زاهٍ لمدينة الكويت العاصمة، ولقد تقدمها في مقدمة قوات التحالف الدولي المندفعة من قبل المراسلين الأجانب، ولكن في اليوم الثالث من الحملة البرية، اشتكى العديد من الصحفيين بأن الحرب أخذت (تطول وتمطط)، كما فعلوا ذلك في نيسان ٢٠٠٣، عندما شنت القوات الأميركية حملة القصف (الرعب والصدمة) العنيفة على بغداد}.

وإذا كان مثل نفاذ الصبر هذا نحو الحملات الحربية القصيرة حقيقة، فإن اتجاه وسائل الإعلام إلى فقدان الاهتمام يكون جلياً بشكل أكبر خلال الحروب الطويلة ذات النتائج غير المؤكدة، حيث تقلص عدد مراسلي الصحف الأميركية في فيتنام بشكل دراماتيكي بعد ان أعلن الرئيس الأميركي نيكسون بأن الولايات المتحدة هي في طريقها للخروج من هناك، رغم ان إنهاء الحرب تطلب عدة سنوات بعد ذلك لإنجازه، وكانت سياسة نيكسون في (فيتنمة) الحرب، في الواقع مصحوبة بارتفاع كبير في العمليات الحربية داخل لاووس وكمبوديا وبينما كان هناك ما يقرب من ٦٣٧ مراسلاً معتمداً في فيتنام خلال معارك سنة ١٩٦٨، بحلول ١٩٧٢ كان هناك ٢٩٥ مراسلاً، وفي سنة ١٩٧٤، سنة واحدة بعد انسحاب الأميركيين، وسنة واحدة على قبل سقوط (سايغون) بيد الشماليين، كان هناك خمسة مراسلين أجانب فقط قد بقوا هناك[1]، وفي مثال آخر أكثر حداثة، فإن الحرب في أفغانستان كانت القصة الإخبارية الأكثر تغطية في شبكات CBS وABC وNBC

1 - Red, T (2007) War and Media Operations: the US Militavg and the press From Vietnam to Iraq, New York, Rout ledge.

الأميركية الثلاث الرئيسية في ٢٠٠١، ولكن بعد سنتين لاحقاً، ورغم إن القتال كان أبعد ما يكون عن النهاية، فإن حرب أفغانستان حصلت على ٨٠ دقيقة فقط من التغطية الإخبارية من الشبكات الثلاث مجتمعة خلال أثني عشر شهراً كاملة، وهو ما يشكل نسبة عشرين بالمائة من الاهتمام الذي حصلت عليه هذه القصة في سنة ٢٠٠٢.(١)

وإذا ما كانت الحرب بسلعة قابلة للبيع، فإنها عندئذ ستعاني نفس المصير مثل المنتجات الأخرى التي تشهد ارتفاعاً أو هبوطاً في قيمتها السوقية، ولعل ما يمكن لنا أن نستمده من عدم اتساق واستمرارية شعار (الحرب تبيع)، هو أن أولاً، يجب أن يتم تسويق الحرب، ليس فقط من قبل متعهدي تموين وسائلها الإعلامية في المقام الأول، بل من قبل مهندسيها، طالما إن اللجوء إلى القوى المسلحة بحد ذاته لا يبيع نفسه بهذه البساطة، وعادة فان القادة السياسيين يتحملون مشقة كبيرة لإنتاج الدعم لشن الحرب، مجندين وسائل الاتصال الجماهيرية للمساعدة في تبلور القضية، وتقوم النخب الحاكمة بهذا العمل بغض النظر عن كون الجمهور الذي تسوق له هذه الحرب، يدعو تلقائياً إلى خوض هذه الحرب، وبعيداً عما إذا كان قادراً على التصويت في الانتخابات ضد قادة هذه الحروب التي لا تحظى بشعبية عادة، وبكلمات أخرى فإنهم يقومون باتخاذ خطوات ثقيلة الوطأة في حق أي معارضة، وأن الأنظمة الاستبدادية تحاول تحقيق الإجماع الشعبي بقدر ما تفعل الديمقراطيات البرلمانية، فخوض الحرب هي بعد ذلك كله، النشاط الذي يتضمن عواقب عديدة (قد تكون غير محمودة) الذي يمكن للدولة أن تمارسه فيما وراء حدودها، والحرب يمكن أن تكون عملاً باهظاً جداً ليس فقط بمعايير الخسائر البشرية، ولكن كذلك بخسارة الرأسمال السياسي الذي يملكه القادة السياسيون، وأن الالتجاء إلى القوى كذلك، تحت العديد من الظروف الأخرى غير حالة الدفاع عن النفس، هو حالة غير شرعية، وان شن حرب عدوانية هو دعوة

1 - Sweeney, M(2006) the military and the press: An uneasy Truce, Evanston, Northwestern University Press.

لاجتذاب الإذاعات الدولية، وخطر المقاضاة أمام المحاكم الدولية إذا ما فشلت المغامرة (ولعلنا يمكن لنا أن نستخلص المغزى عندما نستذكر أن التهمة الأساسية في محاكمات نورمبرغ الشهيرة للطرف النازي المهزوم في سنة ١٩٤٥، لم تكن الإبادة العرقية، بل التخطيط والتمهيد لشن الحرب العدوانية التي تشكل (جريمة ضد السلم).

ونلاحظ دوماً ان قادة الدول يسعون بشكل ثابت لتبرير أفعالهم في معايير نبيلة، وكل حرب (إذا اعتمدنا التصريحات والبيانات الصادرة عن هؤلاء القادة) هي حرب دفاعية من أجل أسباب نبيلة وغير أنانية ومحبة للغير، وغالباً ما ترفض الدول الليبرالية، ولنفس الأسباب المماثلة الخادمة للنفس، الاعتراف بأنها منغمسة في فرض الرقابة أو ممارسة الدعاية في زمن الحرب، وتفضل الإدعاء أو الإيحاء بأن (العدو) وحده هو من يسعى للتلاعب والتحكم بالآراء، وبينما أنشأت ألمانيا النازية وزارة ذات كوادر مؤهلة تحت مسمى (وزارة الدعاية والإرشاد الشعبي) وتحت إشراف جوزيف غوبلز، فإن بريطانيا أنشأت وزارة للأعلام، وأنشأت واشنطن مكتب الحقائق والأرقام الذي أصبح فيما بعد مكتب إعلام الحرب. خلال الحرب العالمية الثانية، وهذه الوكالات تم حلها على عجل بعد عام ١٩٤٥. ومؤخراً فإن صناع السياسة الأميركيين والبريطانيين، رأوا أنه لابد من التدقيق فيما يصدر، مثل (المراجعة الأمنية) لوصف التفحص الدقيق الذي تتعرض له صور و تقارير الصحفيين في مناطق الحرب قبل إرسالها، وعلى كل يجب أن لا يتم تضليلنا بعبارات فخمة أو مصاغة جيداً، فقبل أكثر من ١٠٠ عام أصبح ما يسمى (إدارة الرأي) يحتل اهتماماً مركزياً في أولويات الدول التي في حالة حرب، فإن القادة العسكريين والمدنيين يخصصون انتباها واهتماماً أكبر من أي وقت مضى لمثل هذه المهمة، فإن جهودهم المخصصة لتشكيل التصورات و المواقف الشعبية التي تحيط بالأخبار المشوهة والمكبوتة، فإن الرقابة، الوسيلة الفعالية للتمسك بالمعلومات، وتشكل أداة الدولة الأكثر تبلداً وافتقاراً إلى الحس، والتي ينظر إليها غالباً بازدراء، فإن الأشكال الأكثر مكراً وحذراً في التأثير على ما يعرف الآن بـ (مجتمع المعلومات)، والأكثر

تفصيلاً من قبل النخب السياسية حالياً، هي آليات وضع أجندات الأخبار Agenda setting وتأطير الأحداث في مصطلحات مفضلة أو محابية (أو تدوير الدعاية Spining) بكلمات أخرى كما يعرف في العالم الغربي، وهي مفضلة بشكل أكبر من عملية تمرير القلم الأحمر على المواد الإعلامية المرفوضة أو الغير مرغوب بها، أو مطالبة بتصحيح الحقائق، أو سحب نسخ الصحف التي تكون قد وزعت في الأسواق، ورغم إنه أصبح من الشائع إن صانعي السياسة أصبحوا أكثر خبرة وتعقيداً في ممارسة الدعاية، ويوظفون خبراء محترفين في العلاقات العامة، للمساعدة في الترويج لبعض السياسات والقرارات المثيرة للمشاكل، فإن قمع المواد الإعلامية المرفوضة بشكل كامل هو أبعد ما يكون عن أن يكون جزءاً من الماضي، وعلى سبيل المثال، فإن حظر إدارة بوش لتصوير التوابيت العائدة إلى الولايات المتحدة والتي تحمل أجساد الجنود الذين قتلوا أثناء العمليات في العراق وأفغانستان، مازال مستمراً منذ عام ٢٠٠٣ وحتى ٢٠٠٩، مكررة بشكل غريب إصرار الكرملين على أن الجنود القتلى العائدين من أفغانستان خلال الحرب هناك من عام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٨، ان يتم ختم توابيتهم المصنوعة من الزنك وإغلاقها بصواميل مبرشمة لمنع صور قتلى الجيش الأحمر السوفيتي من أن تغدو سلعة عامة للرأي العام.[1]

ومثلما يوحي مثل هذا الحظر، فإن الدول التي في حالة حرب معينة بأن تبقى مواطنيها محميين من الحقيقة الغير منطوقة عن الحرب، وهي أن الناس يموتون، وليس فقط على الجانب الآخر، بل أناساً نحن، حيث تمثل الوفيات والإصابات، الأشكال الدائمة والمفرطة أحياناً لاهتمامات القادة السياسيين في زمن الحرب، وكنتيجة لذلك فهم يميلون إلى التدقيق في وسائل الإعلام المرئية (التصوير الفوتوغرافي، الأفلام، التلفاز والانترنت) بحذر شديد، في محاولة لإبعاد المواد التي تعتبر أكثر احتمالاً لتأجيج المشاعر المعادية للحرب، ولكن مثل هذا التعميم لم يعد يصح دائماً كما هو الحال بالنسبة للقول المأثور (الحرب تبيع) السابق، ففي بعض

1- Alexievich. S (1992) Zinkey toys: Soviet Vices From Afganstan War, New York, w. w. Norton.

الأحيان يختار القادة والرؤساء أن يعترفوا علناً بجنودهم من قتلى الحرب ويشيدوا ببسالتهم، في محاولة لإعادة تجديد مساندة الرأي العام نحو جهود الحرب المفتقدة للحماسة، وكما لاحظ المؤرخ جورج رويدر خلال الحرب العالمية الثانية، فإن (المسئولين الأميركيين اعتبروا أن صور القتلى الأميركيين مادة شديدة الخطورة خلال سنوات الحرب الأولى، ولكن قبل نهايتها بقليل اعتبروها الأسلحة الأكثر قوة ضمن ترسانتهم التحفيزية).[1]

والنقطة الأهم هنا، هي أن الدول تتخذ إجراءات غير اعتيادية خاصة بحالات الغزو والحرب، لرسم ما يمكن قوله أو عرضه عن الحرب، مسلحة بترسانة من التبريرات، يجب حرمان العدو من المعلومات الحساسة، الأقرباء المنكوبون يجب حمايتهم من منظر أو رؤية أحبائهم في صورة جثث هامدة أو متعرضة للتشويه والأذى البالغ، يجب أبقاء المعنويات مرتفعة، في الجبهة الداخلية وعلى خط الجبهة... الخ.

وبينما تمثل هذه الأمور اهتمامات حقيقية لأولئك المشغولين في شؤون الفوز بالحرب، فإنها من جهة أخرى قد تكون فرصة لحدوث بعض الانتهاكات أو الإساءات، ومن هنا فإن تعبير (ضباب الحرب Fog of War) يلمح إلى ما هو أكثر من الضباب والظلمة المحيطة بالجو الذي يغلق ساحات المعارك، بل تلمح إلى الضباب الناتج عن الخداع الذي يقنع بشكل شائع لماذا تم شن الحرب وكيف تم خوضها، وكما يصف الأمر آرثر بونسونباي في سنة ١٩٢٨:

{الحرب يتم خوضها في هذا الضباب من الزيف، وقدراً كبيراً منها لا يتم الكشف عنه ويتم تقبلها على أنها حقيقة. وأن هذا الضباب ينشأ من الخوف ويتغذى على الرعب، وأي محاولة للتشكيك أو إنكار حتى أكثر القصص خيالاً، يتوجب ان يدان فوراً على أنه نزعة غير وطنية، أو حتى خيانة}.

1 - Roeder. G (1993) The Censord War: American Visual Experience During World War Two, London, Yale University Press.

وطبقاً للنظرية الليبرالية، فإن وظيفة وسائل الإعلام هي في اختراق هذا الغطاء من الغموض وإيضاح التشوش والخداع الذي يحيط بالحرب، أو على الأقل هنا ما يتوجب على أجهزة (تشكيل الرأي العام) القيام به إذا ما أرادوا الوفاء بدورهم المحوري في الحفاظ على الديمقراطية من خلال تعريض كلمات وأفعال صانعي السياسة للفحص النقدي، فإن مؤسسات الأخبار تجعل القوى النافذة عرضة للمساءلة، وأن المراسلين العنيدين يكشفون الأكاذيب والزيف، ومعيدين المبالغات الزائدة عن حدها إلى حجمها الحقيقي، ويصرون على أن يقدم الممثلون المنتجون أداء جيداً لتنفيذ مطالب ناخبيهم وان يعملوا على أنفاق الأموال العامة بحكمة وأن يضعوها مواضعها البالغة.

ومن خلال هذا الدور الذي تلعبه ككلاب حراسة، فإن وسائل الإعلام الذي غالباً ما يشار إليه على إنه (السلطة الرابعة) فحص وتحقيق في أداء السلطة التنفيذية. وأكثر من ذلك، فمن خلال إبقاء المواطنين على إطلاع فإن وسائل الإعلام الإخبارية تحفز الجدال والحوار المطلع، والذي بدونه تنحدر الديمقراطية عمداً على حل الشقاقات والنزاعات الحزبية.

سلسلة لا نهاية لها من اللغط القائل (هو قال...) في مقابل (هي قالت...) أو (أنا قلت...) من دون وجود أي امرئ خارج هذه الحلقة مطلع كفاية للحكم أو التأكد من مدى وثاقة كل إدعاء من الآخر.

وتضلل نفس هذه النظرية في العمل بشكل غير متغير في أوقات الحروب حاثة رجال الإعلام على التمسك بوظيفتهم الهامة في الإبقاء على عجلة الديمقراطية تدور من خلال الإيفاء بحق العامة في (أن يعرفوا)، ويركز الباحثون الأكاديميون أيضاً على الدعوة إلى نشر الجدل والمناظرات المبنية على اطلاع جيد على المعلومات، والقيام بمهمة (كلاب الحراسة) بشكل نشيط وفعال، وبالفعل فإن الكثير من الأدبيات النظرية في موضوعة وسائل الإعلام والحرب تتخذ من هذه الفرضيات كمنطلقات نمطية لأبحاثها، ومع ذلك فإننا في زمن الحرب ميالون لرؤية كم

تتعارض ممارسة وسائل الإعلام بحدة مع هذه النظرية، وبعيداً عن عرض الشعارات الوطنية على محك النقد، أو فضح التصوير العنصري الواضح للمنافسين الأجانب، أو تحدي مدى ضرورة حل النزعات الدولية بالمدافع والقنابل، فإن وسائل الإعلام غالباً ما تظهر متلهفة بشكل فاعل للظهور بمظهر المشجع بالهتافات للحرب، لماذا يحدث هذا الأمر؟

أن الإجابة عن هذا السؤال تشكل إحدى الاهتمامات المحورية لهذا الكتاب، وما له من إجابات متعددة ممكنة، ولكن المسألة الأساسية في قلب التناقض بين النظرية والتطبيق، هي إنه بينما مفهوم (كلاب الحراسة Watch Dog) حول الصحافة يمنحها دوراً في الخدمة العامة، فإن معظم وسائل الإعلام البارزة في أميركا الشمالية ومعظم أنحاء أوربا وغيرها من دول العالم هي مؤسسات تجارية، حيث تكون معظم المؤسسات الإذاعية العامة عرضة للضغوط المتراكمة من السوق، أو بكلمات أخرى هي توجد لإنتاج الأرباح، وعندئذ فإن وسائل الإعلام الإخبارية محابية، بل من قبل المعلنين الذي يرغبون في توزيع أعلى أو أرقام أو تحقيق نسب أعلى، وتحقيق الأرباح لهذا يعتمد على تزويد المستهلكين بمنتوج يقدم ما يرغبون به من معلومات وآراء وتسلية. ويتوجب على المؤسسات الإعلامية دائماً تخمين تقلبات أمزجة العامة وتحولاتها، ومستجيبة إلى (ولكن أن تعمل أيضاً على تشكيل) ما يريده ويرغب فيه زبائنها، وتميل هذه الضرورات الإلزامية لجمع الأرباح، على تقييد مدى الآراء التي يمكن ان توفر الصحف الواسعة الانتشار، وشبكات التلفاز والإذاعة الكبرى.

وإذا كانت صناعة الأخبار هي عمل يتضمن الكثير من الضغوطات والمصاعب فإن الحرب تولد ضغوطاً إضافية من الأعلى ومن القاعدة، وحتى من الداخل (من داخل المؤسسة نفسها أو من داخل الوسط الإعلامي)، وتطرح تساؤلات عن الالتزام لقيم السبق، والموضوعية، وعدم التحيز والموازنة بين وجهات النظر

المختلفة، والتي تمثل مبادئ، على الأقل بعضاً من المؤسسات الإخبارية، تجاهد من أجل ترسيخها، ولكن عندما تكون الأمة في حالة حرب فإن هذه الأهداف المهنية، تعدو في نظر: المولين التجاريين، القراء والمشاهدين، والنخب السياسية – موضعاً للشك في أحسن الأحوال، وتمثل خيانة في أسوأها، وحيث تصبح حرية التعبير في زمن الحرب مطلباً محفوظاً بالمخاطر، فأين يجب أن توضع الحدود حول الرفض والاحتجاج؟

وهل يجب أن يمتد التوازن إلى تصوير الحرب من وجهة نظر المعارض؟

من وجهة نظر (مدنييهم)، وكذلك من وجهة نظر (جنودنا)؟ وهل هناك مجال للتعبير عن المشاعر المعادية للحرب، أم إن أي شيء أدنى من الإيمان الذي لا حد له، يمكن أن يهدد (نصرنا) بالخطر من خلال إحباط معنويات جنودنا، ويشدد من عزم العدو؟

والحجة المضافة إلى الحجج التي تقف في وجه حرية الخطاب في زمن الحرب، هي بالافتراض أن الحرب محل التساؤل هي حرب عادلة، وبأنها يتم خوضها من أجل أهداف مقبولة بشكل إجماعي (بل وجديرة بالثناء)!

وأنها تنفذ بأسلوب يوظف القوة بشكل متناسب مع القوى التي تواجهها بدون استخدام مفرط للقوة أو عنف لا داعي له، على الرغم من إنه لا توجد حرب ولن توجد أبداً، لا تمتلك أسباباً شرعية موجبة كفاية لخوضها ولعرضها(أي هذه الأسباب) على للرأي العام.

ومع ذلك فإن الأصوات المنادية تقمع الآراء المعارضة أو المعلومات الضارة تكون هي الأصوات المهيمنة عادة، في عادة تملك سلاحاً فاعلاً بشكل خاص في ترسانتها: ألا وهو سلاح الوطنية، ففي زمن الحرب، وسواء كان المشرعون قد وصفوا أشكالاً معينة من التعبير أم لا، بوصفها محرضة على الفتنة أو العصيان،

فإن العديد من أعضاء اللجان والهيئات التي تنتشر أثناء فترة العمليات، لو صم وأخرس تلك الأصوات ووجهات النظر التي تعد مؤذية للمجهود الحربي ومن هنا، غير موالية أو مخلصة، وأن أفراد العامة غالباً ما يؤنبون وسائل الإعلام إذا لم تنجح في تقديم مساندة كافة لـ (قواتنا) وإن الاتهامات بانعدام الولاء، هو نوع من التأديب الذي تمارسه وسائل الإعلام ضد بعضها بعضاً، وعلى سبيل المثال فإن مراسل الـ BBC، جيم سمبسون Jim Simpson لاحظ خلال حرب الخليج ١٩٩١، أنهم كانوا يطلبون (بصوت عالٍ بلجم التقارير الإخبارية الحرة) في العناوين التي كررت صدى الشعار النازي (Volkischer Beobachter) والذي عني (تشمموا أثر الخونة).[1]

ولقد أسمينا هذا الكتاب (وسائل الإعلام والحرب)، ولربما كان يتوجب أن يكون أسمه (وسائل الإعلام في زمن الحرب) بشكل أدق للإشارة إلى الصراع المعقد، الذي ينتجه زمن الحرب ضمن وبين المؤسسات الإعلامية نفسها.

وباختصار، فإن الحرب تفرض تحديات جمة، وكذلك فرصاً هام بشكل خاص لوسائل الإعلام، لوجيستياً، ومالياً، وسياسياً، حيث تتطلب تغطية مكلفة ومستمرة، وتطلب الدولة من الإعلام أن يكون حليفاً لها تحت مسمى (الأمن الوطني)، والذي غالباً ما يكون قناعاً للمصالح السياسية الضيقة، أما الجيش فيطالب بـ (المراجعة أمنياً) والذي غالباً ما يكون غطاء للحظر المعتم على النقد، أما العامة فتدفع باتجاه عرض أكبر أو (أقل) لظروف المعارك، ومناقشة أكبر لأهداف الحرب، وأنماط العمليات، والنتائج كذلك، ونظراً لأن الحرب تشكل حالة من الطوارئ، فإن أحكام زمن السلم تغدو معلقة بينما تطبق أحكام جديدة ملائمة لظروف العمليات، وأحد الأسباب المهمة لدراسة وسائل الإعلام في أوقات الحروب بالضبط لتفحص والتدقيق في مثل هذه الضغوط والتناقضات. من أين تأتي، وكيف تعمل المؤسسات المختلفة والأفراد على تحويلها من فرد لآخر.

---

1 - Simpson, J (1991) (Enemies Within) The Spectator, February 23, 11-12.

ولكن زمن الحرب، بوصفة فئة مرنة بحد ذاتها، فهو ليس محدداً بشكل كامل تماماً، فبينما بعض الحروب تتطلب تحويلاً بالجملة للمجتمع والصناعة نحو الإنتاج الحربي، فإن البعض الآخر لا يتطلب ذلك، كما أن البعض منها ينطبع عمقاً في ذاكرة وضمائر المدنيين، فإن البعض الآخر يمر من دون تأثير نسبياً، إن زمن الحرب على سبيل المثال في الولايات المتحدة سنة ١٩١٨، يتميز بسمات وخصائص مختلفة تماماً عن زمن الحرب في عام ١٩٦٨ أو عن ذاك في سنة ٢٠٠٥.

ومن الجدير بالملاحظة ان المزيد من الأخبار والصور عن الحرب، إنما تنشأ بعيداً عن مشاهد هذه الحرب نفسها، وبالنظر للمكانة المميزة التي يحظى بها مراسلو الحرب هي مجال اختصاص حصري لصنف من الصحافيين، ولكن واقع الحال ان العديد من مراسلي الحرب ما هم إلا مراسلين إقليمين أو خارجين إقليميين أو خارجيين (بالنسبة لمكان الوسيلة الإعلامية) يعملون على تغطية وقائع الحروب التي تقع ضمن مجال عملهم (الجغرافي)، وفي العديد من الحالات فإن إنتاج الأخبار عن العلاقات الخارجية الدولية، هو قريب جداً إلى روتين التغطية المحلية في زمن السلم، مكوناً من نشرات صحيفة، ايجازات إخبارية، وأحاديث خارج السجل مع مصادر نخبوية مقربة إلى عملية صناعة الساسة، وعلى سبيل المثال، فإن القصص الإخبارية الـ ٤١٤ عن العراق التي أذاعتها محطات NBC و ABC وCBS ، من أيلول ٢٠٠٢ وحتى شباط ٢٠٠٣، كلها ماعدا ٣٤ قصة إخبارية، كان منشؤها، البيت الأبيض البنتاغون ووزارة الخارجية.[1]

ولهذا فإن دراسة وسائل الإعلام في زمن الحرب، هو يعني التأمل في العملية التي تجري يومياً والتي من خلالها نعرف المعلومات المتاحة عن أحوال العالم والتي تقدم لنا بعد اكتسابها مكانة (الأخبار).

1- Cunningham, B (2003) (re- thinking objectivity) Columbia Journalism review, July, August, 24-32.

نظرة عامة:

ان دراسة الإعلام في زمن الحرب، يعني تقديم نظرة عامة وشاملة (بقدر الإمكان) ومفسرة، لحقل ضخم هائل ودائم التوسع، وتتطلب اهتمام وانتباه الباحثين من مجالات مختلفة، مثل السياسة الدولية، التاريخ والدراسات الثقافية، وكذلك المصادر الإعلامية نفسها، حيث أن المزيد من الدراسات الإعلامية التي تتناول موضوع الحرب ودور وسائل الإعلام ورجال الإعلام فيها مطلوبة بشكل ملح، خصوصاً إذا ما تمت على أيدي متخصصين في الإعلام أو أصحاب التجربة في هذا المجال، وإن الرجوع على وجه الخصوص لقراءة الصحف والدوريات القديمة، أو مشاهدة لقطات الأفلام من لحظات تاريخية سابقة وهامة، يمكن أن يضيف دائماً بشكل ثابت تفصيلات دقيقة إلى أية تعميمات غير واضحة أو مشوشة نقوم بها حول وسائل الإعلام في تلك الفترة، وأن هذه المهمة أصبحت أكثر سهولة بازدياد، مع تزايد المحتوى الذي يتم نشره على الانترنت أو تحويله إلى شكل رقمي.

وإن كتاباً بهذا الحجم الذي بين يديك لا يكون كافياً ليبحث بشكل مفصل في كل الحروب السابقة منذ انبثاق وسائل الإعلام الجماهيرية، كما إنه لا يدعى ذلك بالفعل.

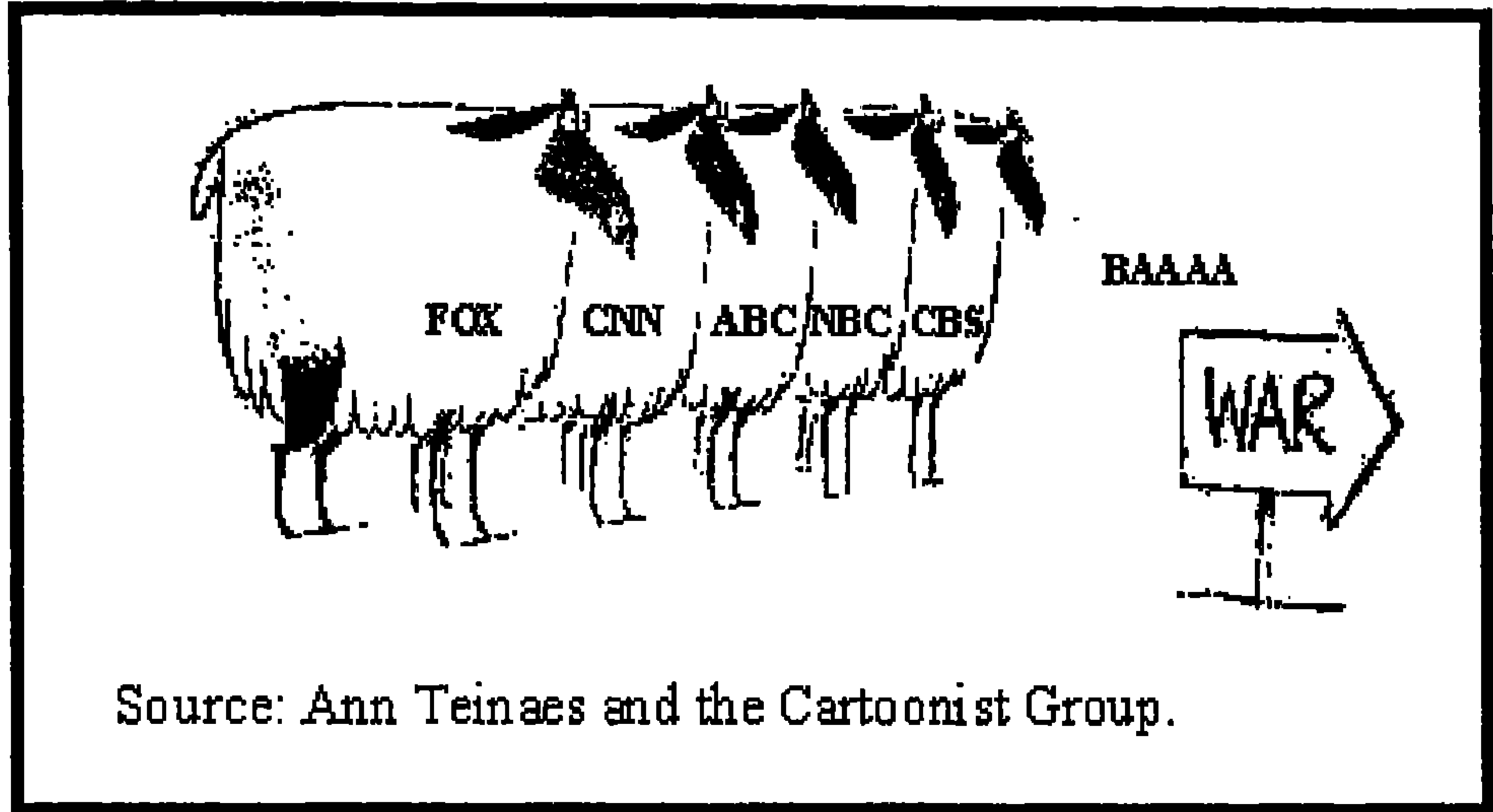
رغم إننا سوف نمر على العديد من الحالات الجديرة بالدراسة من ألمانيا النازية إلى الحرب في رواندا إلى الحروب التي خاضتها الولايات المتحد وبريطانيا وغيرها، ومن الجدير ملاحظته فيما يتعلق بالدولتين الأخيرتين، بريطانيا والولايات المتحدة أنها كانتا دائماً (على الأقل منذ مطلع القرن العشرين) حليفتين في زمن الحرب، وحتى عندما لم تكونا تقاتلان إلى جانب بعضهما بعضاً (كما هي الحال في فيتنام) فإن جيوشها تبادلت الدروس العملياتية، وأعلما بعضهما بعضاً حول أفكارهما بخصوص شؤون (إدارة الإعلام)، وهكذا فإن وزارة الدفاع البريطانية، صاغت خطتها الصحيفة المقبلة خلال حرب الفوكلاند ١٩٨٣، مع اعتقاد راسخ بأن حرب فيتنام قد تمت خسارتها بسبب التلفاز، وأن انتصار وزارة الدفاع البريطانية المعلن على الصحافة خلال تلك الحرب

القصيرة الأمد في جنوب الأطلسي، هي تلك الحرب التي حاول البنتاغون بدوره أن يضاهيها في غرنيادا وبنما وفي حرب الخليج ١٩٩١.

ان الهدف الأكبر لهذا الكتاب هو لتحفيز التفكير في كيفية عمل وسائل الإعلام في لحظات متميزة في دورة حياة الحروب المختلفة في زمن الاستمرارية ودرجة العنف والشد، والتي تعمل أحياناً خلالها كبانية للأساطير أو حافظة للذاكرة، أو لأداء مهام أخرى بشكل متغير تماماً.

ولكي نقدِّر تمام التقدير استثمار وسائل الإعلام المعقد في زمن الحرب، يتوجب علينا أن نتأمل ونتفكر في كيفية مقاربة وسائل الإعلام لانطلاق الأعمال العدائية، ولكن كيف تعاملت مع الحروب السابقة، خصوصاً وأن عمل التفسير وإعادة التفحص هو أمر لا يتم أبداً، فإنه في أوقات الأزمات، فإن الصراعات التاريخية السابقة يتم نفض الغبار عنها واستعادتها بنشاط لافت للنظر من قبل أولئك الذين يبغون ضغط حروب الماضي في خدمة حروب يومنا الحاضر، كمصدر للإلهام، وللمحاكاة، أو للتحذير، وبهذه المحصلة في الذهن، فإن فصول هذا الكتاب لم يتم ترتيبها وفقاً للوقائع التاريخية زمنياً، بل عوضاً عن ذلك بأسلوب يعتمد على التقسيم الموضوعي وفي بعض الحالات، كما هو الحال بالنسبة لموضوع (الحرب على الإرهاب) التي تم التعامل معها، كحالة التشكل الأيدلوجي، وكذلك كحروب غير مترابطة في العراق وأفغانستان، فإن النقاش حولها قد انقسم في أكثر من فصل واحد.

أما بالنسبة للفصل اللاحق، التعبئة، والذي يتعلق بالدور الذي تلعبه وسائل الإعلام في تسيير الطاقات الشعبية نحو الحرب، وفي تأطير المسائل السياسة (أو وضع المنظور المناسب لها) التي على المحك، مثل استخدام القوي الذي يبدو وكأنه الأسلوب الأكثر تفضيلاً للحل، فإنه يعالج مسألة مركزية لهذا الكتاب، وهي لماذا تبدو وسائل الإعلام الجماهيرية بشكل عام مفتونة بالحرب عوضاً عن بدائلها الأخرى؟



شكل (١ : ١) رسم لرسامة الكاريكاتير آن تيلنايس يصور قطيع الخراف – الشبكات التلفازية متجهة نحو الحرب، (وهي شبكات CNN، فوكس، ABC، CBS ... الخ.

الفصل الثاني

التعبئة: وسائل الإعلام قبل الحرب

{إن القتيل الأول حينما تقدم الحرب... هو الحقيقة}

السناتور هيرام جونسون، ١٩١٧.

منذ وقت مبكر مثل سنة ١٧٥٨، كتب الأديب والمعجمي الانجليزي المعروف صاموئيل جونسون قائلا: (من بين كوارث الحرب... التقليل من حب الحقيقة، ومن خلال الزيف الذي تقتضيه المصلحة وتشجعه السذاجة) وأن قرنين ونصف قد مضيا، مفعمين بالكذب وأنصاف الحقائق والتشويش والإرباك، وبالحروب قد صادقت بإسهاب على حصافة حكم جونسون.

أما الأمر الأقل ملاحظة على كل حال، فهو أن أعمال الخداع والمراوغة تبدأ قبل انطلاق أول تبادل للنار، فالحرب ليست فعلاً تدميراً من أعمال القدر مثل انفجار غير متوقع لبركان مدمر، أو إعصار ينشأ من المجهول، وعوضاً عن ذلك، فإن الحروب (تبدأ في عقول الرجال) كما تقول اليونسكو، وطالما أن العنف المنظم يتطلب تخطيطاً وإعداداً، فإن التعبئة النفسية للمدنيين، هي مرحلة سابقة ضرورية لشن الحرب، كعملة أعداد لوجستية، وأن المنظمات الإعلامية تلعب دوراً حاسماً في هذه العملية كقنوات توصيل، ومن خلالها فإن الحالة التي تستوجب التأهب بالسلاح يتم التقديم لها مسبقاً أو في بعض الأحيان مناقشتها والنضال من أجلها، وإذا كان يتوجب علينا فهم كيف تسلك وسائل الإعلام في زمن الحرب، يتوجب علينا أولاً تفحص مساهمتها في عملية عسكرة أو تجييش المجتمع، وبالنسبة لمفهوم التحشيد أو التيسير Mobilization، ودور الإعلام فيه، فلقد ناقشناه في كتابنا (نحو نموذج نظري جديد للإعلام العربي)، كما يمكن الحصول على عرض موسع له في كتاب الدكتور فلاح المحنة.[1]

وهذا الفصل، يهدف إلى استعراض المفاهيم السابقة، وسوف يتناول عرضاً من الحالات تتراوح من مواجهة الولايات المتحدة مع أسبانيا للهيمنة على كوبا في

١- د. فلاح المحنة، (علم الاتصال بالجماهير: الأفكار، النظريات، الأنماط)، عمان، ٢٠٠١، مؤسسة الوراق، الطبعة الأولى.

١٨٩٨، إلى الحرب في رواندا عام ١٩٩٤، والحروب المعاصرة في أفغانستان والعراق، وأن مجرد مسح بسيط أولي للحروب، توضح نقطة أساسية وبسيطة، هي أنه من النادر (إن لم يكن من المستحيل) ان تعلن دولة متنافسة أو جماعة محاربة بأن لجوئها إلى العنف باعثة هو الطمع، أو أخذ الثأر، أو البغضاء، وقد يكون استخدام القوة بالفعل موجهاً لتأمين الأقاليم، والحصول على الموارد الطبيعة، وجني الأرباح، أو إبادة السكان المزدرين، ولكن قادة الحرب يفضلون تقديم قضيتهم على أنها حرب دفاعية، عادلة ومتعذر اجتنابها، أو تصحيح مستحق لأخطاء الماضي، و/أو ضربة وقائية لهجوم مستقبلي من قبل عدو نواياه الخبيثة ظاهرة ولكن وضاعته سوف تضمن هزيمة سريعة له، وباختصار فإن كل الحروب هي عادلة والنصر فيها مؤكد، إذا صدقنا بمزاعم المقاتلين الذين يفتعلونها.

وثمن نقطة ثانية سوف تكون واضحة أيضاً: أن الصحافيين غالباً ما يصبحون يعملون وفقاً للواقع، أن لم يكونوا أكثر تحمساً، أبطالاً للحلول العسكرية لمنع التهديدات، مقدمين دعمهم للمبررات لاستخدام القوة التي يقدمها صناع السياسات وغيرهم من الأطراف المرحبة بالحرب، وهذا لا يعني أبداً القول بأن المؤسسات الإعلامية لا تصادق على خيارات سياسية بديلة في أوقات التوتر الداخلي والدولي، ولكن التاريخ يعرض أمثلة قليلة جداً عن الصحف ومحطات الراديو وشبكات التلفاز المهيمنة التي تبنت مواقف صلبة معادية للحرب في مواجهة الأنظمة التي تبدو متلهفة للمعارك.

وبشكل ساخر، وربما لأننا توصلنا إلى فكرة عامة عن الحرب العالمية الثانية، بأنها (حرب جيدة) استدعت دعماً عالمياً في دول الحلفاء، فإن قضية دخول في ذلك الصراع، تم الاحتجاج عليها وعارضتها بنشاط واضح من قبل بعض العناصر في الصحافة الأميركية، في اتجاه يميل نحو البقاء في عزلة ، ما لبث ما أن مزقته بفعل قوة الظروف المحيطة، مثل حالة الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربور والتي نظر إليها على أنها السبب الرئيسي لدخول الولايات المتحدة في الحرب،[1] ولكن

1 - Casey's (2001) (Cautious Crusade) New York, Oxford University Press.

ذلك المثل عن الاهتمام بالقول لا للحرب هي نادرة تاريخية في هذا المجال، وبدلاً من تحليل مبررات البدء بالعدوان، فإن المؤسسات الإعلامية غالباً ما تزيد من شعلة العداء، وكما سيظهر من خلال هذا الفصل لاحقاً، فإن الصحفيين قد لعبوا لزمن طويل (وما زالوا مستمرين على ذلك) دوراً بارزاً في عملية تحشيد الرأي للحرب، سواء بواسطة إعلاء الحس بخطر وشيك الحدوث، والنفخ في الغضب ضد المتعدين البرابرة ضد الأخلاقيات المتحضرة، أو كبح وتقييد الجدل حول الاستجابات الغير عسكرية ضد انعدام الأمن.

وإذا ما فهمنا الصحافة على الأقل في النظم السياسية الليبرالية، على أنها (سلطة رابعة) والتي تكمن وظيفتها في التحقيق من إساءة استعمال السلطة للأجهزة التنفيذية للدولة، فإن استعداد الصحفيين غير المشروط للتحشيد يتطلب تفسيراً واضحاً، ومن المؤكد أن على المؤسسات الإخبارية أن تلعب دوراً واضحاً بشكل خاص في تدقيق مسوغات صانعي السياسات لاستخدام القوة، وفي سبرغور تقارير الاستخبارات التي تستند عليها مزاعم الخطر المهدد، ولا تكون الصحافة الحرة قادرة على الانتقاد أكثر من الفترة المسبقة على الحرب، وكما يعرض ذلك أستاذ العلوم السياسية ويليام دورمان Dorman: (لا يوجد فعل، للدولة يمكن أن يكون له تأثير مباشر أو دراماتيكي على حيّوات مواطنيها من استخدام القوة العسكرية ضد عدو خارجي) وعلاوة على ذلك فإذا مناقشة اللجوء إلى الحرب قبل أن تبدأ الأعمال الحربية، فإن ظروف التواجد في حالة حرب، سوف تؤخر الجدال حولها لما بعدها، (إن التفكير جيد في الأخذ بالاعتبار البدائل المحتملة وهو أمر غير مقبول مختنقة في مكانها بالقومية والنزعة الوطنية، من دون أن ننسى الخوف والغضب) وهذا صحيح تماماً حتى أن (الوقت الوحيد الذي له لمناقشة الحاجة للحرب هو قبل ان تبدأ واحدة).[1]

---

1 -Dorman, W (A Debate Delayed is a Debate Denied): US News Media Before War With Iraq: In Nikolaou and Hakanen. (2006).

لماذا، إذن، تظهر وسائل الإعلام غالباً عاجزة عن لعب دورها كـ (كلاب حراسة) في مثل هذه اللحظات الحرجة؟ إن الجزء الثاني من هذا الفصل سوف يجيب على هذا التساؤل، متفحصاً الأسباب المتنوعة التي تدعو لظهور وسائل الإعلام غالباً على أنها (صانع الإجماع) من أجل الحرب عوضاً عن إثارة الاعتراضات والشقاق.

التحريض على العنف: الذبح كوسيلة للدفاع عن النفس

في ديسمبر ٢٠٠٣، قامت المحكمة الجنائية الدولية حول رواندا، بصنع التاريخ، عندما وجدت فرديناند ناهيمان وجان بوسكو وحسان نجيز، مذنبين بتهمة (الإبادة الجماعية، والتحريض المباشر والعلني على ارتكاب الإبادة العرقية، والتآمر لارتكاب الإبادة العرقية والجرائم ضد الإنسانية، (الاضطهاد والإبادة) (ثومبسون Thompson، ٢٠٠٧).[1] وهؤلاء الرواندیون الثلاثة لم يكونوا قد شاركوا شخصياً في أعمال العنف التي اكتسحت رواندا في نيسان وأيار ١٩٩٤، ومسفرة عن ٨٠٠ ألف إلى مليون شخص قتيل، وكما يوضح رئيس تحرير صحيفة كانغورا Kangura، فإن دورهم تمثل بالتحريض اللفظي لدفع السكان الهوتق في موجة عنف غاضبة لقتل مواطنيهم من التوتسي، محولين وسائل الإعلام إلى (آلة للإبادة العرقية)، وقام المراسلون الغربيون الذين تدفقوا على رواندا في أيار ١٩٩٤، من دون أن يكونوا واثقين أن ما رأوه كان نتيجة لتحريض وسائل الإعلام الجماهيرية على القتل الجماعي، بتوثيق مشاهد المجزرة الفظة، وكانت الكنائس مليئة بالعشرات من الجثث، و الآلاف من الجثث المقطعة والمشوهة كانت مرمية على جوانب الطرقات وتسد الأنهار، تحمل شاهداً على موجة من القتل المتعطشة للدماء، و لم يكن هناك أي شيء يشير إلى استخدام أدوات أو مواد صناعية أو طبية، فلم تكن هنا آثار للقتل رمياً بالرصاص أو الإعدام بغرف الغاز أو ما إلى ذلك، وإنما رجال ونساء وأطفال تم قتلهم باستخدام البانغاس Pang as، وهي سكاكين مقوسة تتطلب جهداً جماعياً لانجاز القتل، وكان مرتكبوها قد بادروا الضحايا بطريقة وحشية للغاية، تاركين

1 - Thompson, A (ed) (2007) The media and Rwanda genocide, London, Pluto Press.

للصحفيين مهمة تفسير كيف حدثت هذه المجزرة الجماعية في نهاية القرن العشرين عندما كان الأوروبيون والأمريكيون في مزاج ما بعد الحرب الباردة المتفائل، يودون ان يتخيلوا أن العولمة Globalization سوف تدفع جميع الأمور عالياً في مدٍ مرتفع من السلام والازدهار.[1] والعديد من الصحفيين توصلوا إلى الجواب الأكثر بديهية ووضوحاً، وهو إن مجازر الإبادة العرقية في رواندا ما هي إلا تعبير مليء بالشرور بشكل خاص عن الرُّجعى الأفريقية،(*) من أسلوب إراقة الدماء التي لطخت (القارة السوداء) منذ تاريخها القديم، مع عداوة قديمة بين جماعتين عرقيتين التي انفجرت فجأة في موجة من القتل المعريد، وكانت القبائلية على ما يبدو هي المفتاح لفهم الأحداث في رواندا، ولكن مثل هذا المفهوم اللاتيني البليد لا يقدم فكرة واضحة عن لماذا يكره سكان رواندا من الهوتو قبيلة التوتسي لهذه الدرجة القاتلة.

وإذا كانت هاتان المجموعتان قد اتخذتا موقفاً عدائياً تجاه بعضهما فعلاً في كره متبادل منذ فجر التاريخ، فما الذي أشعل فتيل موجة القتل في نيسان ١٩٩٤، بدلاً عن السنوات الماضية الابكر، بالتأكيد ان شيء ما أكثر تحديداً من مجرد الكراهية الأزلية، يجب أن يوضح كيف أن الهوتو الذين يعيشون جنباً إلى جنب مع التوتسي، انقلبوا على جيرانهم ليقطعوهم بسكاكين مشحوذة قبل أن يرموا بأجسادهم جانباً.[2]

وأي تفسير أكثر دقة للإبادة العرقية في ورواندا يجب أن يستند إلى دور وسائل الإعلام الجماهيرية، فبعد عدة أشهر لاحقاً، بدأ المراسلون وناشطو حقوق الإنسان في توثيق ما كان واضحاً حتى الآن للمراقبين الدوليين الذين كانوا يتابعون ما تذيعه رواندا لبضع سنين، وبالتحديد تلك الزمرة التي تحيط بالرئيس جوفينال هايريمانا Habyarimana والتي كانت تحض الهوتو متعمدة لحمل السلاح ضد كل من التوتسي والهوتو الذين يحبذون المشاركة في السلطة سياسياً، وبعيداً عن

1 - Hilsum, L (1995) (Where is Kigali?) Granta, 51.79-145.

* الرُّجعى: عودة صفة قديمة وراثية أو عادة إلى الظهور بعد غياب دام أجيالاً طويلة.

2 - Caruthers, S (2004) (Tribalism and Tribulation: Media Constructions Of (African Savgery) and (Western Humanitarianism in Thompson.

كونها تمثل انفجاراً تلقائياً للحقد المكبوت، فإن حملات القتل كان مخططاً لها من قبل نخبة كانت تخشى تآكل نفوذها، وجدت فرصة لتعزيز مكانتها عبر التلاعب بالتوترات الحالية والإجحاف التاريخي، وبشكل عامد سعت إلى تنظيم حملة من الإبادة عبر ميليشيا محلية (انتراهاموي) (Interanamwe) وفرق الموت هذه التابعة للهوتو، لم يتم إثارتها من قبل راديو رواندا وإذاعة RTLM فقط، بل كان يتم توجيهها بفعالية، حول لماذا يجب أن يقتلوا، ومتى يفعلوا ذلك، ومن يتوجب مهاجمته،[1] وفي بلد معزول عن الإعلام الخارجي مثل رواندا، كان راديو RTLM، اللسان الناطق باسم متطرفي (سلطة الهوتو)، كان يراكم شعوراً بالخطر الوشيك الذي يهدد أغلبية سكان رواندا من التوتسي الذين كانوا يتم تصويرهم بشكل منتظم على أنهم (غرباء) ويتم انتزاع هويتهم البشرية بوصفهم كـ (كلاب)، (أفاعي) و (صراصير) يجب الدوس بالأقدام عليها، وطبقاً لمذيعي RTLM ، فإن التوتسي الغزاة يخططون لتحويل الهوتو إلى (دواب الحقل).[2] ولمنع هذه الكارثة، يجب إبعاد التوسي إلى أثيوبيا، من حيث أتوا حسب المزاعم، عبر نهر نايا بارونغو Nayabarongo، مذيعو RTLM الهوتق لقتل جيرانهم من التوتسي، والقاء جثثهم في النهر الذي يغذي بحيرة فكتوريا ولقد حدث هذا الأمر بعد أن تم إسقاط مروحية الرئيس هايير يمانا في نيسان ١٩٩٤، وتم بث إشارة للبدء في أعمال القتل، وتوفر حالة رواندا، قضية صلبة من حالات التحريض الإعلامي.

ولعل مما يستحق الذكر بأن المذيعين الروانديين قد صاغوا مجموعة من الثيمات التي يمكن إيجادها بشكل شائع في دعاية التحشيد(وهي جنس دعائي صور فيه المعتدون بشكل ثابت أنفسهم على أنهم ضحايا، ومثل مهندسو حملة رواندا من الإبادة، سكين البانغا على أنها أداة للدفاع النفس ، لاعبين على وتر المظالم العامة التي تراكمت تحت الحكم الاستعماري البلجيكي، وأعلم القائمون على إذاعة RTLM ، جماهيرهم، بأن متمردي التوتسي، يندفعون من أوغندا

1 - Des Forges, A (2007) (Call to genocide: Radio in Rwanda) in Thompson.
2- Keane. F(1996) Season of bleed: A Rwandan Journey, London, Penguin.

المجاورة، ولقد شوهدوا وهم يشردون ويستولون على أملاك ويخضعون غالبية سكان رواندا، وأن أحد هؤلاء الخارجين (Inyenzi) (كما كان يوصف التوتسي) قد اتصل بإحدى الإذاعات مخبراً إياها (سوف نقوم بإبادتكم (الهوتو) حتى نكون نحن الوحيدون الباقون في البلد ويمكننا أن نتحفظ بالسلطة لألف عام، التي تمسك آباؤكم بها لمدة أربعمائة سنة) (دي فورجيس ٢٠٠٧، ٤٨) وأكد رجال دعاية الهوتو، أن رفع السلاح في وجه هؤلاء الغزاة الذين قدموا إلى منطقة البحيرات العظمى في وقت متأخر فقط من شمال أفريقيا، يمثل الأسلوب الوحيد لوقف الكارثة المنذرة بالسوء (اضربوهم قبل أن يضربوكم) كانت الرسالة التي تبثها RTLM بدون كلل، وبمجرد ابتداء القتل، أخذت الإذاعة تكرر نداءات إلى مستمعيها في متابعة (عملهم) في اجتثاث التوتسي، وعدم الخلود للراحة حتى إنجاز العمل، مع موسيقى محرضة لإبقاء معنوياتهم مرتفعة، وكان يتم تحفيز المستمعين بشعارات مثل (طهروا الأجمات). (افصلوا العشب عن الدخَن).[1]

وبالنسبة لمؤرخي الدعاية، فإن هذا كله يبدو مألوفاً جداً، ففي ظل سلطة الرايخ الثالث، فإن الصحف المملوكة للدولة، ومحطات الإذاعة والأفلام السينمائية، صورت أعداء الرايخ من الأمم الأخرى على أنهم أعداء الأمة الألمانية الآرية التاريخيين، وهكذا فإن غايات (الحزب الوطني الاشتراكي) النازي المتطرفة، كانت وثيقة الصلة بأهداف برامجه التي تمارس الإبادة العرقية والعنصرية، في سلسلة طويلة لا تنتهي من تصوير الألمان على أنهم ضحايا، وتصوير أعدائهم على أنهم المجرمون، ولقد صورت الدعاية النازية فرق (SS) على أنهم وكلاء (التطهير) الذي تتلخص مهمتهم في عزل والقضاء على الأخطار المميتة التي تهدد الجسم السياسي الآري، ومن خلال الممارسة، فإن أي خطوات تثبت ضرورتها لمحو أي أخطار محدقة، تصبح أفعالاً ضرورية مقدسة من أجل سلامة الوطن، ولإعطاء الصدى العاطفي لمثل هذه الفكرة الأسقاطية من رهاب الاضطهاد

1 - Mironko, C (2007) (The Effect of RTLM ,s Rhetoric of Rthinc Haterd in Rural Rwanda) in Thompson.

(البارانويد)، فإن صانعي – الرأي العام النازيين استدعوا الحس التاريخي بـ المظالم، ناسبين تدمير الأمة الألمانية وإمبراطوريتها العظيمة خلال الحرب العالمية الأولى إلى تآمر الأعداء من الدول المحيطة، والهزيمة التي حاقت بالألمان نتيجة للتمويل اليهودي بالمال إلى الأعداء، وتم تصوير اليهود في هذه الفترة بصورة كاريكاتورية وإلصاق أبشع النعوت بهم من خلال الدعاية النازية المتطرفة.(١)

ولقد وظف العنصريون الهوتو (المؤمنين بتفوق عرق أو عنصر ما) مجازات وصوراً نمطية مماثلة، وقاموا أيضاً باختصار التاريخ إلى رؤية من الاضطهاد، فتحت الحكم الاستعماري البلجيكي، تم تهميش الهوتو ورفع التوتسي إلى مكانة أعلى من الامتيازات والمكانة التفضيلية، تعود في جزء منها إلى بشرتهم الافتح لوناً وملامحهم الأكثر دقة، وعندما أعلن المنظرون الإيديولوجيون من الهوتو، بأن الجبهة الوطنية الرواندية (RFP) تحاول اضطهاد الجماعة الاثنية المهيمنة في رواندا، مستعيدة مكانتها القديمة المألوفة من أيام الاستعمار، كانوا قد ضربوا وتراً حساساً، وهذه النظرة نفسها إلى جماعتين بشريتين مختلفتين بشكل واضح لا يمكن الخطأ فيه، هي من إنشاء المستعمر، وتم تقويتها عمداً من قبل الموظفين الاستعماريين البلجيكيين، وعلماء الانثروبولوجيا الذين اعتبروا بأن التوتسي هم مهاجرون من حوض النيل إلى أفريقيا الوسطى، وقد وصلوا إلى المنطقة بعد قرون من استيطان الهوتو فيها.

ولكن الأنماط الطويلة الأمد من التزاوج المختلط جعلت من هذه الأسطورة عن النقاء العرقي مجرد هراء، ولكنها مع ذلك خدمت الأغراض الاستعمارية في معاملة الهوتو كجماعة عرقية لها تاريخ مستقل، وقابل للانفصال، وتابعاً لتاريخ الترتسي، - الرعايا الأوربيين النموذجين، الذين رأى فيهم البلجيكيون إمكانية التعاون،(٢) ولقد خلفت المكانة العالية والثروات المعتبرة التي حققها التوتسي، شعوراً

---

1 -Herf, J (2006) The Jewish Enemy: Nazi Propaganda During World War II and The Holocaust, Cambridge, M A, Belknap Press.

2 - Destexhe, A (1995) Rwanda and Genocide in The Twentieth Century, London: Pluto Press.

بالمرارة، تمت تذكيته من قبل المحرضين الهوتو، الذين حاولت دعايتهم الإعلاء من (الحصيلة التاريخية لتغدو فارقاً أساسياً).[1]

ويقول أحد المشاركين في حملات القتل، وهو يستذكر عملية الإبادة العرقية: (أن القتل عملية محبطة جداً، إذا ما قررت القيام بها بنفسك) ولكن (إذا كنت تطيع أوامر من السلطات، وإذا ما تم تكييفك بشكل ملائم، إذا شعرت بأنك تدفع وتقس، إذا رأيت ان المذبحة سوف لن يكون لها أية نتائج معاكسة مطلقاً في المستقبل، سوف تشعر بالراحة وبالتحفيز، إنك تقوم بها بدون خجل)،[2] وهذا، كان مهمة راديو رواندا في الفترة من ٩٠- ١٩٩٤، بالاشتراك مع رزمة حزبية ساعية للسلطة، وعملت هذه الإذاعة على تسهيل التحلل من المحرمات الاجتماعية المحيطة بعملية القتل من خلال جعل المجازر تبدو فعلاً لازماً ومحايداً مثل الدروس على الصراصير أو اقتلاع الأعشاب الضارة – العمل اليومي الضروري للمحافظة على المنزل- ، ولقد أثبت (تكييف) الإذاعة وتطميناتها بشكل واضح فعاليتها وحتى وفقاً للتقديرات المتحفظة، فإن (أكثر من ثلاثة أرباع كامل السكان المسجلين على أنهم توتسي، تم قتلهم بشكل منظم، خلال أكثر من ١٠٠ يوم بقليل.[3]

إحياء الغضب: الدور المثير للفظائع.

خلال مطلع التسعينات في رواندا، وكما كان هو الحال في ألمانيا الهتلرية قبل أكثر من ٦٠ سنة مضت، عملت وسائل الإعلام على حث مواطنيها، لاعتناق العنف التطهيري كشكل ضروري من الدفاع عن النفس ضد الأعداء الموجودين بين ظهرانيهم، وبدون المعاناة من أي نوع من العذاب الداخلي بسبب توجيه الضربات أو إبادة الهوتو أو الألمان الذين لا ذنب لهم مطلقاً.

وفي كلا الحالتين، فإن مهندسي العنف استعاروا مستقبلاً متخيلاً مليئاً بالخوف، وسواء أسقطت على المستقبل، أو تكشفت في الحاضر، فإن الأعمال

1 - Destexhe, A (1995) Rwanda and Genocide in The Twentieth Century, London: Pluto Press.
2 - Chrétien, J.P (2007) (RTLM Propaganda: The Democratic Alibi) In Thompson.
3 - Millis, w (1931) (The Martial Sprit) Cam bride, MA, Riverside Press.

الوحشية قد انتحلت طويلاً مكانة بارزة في جهود التحشيد السابقة للحرب، وحتى عند القيام بتفحص سريع لوسائل الإعلام الأميركية في الفترات التي سبقت التدخل الأميركي في الحروب، نجد أنها تنتج أمثلة لا حصر لها، عن كيف ان الفظائع الوحشية- بعضها حقيقي، وبعضها مبالغ فيه، وبعضها مجرد اختراع ملفق- قد تم إشهارها بمهارة لإثارة الرأي العام، وإحدى الأمثلة المتداولة على نطاق واسع، تأتي من جهود رائد الصحافة ويليام راندولف الصحافة، وأحد بارونات الصحافة الشعبية الصفراء أو كما تعرف أيضاً بـ (صحافة الإثارة)، لإثارة الحرب بين الولايات المتحدة وأسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر، عندما بعث له فريدريك ريمنغتون (وهو فنان يعمل لدى هيرست) ببرقية من كوبا في سنة ١٨٩٧، قائلاً (لن تكون هناك حرب)، ويقال أن بارون الصحافة، بعث له ببرقية جواباً تقول (جهز لي صورة، وأنا سوف أجهز الحرب)، وعند تلك النقطة، أمضت صحف هيرست أشهراً في شن حملة ضارية ضد قسوة الحكم الأسباني لكوبا، آملين في التحريض على تدخل أميركي.

وكانت المقالات الافتتاحية تهاجم منددة بـ (الجزار) ويلير، وهو جنرال إسباني صور على أنه الأكثر قمعاً للوطنين الكوبيين الشجعان، ولكن القصة الأكثر تميزاً في حملة هيرست، كانت قصة فتاة بعمر ١٧ عاماً وهي ايفا نجيلينا سنسيروس، وهي ابنة جميلة لوطني كوبي سجين، وكانت تعاني من السجن في أصلاحية للنساء السيئات في هافانا، ولقد تم سجنها من قبل ويلير بدون محاكمة لدورها المزعوم في محاولة اغتيال كولونيل الذي كان تقدمه إلى ايفا نجيلينا تم صده من قبلها، الآنسة سنسيروس الفاضلة العذراء المتعرضة للخطر، أصبحت شعاراً خادعاً للوطنية الكوبية، وفي ما وصفه أحد المؤرخين لاحقاً باصطلاح (نوبة الطوبوغرافيا) عزم هيرست على إنقاذ الفتاة التي كانت مأساتها ترمز إلى قدرة الجزيرة بكاملها المحزن، وإذا استطاع هيرست انقاذ (زهرة كوبا) هذه، عندئذ يتوجب على القوات الأميركية أن تنقذ سكان الجزيرة ككل، وأن على الأميركيان طبقاً لذلك أن يضغطوا من أجل العمل.[1]

1 - Caplan. G (2007) (Rwanda: Waking the Road to genocide) in Thompson.

وبمساعدة بعض السجناء ورشوة الحراس للمساعدة في الاقتحام، تم تهريب ايفا نجيلينا لتصل إلى مدينة نيويورك حيث احتشد ما يقرب من ٧٥ ألف شخص حول حدائق ماديسون سكوير لتحية هذه (الفتاة البطلة)، وخلال أشهر قليلة كانت الولايات المتحدة منخرطة في الحرب مع أسبانيا، وكان قد تم زيادة العداء من خلال قصص طازجة عن الاهانات الموجهة إلى الكرامة الأميركية!

متراكمة مع حادثة إغراق السفينة الحربية (ماين Maine) وهو عمل مزعوم من أعمال الهمجية الأسبانية، والتي يتشكك فيها المؤرخون حالياً على أنها على الأرجح نتجت عن حادث انفجار عرضي.

وهذه الممارسة من ممارسات الصحافة الصفراء، يمكن استبعادها بكونها مثالاً على خاصية فطرية مميزة لهيرست ودليل على إصابته بجنون العظمة ولكن هذا سوف يتجاهل العناصر العديدة المماثلة التي تكررت بشكل منتظم لحد مدهش في تغطية ما قبل الحرب إعلامياً، وفي السياق الأميركي، من الجدير بالملاحظة أن هيرست قد ركز جهوده على قصة الأسر Captivity وهو نمط شعبي شائع من القصص، منذ أيام الاستيطان الأولى لأميركا، حيث شاعت القصص عن (المعاناة الفظيعة) المستوطنين الأوربيين الأوائل على يد الهنود النهابين (وهي تيمة ما زالت تتردد في أفلام الويسترن الأميركية حتى الآن وفي غيرها من أعمال هوليوود الفنية)، حيث شكلت عنصراً ثابتاً في الوعظ الشفهي في الكنائس، وكما يشير العديد من النقاد، فإن روايات الأسر أثبتت بأنها محفزة على كراهية الهنود، من خلال تصوير المسيحيين الأتقياء الذين يتم تقطيعهم من قبل الهنود البرابرة، أن العنف يظهر بأنه ليس ضروري فقط للبقاء على قيد الحياة بل أنه كذلك منتج اجتماعياً.[1]

والأمر الأكثر جدارة بالملاحظة ان هذا الجنس من القصص، يفضل (الأسر الأنثوي)، ومن مسح بسيط لتاريخ الحرب الحديثة، من الصعب أن نخطئ التأكيد السائد على الفظائع المرتكبة ضد النساء والأطفال من أجل الحض على خوض

1 - Slot kin, R (2000) Regeneration Through Violence: The Mythology of American Frontier, 1600-1680, Norman: University of Okla. Homo Press.

الحرب، وتوفر الحرب العالمية الأولى أمثلة عديدة في هذا المجال، فخلال أشهر عديدة قبل انضمام الولايات المتحدة للحرب في ١٩١٧، كان الرأي العام الأميركي قد صُعق بسبب القصص عن الوحشية المروعة التي قام بها (البرابرة) الألمان وهم يندفعون عبر أوربا. ومن بين أكثر القصص بروزاً، هي تلك الحكايات عن النساء البلجيكيات اللواتي تم تقطيع صدورهن ورمي الأطفال بعيداً حتى الموت أو يتم تركهم بعد أن يتم تمزيق أيديهم الصغيرة، ونظراً لقوة المشاعر الشعبية المسبقة والتي ترى بأن على الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عن الحرب الكبرى، رافضة أن تؤدي مساعدة ممولي وول ستريت لقوى الحلفاء أن تورط البلد في مصيدة الصراع المشتعل بعيداً، ولقد لعبت مثل هذه القصص دوراً بالغ الدلالة في إعادة توجيه مواقف العامة، وما لبث أن تم هجر مفهوم الانعزال، ليس فقط من قبل الرئيس ودر ويلسون، الذي كان قد فاز في حملته الانتخابية في عام ١٩١٦، على أسس بأنه كان قد (أبقى أميركا بعيدة عن الحرب)، ولكن من قبل المواطنين بشكل أكبر.[1] واكتسحت موجة من العداء للألمان، المراكز الحضرية في أميركا، موحية بتأجج (روح القتال) من أجل سحق وحشية الألمان،

وهذه الممارسات الصحفية خلال الحرب العالمية الأولى، هددت بنبذ هذه المتاجر بالفظائع والحط منها دائمياً، وفي صحوة مفاجئة، أصبح من الواضح بأن العديد من أكثر قصص الفظائع شناعة، كانت من مصدر مشكوك فيه، أو إشاعات غير واقعية، غير مسندة برواية شاهد عيان، أو مختلقة برمتها[2]

وإن الكشف عن أن صانعي الرأي العام لدى الحلفاء قد روجوا لقصص مضادة للألمان، والتي كانت أساسها في الحقيقة محل تساؤل في أحسن الأحوال، ولا وجود لها في الغالب، ساهمت في تقوية الصلة بين الفظائع الوحشية والدعاية، بين الدعاية والأكاذيب، ويمكن لنا أن نلحظ هنا أيضاً تشابهاً آخر بين قصة هيرست حول (زهرة كوبا) وقصص الفظائع بشكل عام، هو أن العناصر الحاسمة مختلفة

1 -Ross, S (1996) Propaganda For War: How the Us Was Conditioned to Fight The Great War 1914- 1918, Jefferson, Nc, Mc Farland.

2 - Ponsonby, A (1928) (Falsehood in War Time) London George Allen & Unwin.

أساساً، وبعد عام ١٩١٨ بالحرب، والتي لم تجعل من العالم أكثر أمناً للديمقراطية ولا هي أنهت كل الحروب، مترافقة مع المرارة الناتجة من الطريقة التي تم دفع الأميركيان فيها للقتال، ولدت شكوكاً متوانية، ويرى بعض الباحثين، بأن الأميركيين أخذوا يتقبلون التقارير عن جرائم الألمان في الثلاثينات ببطء وخلال الحرب العالمية الثانية لأنهم افترضوا بأن مثل هذه التقارير لا يمكن الوثوق بها أكثر من الحكايات المطولة عن الجرائم الوحشية من الحرب السابقة.[1]

وفي الأشهر التي سبقت دخول الولايات المتحدة للحرب، خلال سنة ١٩٤١، فإن الفظائع الألمانية ظهرت بشكل أقل في وسائل الإعلام الإخبارية الأميركية مما كانت في عام ١٩١٧، وبينما كافح المعادون للفاشية لتحويل الرأي العام لصالح التدخل، وكانت استوديوهات هوليود قد أنتجت مجموعة من الأفلام تسخر فيها من ألمانيا النازية مثل فيلم فرانك بورزاغ (العاصفة المهلكة) ١٩٤٠، وفيلم شارلي شابلن (الديكتاتور العظيم) ١٩٤٠ أيضاً، وكانت استطلاعات الرأي قد أظهرت إن معظم الأميركيين ظلوا على قرارهم ضد المشاركة في الحرب خلال عام ١٩٤١، ولقد تطلب الأمر هجوماً من اليابان على سلاح البحرية الأميركي في بيرل هاربور للتخلص من هذه الممانعة الشعبية.[2]

وعندما حررت قوات الحلفاء معسكرات الاعتقال بعد ٣ سنوات لاحقاً، فإن لقطات الأفلام التي تم التقاطها، والنابضة بالحياة أكثر من أي شيء تم عرضه من قبل في السينما الأميركية، ساعدت في إذابة الفظائع الوحشية والزيف، فقط قلة من المتشككين الذين لم يتأثروا بتلك الأدلة المرئية عن الإبادة الجماعية التي تم التقاطها من قبل مصوري وكاميرات الروس والأميركيين والبريطانيين، وافترضوا بأنها تم تزييفها،[3] ومن ذلك الحين أصبح اسم (هتلر) نموذجاً لأرتكاب الفظائع

1 -Taylor, P (1995) (Munitions of Mind) Manchester, Manchester University Press.

٢- كايسي، ٢٠٠١ مصدر سابق.

3 - Zellizer, B (1998) Nazi Propaganda, London, Oxford University Press.

الوحشية، وأصبحت المحاكاة معه، جزءاً ثابتاً من حملات التشهير بأقرانه الديكتاتوريين.

ظاهرة (الهتلرة- أي التشبيه والمقارنة بهتلر) كانت ظاهرة بشكل خاص في معاملة وسائل الإعلام الأميركية لصدام حسين منذ عام ١٩٩٠ وحتى إعدامه في نهاية ديسمبر ٢٠٠٦، حتى ان صورة لصدام على غلاف مجلة (التايم) الأميركية خلال فترة الاحتلال العراقي للكويت، صورته بملامح قريبة لملامح هتلر في تصوير رمزي للتشبه في سلوك كل من الديكتاتورين وعندما اجتاحت القوات العراقية أراضي الكويت الجارة واحتلتها، كان البيت الأبيض الأميركي يفسر الأحداث في الخليج بشكل متكرر بالإشارة إلى عدوان هتلر واجتياحه للدول الأوربية خلال الثلاثينات، ولقد التقط الصحفيون الأوربيون في تلفزيونات وصحف أوربا، مقارنة قام بها الرئيس بوش الأب وكان يكررها باستمرار حتى إنهم وجدوها ملائمة للتعليق عليها في المناسبات التي كان يخفق في القيام بها.(1)

وبينما كون الرئيس بوش أكبر تحالف متعدد الجنسيات للقوات المسلحة منذ الحرب العالمية الثانية في السعودية، فإن تحشيد عواطف المدنيين كان على قدم وساق، مؤازراً بمصادر نخبوية في الكابيتول هل، وعملت المؤسسات الإخبارية على عرض الأعمال الوحشية للعراقيين في الكويت بالتفصيل، وفي هذا الخصوص كانت الشهادة الأكثر رسوخاً في الذاكرة، تم تقديمها من قبل فتاة كويتية مراهقة، قدمت ببساطة على أنها (نيرة) فقط، التي قدمت شهادة مغرورقة بالدموع أمام لجنة استماع حول حقوق الإنسان في الكونغرس الأميركي، حول المشاهد التي زعمت بأنها شاهدتها في مستشفى، عندما قامت القوات العراقية بإلقاء الأطفال الخدج من حاضناتهم في موجة كاسحة من أعمال النهب.(2)

---

1 -Dorman, W, and Livingston's (1994) (The eastablishing Phase of Persian Gulf Policy Debate) In Bennett and Poltz.

2 -Mac Arthur, J (1993) (Second Front: Censorship and Propaganda in gulf War, Berkeley, C A, University of California Press.

وانظر أيضاً سؤدد الآلوس (الإعلام) عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

وربما نكون مسرورين بالتفكير بأن الأيام التي كان فيها رجال الدعاية المغرضون يوظفون متلاعبين جسد المرأة المنتهك، كرمز لانتهاك الفضيلة والعفاف، قد ولى منذ زمن طويل، ولكن قصة (هيرست) عن (زهرة كوبا) عتيقة الطراز بشكل أقل عند مقارنتها مع القضية الملحمية لـ (جيسيكا لينش) وهي مجندة في الفرقة الأميركية الأولى (اختصاصها التموين والنقل) والتي أصبحت تتصدر عناوين الأخبار في نيسان ٢٠٠٣ خلال عملية (حرية العراق)، ولينش بحسب عناوين الأخبار الرئيسية كان قد تم أخذها أسيرة من قبل الجنود العراقيين لمدة أسبوع، ثم تم إنقاذها من قبل القوات الأميركية، وهي قصة ادعت لاحقاً أثناء جلسات استماع في الكونغرس بأنها كانت (إدعاءات فارغة) لأغراض دعائية.[1]

والحقيقة أنها تم أسرها في كمين نصبته القوات العراقية لقافلة التموين التي كانت تتبع لها بالقرب من مدينة الناصرية في جنوب العراق، وتم نقلها إلى مستشفى الناصرية لمعالجتها من جراح أصبتها، حيث ساعدها الأطباء في المستشفى بعد تحسن حالتها في الوصول للقوات الأميركية بعدما أحسوا بانهيار سيطرة النظام، وخشيتهم على حياتها، حيث لم يتم إنقاذها من قبل القوات الأميركية في عملية بطولية.

والمفهوم الشائع لحد كبير من المرأة كجنس لا يتحمل اللوم، وغير قادر على الدفاع عن نفسه، وبريء سياسياً وعاجز جسدياً لحد كبير، في طرق لا يحمل الرجال عليا عادة، تبقى متداولة عبر الثقافات المختلفة، وعابرة للتاريخ وذلك يستمر المتلاعبون بالرأي في تقديم الفظائع ضد النساء والأطفال الأبرياء، على أنها أكثر إثارة للغضب من الإساءة للرجال، ومن هنا تكون أكثر استحقاقاً لأفعال حمائية و/او عقابية.

أما من هو الجمهور المستهدف للمواد الإعلامية المبنية على الجنس حول المجازر الوحشية؟ فإذا ما حاولنا تخيل القصص في الحرب العالمية الأولى عن

---

1 - Talev, M (2007) (Hyped Tales of Heroism: Lynch Wonders They Lied, Kanasas City Star, April 25.

المرضعات البلجيكيات، أنها كانت موجهة بشكل خاص نحو الجمهور الذكوري، فإن الصور المتراقصة عن انتهاك النساء، بينما تقدم بصورة ملتهبة ومتحمسة، فإنها توفر لغيرة الرجال المرتفعة منفذاً لمشاعر (الفروسية والشهامة).

وفي فترات أبعد زمنياً، كانت البناءات المكونة على أساس الجنس (من حيث هو نوع) حول الحط من وازدراء النساء. كان يتم فك ترميزها بصورة مختلفة، فإن فكرة طهارة وقداسة القلب والمنزل – المساحة المكرسة والمخصصة للأنوثة- ، إلى درجة أنها قد تتطلب حماية على شكل درع للمناطق الحساسة للمرأة، قد تصدم حواسنا بشكل منفر، فإنه من الصعب النظر إلى الملصقات التعبوية للحرب العالمية الأولى من دون إن نصدم بالتناقض بين تصوير المرأة بشكل مثالي على أنها الحارس المبجل للعائلة أو حارس للنقاء الوطني، ومنع المرأة من المشاركة السياسية ومن التقدم لشغل العديد من الوظائف المدفوعة الأجر، ولكن المفهوم الذي يقضي بأن الجنود يجب أن يقاتلوا لحماية أو تحرير النساء المتعرضات للخطر، لم يختف في القرن الواحد والعشرين تماماً، بل تم ببساطة إحلال نسخة معاصرة محله: الحرب من أجل حقوق المرأة (هذه الفكرة التي تم الترويج لها من قبل إدارة بوش وخلفه أوباما في حرب أفغانستان)، فلم تعد الأنوثة أو العائلة هدفاً يجب حمايته، بل نقيضها عوضاً عن ذلك، فنحن نذهب إلى الحرب لضمان ان يكون بإمكان الفتيات الذهاب للمدارس، وان يكون بإمكان النساء التمتع بقدرة متكافئة للوصول لمواقع الخدمة العامة أو صناديق الانتخاب (حسب حجج الإدارة الأميركية)، ولا يوجد مكان يستحق مثل هذه المسوغات بشكل واضح جداً أكثر من (عملية إدامة الحرية) التي أطلقت في أفغانستان ٢٠٠١، وكما أعلنت لورا بوش زوجة الرئيس الأميركي (ان القتال ضد الإرهاب، هو أيضاً قتال من أجل حقوق وكرامة النساء) في خطاب إذاعي في ١ نوفمبر ٢٠٠١، ومشددة على أن (الإرهابيين وطالبان فقط هم من يحرم تعليم النساء، فقط الإرهابيين وطالبان هم من يهدد باقتلاع أظافر أصابع المرأة لأنها تضع طلاء الأظافر).

وان الحملة التي تقودها الولايات المتحدة لهذا سوف تحرر (نساء البرقع)[*] الأفغانيات (كما اصطلحت لورا بوش على تسميتهم)! من براقعهن وإنهاء جرائم الشرف، وأنها ستضمن للفتيات الحق في الذهاب للمدارس والحصول على التعليم، وفي كل من بريطانيا والولايات المتحدة، انتشرت بكثرة القصص الإخبارية التي توثق مآسي النساء الأفغانيات في أكتوبر من عام ٢٠٠١.[1]

وهذا التشديد المفاجئ على انتهاكات الطالبان ضد النساء، لم يكن مصادفة، بل كان عملاً مقصوداً موجه للجماهير الليبرالية الأقل تحبيذا لشن الحرب كعمل (للرد بالثأر) تجاه أحداث ١١ أيلول، أو كعملية مطاردة لابن لادن وأتباعه من (الأشرار) (شيفرد ٢٠٠٦، Shepherd).

وقد يبدو (العنف الغربي) لتحرير المرأة المسلمة من برقعها، صرخة بعيدة جداً في نوعها عن تلك النداءات لإيقاف البرابرة المغتصبين في أوربا عام ١٩١٧، رغم أن كليهما يمتلكان وظيفة اسقاطية لإعادة التأكيد لجمهورها بأن الحرب هي لخدمة الحضارة. على أن التطبيق المثير للمتاعب في إنقاذ النساء المقموعات اللواتي يفتقدن إلى الوساطة يؤخذ على أنه أمر ثابت، اللواتي يستدلا على قمعهن المطلق من خلال زيهن الإسلامي، لكن هل الرغبة في (كشف المستور) لا تتضمن بذوراً من العنف الجنسي والثقافي؟

إلا يمكن أن تكون هذه المهمات الإنقاذية نفسها أقل أخلاقية في دوافعها المتضمنة،[2] أن قوة الفظائع وتأثيرها يمكن في إبقاء مثل هذه التساؤلات مخفية، وعلى الرغم من تأكيد مراسل (الاندبندنت) روبرت فيسك في ديسمبر ٢٠٠١، على (نحن لم نذهب إلى الحرب في أفغانستان لجعل العالم حراً، لأولئك الذين يلعبون

---

* استخدمت زوجة الرئيس الأميركي مصطلحاً غربياً هو (نساء الغطاء أو المغطيات) حرفياً Women Of Cover، مما يدل على جهل وازدراء لوصف النساء المسلمات المحجبات.

1 - Hammond, P (2007) (Framing Post-Conflicts) Manchester, Manchester University Press.

2 - Abu- Lughod, L (2002) (Do Muslim Women Really Need Saving? American Anthropologist, 104, iii, 783-90.

بالطيارات الورقية أو محبي السينما، أو النساء اللواتي يرتدين النقاب).[1] وهناك القلة فقط ممن وافقوا فيسك على راية هذا، رغم إن صحيفة (الاندبندنت) قدمت إشارات موجزة في تغطيتها للتظاهرات المحتجة على الحرب.

كبح الجدل حول (خيار الحرب):

ربما تكون هذه الوظيفة هي من أهم مهام وسائل الإعلام التي تعمل على التحشيد Mobilization، وأن الباحثين في عملية السلام، قد تبينوا منذ وقت طويل التحيز نحو العسكرة في وسائل الإعلام الرئيسية منعكسة في الاستعداد القبلي لتحبيذ القوة العسكرية على الأساليب الغير عنيفة لحل الصراع.[٢]

ولقد تم عرض هذه النقطة بوضوح في تقرير ماكبرايد الممول من منظمة اليونسكو في ١٩٨٤، المعنون (أصوات متعددة، عالم واحد)، والذي حث وسائل الإعلام على (أن تتذكر أن ما وراء المصالح الوطنية، هناك مصلحة عليا للبشرية في السلم).[٣]

في الوقت المحدد بالضبط الذين يكون فيه الجدل الناشط حول خيارات الحرب ضرورياً جداً، فإن وسائل الإعلام تعمل غالباً على تقييد وكبح النقاش أكثر مما تعمل على تسهيله، مسكتة الأصوات المحذرة والمشككة، مع أعطاء الفرصة لمسوغات القادة المحبذين للحرب ان تمر بدون نقاش، وبهذا فإن وسائل الإعلام تذعن لخيار الحرب، إن لم تعتنقه بحماسة ملتهبة، وان السنوات القريبة توفر لنا مثالين نابضين بالحياة بحيث يؤسسا لقضيتنا: الأول هو أداء وسائل الإعلام الأميركية في (مرحلة التأسيس)[*] لحرب الخليج ١٩٩١ والثاني خلال مرحلة التصعيد لما أسمته إدارة جورج بوش الصغير (عملية حرية العراق) في آذار ٢٠٠٣.

---

١ -هاموند مصدر سابق، ص ١٦٣.

2 - Roach, C (ed) (1993) Communication and Cal ture in War and Peace, London, Sage.

3 -Spencer, G (2005) The Media and Peacc: From Vietnam To Thc (War on Tcrror). Basingstokc: Palgrare Macmillan.

* أنظر كتابنا (الإعلام والصراعات السياسية) الصادر عن دار أسامة، ٢٠١١، للتوسع في مراحل الصراع المختلفة ودور وسائل الإعلام في أدارة كل مرحلة.

ومنذ سنة ١٩٩٠، بعد غزو العراق للكويت وخلال الفترة الممتدة حتى ٢٠٠٢، ومطلع العام ٢٠٠٣، فإن الإدارات المتعاقبة لكل من جورج بوش الأب والابن بدت محبذة لاستخدام القوة ضد العراق بقيادة صدام حسين، وهذا التفضيل والميل نادراً ما تمت تغشيته أو إخفاءه، بالرغم من أنه في كل حالة، كانت الحرب تسبقها جهود دبلوماسية مكثفة لضمان قرارات مساندة من الأمم المتحدة، حيث ان التحشيد المنسجم لـ (ائتلاف الراغبين)(*) الدولي، تعطي إشارة واضحة على التصميم على استخدام القوة لتحقيق النتائج المرغوبة: إزاحة صدام حسين من السلطة، ومنع العراق من امتلاك أو تطوير أسلحة دمار شامل (المزعومة)، أن نشر القوات على نطاق واسع، والتي يصعب وتكون مكلفة جداً في استمرارها، ما تلبث أن تؤدي إلى تفاقم التوتر الذي يؤدي إلى الحرب، خصوصاً عندما يتوجب شحن كل شيء جواً ابتداءً من المناديل الورقية إلى الطعام وحتى المياه المعبأة في قناني، إلى القوات التي تضخ عرقاً بغزارة في ظروف الصحراء البائسة، وفي الأشهر التي تلت آب ١٩٩٠، عمل البنتاغون على نشر ما يقرب من نصف مليون عسكري أميركي منتشرين في صحراء السعودية قرب الحدود العراقية، وعلى متن حاملات الطائرات والسفن الحربية في الخليج، وعلى مقياس أصغر قليلاً هذه المرة، فإن نفس الظاهرة تكررت في أواخر سنة ٢٠٠٢، حيث تمركزت القوات الأميركية على الحدود الكويتية- السعودية المتاخمة للعراق، وطالما أن القوات لا يمكنها أن تظل متحفزة للعمل إلى ما لا نهاية في انتظار إنجاز عمل مفتشي الأسلحة ومسؤولي الحظر الدولي وهم يجوبون أراضي العراق عن أسلحة لا وجود لها، فقد كان من الواضح للعيان إلى أين يقود هذا التحشيد.

وعموماً، قد يكون من السذاجة الاعتقاد بأن الزخم اللوجستي المتراكم لوحده، هو ما دفع الولايات المتحدة وحلفائها إلى الحرب في يناير ١٩٩١، ومرة أخرى كذلك في آذار ٢٠٠٣، ففي كلتي الحالتين، كان الرئيس يحبذ بشكل ظاهر

---

* (ائتلاف الراغبين) أو (Coalition Of Willing) هي التسمية التي أطلقها الإدارة الأميركية وحلفائها، على الائتلاف الدولي الذي تكون من دول عدة رغبة في شن الحرب على العراق عشية عملية غزو العراق.

استخدام القوة، وبشكل مثالي مع معايير الشرعية الدولية أو حتى بدونها أذا كان ذلك ضرورياً، وبعد الواقعة، فإن المصادر المطلعة داخل البيت الأبيض كشفت للمراسلين المحققين بان الرئيس بوش الأب كان قد اتخذ قرار الحرب على العراق مبكراً منذ أوائل آب ١٩٩٠، وبأن ابنه كان للتو يناقش احتمالية (إسقاط) صدام حسين في ليلة أحداث ١١ سبتمبر، حتى عندما تم إعلامه من قبل رئيس مخابراته المركزية بأن أسامة بن لادن وليس صدام حسن، هو المذنب في الهجمات وفي ٢١ نوفمبر ٢٠٠١، أصدر الرئيس بوش تعليماته لرونالد رامسفيلد لبدء التخطيط للحرب مع العراق بصراحة.[1] وكما سنرى فيما بعد، فإن إدارتي بوش الأب والابن بذلتا جهوداً مكثفة لتسويق الحرب مع العراق داخلياً وفي خارج.

هذا ما يخص البيت الأبيض، ولكن ماذا عن وسائل الإعلام الأميركية الرئيسية؟ بعد انتهاء حرب الخليج في ١٩٩١، والتي أنهت الاحتلال العراقي للكويت، وتركت صدام حسين في موقعه على رأس السلطة في بغداد، وشوهد وهو يقمع الانتفاضة في جنوب العراق (والتي شجعت من قبل الولايات المتحدة) ويضع نهاية لها بقواته من الحرس الجمهوري، فإن العديد من النقاد هاجموا الصحافة لارتكابها عدداً لا يحصى من آثام الحذف والأخطاء بالوكالة، فلم لم تعمل الصحافة على كشف الضوء الأخضر الذي أعطي من السفيرة الأميركية في بغداد أبريل غلاسبي، المزعوم بأنها أعطته للحاكم العراقي لغزو الكويت بدون اعتراض أميركي، عشية التحرك العراقي؟ إن إشارة أكثر وضوحاً لو أعطيت في حينه بأن الاجتياح أمر غير مقبول، ربما كانت، قد غيرت الأزمة بالكامل، بينما لو تم اتخاذ خطوة أكثر صلابة ضد الرئيس العراقي قبل ١٩٩٠، لتقليم أظفار الرئيس صدام قبل أن يقوم بالكثير من الضرر لشعبه والدول المجاورة له، بينما أشار نقاد آخرون إلى خطوات أخرى، بدلاً من انتقاد إدارة بوش وحلفائها على ما قاموا به من أخطاء، أشاروا إلى أن وظيفة (هتلرة) صدام حسين في الأشهر التي سبقت شن القوات

1 - Western, J (2005) Selling Intervention and War, The Presidency, The Media and American Public, Baltimore, John Hopkins.

المتحالفة للهجوم في يناير ١٩٩١ خدمت كثيراً، وبعيداً عن كونه مجرد بلاغة منمقة فارغة، فإن هذه المقارنة تتضمن وصفة سياسية واضحة، فإن الدرس المستفاد من ألمانيا الهتلرية يوضح جلياً، بأن طمع الغزاة لن يكتفي بابتلاع بلد واحد أبداً (كما حدث مع هتلر)، بل أن الغزو والتملك لا يعمل سوى على فتح هذا العدوان لا يمكن وقفه إلا بالحرب، وإذا ما تقبل الأميركيان التوازي مع الأحداث في أوربا قبل ٥٠ سنة مضت، فإنهم بذلك يتم تشجيعهم على رؤية الحرب كاستجابة ملائمة للعدوان العراقي الغاشم، (مع تشبيه صدام بهتلر، فإن (التسوية) أو أي خيار سياسي بديل آخر، كان قد تم حذفه بفعالية من النقاش تماماً حتى قبل ان يمضي النقاش الفعلي في سبيله.[1]

وثمة مخططات أخرى مماثلة مرة أخرى كانت ظاهرة قبل غزو العراق في آذار ٢٠٠٣، حيث بذلك الصحفيون الأميركيون الكثير لدعم مزاعم الإدارة الأميركية بأن صدام حسين ما زال يخزن قدراً معتبراً من أسلحة الدمار الشامل أو كما تدعى اختصارا (WMD)، وهو خارج عن الشرعية وفقاً للقرارات التي فرضت على العراق، بعد هزيمته في ١٩٩١، وكان صانعو الرأي البارزين، مكررين صدى مزاعم إدارة بوش يصرون على أن صدام حسين يخطط لاستخدام هذه الأسلحة ضد الولايات المتحدة وحلفائها. وعلى الرغم من أن تبريرات البيت الأبيض سوف يتم تغييرها في الأشهر التي سبقت (عملية تحرير العراق) نظراً لعدم اكتشاف وجود مثل هذه الأسلحة جراء عمل فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة على الأرض في العراق، رغم أنها كانت تشكل الهيكل العظمي الرئيسي للنزاع بين بوش وبلير من جهة وبين النظام في بغداد، وفي بريطانيا، تركز القلق والحيرة على المزاعم القائلة بأن الصواريخ العراقية يمكن أن تكون جاهزة لتوجيه ضربات خلال ٤٥ دقيقة فقط من لحظة إعطاء الأوامر بالضرب، لتصل إلى أهداف في أوربا وأخرى عديدة في المنطقة العربية.[2]

---

١ - دورمان وليفنفستون، ١٩٩٤ ، Dorman & Livingston ص ٧٤.

2 - Edwards, D and Cromwell, D (2004) (Mass Deception) How the media Helped the government Deceive the People) In Miller.

وفي تلك الأثناء كان اهتمام الولايات المتحدة منصباً على مسألة فيما إذا كان صدام ما يزال يتابع بفعالية بناء برنامج للصواريخ المزودة برؤوس نووية، أو وفقاً للتحذيرات الأكثر إنذاراً- ما إذا كان بالفعل يمتلك قنبلة نووية، رغم تأكيدات الوكالة الذرية، وعلى لسان رئيسها محمد البرادعي، منذ وقت طويل إغلاق ملف القدرات النووية العراقية، لعدم امتلاكه أية قدرات مادية في هذا الخصوص، ورغم تقارير هانز بليكس رئيس فرق التفتيش الدولية أثناء الأزمة، بعدم وجود دلائل مؤكدة على امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، كما أوضح ذلك في كتابه الذي وضعه عن تجربته في العمل مع فرق التفتيش في العراق الذي أسماه (نزع أسلحة العراق Disarming Iraq) بعد انتهاء عملية (حرية العراق).(١)

وكان المراسل ذي السيرة المهنية الأكثر بروزاً والذي أعطى التوثيق لهذه المزاعم، هي مراسلة (النيويورك تايمز) جوديث ميلر Judith Millerوالتي وضعت في السجن لاحقاً، لرفضها البوح عن المصدر الذي كشف بأن فاليري بلام Valerie Plame، وهي زوجة السفير الأميركي السابق جوزيف ويلسون (المنتقد لتأكيدات الإدارة الأميركية بأن العراق ابتاع اليورانيوم من النيجر) كانت عملية للمخابرات المركزية C I A، في العديد من المقالات التي تصدرت الصفحات الأولى في أيلول ٢٠٠٢، كتبت ميللر مفصلة ملكية العراق المزعومة للقدرات من الأسلحة الشاملة ونواياه في السعي لامتلاكها، وركزت على قضية استيراد أنابيب الألمونيوم ذات الصلادة العالية من النوع الذي يمكن استخدامه بقدرة عالية في تخصيب اليورانيوم، مدعمة أسوأ المزاعم التي تطلقها الدائرة المحيطة بالرئيس بوش، بأن العراق قد (خطا متقدماً في سعيه وراء الأسلحة النووية، و (هو) يشن حملة على نطاق عالمي لاصطياد أية مواد تستخدم لصنع قنبلة ذرية).(٢)

وكما أوضح العديد من نقاد ميللر فيما بعد، كان هناك جدل واسع في أوساط الاستخبارات الأميركية وبين خبراء الأسلحة حول احتمالات استخدام هذه

---

1 - Plex, H (2004) (Disarming Iraq) London, Pantheon house.
2 - Massing, M (2004) Now They Tell us: The American Press and Iraq, New York: New York Review Of Books.

الأنابيب، وبشكل عام أكثر حول أطماع وقدرات العراق النووية، وثمة حفنة صغيرة من الصحفيين، وبالذات بعض المراسلين الاستقصائيين العاملين لدى جماعة (نايت رايدر Knight Ridder) أشاروا إلى ذلك في حينه، ولكن من دون مؤسسات مثل (نيويورك تاميز) أو (الواشنطن بوست) فإن هؤلاء المراسلين فشلوا في إحداث أي تحول في الرأي العام نحو اتجاه أكثر تشككاً، وميللر نفسها اعترفت بالكاد بأن العديد من المحللين الدفاعيين أثاروا الجدال حول فيما إذا كان العراق فعلاً يشكل خطراً حاضراً وواضحاً على الأمن الوطني على الإطلاق.[1]

ويفشلها في تحذير الجمهور الأميركي من الشكوك الخطيرة التي أبداها العديد من الخبراء حول حالة التقارير المخابراتية التي قدمتها الإدارة الأميركية على أنها براهين قاطعة على نوايا العراق الشريرة، فإن القنوات الإخبارية التلفزيونية أسهمت أيضاً في زيادة الاقتناع الشعبي بأن العراق على صلة مع القاعدة، وان صدام حسين لهذا هو بشكل ما مسئول عن أحداث ١١ سبتمبر، وكان هذا السبب الأكثر إثارة للعواطف، من بين كل الأسباب التي قدمت في حينها لتبرير لم يتوجب على القوات الأميركية غزو العراق- وهو دولة يقودها نظام علماني لا توجد أية صلات موثقة بشكل ثابت تربطه بالإرهاب المتطرف[2].

ولكن تطلب الأمر بذل بعض المجهود لترسيخ هذا الاعتقاد في صفوف الجمهور الأميركي، وفي استبيان أجري في ٢٤ أيلول ٢٠٠١، وجد أن ٦٪ فقط من المستجوبين اعتقدوا بأن صدام حسين يمكن أن تكون له علاقة بالهجمات على البنتاغون وعلى برجي مركز التجارة العالمي، وأكثر من ٥٠٪ كانوا يحملون الاعتقاد بأن أسامة بن لادن هو المسئول،[3] ومع ذلك فإنه بعد مرور ثلاث سنوات، في ٢٤ أيلول ٢٠٠٤، أجاب ٤٢٪ من المستجيبين على استيبان لمجلة (نيوزويك) الأميركية، بأن العراق كان (متورطاً بصورة مباشرة) في الهجمات الإرهابية،

---

١ - نفس المصدر السابق،

2 - Robinson, L and Livingston's (2006) Strange Bedfellows: The Emergence of The Al Qaeda – Baaathist News Frame Prior to The 2003 Ivaasion of Iraq, in Nikolaer and Ha kanen.

3 - Roach, C (ed) (1993) Communication and Cal ture in War and Peace, London, Sage.

وكان بعد فترة وجيرة من نشر تقرير (لجنة ٩/١١) والذي نفت فيه بصورة واضحة وجود أي صلة بين صدام حسين والقاعدة.[1]

وهذا التحول يمكن نسبته بصورة رئيسية إلى إدارة بوش التي عملت جاهدة لترسيخ هذه الصلة، وإلى المفاتيح الرئيسية في وسائل الإعلام- وعلى وجه الخصوص محطة فوكس نيوز الإخبارية، وعلى الرغم من عدم وجود دليل ظاهر على هذه العلاقة، فقد تمت البرهنة على وجودها من خلال مفاتيح لفظية تحولت إلى أدلة، معتبرة بأن (الإرهابيين) مسئولون عن هجمات ٩/١١، وأن العراق يمثل دولة (إرهابية) وكما يوضح روبنسون ولينفغستون فإن هذه الإستراتيجية البلاغية اللفظية استعادت (قياساً منطقياً عن المسؤولية المشتركة) بالدفع أن (الإرهابيين أناس أشرار، الإرهابيون هم من هاجم الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، صدام هو شخص شرير، وبالتالي فإن صدام إرهابي، إذن لابد أن يكون صدام وراء هجمات ٩/١١) (روبنسون وليفنغستون، ٢٠٠٦، ص ٢٥)، ولكون الأرهاب هو الشاغل الرئيسي للمناظرات العامة بعد أيلول ٢٠٠١، افترض العديد من المعلقين الإعلاميين بأن صدام العدو الأول للولايات المتحدة، لابد أن يكون ممولاً للإرهاب، حتى وان لم يكن هناك تحالف مباشر معلن بينه وبين (بن لادن)، وافترض العديد من كتاب أعمدة الصحف ومضيفي البرامج الحوارية في الراديو والتلفاز، بأنهما يعملان في الخفاء، أو كما سيثبت في المستقبل بأنهما مصطفان جنباً إلى جنب في مادعي بـ (محور الشر) في حينه، وأن حيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل أصبحت لذلك أكثر إثارة للقلق، عند الأخذ بالحسبان احتمال قيام صدام حسين بتزويد المنظمات الإرهابية بهذه الأسلحة. وفي ظل هذا المناخ من الغضب المتزايد، والمشاعر الوطنية المتصاعدة التي عمت الولايات المتحدة بعد ٩/١١، مترافقة مع رعب على المستوى الوطني بأكمله من هجمات التهديد بـ (الانثراكس) التي انتشرت في حينه، لم يكن مفاجئاً أن الأميركيين الذين قاموا بمظاهرات احتجاج على الاندفاع السريع نحو الحرب على

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٥.

العراق في أوائل ٢٠٠٣، قد وجدوا أنهم تعرضوا للتهميش، أو الحط من قدرهم بشكل كبير في الصحافة، وعادة فأن الأخبار تركز على (نشاط) المتظاهرين، من دون أن تعير انتباهاً كبيراً لمعارضيهم الذين يصرون على أن المشاعر المعادية للحرب لا تزدري فقط بالقوات الأميركية في الميدان بل تعرضها للخطر، وبحسب استطلاع أجراه مركز أبحاث بيو (Pew) في آذار ٢٠٠٣، فقد وجد أن ٤٨٪ من المشاركين قالوا بأنهم استمعوا إلى (الكثير جداً) حول وجهات نظر الأميركيين الذين يعارضون الحرب، بينما أعترض ١٧٪ فقط بالقول أنهم لم يستمعوا إلا إلى القليل جداً من هذه الآراء، وفي هذه الأثناء أظهر استبيان لمحطة CBS في نفس الشهر أن ٣٢٪ من الذين استجوبت آرائهم يعتقدون بأن مثل هذه المسيرات المناهضة للحرب (تؤذي بالمجهود الحربي) ويجب أن لا يسمح لها (مركز أبحاث بيو، Pew ، ٢٠٠٣) وعندما لا يتم النظر إليها كشكل شامل، فإن التظاهرات ينظر إليها عادة على أنها سلوك استعراضي، وتعبير عن Nostalgic، وحزمي، أو نزوات من الانغماس في حب الذات، بدلاً من التعامل معها بشكل جدي بناء على مضمونها السياسي، وهو اتجاه كان واضحاً في التغطية الإخبارية خلال حرب الخليج ١٩٩١ للاحتجاجات المعادية للحرب، وكذلك قبل عقدين من ذلك التاريخ خلال حرب فيتنام.[1]

وبينما تعمل الجماعات المناهضة للحرب إلى استخدام مكثف لوسائل الإعلام الجديد للتعبئة، وتنسيق جهودها، بينما تميل وسائل (الإعلام القديم) للتعتيم على حقيقة، أن طبقات معينة من الأمريكيين تعارض الفكرة السائدة بأن العراق يمثل خطراً واضحاً وحاضراً للولايات المتحدة، وكان يتم التقليل من قدر هذه المسيرات الاحتجاجية وتعتبر صغيرة نسبياً عندما تكون سلمية، وتم التغطية على حجم المظاهرات الكبيرة التي خرجت في مطلع العام ٢٠٠٣، حتى أن مستهلكي الوسائل الإعلامية الرئيسية، لم يعلموا إلا القليل عن المسيرات الضخمة المعادية للحرب التي انطلقت في خمس قارات على نطاق العالم في يوم ١٥ شباط (قبل شهر تقريباً من اندلاع الحرب) والتي شارك فيها أكثر من ٨ مليون شخص، مما يجعل

1 - Ross, S (1996) (Propaganda for War) Jefferson, NC, McFarland.

مزاعم الإدارة الأميركية بأنها قد حصلت على الشرعية الدولية للهجوم على العراق أمراً مثاراً للشكوك والتساؤلات الكثيرة.

أداء وسائل الإعلام قبيل نشوب الحرب:

يفتتح غراهام سبنسر كتابه المعنون (وسائل الإعلام والسلام) بـ تأكيد فقط (أن وسائل الإعلام الإخبارية ليست ميالة جداً للسلم)، وكما سبق أن رأينا، فليس من الصعب تعداد الأمثلة التاريخية والمعاصرة التي هرعت فيها وسائل الإعلام داعية إلى رفع السلاح، ولتفسير لماذا يحدث ذلك يحتاج إلى جهود كبيرة نوعاً ما، ولكن إذا كان السلم حالة من (العلاقات المرغوبة اجتماعياً بشكل أكبر) كما يصوغها سبنسر، فكيف لنا أن نتعامل مع هذا الميل والولع؟[1]

لكن ثمة إضافة أخرى بديهية لملاحظة سبنسر، للإشارة إلى أن الشائع هو أن الدول واللاعبين الآخرين (لا يعتبرون) السلم مفضلاً على العنف، أن الحرب غالباً ما تصور على أنها لا عقلانية، السيطرة على المنطق بواسطة نزعات بدائية متعطشة للدماء، ولكنها مع ذلك كله مثيرة للاهتمام، وسلوكاً محسوباً بحذر، وبغض النظر عن ما قد يقدمه عالم نفس جمعي أو فردي عن الحرب، وعندما يوظف المتقاتلون العنف سعياً وراء أهداف مادية ملموسة: تأمين المناطق، والموارد والأسواق، أو لنزع سلاح العدو، الذي قد يكون أولاً، في الواقع ميلا مرجحاً للقتال، وغالباً ما تكون المحصلة النهائية مخيبة لمثل هذه الآمال، فعندما ينتهي القتال، فإن المجتمعات تكون في مواجهة مدناً ممزقة، ومناطق طبيعية مدمرة، وخسائر في الأرواح، وأضراراً نفسية وجسدية، بالنسبة للمنتصر والمهزوم على حد سواء، ومع ذلك فإن القوة العسكرية ما زالت في مطلع القرن الواحد والعشرين (وقد انقضى العقد الأول منه) أسلوباً مقبولاً للسعي لتحقيق (السياسات بوسائل أخرى).

---

1 -Spencer, G (2005) The Media and Peace: From Vietnam To The (War on Terror). Basingstoke: Palgrare Macmillan.

وما زالت العديد من الثقافات تستمر في النظر إلى الجندي على أنه (محارب) وإلى المحارب على أنه بطل، وفي المجتمعات الحديثة، فإن المواقف الملائمة للحرب، ما زالت مغروسة بعمق حتى في ألعاب الأطفال، حيث يتم إلباس الطفل زياً عسكرياً رسمياً موشى بالأوسمة، ويعطى ألعاباً ودمى على شكل جنود، ومسدسات وبنادق بلاستيكية (والتي يعرف أي مختص بتربية الأطفال أنها تمثل اللعبة التقليدية النمطية للأطفال الذكور، وهي تمثل اللعبة الأولى والأكثر انتشاراً في مجتمعاتنا العربية)، وأصبحت ألعاب الحرب المنتشرة والسائدة خصوصاً في ألعاب الكمبيوتر الحديثة وألعاب الانترنت هي الأكثر تفضيلاً، وأخذت هذه الألعاب تمثل تعويضاً نفسياً للأولاد الكبار (المعروفين بالرجال!) كوسيلة عقاب اجتماعي، ينفسون بها الضغوط النفسية والمادية التي تواجههم بها مجتمعاتهم، يستخدمونها للتخفيف من توتراتهم وانعكاساتهم الانفعالية، ووسيلة للتدريب وتطوير مهاراتهم و استعداداتهم لمواجهة الظروف العنيفة، وفي الثقافة الأميركية على سبيل المثال، فإن الأسلحة النارية تكون حاضرة دائماً ليست كأسلحة قاتلة ومدمرة للحياة الحضرية بل كأداة أساسية للتعبير عن الحرية الشخصية وعن الهوية الفردية: إذن ملكية الأسلحة النارية بصورة شخصية هي حق من حقوق المواطن يكفله الدستور الأميركي، وأن إطلاق النار هي الطريقة المثلى لكسب الاحترام، وترسيخ السلطة، وإنهاء المشاكل، وهذه القيم تكاد تكون مسلم بها من خلال المشاهد (الكليشهيات) التي تحفل بها أفلام الوسترن الأميركي، وخصوصاً في المشهد التقليدي المتكرر عندما يدخل رجل العصابات الغريب والمهمش الـ (Frontier) إلى الحانة الرئيسية في البلدة المضطربة مشفوعاً بنظرات من الازدراء والاستهزاء من رواد الحانة.

ويتدارك الغريب البطل الموقف باستعراض مهارته في أطلاق النار رداً على الاهانة التي تعرضت لها كرامته، ومرسخاً مكانته كبطل. يستحق الاحترام ويمتلك السلطة (سلطة القوة العاتية في بيئة عدائية.

ويمكننا عندئذ أن نشرح (التحيز تجاه الحرب) لوسائل الإعلام بمصطلحات أثو- ثقافية، فإذا كانت وسائل الإعلام تظهر وكأنها أكثر استعداداً للترويج للقوة العسكرية عوضاً عن الخيارات الأخرى لحل الصراع، وذلك ببساطة لأن المجتمع نفسه في الكثير من قطاعاته يضع أهمية أقل على التفاوض والتسوية والدبلوماسية كوسائل للحل، لكن مثل هذا التحليل على المستوى الماكروي (الاشمل) قد يكون دفع بنا بعيداً عن هدفنا، فإن بقية هذا الفصل سوف تعرض لنا تحليلاً أكثر تحديداً يوضح لمَّ تتصرف المؤسسات الإخبارية والصحفيين كأفراد وفقاً لمثل هذه السيناريوهات التي أوضحناها للتو.

توجيه الدول:

إن الصلة الوثيقة بين الدول التي تنوي استخدام العنف وبين الصحفيين المساندين، يمكن أن توفر أبسط إجابة حول لماذا وسائل الإعلام في ظروف معينة، قد شجعت بفعالية على استخدام القوة، الأنظمة التي ترغب في تغيير واقع الحال الراهن، مثل الرايخ الثالث لهتلر، وحركة (سلطة الهوتو) التي كانت تحيط بالرئيس هايير يمانا في رواندا، التي استخدمت وسائل إعلام تابعة للدولة لتشجيع الحماسة الشعبية تجاه مشاريعهم في الإبادة الجماعية، ولكن كيف تتوصل الدول للسيطرة والهيمنة على وسائل التعبير الشعبي؟ هل القسر- التهديد بـ الانتقام والقصاص وفقدان الوظائف- كافٍ لتفسير لماذا يقدم العالمون في وسائل الإعلام على إعارة أنفسهم لتحقيق أهداف الأحزاب الحاكمة؟ في كل من الرايخ ورواندا، استخدمت الجماعة الحاكمة الرقابة والتطهير الذاتي، لتهميش إن لم يكن حذف الآراء المعارضة تماماً من وسائل الإعلام المملوكة أو المسيطر عليها من قبل الدولة، وكما يظهر الفصل الثالث من هذا الكتاب بتفضيل كبير، فإن الحزب الاشتراكي الوطني بدأ في الاحتكار بشكل منفرد للمجال العام في ألمانيا بمجرد وصوله إلى السلطة في عام ١٩٣٣، وتم شن حملة لضمان تشبع الأيديولوجية النازية في كل قناة من قنوات الاتصال التي تطلبت سنوات لتكتمل، وبشكل مشابه لذلك في

رواندا في مطلع التسعينات، تم طرد المذيعين الذين عارضوا نفوذ حركة (سلطة الهوتو) المتزايد، من وظائفهم في الإذاعة، ولكن هذه العصبة التي هندست حملة للإبادة الجماعية، لم تثق بوسائل الإعلام المملوكة للدولة لأحداث التعبئة النفسية الضرورية، وخصوصاً بعد اضطرار الحزب الحاكم تحت تأثير ضغوط داخلية وخارجية متراكمة لمشاركة السلطة مع الجماعات الأخرى السياسية من الهوتو، وبشكل خاص مع جبهة (R P F) التوتسية، وخشية من نهاية موقعها المميز وامتيازاتها، فإن الدائرة المحيطة بالرئيس والمكونة بشكل خاص من زوجته وعائلتها سعت لإعادة تشكيل الهوتو- كجبهة عرقية متماثلة- موحدة بالكره والخوف من الأقلية (التوتسي).

ولتحقيق هذا الهدف، فإن المخططين للإبادة، وضعوا أملهم الأكبر في الإذاعة، وكانت RTLM من اختراع العصبة المحيطة بالرئيس الرواندي، قناة تم التخطيط لها لإثارة المشاعر المعادية للتوتسي، وبالنسبة لمهندسي حملة الإبادة الجماعية فإن الراديو مثل إغراء كبير في بلد فيه وفقاً لإحصاء عام ١٩٩١، ٤٤٪ من السكان لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة، وفي وقت كانت فيه الأجور متردية والأسعار ترتفع عالياً بسرعة الصاروخ، فإن القلة من المتعلمين الروانديين كان بإمكانهم الحصول على الجرائد التي كانت كلفتها في ذلك الوقت معادلة لمعدل الأجر اليومي لعامل ريفي مهاجر.(١)

وكانت ظروف الأزمة الاقتصادية، متزامنة مع هبوط حاد لأسعار القهوة عالمياً، وبـ شروط سياسات الإصلاح الهيكلي لصندوق النقد الولي (IMF) (والتي توصي بخصخصة القطاع العام، وبتخفيض مؤسسات وخدمات الخدمة الاجتماعية التابعة للدولة، زادت من تقبل الهوتو المعوزين لرسائل المتطرفين.(٢)

والراديو الذي كان متوافراً أكثر من الإعلام المطبوع، مثل أيضاً ميكانزمية قوية لتفعيل مشاعر الجماعة، وتزيد من التماسك وتثبت التحالف الأثني

1 - Higiro, J.M (2007) Rwandan Private Print Media on the Eave of the genocide, in Thompson.
2 -Pottier, J (2002) Re- Imagining Rawanda, Cambridge University of Cambridge Press.

في مواجهة ما صوره القائمون على الإذاعة، على إنه تهديد وشيك بالإبادة على يد (الغرباء).

والراديو ينزع إلى أن يكون وسيلة اجتماعية، كما رأى فيه ذلك جوزيف غوبلز وقدره كثيراً، بينما تقرا الجرائد عموماً بشكل منفرد، فإن الإذاعة يمكن الاستماع إليها جماعياً، وهي ظاهرة تم تشجيعها في كل من رواندا والرايخ الثالث وسرعان ما توصلت إذاعة RTLM للهيمنة على مساحة الرأي العام، وكان أسلوبها الشعبي يعزز حساً من الانتماء الجمعي، مع موسيقى آسرة، ومشاركة مباشرة للجمهور على شكل مكالمات هاتفية، ومقابلات جماعية ميدانية، ولكونها متاحة للجماهير غير المتعلمة، فإن الـ RTLM أسست قاعدة عريضة من التأييد، وهي ظاهرة تساعد في تفسير كيف أن ليس فقط الميليشيات من الفقراء بل أن رجال الأعمال، والمعلمين وعمال المنظمات غير الحكومية ورجال الدين ساهموا في حملة الإبادة الجماعية كـ (قتلة، جساسين، مخبرين، نهابين، لوجستيين ومشجعين).[1]

وأن إذاعة RTLM لم تكن محطة مملوكة للحكومة، إذا جاز القول، بل كانت لعصبة معينة، والتي وجدت مجموعة المذيعين على هواها لأداء وظيفة مخطط لها بشكل واضح، لتحشيد الطاقة الشعبية للذبح، والذي قاموا به بنجاح لا نزاع فيه.

التلاعب:

(لقد تم الكذب علينا) هذه هي العبارة الشائعة لدى الصحفيين الذين يتم عدم التصديق بقصصهم ومقالاتهم خلال الحرب أو بعدها، وهو أمر صحيح تماماً، ويحدث مراراً وتكراراً، حيث يتم تضليل المراسلين الصحفيين على يد صناع السياسة، وخبراء دعايتهم، وموظفيهم المختصين بالعلاقات العامة داخل وخارج الحكومة. ومن قبل الدول الأجنبية وسفرائها أو وكلائها المفوضين عنها، وكما قال الكاتب ف، سنو ذات مرة: (إذا كنت تريد أن تعرف حول الحكومة أكثر،

1 -Li, D (2007) (Echoes of Violence) In Thompson.

فكل ما عليك معرفته هو كلمتين اثنتين: الحكومة تكذب!)، لذلك يجب أن لا يكون مفاجئاً عندما يتعلق الأمر بالدعوة أو التحريض على الحرب، كم تعتمد الأطراف المهتمة على الكذب واختلاق الوقائع، والتمسك بكتمان بعض التفاصيل الخ.

ان التلاعب يشكل ثيمة مهيمنة في دراسة التاريخ والتغطية الإخبارية للحرب ولقد نشأت دراسات الاتصال كحقل أكاديمي في العشرينات من القرن الماضي مع دراسة تقنيات الدعاية التي استخدمت لتسويق فكرة التدخل لدى الجماهير الأميركية وإدامة الالتزام العام تجاه حرب لإيضاهيها حرب أخرى في الاتساع مدفوعة بجهود أكاديمين مثل هارولد لاسويل Lass well وآخرين، حريصون على عدم وقوع المواطنين الأبرياء في شرك الدعاية المتلاعبة بالعواطف مرة ثانية، ولقد تعلم الأميركيان كيف عمل عملاء الانجليز على زراعة المشاعر المؤيدة للتدخل. (غاري ١٩٩٩، Gary ، ص ٥٥).[1]

كتب واحد من أوائل محللي الدعاية المنتظمين (بونسونباي) قائلاً: (لا بد إنه كان هناك كذب متعمد في الفترة من ١٩١٤ وحتى ١٩١٨ أكثر من أي فترة أخرى في تاريخ العالم) (بونسونباي ١٩٢٨، ص ١٩).[2]

وان القصة الأكثر بروزاً عن الفظائع التي ارتكبها الألمان خلال الحرب، كانت عن مصنع الجثث الألماني المزعوم، الذي كان يعمل على إذابة جثث قتلى الجيش الألماني لاستخلاص الجليسرين منها، تم كشفها بوصفها تلفيق متعمد نشرت في عام ١٩١٧ من قبل المسئولين البريطانيين في محاولة لإثارة المشاعر المعادية للألمان في الصين (بونسباي ١٩٢٨، ص ١١١، و ريد ١٩٤١ Read).[3]

1 -Gary, B (1999) The Nervous Liberals: Propaganda Anxieties. From World War 1 to the Cold War, New York, Columbia University.

٢- نفس مصدر سابق.

3 -Gary, B (1999) The Nervous Liberals: Propaganda Anxieties. From World War 1 to the Cold War, New York, Columbia University.

وعلى كل حال، فليست كل قصص الفظائع والمجازر الوحشية تم تصنيعها، وتلك القصص التي ثبت أنها تمت المبالغة بها كثيراً، لم تكن كلها من اختراع رجال الدعاية الانجليز، بعض القصص كانت على الأرجح مبالغات من ساحة المعارك عن سلوك كان جنود الحلفاء قد شهدوه بالفعل، ولكن البعض الآخر وبضمنها القصة عن صلب جندي كندي، كانت مجرد شائعات متداولة بين الجنود، بالرغم من أن المدنيين أنفسهم يمكنهم اختراع قصص عن التعطش لسفك الدماء، ولكن حتى لو كان رجال الدعاية قد لفقوا بعض الروايات، فإن الحكومة نفسها روجت كثيراً لروايات الميدان، والروايات المشوهة، التلفيقات الصريحة مع نشر تقرير برايس Bryce في عام ١٩١٥، (تقرير لجنة المزاعم حول فظائع الألمان)، وهذه الوثيقة المكونة من ستين صفحة نتجت عن تحقيقات رسمية عن ممارسات الألمان في بلجيكا المحتلة، مع ملاحق كبيرة من شهادات العيان، ولكن كاتبيها تجنبوا أية محاولة للتحقق من وثاقة هذه الروايات، للتميز بين الشائعات وأنصاف الحقائق، أو للتأكد من ان الشهادة لم تقدم استجابة لأسئلة موجهة(ويلسون ١٩٧٩، ص ٨٣).(١)

ومن خلال ميزة إعادة إنتاجها في تقرير رسمي فإن هذه القصص تم إعطاؤها اعتباراً أكبر مما كانت ستحصل عليه في حالة أخرى، كما كانت تأمل حكومة لندن بلا شك، وساعدت عملية النشر في تهدئة الشكوك الأولية الأميركية حول قصص وحشية الألمان في بلجيكا، وكان الصحفيون الأميركيون الذين ساروا إلى بلجيكا في أيلول ١٩١٤ انتهوا إلى عدم التصديق بالقصص المعادية للألمان، لأنهم لم يجدوا شخصياً أي دليل يرتبط بها(ريد، ١٩٤١، Read ، ص ٢٩- ٣٠).(٢)

وعندما ظهر تقرير برايس، لاحظ رجال الدعاية الانجليز بكثير من الرضا، بأنه (حتى في الصحف المعادية للحلفاء، لم تكن هناك أبسط محاولة لتنفيذ مدى صحة الوقائع المزعومة، وأن مكانة لورد برايس في أميركا، جعلت

1 - Wilson, T(1979) (Lord Bryce's : Investigation in to Alleged German Atrocities in Belgium 1914-15) Journal of Contem Povavg, 14, 369-83.

2 - Read, J (1941) Atrocity Propaganda 1914- 19, New Haven, C T: Yale University Press,

الشكوك خارج محل التساؤل، والعديد من المقالات الافتتاحية تبدأ بهذه الملاحظة)، وهللت صحيفة النيويورك تايمز عملية النشر بـ العنوان الرئيسي (وحشية الألمان تم إثباتها) (أنظر روس ١٩٩٦ ، Ross).[1]

وهكذا فإن التقرير نفسه كان إما (واحداً من أسوأ فظائع الحرب) أو (ضربة بريطانيا العبقرية) وفقاً لمنظور (لاسويل ١٩٢٧، ص ٨٨).[2]

وبعد تلك الحرب أقسم الصحفيون الأميركيون على أنهم لن يتم خداعهم أبداً لهذه الدرجة، وهو قسم ظل يتكرر بعد كل حرب تقريباً!

ويمكن أن نجد مثالاً آخر في حرب الخليج ١٩٩١، ففي هذه الحرب كشفت التحقيقات الصحفية بعد الحرب أن أمير الكويت ونظامه المنفي خارج الكويت، قد عمل إلى توظيف خدمات مؤسسة العلاقات العامة الأميركية الرئيسية هيل ونولتون (Hill & Knowlton) بكفة ١٠,٨ مليون دولار، لإثارة مساندة أكبر من أجل شن الحرب بالنيابة عن الولاية النفطية الغنية، وكانت المحاولات الأولية لـ (هيل ونولتون) هي للعمل على ثيمات (إيجابية) مؤكدة على أمثلة مثل أن المرأة يمكنها قيادة السيارة حتى وأن لم يكن لها حق التصويت، ولكنها لم تلق آذاناً صاغية لدى من استطلعت آراؤهم عبر مكالمات بالهاتف وجماعات الاستبيان المثبتة (مانهايم، ١٩٩٤ ، Manheim، ص ٣- ١٤٢) .[3]

ونظراً لأن الهجمات السلبية تحدث استجابات أقوى، ركزت (هيل وهولتون) جهودها على (شيطنة) القائد العراقي، وفي هذا المجال، عملت قصة الحاضنات (كما روتها الفتاة الكويتية المراهقة نيره) على كونها البطاقة الرابحة، وزعم الرئيس بوش بأنه تأثر كثيراً بشهادتها حتى أعاد رواية قصة الجنود العراقيين الذين مزقوا الأطفال الرضع من حاضناتهم خمس مرات في مساحة خمسة أسابيع، (مارك آثر ١٩٩٣ ، Mac Arthur، ص ٦٥) [4]

1 - Ross, S (1996) (Propaganda For War) Jefferson, NC, McFarland.
2 - Lass well, H (1927) Propaganda Technique in the war World, London, Keg an Paul.
3 - Manheim, J(1994) Strategic Public Diplomacy, in Bennett and Paletz.
٤- مارك آرثر، مصدر سابق.

ولقد تم تعزيز مصداقية روايتها من قبل منظمة (امنيستي) الدولية، والتي كررت الإدعاءات بأن أكثر من ٣٠٠ رضيع قد توفوا بهذه الطريقة في تقريرها عن انتهاكات العراق لحقوق الإنسان في الكويت (نفس المصدر، ص ٦٦) وعموماً، فبعد الحرب، تم تسليط الضوء على أن نيره كانت في الحقيقة ابنة السفير الكويتي في واشنطن، وأن شهادتها المغرقة بالدموع، لم تكن رواية شاهد متأثر أكثر من كونها رواية ممثلة مدربة جيداً تهيأت لأداء فقرتها أمام لجنة الاستماع في الكونغرس بعناية على أيدي خبراء (هيل ونولتون) . (مصدر سابق، ص ٥٩).

وإحدى السمات المميزة لحرب الخليج ١٩٩١، كانت استخدام الحكومة الأميركية لمؤسسات العلاقات العامة لمصلحتها، بضمنها (هيل ونولتون) ومجموع (ورثلين Wirthlin)، لأجراء استطلاعات للرأي والعمل على (تطوير المسألة) وكانت مهمتهم، بكلمات أخرى، هي إجراء اختبار قيادة للمسوغات للحرب وكأنها تسوق لماركة جديدة لمنتج تجاري جديد، بتطوير عبوة جذابة التي تعمل على دفع الزبائن المحتملين بالخداع نحو الشراء.

وفي سنة ١٩٩١، كان هذا تطوراً جديداً، ولكن بعد عشر سنوات لاحقاً مع بوش الصغير في المنصب، كانت هناك صلة وثيقة بين الإدارة التنفيذية وشركات العلاقات العامة الخاصة قد تم زيادة تماسكها، ولتدعيم (الحرب على الإرهاب)، لم يلجأ بوش إلى شركات العلاقات العامة فقط، ولكن عين خبراء التسويق المهنيين لمناصب هامة ضمن آلية اتصالاته الإستراتيجية، وكانت المتحدثة باسم البنتاغون فكتوريا كلارك، رئيسة سابقة لمكتب (هيل ونولتون) في واشنطن، تم تكليفها بالجمع بين (مجموعة من أعضاء جماعات الضغط ورجال علاقات عامة وأعضاء جمهوريين) للعمل على تسويق الحرب ضد العراق.[1]

والعديد من أعضاء هذه المجموعة تم سحبها من نفس الفريق الذي عمل على تأطير (عملية حفظ الحرية) إعلامياً في أفغانستان، على أنها مهمة إنسانية والنظر

١- ويسترن، مصدر سابق، ص ٢٠٠٢.

إلى (ضـربتها الكـبرى) علـى أنهـا كانـت تهـدف إلى (فـضح معاملـة الطالبـان للنساء).(رامبتون وشاوبر، ٢٠٠٣، Stabbers & Ramp ton ص ٣٨). [١]

ومنـذ عـام ٢٠٠٣، قـد توسـعت العديـد مـن الدراسـات في دراسـة جهـود إدارة بـوش في توجيـه ضـربة تحـت الحـزام في قضية العـراق، وان العنـاوين الـتي أختارهـا كتابها، لا تترك أي شـك بـأن الـصحفيين مـرة أخـرى، قـد تم الـكـذب عليهم وهـم يمارسـون الكـذب كـذلك مثـل: (الـصحفيون المـصاحبون: أسـلحة الخـداع الـشامل) (عندما تكـذب الأخبـار، الحـرب في العـراق ولماذا أخـذلتنا وسـائل الإعـلام، أخبرني بالأكاذيـب)، (تشيـشتر Schechter ٢٠٠٣، تشيـشتر ٢٠٠٦، دادج ٢٠٠٦، ميلـر ٢٠٠٤، على الترتيب) ، وبينما اقتنع العديد من المعلقين بما ظللت إدارة بوش تستمر في ترديده من أن الرئيس ومستشاريه قد تم تضليلهم أنفسهم من قبل الاستخبارات الخاطئة، فإن معظم النقاد سرعان ما وجدوا القليل من المساحة للشك، بـأن الخطـأ الرئيسي الـذي وقعت فيـه الاسـتخبارات الأميركيـة نـتج عـن إصـرار الـرئيس علـى أن الدليل يجب أن يتم إيجاده (وتلفيقـه إذا كـان ذلـك ضرورياً) لزيـادة صـلابة القـضية ضد العراق، وكما صاغها أحـد المحللين في البرنـامج الوثـائقي (فرونـت لاين) الـذي تمـت إذاعتـه في المحطـات الرئيـسية، بـأن زمـلاءه قـد تم الطلـب منـهم إنتـاج (الإيمـان المستند على الاستخبارات)[٢]

ولا يوجـد شـك في أن الإدارة الأميركيـة قـد عملـت بنـشاط محمـوم لإعـادة إحياء مسألة أسلحة الدمار الشامل (WMD)، وإلى التلميح بوجود علاقـة بين بغداد والقاعـدة، وإلى جـذب الانتبـاه إلى سـجل صـدام حـسين في انتهـاك حقـوق الإنـسان، وطبقاً للرئيس بوش فإن التخطيط للحرب يجب أن يكون في غاية السرية لأنه يعـرف (بـأن ذلـك سـيحدث إذا اعتقـد النـاس بأننـا نطـور جهـداً أو خطـة حـرب مـن أجـل العراق).[٣]

1 -Ramp ton, Sand Stauber, J (2003) Weapons of Mass Iraq, New York: Tarcher / Penguin.

٢ - ماسنغ، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

٣- الاقتباس لدى ويسترن ٢٠٠٥، ص ١٩٣، Western.

ولكن مع الجهود المكثفة لإثارة الرأي العام فإن هذا التخطيط كان من الصعب إبقاؤه سراً، ودعا اندرو كارد، رئيس طاقم إدارة بوش، مجموعة من خبراء البيت الأبيض الخاصة بالعراق للاجتماع لتنسيق (رسالة يومية حول العراق) ولإنشاء موقع الكتروني بعنوان (العراق: عقد من الخداع والانحراف) لتأسيس قضية بأن صدام حسين كان يخرق منذ زمن طويل شروط وقرارات الأمم المتحدة حول نزع أسلحة العراق التي فرضت بعد ١٩٩١، وبدأ بوش في استخدام عبارة (محور الشر) لزيادة صلابة الصلة المتخيلة بين صدام حسين والقاعدة، معيداً تأطير الصراع مع العراق، تحت شعار الحرب العالمية الثانية الذي سماها بـ (الحرب الصليبية) التي شنت ضد (محور) اليابان، وألمانيا وايطاليا (ويسترن ٢٠٠٥، ص ١٩٥).

وتضمن بناء القضية ضد العراق ترويجاً مكثفاً للثيمات المفضلة لدى الإدارة الأميركية، والأطر والمقارنات والأدلة الظرفية على سبيل المثال، أن محمد عطا (المختطف المزعوم لطائرة رحلة الخطوط الجوية الأميركية رقم ١١) قد التقى بضابط مخابرات عراقي في براغ بعدة أشهر قبل هجمات ١١ سبتمبر، وهو إدعاء تم إسقاطه في (تقرير ٩/١١).[1]

وكانت الذروة لهذه الجهود قد تمثلت في العرض العلني على نطاق واسع بخصوص (نوايا وقدرات العراق) الذي قام به كولن باول وزير الخارجية الأميركي في ٥ شباط ٢٠٠٣، أمام اجتماع لمجلس الأمن، وهو الخطاب الذي قال عنه وزير الخارجية السابق فيما بعد بأنه مثل (نقطة الحضيض في مسيرته المهنية)! وفي الصباح التالي، أعلنت الواشنطن بوست أن دليل باول كان (لا يمكن دحضه) بينما استنتجت (النيويورك تايمز) بأنه بينما قد يكون (لم ينتج مسدساً عليه آثار الدخان) *، فإن وزير الخارجية ترك (قليلاً من التساؤلات بأن صدام حسين قد حاول جاهداً لإخفاء واحد) فإن الصحف الأميركية البارزة الأخرى، مثل لوس انجليس

١- روبنسون وليفنغستون، ٢٠٠٦، ص ٣١

* - بمعنى القبض على الدليل الدامغ بالجزم المشهود (Smoking gun).

تـايمز وشـيكاغو تريبيـون، ويـواس تـوداي و وول سـتريت جورنـال، كلـها قرعـت أجراسها في افتتاحيات مروجة للخطاب.[1]

وطبقاً لدراسة أكاديمية لاحقة، كان هناك (قفزة من ٣٠ نقطة في عدد الأميركيين الذين شعروا بالاقتناع بوجود صلة بين صدام حسين والقاعدة من الذين استطلعت آراؤهم بعد حديثه.

وبالطبع فإن المراسلين والمحررين، غير ملزمين بتقديم مثل هذه المصادقة، غير ان ردة الفعل المتدفقة هذه على خطاب باول إنما تظهر نفوذ كوادر العلاقات العامة على ترتيب الأولويات (وضع الأجندة)، وكم من المصداقية التي تم استثمارها في التصريحات الصادرة عن السلطة، والتي يتوجب فيما بعد فضحها وتكذيبها، ولكن خبراء الدعاية التابعين للبيت الأبيض كان لهم مظهر آخر (أن إجراءاتهم التدبيرية هي أكبر بكثير من أي إدارة أمريكية أخرى سبق لي أن شهدتها) كما يلاحظ جون والكوت من مجموعة (نايت رايدر) وهو يصف (فريق إعلام) إدارة بوش، و (الترويض) وسائل الإعلام، كان يتم مكافأة المراسلين المتعاطفين بـ (تسريبات، مقابلات حصرية، ومقاعد على متن الرحلات الرسمية) بينما يتم تجميد أولئك الذين لم يلعبوا دوراً منسجماً، وكما يلاحظ ناقد وسائل الإعلام ميشال ماسنغ (في مدينة يكون فيها قابلية الوصول هو كل شيء، فإن القلة فقط هم من يخاطر بفقدانها).[2]

وبفضل السيطرة على أكثر الممتلكات الإستراتيجية حيوية، فإن مديري إعلام إدارة بوش لم يعوقوا التحقيقات الاستقصائية فقط، بل حيدّت المساءلة الفظة مع التهديد بخطر حرمان المراسلين المثيرين للمتاعب من المصدر الأساسي لمهنتهم: المصادر التي تصنع الأخبار.

---

١ - مصدر سابق، دورمان ٢٠٠٦، Dorman، ص ١٧.

٢ - مصدر سابق، ماسنغ ٢٠٠٤، ص ٤٦.

الأنماط التقليدية للأخبار:

إذا كان التضليل والتلاعب حقيقة من حقائق الحياة، وأن القادة السياسيين يقومون روتينياً بزخرفة القول من أجل دعم قضية الحرب التي يودون خوضها، فلماذا يسمح الصحفيون لهم بالإفلات بأفعالهم؟

وعلى كل حال فإن الصورة عن الذات للعديد من المراسلين في الأنظمة الديمقراطية مبنية حول المفهوم الذي ينظر للصحفيين على أنهم كلاب حراسة شرسة التي غالباً ما تغرس أنيابها في جسد السياسيين الكاذبين، وترفض تركهم حتى يحصلون على إجابة مقنعة حول السؤال التالي: { لماذا يكذب هذا الوغد الكاذب عليّ؟} – وهذا الاستجواب الذي غالباً ما ينسب إلى مقدم برنامج (نيوز نايت) في إذاعة الـ BBC ،جيرمي باكسمان كان في الأصل قد تم تقديمه من قبل لويس هيرون Louis Heron نائب رئيس تحرير سابق لصحيفة (التايمز) اللندنية (أنظر ويلز ٢٠٠٥) .

وفي الأشهر السابقة على عملية (حرية العراق) في ٢٠٠٣، كانت هذه الروحية من البحث المحقق كان ظاهراً أكثر في بريطانيا عما في الولايات المتحدة، وفي ما اشتهر بسرعة باسم العلة ذائعة الصيت Celebre Cause ، كرر مراسل الـ BBC ،اندرو جيليغان، الرأي الخاص بخبير حكومي في الأسلحة مجهول الاسم (اتضح فيما بعد أنه دافيد كيللي الذي قام بالانتحار لاحقاً في موجة غضب) والقائل بأن مزاعم الاستخبارات عن قدرات العراق من أسلحة (WMd)، قد تم اختلاقها عمداً في ١٠ دوانتغ ستريت (في إشارة إلى مقر الحكومة البريطانية)، ومع ذلك فإنه في بلد كان فيه ٧٥٪ ممن استطلعت آراؤهم في يناير ٢٠٠٣، يعارضون الحرب على العراق، فإن الصحف الكبيرة الأكثر توزيعاً وصحف التابلويد الأكثر شعبية (التايمز، الديلي تلغراف والسن) مع ذلك كله فضلت متابعة الخط الذي التزمه بوش وبلير حول سعي العراق لامتلاك الأسلحة.[1]

---

١ - كولدري وداوني ٢٠٠٤، Couldry & Downey.

ويمكـن تفـسير النزعـة للحـرب أو الجـبن أو الـسذاجة وسـهولة الانخـداع الصحفي بطرق عدة، اعتماداً بشكل جزئي، على مدى سلبية أو فعالية الدور الذي لعبتـه وسـائل الإعـلام (باعتقـاد المـرء) في صـناعة الإجمـاع عـام ٢٠٠٣، البعض مـن المعلقـين وبـضمنهم صـحفيين، نـسبوا قـدراً كـبيراً مـن حالـة المـزاج المهتـاج بـشكل عصبي في أميركا ما بعد ٩/١١ ، إلى الـصحفيين أنفسهم، والـذي منعهم مـن طـرح أسئلة قوية على الرئيس البالغ الشعبية في حينه جورج بوش، وتستذكر المراسلة دانـا بريشا، ردة الفعل التي واجهتها صحيفة (الواشنطن بوست) عندما انتقدت الرئيس بـوش: (تلقينـا أطنانـاً مـن رسـائل الكراهيـة، الـتي وضـعت مـدى وطنيتنـا محـل التساؤل)، وفي موجة من الابولوجيتيكا (الدفاع عن العقيدة المعتنقة) التي سرعان ما أتبعـت اجتيـاح العـراق، بـرأت المؤسـسات الإعلاميـة نفـسها جزئيـاً بهـذه الطريقـة، ومـستندة أيـضاً علـى أن سـلطة النظـام الفعالـة مـن التهديـد والمكافـأة ضـمنت أن الصحفيين أظهروا الاحترام الواجب تجاه أولئك الذين يحملون العصا والجزرة، كما أنهـم أيـضاً ألقـوا بـاللوم علـى قلـة مـن الـصحفيين لافتقـادهم للمهنيـة، وهكـذا فـإن صحيفة نيويـورك تـايمز المتظلمـة، ألقت علـى جوديت ميللـر عـبء نشر عـدة مقـالات ابتـداء مـن خريـف ٢٠٠١ وحتـى ٢٠٠٣، بنـاء علـى معلومـات (مـشكوك في صـدقها) ولكونها (غير مؤهلة كفاية أو سمحت بتمرير المعلومات دون مناقشتها).[١]

وفي افتتاحيـة نـشرت في تمـوز ٢٠٠٤ لـصحيفة التـايمز، أبـدت فيهـا نـدمها، بأنها وهي صحيفة (أميركا ذات السجل البارز) لم تفعل المزيد (لتحدي افتراضـات الـرئيس) وأنهـا لم تـستمع بعنايـة إلى أولئـك الـذين جـادلوا بخـصوص ملكيـة العـراق لأكوام من أسلحة (WMD)، (لقد كنا أشبه بـ جماعـة تفكير خاصة بنـا، كمـا تعترف الصحيفة.[٢]

ولكن هذه التفسيرات لا تقدم توضيحاً كاملاً لهذا السلوك الذي لم يكـن فريداً بعصر ما بعد ٩/١١، ولا كـان مختصاً بحفنـة مـن الـصحفيين البـارزين الـذين

---

١ - مصدر سابق ، ويسترن ٢٠٠٥، ص ٢٤١.

٢ - مصدر سابق، مقتبسة من قبل دورمان ٢٠٠٦، ص ١٨.

تخلوا عن معاييرهم مؤقتاً، فنفس هذه الدورة قد تم تشغيلها قبل أكثر من عقد من السنين بقليل خلال حرب الخليج ١٩٩١، التي تميزت باعتناق وتأييد غير نقدي لدوافع الإدارة الأميركية نحو الحرب، أتبعها موجة من تمزيق الشعر، وتوزيع الاتهامات بالتضليل والكذب على الصحافة، بعد الحرب، ولفهم هذه الأغراض المرضية المتكررة نحن بحاجة إلى تقرير بنيوي أكثر عمقاً، عن كيف تصنع وسائل الإعلام (الأخبار)، وكيف تنظر إلى وظيفة الأخبار التي تقوم بصناعتها.

ومن الواضح أن صناعة الأخبار هي عملية لا يمكن شرحها كحالة فردية، وأن ما يعد خبراً، وما يعد ذا قيمة إخبارية، يختلف وفقاً للسياق الذي ينتمي إليه، من فترة تاريخية إلى أخرى.

من سياق وطني معين إلى آخر، ومن منفذ إخباري إلى منفذ آخر في نفس الموقع الجغرافي وفي نفس الزمان، وعند هذه النقطة نكون قد أوضحنا لأنفسنا الفهم الأولي، حول كيف تعمل وسائل الإعلام الرئيسية لتفسير مهمتها من خلال تقدير أفضل الاختلافات التي شرحناها للتو، وثمة نقطتين مهمتين لابد من إيضاحها: أولاً، القيمة الإخبارية المتسلسلة تراتبياً التي تسبغها المنظمات الإعلامية إلى مصادر النخبة: وفقاً لـ المكانة ذات الامتيازات العليا التي تعطى للرئيس على قمة السلطة السياسية، يتبعه بشكل وثيق جداً كل من البنتاغون ووزارة الخارجية، وهو ما يدعى بـ (المثلث الذهبي) للسبق الصحفي، بحيث أن وسائل الإعلام متناغمة مع السلطة التنفيذية لحد كبير، مما يوفر حرية كبيرة للبيت الأبيض في العمل على ترتيب قائمة الأولويات وتأطير النقاشات في طرق مناسبة جداً لمصالحها، كما سبق أن رأينا.

كما يساعد أيضاً في تفسير لم تعد القدرة على النفاذ إدارة نافذة جداً في ترسانة إدارة البيت الأبيض للتحكم بالأخبار، فإذا كان الصحفي على سبيل المثال يَعدّ مدى واسعاً من الأفراد والمنظمات كصناع أخبار ذوي سلطة مؤثرة، فإن الخطر في أن يتم أبعاده عن الايجازات الصحفية الرسمية لا يكاد يكون أدارة تأديبية فعالة أبداً، وكما يوضح العديد من دارسي الاتصال، فإن وسائل الإعلام الأميركية

الرئيسية، قد أخذت تعرف بشكل متزايد وظيفة الأخبار ليس على أنها تقديم أكبر قدر ممكن من طيف وجهات النظر المختلفة حول مسألة معينة، بل عوضاً عن ذلك على أساس أنها عملية تتبع بارومتر زئبقي للمداولات السياسية في الكابيتول هل (بينيت ١٩٩٠، إينتمان وبايج Entman and Page ١٩٩٤، زالر وتشيو Zaller and Chiu ٢٠٠٠)، وبلغة عالم الاتصال لانس بينيت Lance Bennett، فإن التغطية الإعلامية هي عبارة عن (القيام بالفهرسة المفهومة لمناظرات الاجتماعات الحكومية).[1]

وفي ضوء (فرضية الفهرسة) هذه، كان من المتوقع بان وسائل الإعلام الأميركية في كل من ١٩٩١ و ٢٠٠٣ سوف تفشل في توسيع المناظرات العامة في نطاق حرب متفق عليها ضد العراق، وبدلاً عن ذلك فإنها التصقت بشكل وثيق بالآراء السائدة في الكابيتول هل، وطالما ان الديمقراطيين في مجلسي الشيوخ والنواب قد فشلوا في فرض معارضة قوية ضد الحرب، فإن الصحافة كذلك لم تفعل، ومن خلال تعبير الانتباه بدقة بالغة إلى النخب السياسية، تدعي وسائل الإعلام الإخبارية بأنها تمارس (التوازن) ويجب أن تفهم وفقاً لذلك بأنها تعمل وفقاً لمعايير محددة بدقة.

ومفتاح ثان للقضية يتعلق بقيم (الموضوعية)، وهي مبدأ آخر مبجل من مبادئ الممارسة الصحفية، وبمصطلحات أوضح، يمكن لنا أن نتصور بأن الموضوعية قد تتضمن المراسلين وهم يتفحصون بتدقيق شديد التحيزات الشخصية والتفضيلات والنقاط المبهمة، وهم يعرضون تصريحات المصادر الهامة إلى التدقيق، والتأكد من الحقائق، والرجوع إلى المصادر بشكل متبادل.[2]

ولكن كما سنرى في الفصل القادم فإن هذا الفهم الذي يتبع الحس السليم لما تعنيه كلمة (الموضوعية)، لا يحدد في الواقع الممارسات الصحفية للموضوعية،

1 - Bennett, W (1990) (Toward a theory of Press- State Relation in US) Journal of Communication, 40, 103, 25.
2 - Cunningham, B (2003) (Re- thinking objectivity) Columbia Journalism Review, July/ August, 24-32.

وعلى سبيل المثال، فإن جوديث ميللر دافعت عن قصصها عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، والعديد منها كان يعتمد على تقارير استخبارية مشكوك فيها تعتمد على روايات منفيين عراقيين لهم اهتمام غير مكشوف في التدخل الأميركي للإطاحة بصدام حسين، على الأسس التالية:

{إن مهمتي لا تكمن في تقسيم معلومات الحكومة، وأن أكون محللاً مستقلاً بنفسي، إن مهمتي هي في أخبار قراء النيويورك تايمز حول ما تعتقده الحكومة عن ترسانة العراق}.[1]

ومع وضع هذا في الذهن، فإن التغطية غير النقدية لحد كبير للسياسات الرئاسة حول الحرب في ١٩٩١ و ٢٠٠٣، تظهر بشكل أقل على أنها انتهاكات للإجراءات الصحفية المتبعة، بل في الحقيقة نتيجة للمحصلة المتوقعة عن مجموعة من الأنماط المهنية التي تهتم بشكل أكبر في متابعة ما يصدر عن صناع القرار، مما تهتم بمعارضتها أو تفنيدها، وباختصار، فإن الصحفيين لم يفشلوا كثيراً في أداء عملهم في هذه العملية، كما لو أنهم فشلوا لأنهم يؤدون عملهم لأنهم يفهمونه بطريقة معينة الطريقة التي تعلي من قدر المصادر الخاصة (النخبوية) على أنها المعرف الرئيسي للخبر.[2]

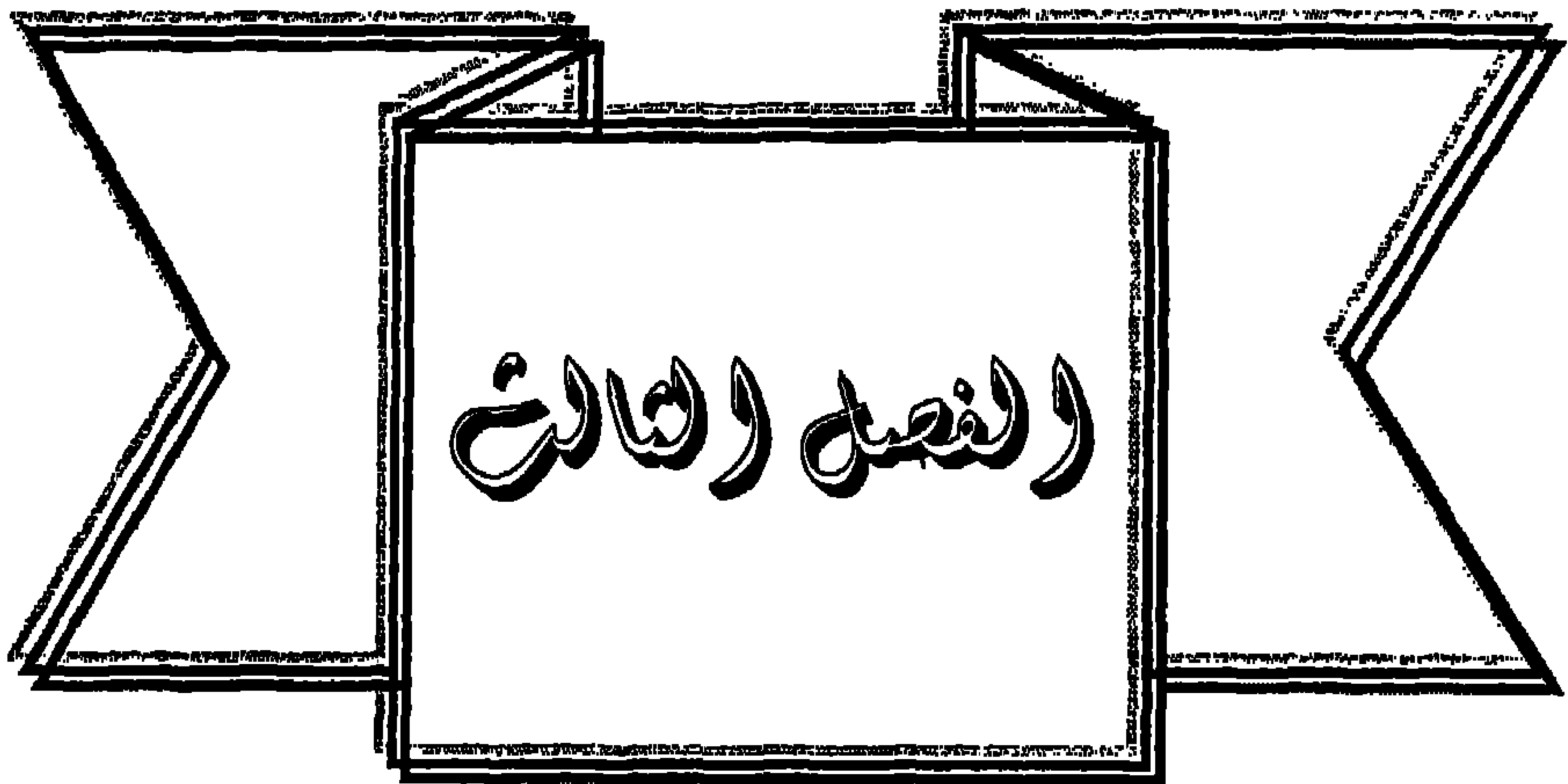
ولاعتبار وسائل الإعلام على أنها ضحية لا حول لها نتيجة للتلاعب والتضليل يعني إغفال العلاقة التكافلية المعقدة، التي تمثل علاقة ذات اتجاهين من الاحتياج المتبادل، فإن وسائل الإعلام الإخبارية غير مجبرة على إعطاء مثل هذا التقييم العالي للسلطة التنفيذية، وفي عام ٢٠٠٣ على سبيل المثال، كان بإمكانها عكس مدى عريض من وجهات النظر، وتجذب الانتباه إلى الآراء المعارضة للحرب للمفكرين الليبراليين، والأكاديميين، والمختصين في منطقة الشرق الأوسط، والناشطين المعاديين للحرب... الخ.

---

١ - مصدر سبق ذكره ، الاقتباس عند ماسنغ، ٢٠٠٤، ص ٦٢ .

٢- كالدروي وداوني، ٢٠٠٤، ص ٢٧٥.

ولكن الإجماع يحتل مكانته ذات الامتيازات المفضلة في بيئة صناعة الأخبار الرئيسية في أميركا والتي تمثل البيئة المثالية، والتي تمثل نزعة عميقة في تجاهل أو نبذ أولئك الذين هم خارج الدائرة الداخلية لصناعة القرار، مما يحقق نبوءة محققة للذات: أولئك الذين هم خارج الدائرة السحرية يظلون خارج إطارها، أما أولئك الذين في محورها. فيعطون القوة والسلطة الكاملة لحراسة وتأمين حدودها.



الحرب الشاملة

{ما من شك في أن تلاعب الحكومة بالرأي العام هي نتيجة منطقية لا يمكن الهروب منها للحرب الحديثة الواسعة النطاق}.

هارولد لاسويل ١٩٢٧.

إن هذا الحكم الذي أصدره العالم المعروف والمختص في حقل الاتصال هارولد لاسويل. كان بناء على خبرته فيما كان يدعى في حينه بالحرب العظمى.*

الصراع الأكثر تدميراً في تاريخ البشرية حتى حينه، الذي قامت فيه كل دولة مشاركة بقصف السكان المدنيين من أعدائها، والذين على الحياد، وحتى سكانها كذلك بالقنابل من دون رحمة أو سابق إنذار أو تهديد، وكان لاسويل وهو يكتب في ١٩٢٧، بأن تأكيده هذا سوف لن يوضع على المحك في المستقبل حيث كانت الحرب العالمية الأولى يقصد بها أن تكون (نهاية لكل الحروب)، و لكن العديل من تقنيات التلاعب بالرأي العام التي كانت رائدة في الفترة بين ١٩١٤ وحتى ١٩٤٥، والذي نعرفه باسم الحرب العالمية الثانية.

لماذا أصبحت المواقف الشعبية مهمة بطريقة غير مسبوقة في الحرب الحديثة الواسعة النطاق؟، بالطبع لم تكن المسألة هي إن الخصم السياسي الرئيسي كانت أنظمة ديمقراطية والتي شعر قادتها بأنهم مجبرون على إبقاء مواطنيهم مطلعين حول الشؤون الخارجية، وصناعة القرار محلياً، في ألمانيا، حيث كانت الحركة الاشتراكية فيها فاعلة لحد كبير، كان التحريض على العصيان يعاقب بالزج في السجن، وكانت روسيا القيصرية بعد ثورة ١٩٠٥، سائدة نحو الانهيار، حيث كانت عبارة عن نظام استبدادي، مع مؤسسات ممثلة بشكل محدود جداً للغاية.

ولم يكن ممكناً في أي من هذه الدول المتقابلة للمرأة أن تصوت في الانتخابات، وفي العديد منها، كانت حقوق الانتخاب يستبعد منها، الفقراء

* - الاسم الذي كان شائعاً لوصف الحرب العالمية الأولى Great War حتى إذا نسبت الحرب العالمية الثانية، استبدل الاسم بالحرب العالمية الأولى.

والأميين والمهاجرين، والأقليات العرقية، ولم يكن في هذه الدول أي مفهوم عن (حق العامة في أن يعرفوا) قد ظهر بعد، بل كانت بعيدة جداً عنه.

ومع ذلك، على كل حال، كانت مجتمعات، وكانت فيها وسائل الإعلام الجديدة تعيد تشكيل أنماط الاستهلاك، وعادات الترفيه، ووسائل الاتصال، في كل بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، كانت السينما قد بزغت كشكل مخدر من أشكال الترفيه الجماعي في السنوات الأولى من القرن العشرين.

بينما كان الراديو في مراحل فطامه خلال الحرب العالمية الأولى، ومتطوراً بسرعة كبيرة خلال فترة العشرينات والثلاثينات، سواء على شكل مؤسسة تدار من قبل الدول بشكل منفرد، أو مؤسسة تجارية هدفها الربح، والاستفادة من هذه القنوات النافذة والتي من خلالها يمكن الوصل لملايين من الناس في نفس الوقت برسائل قياسية، فإن رجال الإعلان المحترفين، وهم فصيلة أخرى أنتجها القرن العشرين، هذبوا فن الأغراء الشعبي، لبيع الناس منتجات لا يحتاجونها بشكل ضروري ولكنهم فجأة أصبحوا لا يستطيعون العيش من دونها.

وكذلك كان هو الحال بالنسبة للحرب، ففي صيف ١٩١٤، لم تكن هناك حماسة شعبية كبيرة للقتال، وعلى طرف نقيض، فإن العديد من الصحف الألمانية عبرت عن المشاعر المعادية للحرب، بينما في بريطانيا لم تكن على المستوى الأوروبي الواسع النطاق مرغوبة ولا متوقعة الحدوث، وكانت معظم الصحف مشغولة بالاحتمال القائم حول نشوب الحرب من أجل الحكم الوطني لايرلندا، من أن تخصص انتباها جدياً للأزمة التي تتكاثر نذرها على مستوى القارة الأوروبية.[1]

وبالنسبة للناس العاديين والأكثر فقراً كانت المسائل الأكثر مباشرة بحياتهم اليومية، مثل ظروف العمل، والأجور وأسعار الغذاء والإسكان، ومشاركة المرأة في الانتخابات... الخ، وهي ما يهمهم ويشغل بالهم أكثر، وفي السنوات الأولى من القرن العشرين، كان هنالك انتشار واسع للحركات العمالية، والإضرابات

---

1 - Thompson. J. Lee (Politicians, the Press and Propaganda) Kent, OH, Kent State University Press

والتوتر، كان هناك توسع للحركات الراديكالية في الأنظمة الاستبدادية في ألمانيا وروسيا القيصرية.

إلا أن اضطراباً من نوع آخر أمسك بتلابيب القارة الأوربية بعد اغتيال الارشيدوق الهنغاري النمساوي فرانز فردينالند، على يد وطني صربي متطرف، في حزيران ١٩١٤، ونتيجة للتحالفات التي قامت بين الدول وقسمتها إلى جبهتين متضادتين، جمعت بريطانيا وفرنسا وروسيا في جهة للحرب ضد ألمانيا والإمبراطورية النمساوية الهنغارية، وانضمت إليها الإمبراطورية العثمانية (أو الرجل المريض كما كانت تسمى)، وواجه المعسكرين المتضادين حاجة فورية إلى القوة البشرية، وكان التصنيع والمكننة يعني أن الحرب لم تعد تلك المناوشات المعتمدة على الخيالة والجنود المحترفين في القرن التاسع عشر، في هذه المواجهات الشاملة الجديدة: نشرت جيوشاً هائلة وأنواعاً جديدة من أسلحة الدمار: غواصات، دبابات، مدافع، مناطيد زبلن، صواريخ، ألغام، وحتى الغار السام، ولتلبية الحاجة المتزايدة للقوة البشرية وللمواد الأولية لهذه الآلات العسكرية، تطلب الأمر أن يدفع الرجال بقوة وبكتل كبيرة إلى ارتداء الزي العسكري، ما يقرب من ٧٠ مليون شخص في المحصلة النهائية، وفي هذه الأثناء، فإن النساء تم تحويلهن إلى قوة عاملة في المصانع، والحفاظ على المجهود الحربي بطرق أخرى مختلفة.

وأعادت الحرب الشاملة تفريق الأدوار التقليدية للجنس (من حيث هو نوع الجندر)، كما أزالت الفوارق التي كانت موجودة سابقاً بين المقاتلين وغير المقاتلين، وهذه الحرب الشاملة والواسعة النطاق تركت المدنيين واهنين أمام الهجمات، وهي وظيفة مميزة للصراعات على المستوى الواسع، حيث تتمدد خط المعارك ليعبر حدود القارة الأوربية وليصل إلى منطقة الشرق الأوسط وعملت التقنيات والتكتيكات العسكرية الجديدة على تحويل المجتمعات المدنية إلى ساحات مميزة للصراع، حيث تعرضت العواصم والمدن إلى القصف بالقنابل حيث قامت الطائرات بشكل متزامن بتدمير المناطق الصناعية الإستراتيجية وتمزيق أعصاب المدنيين، وكانت الموانئ عرضة للحصار، معرضة سكانها ليس فقط للقصف بل للتجويع

كذلك، وباختصار فإن الحرب الشاملة كان تعني شيئاً واحداً: ما من أحد يمكنه أن يبقى وراء حتى الرعايا في المستعمرات التابعين للإمبراطوريات الأوربية، الملايين منهم تم استدعاؤهم للخدمة في هذه المواجهة بين الإمبراطوريات المتحاربة، فبالنسبة للعديد من الدول المتحاربة، كان البقاء الوطني نفسه كان يبدو على المحك، وحتى في تلك الدول التي لم تكن تواجه خطراً وشيكاً من الغزو، وعلى الأخص في الولايات المتحدة فإن الخشية من الانهيار الحضاري، كان يتكثف في الأجواء بعد عام ١٩١٧.

وإذا أصبحت (جبهة الوطن) حاسمة للنجاح العسكري، أصبحت معنويات المدنيين عاملاً ذا أهمية بشكل غير مسبوق، وخصصت هيئات الأركان جهداً كبيراً لوضع استراتيجيات حول كيفية العمل على إضعاف روح القتال لدى جانب العدو بينما تعمل على رفعها في الوطن ولدى القوات العسكرية، ويظهر أن الحرب الشاملة تطلبت اقتناعاً شاملاً: مشاركة من القلب والتزام عميق بالقضية، وفقط إذا كل فرد بشكل حماسي تم تجنيده، أو على الأقل كان جاهزاً للتجنيد، يمكن ضمان النصر، وإن الحرب في الفترة من ١٩١٤ إلى ١٩١٨، شهدت ازدهاراً في قنوات الاتصال المدعومة من الدولة، على شكل صحف، أشرطة الأخبار، البوسترات، والكراسات، ولكن القادة السياسيين كانوا مقتنعين بأن الروح يمكن تمزيقها إذا ما تصور الناس الحقائق الوحشية لحرب الخنادق بشكل حيوي أكثر، وكما صاغها رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج لـ سي، بي سكوت، رئيس تحرير (ما نشتر غارديان): (إذا عرف الناس حقاً، فإن الحرب سوف تتوقف غداً، ولكنهم بالطبع هم لا يعرفون ولا يمكنهم أن يعرفوا، فالمراسلون لا يكتبون والرقابة لا تمرر الحقيقة).[1]

1 - Knietly, P (2004) the First Casualty, The War Correspondent as Hero and Myth –Maker From Cinma to Iraq, Bltimore, Johns Hopkins University Press.

بالإدعاء إنها حصدت ما بين ٥٠ إلى ٧٠ مليون نفساً (أكثر من نصفهم من المدنيين)، ومخلفة الملايين من اللاجئين، فإن الحرب العالمية الأولى فاقت في ضخامتها ما تلاها بكل طريقة ممكنة، وأصبحت ماكنة الدولة في السيطرة على وسائل الإعلام الجماهيرية و تشكيل الرأي العام ومراقبة تقلباته أكثر.

وكان هذا الأمر صحيحاً فقط في ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي، حيث أصبحت الأفلام والراديو والصحافة تخدم كأدوات للسيطرة السياسية والتوحيد الإيديولوجي في زمن السلم والحرب على حد سواء، ولكن أيضاً فإن بريطانيا والولايات المتحدة كانت حرية التعبير فيها غير حقيقية، وكان كل طرف يحاول استخلاص الدروس من الإخفاقات الدعائية السابقة في الحرب العالمية الأولى وكذلك من النجاح الباهر المزعوم لمنافسيهم في تحشيد الإدارة الشعبية .

وعلى الرغم من الجهود الحكومية المتدخلة بقوة لإذابة كل التصورات على جميع الصُعد بمختلف الطرق والإلهام وشيطنة العدو والحط من المعنويات، وان الحكم التاريخي الذي ألقي على أداء وسائل الإعلام في الحرب العالمية الثانية كان أكثر إيجابية من سابقتها، أما الحكم على (الحرب الكبرى) فكان ينزع إلى أن يكون قاسياً أكثر، (المزيد من الأكاذيب المتعمدة كان يتم أخبارها، أكثر من أي مرحلة أخرى في التاريخ)، كما يلاحظ فيليب ناتيلي Knightly وهو يرثي (مرحلة مخزية من تاريخ الصحافة).[1]

في تناقض مع التقييم الفج الذي يحيط بعمل وسائل الإعلام في الحرب العالمية الثانية والعديد من المعلقين الأميركيين اعتبر ذلك الصراع (بأنها أفضل حرب تمت تغطيتها أبداً) مستذكرين البث الإذاعي لأيد مورو من لندن أو ما كان يبعثه ايرني بايلي من خط الجبهة، والرسوم السوداء الساخرة لبيل ما ولدن Bill Mauldin، والصور المليئة بالحيوية لمارغريت بروك وايت.[2]

---

1 - Knietly, P (2004) the First Casualty, The War Correspondent as Hero and Myth –Maker From Cinma to Iraq, Bltimore, Johns Hopkins University Press 103.

2 - Ambrose, S (2001) (Preface) In Library of America.

وكانت عروض هوليوود السينمائية في زمن الحرب يتم تذكرها بالكثير من الإعجاب، وفي روسيا كانت التحقيقات من خط الجبهة لصحفيين مثل ايليا أهربنورغ، وفاسيلي غروسمان تلقى أعجاباً دائماً.

كيف يكمن لنا أن نستخلص العبر من هذه التقنيات المتشعبة للحربين الشاملتين هاتين خلال القرن العشرين؟

وربما أن كل جانب من المجهود الحربي للحلفاء ضد قوى المحور قد تم تنويره بالوهج الوردي لفكرة حب الوطن والتعلق به، والتي بذلك الإنشاء للحرب على أنها (حرب جيدة)، وبينما عانت الحرب العالمية الأولى من سمعتها بعد انتهاء الحرب لعدم أخلاقيتها وعبثيتها، أو هل إن الدول ووسائل الإعلام الجماهيرية قد تصرفت بالفعل بشكل مختلف خلال الحرب العالمية الثانية؟

إذن، كيف يمكن لنا أن نفسر مفارقة إن الحرب الشاملة أنتجت ما وصف بأنه العصر الذهبي لـ ليبرالية وسائل الإعلام حتى وإن كانت السيطرة الدولية قد وصلت أثنائها إلى ذروة غير مسبوقة؟

وسائل الإعلام والدولة في الحرب العالمية الأولى:

في تموز ١٩١٤، لم يتوقع أحد من رجال الدولة الذين قادوا بلداتهم إلى الحرب، صراعاً يطول أكثر من أربع سنوات يؤدي بحياة أكثر من ١٥ مليون شخص، ولكن على الرغم من التوقعات المتفائلة في حينه بأن كل شيء سوف ينتهي بحلول أعياد الميلاد، فإن القادة العسكريين والمدنيين في ألمانيا وبريطانيا لم يفوتوا أي فرصة بخصوص الاتصال في زمن الحرب.

وأيا من الدولتين حتى الآن كانت قد مضت للتخطيط لوزارة كاملة تراقب وتطلق الأخبار، ولكن التقاليد المتبعة في السرية الرسمية كانت متعمقة في ألمانيا وبريطانيا، حتى أن العقوبات الرسمية كانت موجودة من قبل لتفرض سيطرة صارمة على نشر المعلومات، وكلاهما كانتا دولتين لهما صناعة صحافة مزدهرة وحركات عمالية نشطة وفيها يخشى السياسيون من انتشار الراديكالية، والقادة

العسكريون يلعنون الصحفيين، ولم يكن من المفاجئ، إنه في عشية الحرب، كان صناع القرار في برلين ولندن قد وضعوا تأكيداً أكبر على منع حرية التعبير وقطع وتعويق الاتصال في الطرق التي يمكن لوسائل الإعلام الجماهيرية ان يتم تجنيدها بشكل فعال للمساعدة في تحشيد وإثارة المشاعر الشعبية وجمع العائدات من خلال بيع سندات الحرب التي كانت تصدرها الحكومات، ومثل هذه الاستخدامات (الإيجابية)، للصحفيين فقط بعد أن أصبح واضحاً بأن هذه الحرب وسوف تكون حرب استنزاف طويلة وساكنة لحد كبير، وإن الاختيار المفضل عادة لدى الجيش في البقاء صامتاً حتى نهاية الحرب سيكون من الصعب الحفاظ عليه كما سيكون واضحاً في بريطانيا وألمانيا.

ابتدأت ألمانيا الحرب بحملة نشطة، معلنة حالة الحصار State of Siege في ٣١ تموز ١٩١٤، والتي سمحت لها بتعليق (الحق في التعبير بحرية بواسطة الكلمة، أو الطباعة أو الصور) وبشكل متزامن أصدر المستشار بيتمان هو لفيغ أوامر بـ ٢٦ أمراً محظوراً (لمنع أي معلومات غير موثوقة من الوصول إلى العامة).[1]

وبعد ثمانية أيام لاحقاً ذكر الجنرال (فون كيسيل) الصحافة بأن (نشر الأخبار المتعلقة بشؤون الجيش هو أمر محظور)، وعلى كل حال، فلم يكن من المرجح أن الصحافة سوف تحصل على أية أخبار مهمة وسريعة من القيادة العليا، وكانت شبكة الأخبار البرقية الوحيدة في ألمانيا، هي مكتب تلغراف وولف (WTB) الشبه رسمية والتي من خلالها كان يتم نقل كل الأخبار الرسمية وأي (مادة حساسة سياسياً) تكون قد مرت للتو على مكتب الرقابة الأجنبية، وبمجرد أن بدأت الحرب، كانت الصحافة الألمانية معتمدة على الإخبار الخاضعة للرقابة التي توزعها وكالة (WTB) عن خط الجبهة، وإذا ما تمكنت صحيفة ما من إرسال أحد مراسيلها إلى ساحة المعارك فإن تقاريرهم تكون عرضة للرقابة من قبل القيادة العسكرية المحلية (ماركيوز، Marques، ص ٤٧٦) .

1 - Marquis, J (1978) (Word as Weapons) Journal of Contemporary History, 13, 467-88.

ورغم ان هدف الرقابة ظاهرياً كان لمنع المعلومات الضارة من الوصول للعدو، فإن تطبيقها في الواقع كان أكثر اتساعاً: بالتحكم في نبرة الأخبار وطريقة تقديمها، ومنع أي نقد لكيفية خوض الحرب.

وبعد ١٤ شهراً من القتال، أنشأت الحكومة الألمانية (مكتب صحافة الحرب) (Kriegs Presseamt) لمنع ونشر الأخبار، كما وزع منشوراته الخاصة التي كانت تستهدف قوات الجيش بالدرجة الأولى، ويعقد ايجازات صحفية، وهي مؤتمرات تقعد مرتين أو ثلاث أسبوعياً، وفيها كان يتم تجميع رؤساء التحرير وإمطارهم بوابل من (التوصيات)، وفي حكم لأحد المؤرخين يقول: (أن فحوى تعامل الحكومة مع الصحافة بشكل عام، هو ذلك النمط من التعامل الأبوي الحنون، والذي عانى طويلاً من التعامل مع طفل عنيد ومجنون وجامح ومستعد للقتل إلى درجة كبيرة).[1]

وكانت الصحف يتم إنذارها بشدة من ضمن تعليمات قامعة أخرى بعدم إعلام قرائها عن إجراءات الرقابة، ولكن من الصعب تصور أن القراء ظلوا جاهلين بمدى تدخل الدولة، وكانت الصحف التي ترفض الانصياع يتم غلقها، أما تلك التي تبقى في دائرة التوزيع فتتبنى نبرة دفاعية موحدة وأسلوباً مراوغاً.

وهذا الوضع أزداد سوءاً إذ بدأت الحرب تطول واحتمالات النصر الألماني بدأت تضعف، ومعتقدة بأن المدنيين بدأوا يسلمون بالهزيمة، بدأت القيادة العسكرية بالقيام بدور بارز في إدارة الأخبار بشكل متزايد، وأسس الجنرال لود ندروف، رئيس هيئة الأركان خدمة صحفية جديدة سميت (Dutsche Kriegsnachrichten Dienst) تحت إشرافه الخاص، وهذه الخطوة كما هو متوقع أثارت الغضب لدى السياسيين الذين خشوا بأن هؤلاء الضباط الصحفيين سوف ينشرون أخباراً سياسية تخدم أجندتهم

1 - Marquis, J (1978) (Word as Weapons) Journal of Contemporary History, 13, 467-88.

الخاصة: رفض الاحتكام للسلم والتصميم (في وجه المعارضة المدنية) على إنجاز النصر الألماني الكامل.[1]

وطبقاً للعديد من الكتاب، فإن منحى الهبوط لدى ألمانيا، كان معكوساً في بريطانيا، فبعد بداية متعثرة، كان تطور بريطانيا في إدارة الأخبار ينمو ببطء خلال مسار الحرب، مترددة في البداية من القيام من العمل الدعائي غير اللائق، مترافقاً مع إدراك بأن الصحفيين ذوي النزعة الوطنية يجب أن يتركوا بشكل كبير ليفرضوا الرقابة على أنفسهم بأنفسهم، ولكن أخلاق الجنتلمان التي يتمتع بها الانجليز لم تمنع حكومة ويسمنتستر من الأخذ بالاعتبار تدابير رقابية في الحرب المستقبلية قبل سنة ١٩١٤، منذ أن بدأت الخصومة بين بريطانيا وألمانيا بالتزايد.[2]

فمنذ ١٩٠٤، تم عرض مسودة قانون على البرلمان الانجليزي لـ (توفير السيطرة على نشر المعلومات البحرية والعسكرية في حالات الطوارئ)، وأتبع هذا بقانون الأسرار الرسمية في ١٩٤٠، والذي حدد بأن الصحافة سوف لن يتم إخبارها أي شيء يبدو أنه يتناقض مع (المصلحة العامة) وهو مصطلح ظل تعريفه غير محدد بدقة.[3]

وفي السنة التالية، تم تشكيل لجنة مع ممثلين من وزارة الدفاع وقيادة البحرية، وخمسة أعضاء عن الصحافة، لتحديد أي معلومات يمكن ان تحجز عن العامة خلال أوقات الطوارئ العسكرية بشكل معقول (روز ١٩٩٥، ص ١١)، وبالنظر لهذه السنوات العشر من التشريعات المتلاحقة فإنه من الصعب التصديق بأن الرقابة الصحفية في زمن الحرب كانت (غير مألوفة وغير مرحب بها) كما زعم ادوارد كوك رئيس الرقابة الحربية، لاحقاً في فترة العشرينات.

1 - Messinger (1992) Propaganda and the States in the First World War, Manchester, Manchester University Press
2 - Towle, P(1975) The Debate on War Time Censorship in Britain. 1902 -14. in Pond & Roy.
3 - Rose, T (1995) (Aspects of Political Censorship 1914 -18) Hull University Press.

وفي آب ١٩١٤، حذا الجيش البريطاني حذو خصمه الألماني، آملاً بالتخلص من (تحيز الصحافة لصالح الدعاية)، من خلال كبح جميع الأخبار عن الحرب ببساطة.(١)

وفي هذه المجال تمتعت الدولة البريطانية بافضليات معينة، بينما كانت الحكومة الألمانية تتحكم بتدفق المعلومات من خلال وكالة (وولف) للتلغراف، كانت حكومة ويسمنستر تستخدم القوى التي تحتفظ بها في هيئة التلغراف الدولي لتعطيل البرقيات وخدمات الراديو عبر أنحاء الإمبراطورية الخاضعة لها، وعلى الرغم من استمرار منع خدمات التلغراف، فإن كل المعلومات الداخلة أو الخارجة كان يتوجب أن تمر من خلال (مكتب الصحافة) الذي أعلن عن وجوده ونستون تشرشل (الذي كان في حينها، أول لورد في قيادة البحرية) في ٧ آب ١٩١٤، مع الوعد بأن ذلك سوف يضمن (تيار مستدام من المعلومات الموثوقة).(٢)

ومع تأثر خدمات البرقيات بالكابل الألمانية العابرة للأطلسي بشدة، فإن بريطانيا تمتعت باحتكار لخدمات برقيات الكابل الوطنية والدولية، وتحت مظلة قانون حقوق الدفاع (Dora) الذي تم تشريعه في آب ١٩١٤، فرضت الدولة البريطانية مدى واسع من التحريمات إزاء تجميع ونشر المعلومات حول الحرب أو أية مواد قد تكون مفيدة بصورة مباشرة أو غير مباشرة للعدو، والتصريحات أو الأقوال الزائفة (التي من المحتمل أن تسيء لجلالته) تم منعها كذلك (كوك ١٩٢٠، ص ٢٥) وهذه القدرات الجارفة تنسق الإدعاء بأن التطور البطيء والتدريجي لمكتب الصحافة الرسمي وغيره من وكالات الدعاية في الجبهة الداخلية نتجت عن ثقة الحكومة بأن الصحافة المتحمسة وطنياً يمكن أن تترك للعمل على عاتقها.(٣)

وكانت العقوبات المتعلقة بانتهاكات معايير قانون (Dora) "يواجه رؤساء التحرير بداية محكمة عسكرية، وفي حالة المخالفات الشديدة قد يتعرضون

1 - Cook, E (1920) (The Press in War Time) London, Macmillan.
2 - Haste, C (1977) Keep the Home Fires Barning: Propaganda in the first World War, Lin

٣- نفس المصدر السابق.

لحكم مدى الحياة" تلمح إلى ما هو أقل بكثير من الثقة التامة، بأن التطوع التلقائي يمكن أن ينتج الإجماع المطلوب."[1]

وكانت مصطلحات قانون (Dora) فضفاضة وغامضة، بتحريم نشر المعلومات التي قد تكون مفيدة للعدو، كان القانون يفتقر لأي تعريف حول كيف يمكن أن تقاس درجة الاستفادة هذه، وكان التفسير الأكثر وضوحاً لهذه المطاطية في المصطلحات، هي أن أحداً في (وايت هول- مقر الحكومة) لا يعرف بالضبط، ما الذي (سوف يساعد العدو في هذا النوع الجديد من الحرب، ولاحقاً أكد صناع القرار على جانب أخذ الحذر بشكل أكبر.

ويجادل البعض بأن النهايات المفتوحة لعبارات قانون(Dora) ساهمت في دفع الصحافة لغرض الرقابة الذاتية على عملها خشية من تجاوز الحدود المعلمة بشكل رديء، وكانت الموضوعات مثل الغارات الجوية الألمانية على بريطانيا، كما هو مفهوم، الأكثر تعرضاً للنقاش المطول، ولكن بينما كان معظم المحررين يقدرون حساسية الموضوع ويوافقون على الانتظار حتى صدور التعليق الرسمي، فإن الممنوعات الأخرى "مثل التنبؤات الجوية" لم يكن بالإمكان فهمها أبداً.

ورأى العديد من رؤساء التحرير توجيهات مكتب الصحافة حول الأخبار (التي يتم الحصول عليها من مصادر غير وكالات الأخبار الرسمية) خوفاً من أن تكون متعارضة مع القواعد السديمية المبهمة، وكان هذا يمثل رقابة ذاتية (تطوعية) في التطبيق، وبهذه الطريقة، أصبح مكتب الصحافة، كما يوضح رئيس الرقابة كوك (درعاً للصحافة، لم تكن هناك إساءة في عدم إرسال مقالة أو فقرة من الأخبار إلى مكتب الصحافة، ولكن بعمل ذلك كان دفاعاً أمنياً... وهكذا فإن عملية الإرسال تظهر مدى مسؤولية المرء)."[2]

وأصبحت مقولة (إذا كنت في شك، سَل الرقباء) قاعدة المحورين غير المكتوبة، في وقت كان فيه هامش الشك عريضاً وواسعاً وكانت العقوبات لعدم

---

1 - Cook, E (1920) (The Press in War Time) London, Macmillan (8-27)

٢- كوك، ١٩٢٠، ص ٤٣

التأني والحذر شديدة، ولكن كان هناك سبب آخر بالإضافة إلى الحذر الصحي ما جعل مقاضاة المحررين قليلة لحد ما، مع تحويل ١٢ محرراً إلى هيئة الإدعاء العام فقط في عام ١٩١٥.[١]

وكان بعض رؤساء التحرير قد خرقوا بالفعل قانون (Dora)،وعلى عكس زملائهم الآخرين تمكنوا من الإفلات من العقاب، ولقد حدث هذا في بعض المناسبات التي حكم فيها الإدعاء العام بأن رفع الدعوى أو المحاكمة سوف تؤدي فقط إلى لفت الانتباه بشكل أكبر إلى الحالات المسيئة من خلال جذب اهتمام العامة أو (العدو) بشكل أكبر إلى المادة المنتهكة للقانون، وكما لاحظ كوك فإن النظام قد ولدّ تلك (الحالة الشاذة من الاعتقاد بأنه كلما كانت المخالفة خطيرة، كلما زاد السبب في أن تترك تمر بدون عقاب).

كما أصدر مكتب الصحافة أخبار الجبهة، ولكن لم يكن هو مصدرها، وعلى كل حال، ولكونه كبش الفداء المستمر لتكتم الجيش، أصبح المكتب موضع انتقاد الصحافة المستمر، واحتج موظفو المكتب بأنه مجرد قناة توصيل تتدفق من خلاله الأخبار الرسمية، وهو لا يتحمل مسؤولية التحقق من دقة (التيار الثالث) من معلومات الجيش، والذي لم يكن إلا تقطيراً بطيئاً، يستهدف تطبيق القدر الأكبر من عملية الرقابة على ١١٠ برقية إخبارية قادمة خلال وجبة العمل الممتدة لثمان ساعات[٢] وعموماً على الرغم من إنكار كوك المتزايد، فإن مهمة المكتب كانت في تلوين الأخبار حيث كان الجيش بلا شك يحاول تحريف الأخبار، ولذلك فإن الرقباء في قيادة البحرية يستذكرون بأن تشرشل كان يحاول في البحرية (التمسك بقطعة من الأخبار السيئة قدر الإمكان على أمل فرصة الحصول على خبر جيد لنشرها كأمر موازن) وهو تكتيك كان ظاهراً في العديد

١- مصدر سبق ذكره، هاست ، ١٩٧٧، ص ٣١.

٢ - كوك ، ١٩٢٠ ، ص ٥٣.

من الحروب اللاحقة[1] واشتكت الصحف من أن لورد نور ثكليف، كان يستخدم (جزءاً وقطعة من مؤامرة حمقاء لإخفاء الأخبار السيئة).[2]

المراسلون في الجبهة:

في كل حرب تقريباً، معظم التغطية الإخبارية يتم بعيداً عن مشهد ساحة المعركة، وبشكل ثابت، فعلى الرغم من أن العلاقة بين الجنود والمراسلين في الميدان تخلق القدر الأكبر من الاحتكاك، ففي خضم الأمور التي تدور بسرعة، فإن أي كشف للحقائق غير متأن يمكن أن يكلف العديد من الأرواح، وإن انتقاد الصحافة للنقص في القوة البشرية والمعدات والاحتلال في ميزان القوى، يمكن أن تؤدي إلى الأضرار بالروح المعنوية للقوات وتجعلها تتخذ موقفاً عدائياً من الصحفيين، وكانت التوترات بين الجنود و (المخربشين Scribblers) "كما كان يتم وصل المراسلين" كانت معلنة بشكل خاص في الأشهر الأولى من الحرب العالمية الأولى، عندما وضع الجيش البريطاني نفسه على مسافة كافية بعيداً عن الصحافة، ثم ما لبث أن نما علاقة حميمة مع المراسلين، التي اعتبرها البعض منهم مرضية، فيما شعر آخرون بالفخر.

ومبدين لاشمئزازهم من هذه المهنة، فإن المواقف النمطية تجاه الصحفيين بين الرتب العليا من أفراد الجيش الذين نظروا إلى رجال الصحافة على أنهم (رجال غير مثقفين، سيئي السلوك وسيئي التربية) ويتبعون من (يكشف الأسرار).[3]

أما الصحفيون فمن جانبهم، فقد حملوا مجموعة من الآمال والتوقعات غير الواقعية مستمدة من تغطيتهم للحروب الاستعمارية والتي كانت أقصر في استمراريتها وعلى مقياس أصغر، وكما يعبر فيليب جيبز Gibbs، المراسل

١- لاسويل، ١٩٢٧، ص ٢٠٣.

٢ - ميسنجر، ١٩٩٢، ص ١٥١.

3 - Grieves, K (1996) War Correspondents and Conducting Officers on the Western Front) In Cecil and Iiddle.

الانجليزي الأشهر في الحرب العالمية الأولى: (عندما أنظر إلى الوراء في الزمن، أجد تسلية مؤلمة قليلاً في التفكير في تجاهلنا غير المسبوق لمعنى الحرب الحديثة، لم نكن نعرف شيئاً حول أساليبها أو مكانتها، ولا حول مدارها ودمارها الهائل، ولقد افترض المحررون في البداية أن هذه الحرب الجديدة سوف تكون مشابهة لتلك (المسألة الجنوب أفريقية) التي عنوا بها حرب البوير ١٨٩٩- ١٩٠٢، تلك المواجهة (البعيدة، والرومانسية والحافلة بالمشاهد) والتي فيها كان المراسل يعتبر نفسه روحاً مرحة تمضي إلى حيث تقودها الأحداث (متجولاً على ظهر حصان، مع جيوب مملوءة بالذهب، مبتاعاً طعامه أو أرزاقه اليومية، ومتدبراً إجراءات إرسال برقياته).(١)

وكان مراسلو الحرب من المدرسة القديمة قد تهيأوا تبعاً لذلك لمهمتهم الجديدة، بأخذ دروس في ركوب الخيل في منتزه الهايد بارك وسط لندن! (معتقدين بأنهم سوف يحتاجون امتطاء الأحصنة في هذه الحرب على الجبهة الغربية)، ولكن بينما كانوا ينتظرون لأشهر عدة حتى يتم مكتب الحرب إكمال إجراءات اعتمادهم الرسمية، كان المراسلون الأحدث سناً يندفعون ببساطة عبر القنال الانجليزي إلى بلجيكا وفرنسا، وعندما وصلوا إلى الجبهة، كان استقبالهم أقل بعدة درجات من درجة الأنجماد، وتمت معاملتهم كما لو كانوا : (مجرمين قد تم إطلاق سراحهم، وكان يتم احتجاز مراسلي الحرب في حجيرات بحراسة ضباط صف).(٢)

وحتى أيار ١٩١٥ كان مراسلو الحرب والمصورون قد تم استبعادهم من منطقة الحرب بالفعل معاً، كانت السرية الرسمية شديدة، حتى ان الصحف كانت ممنوعة حتى من مجرد ذكر إرسال الوجبات من القوات العسكرية الانجليزية عبر القنال، ولكن مثل هذا التصلب التعسفي لم يكن بالإمكان الإبقاء عليه لما لا

1 -Iytton, N (1921) The Press and the General Staff, London, W. Collins Sons& co.

٢- مصدر سابق، كوك، ١٩٢٠، ص ١٧٨.

نهاية، وعموماً، فإن العديد من الاعتبارات فرضت التخفيف من القيود، حيث سرعان ما تبين أن الصحافة سوف تعمد إلى ملء فراغ الصمت الرسمي بالشائعات، الافتراضات والزخارف اللفظية، وأولئك المراسلين الذين لم يقتصروا على حجيراتهم في بلجيكا وفرنسا، سرعان ما أرسلوا أخباراً تتحدث عن انتصارات ضخمة متتالية، وهي قصص تم اختراعها ببساطة، وإذ بدا الاندفاع الألماني السريع باتجاه الغرب واضحاً بعد فترة، كان من وجهة النظر الرسمية، إن خطراً أكبر يمكن في مثل هذه التلفيقات الفاضحة من إطلاق الأخبار بشكل مدروس، ووضعها بشكل مهين في يد الصحافة، وإذا ما عملت الصحف على مراعاة التأثير المهدئ للأعصاب في طريقة إطلاق الأخبار هذه، فإنها سوف لن تخاطر في حدوث انهيار هائل للمعنويات، عندما تبرز فجأة صورة سوداوية مظلمة، وتدريجاً بدأت قيادة الجيش في تغيير أسلوبها إزاء الأخبار، حيث قامت بتعيين ضباط ذو رتب كبيرة، له (طابع مميز باستخدام الحروف)، بما يشابه فنان حرب رسمي، هو اللفتانت كولونيل سير أرنست سوينتون، وكانت وظيفته كشاهد عيان أن ينتج (صوراً بالكلمات) من الجبهة لتوفر للمدنيين رؤية مجمّلة عن الجهد الحربي، وكانت تقارير تبعث إلى الفيلاد مارشال (كتشز) للحصول على موافقته لضمان أنها تتطابق مع التعليمات المعطاة دسوينتون: (لتجنب مساعدة العدو) و (القول أكبر قدر من الحقيقة بما يتلاءم مع سلامة سير العمليات) ولا الحماية ضد الإحباط والتشاؤم، وللتحقق من التفاؤل غير المبرر والذي قد يقود ارتخاء الجهود).[1]

وكما يوضح العديد من المؤرخين فإن القليل من الحقيقة فقط كان يتسرب عبر هذه المجموعة من التقييدات، بالضبط كما كان (كتشز) يظهر احتقاره الأسطوري (لكل ما يخص الرأي العام بكل (مزجته وتجلياته) في أن لا يقول شيئاً عن مقته للصحفيين بوصفهم (سكارى تافهين).[2]

---

1 - Farrar, M (1998) News from the Front: War Correspondent on Front, 1914-18, Stroud, Sutton.

٢- هاست، ١٩٧٧، ص ٣٢.

وعندما تقاعد (شاهد العيان) في ربيع عام ١٩١٥، سمح مكتب الحرب أخيراً بـ ٥ مراسلين انجليز وواحد أميركي لينضموا إلى الجيش في الجبهة، وهي تجربة سرعان ما تطورت إلى برنامج أوسع من منح الاعتماد الرسمي للصحفيين.[1]

وكانت الحاجة لإقناع الولايات المتحدة بالتخلي عن حيادها يمثل حجة قوية من أجل حرية صحفية أكبر، على الأقل من خلال ملاحظة الرئيس السابق روزفلت وإصراره على (أن هناك تناقض صارخ بين الاهتمام السخي الذي ينهمر على مراسلي الحرب من قبل السلطات العسكرية الألمانية وبين نقطة الرفض العمياء للمشاركة في أي شيء معهم من قبل الحكومات الفرنسية والبريطانية.[2]

وما نتج عن ذلك في الجبهة الغربية للحرب، هي ما يمكن اعتباره تجربة بدائية في (المصاحبة Embedding)، ممارسة في احتضان الصحفيين مع الجنود سوية، مشابهة للنظام الذي تم تطبيقه في العام ٢٠٠٣ خلال عملية (حرية العراق)، وبالنسبة للجيش هذه العملية سمحت ليس فقط بفحص دقيق للنسخة التي يبعث بها الصحفي ولكن تشكيلاً أكثر دهاء ودقة لمنظور الصحفي ووجهة نظره، وهي عملية ضمنت منافع محددة لجميع الأطراف، بينما يحقق المراسلون نفاذاً أسهل إلى خط الجبهة، يحقق الضباط أشرافاً أكبر على ما تقوله الصحافة حول تطورات الحرب ومعنويات الجنود الذين ينخرطون فيها، وفي هذه الأثناء، فإن المدنيين يصبحون أقرب على الرجال في الميدان من خلال الوصول في الوقت المناسب لتقارير طازجة عن سير المعارك في الجبهة، والكل يفوز في النهاية، على الأقل وفقاً لهذه النسخة الرقيقة من النظرية.

وبحلول عام ١٩١٨، أصبح الضباط ينظرون إلى المراسلين نظرة مليئة بـ (العاطفة، والثقة والإعجاب) كما يلاحظ الرقيب العسكري السابق نيفيل ليتون.[3]

---

1 - Sweeney, M (2001) Secrets of History: The Office of Censor Ship and the American Press and Radio In World WarII, Chapel Hill, University of North Carolina Press.

٢- مصدر سابق، الاقتباس عند نايتلي Knightly ، ٢٠٠٤، ص ١٠٠.

٣- مصدر سابق، (ليتون Lytton)، ١٩٢١.

ورغم ذلك فإن المراسلين لم ينظروا إلى هذه العلاقة بهذه الصورة الوردية، في بعض الأحيان كانوا يغتاظون من الوجود المتطفل للضباط الذين يرافقونهم في تحركاتهم: (هم نوع سجانين أو جواسيس، نأكل، ننام، نمشي، ونسوق معاً) وفقاً لكلمات فيليب غيبس Gibbs، ولكن هذه الترتيبات كانت تسمح لهم على الأقل بالوصول إلى خط الجبهة المتقدم، وكانت نتيجة هذه الكدح في النهاية عرضة إلى شكل فضولي من الرقابة المتحسبة لكل شيء، خصوصاً وأنه ما من شيء كان يسمح بمروره فيه اختلاف مع (التعليق الرسمي)، كما أنه لم يكن بالإمكان إرسال أي دفعة الأبعد نقلها إلى أقرب محطة للتلغراف ليتم إرسالها إلى لندن، حيث يتم هناك رقابة جميع الأخبار مرة أخرى.

وتقديراً لمدى عدم (دقة التغطية) في الحرب العالمية الأولى، حكم العديد من النقاد بإدانة عمل العسكر تاريا في (تدجين) الصحافة، وملاحظين مدى اليسر الذي تم تحويل المراسلين فيه إلى رجال دعاية بمجرد استلامهم للبدلة العسكرية الخضراء، مع رتبة شرفية (رائد) مع امتيازات رفاهية في مقرات فخمة بعيدة عن احتمال التعرض للأذى (من خلال تمركز المراسلين في مقرات قيادة الجيش المختلفة، ومن خلال اتخاذهم أصدقاء شخصيين، تحولوا إلى مدافعين عن القضية البريطانية) كما يلاحظ أتش سي. بيترسون Peterson، وهو رأي تكرر صداه في كتاب ناتيلي (Knightly) الكلاسيكي عن تاريخ الحرب (الإصابة الأولى First Casualty).[1]

بعض المراسلين كانوا يميلون للتبرير أكثر من غيرهم، ورغم أن البعض كان مستعداً لتقديم تقارير زائفة من أجل تضليل العدو، فإن البعض الآخر تملكهم حس مختلف حول ضرورة أن تكون تقاريرهم عن الجبهة جزئية، وأن تكون كلا من غير كاملة و تأمل هذا المقطع من كتاب فيليب غيبز (مغامرات في الصحافة) المنشور في ١٩٢٣:

١- مصدر سابق، ناتيلي، ٢٠٠٤، ص ٣- ١٠١.

{ البعض منا، أو على الأقل كذلك، لم نشغل أنفسنا بتعلم الحقيقة وأخبارها بقدر ما يمكن في رؤيتنا وسلطاننا على الكلمات وخلال سير المعارك لم يكن من الممكن قول كل الحقيقة، ولكشف المدى الكامل للمذبحة في جانبنا، ولم يكن لدينا أي حق في الانتقاد، ولكن يوماً بعد يوم أصبح العالم الناطق بالانجليزية أكثر قرباً و في تماس روحي مع رجاله المقاتلين، ويعرف أفضل، إن لم يكن أسوأ ما يحصل في ميدان المعركة، والسجل اليومي للشجاعة، والمثابرة، والانجاز من قبل الشباب الذي كان ينفق بمثل هذا العزم السخي}.

ولقد نقل لنا غيبز حساً متصارعاً بالواجب، من الواضح أنه يقدر حساً بان الصحفي في الجبهة عليه (إن يعرف ويخبر الحقيقة)، وعلى كل حال فإن هذا الأمل يصطدم ليس فقط بمتطلبات الأمن العملياتي، والذي يختصر (حق النقد)، ولكن مع هدف آخر يصوره غيبز على أنه واجب المراسل الحربي الأسمى (لإبقاء الناطقين بالانجليزية في تماس روحي مع رجالهم المقاتلين) وباختصار أن تنتج سجلاً غير مزخرف عن المعركة لا يهتم سوى بتصوير مشاعر الرجال أثناء الحرب، في أن تكون هناك وتحمل شهادة، قناة بين خط الجبهة، والجبهة الداخلية في الوطن، وهذا التصور عن وظيفة المراسل الحربي، مثير للعاطفة بشكل أساسي، وليست تثقيفية، هي فكرة قد أنعكس صداها في العديد من الحروب اللاحقة.

من جهة أخرى كان الجنود يكنون مشاعر أقل تجاه الصحفيين، ونقل أحد المراسلين عن أحد الجنود قوله (بأنه يرغب في سفك دماء كل مراسلي الحرب، يبدو بأنه كان يرغب في أن يجذف بداخلها).[1]

والعديد من الروايات الأخرى نقلت الازدراء الذي شعر به جنود المشاة تجاه المراسلين الذين اخبروا حياة الخنادق في الحرب بأبهى صورها، مقللين من مدى بؤس الحياة والموت في خنادق الحرب، ومصورين المعارك على أنها أشبه بمباراة كرة قدم.

١- مصدر سابق، الاقتباس لـ غريفيز، ١٩٩٦، ص ٧٢٣.

وكان الجنود كما نقل توملينسون، وهو كاتب بارز في صحيفة ديلي نيوز يشتكون من أن المدنيين والصحفيين على وجه الخصوص، الذين ليس من شأنهم التعليق على أمور لا يعرفون عنها شيئاً ولا أن يفهموها على الأرجح، ومن دون أن يكونوا هم أنفسهم قد تواجدوا في جبهات القتال الأمامية، وقد أقر توملنيسون بصحة هذه الفكرة، ولم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة الناتجة عن الزوايا المختلفة للرؤية، واحد المعوقات الرئيسية لرواية الحرب مع أي نمط من الاستقلال في الرأي (وهو ما يرغب فيه المراسلون فعلاً) هي قضية المنظور أو طريقة الرؤية، وهو ما يلمح إليه تعليق غيبز في أن يحاول الصحفيون قول الحقيقة (بقدر ما تقبع في رؤيتنا)، ولكن من أي نقطة رؤية عيانية يمكنهم الحصول على المكانة الكافية لإدراك ما يتكشف على طول خط الجبهة الهائل بوضوح؟

وكما يوضح ماثيو فاريش، فإن الحرب العالمية الأولى مثلت تحدياً هائلاً من ناحية نقطة المرجعية متسببة في (أزمة التمثيل).[1]

لقد كان حجمها هائلاً جداً حتى يمكن النظر إليها ككل شامل، وكان الضباط البريطانيون المرافقون، يحاولون التعامل معها مثل عرض مسرحي يمكن أن ينظر إليه مثلما يفعل مرتادو المسرح الذين يجلسون في مقعد وثير، ويراقبون منصة العرض من خلال منظار الأوبرا.

ومع ذلك فإن معارك الحرب العالمية الأولى أفشلت هذا النوع من (التفرج) مثلما فعلت معارك السوم العنيفة في تموز ١٩١٦، والتي أسفرت عن ٥٧,٤٢٠ إصابة في صفوف البريطانيين، و ١٩,٢٤٠ قتيل في اليوم الأول لوحده، وبمجرد أن أنقشع الدخان (كان الوقت متأخراً جداً لرؤية رجالنا يتحركون بالفعل من خنادقهم) يستذكر أحد المراسلين الذي كان قد تم نقله في صباح ذلك اليوم إلى قمة تل قريب للمراقبة، ويعبر آخر عن الاندهاش بسبب (الغياب الشامل لأي كائن بشري مرئي... في عالم كان ينفجر بالفوضى).[2]

---

1 - Farish, M (2001) (Modern Witnesses: of the Institute of British Geopolitical, 26 I, 273-87.

2 - Farish, M (2001) (Modern Witnesses: of the Institute of British Geopolitical, 26 I, 285-87.

وكما يستنتج توماس ويليام، على الرغم من الأجهزة الجديدة المساعدة على الاستبصار (فإنها كلها مجتمعة نادراً ما استطاعت اختراق دخان الحرب).[1]

الفلم والحرب العالمية الأولى:

إذا كان (دخان الحرب) قد عطل قدرة المراسلين على الاستبصار، فما هو الحال بالنسبة لمصوري الفوتوغراف ومصوري الأفلام خلال الحرب العالمية الأولى؟

بالنسبة لرجال الدولة المتلاعبين بالرأي العام، كانت وسائل الإعلام . المرئية كانت محل اهتمام خاص، أن الواقعية الشديدة للصور الفوتوغرافية كانت مؤثرة بشكل فعال أكثر من التصوير اللفظي للحرب، وكذلك أكثر وصولاً إلى عدد كبير من الناس، والصور النابضة بالحياة للرجال أثناء الحرب، وخصوصاً لأولئك الذين (سقطوا) خلالها، كانت تؤدي مشاعر المدنيين، ثم جاءت الصور المتحركة- اللقطات التي يم عرضها من أفلام السيللويد والتي تعرض حياة نابضة بالحركة، والتي كانت تمثل ظاهرة جدية مثيرة في مطلع القرن العشرين.

وفي انجلترا وألمانيا والولايات المتحدة على حد سواء، شكل الفيلم هدفاً استثنائياً لتدخل الدولة، رغم إنه تطلب الأمر حتى المراحل الأخيرة من الحرب حتى وجد صناع القرار أنفسهم بشكل متزامن منجذبين إلى هذه الوسيلة الجماهيرية، وكان العديدون ممن عملوا كطاقم في وكالات الدعاية الحكومية، التي نظمتها كل من الدول المتحاربة، ويلنغتون هاوس ومن ثم وزارة الإعلام في بريطانيا، ووكالة Kriegspresseamt في ألمانيا، ولجنة الإعلام العام في الولايات المتحدة، كانوا يفتقدون للخبرة في مجال الأفلام، والذي كان مجالاً مكروهاً ومتجاهلاً من قبلهم.

---

1 - Farish, M (2001) (Modern Witnesses: of the Institute of British Geopolitical, 26 I, 283-87.

كان الذهاب إلى السينما يمثل، تسلية خاصة بطبقة معينة، إلى جانب القاعات الموسيقية الراقصة والحانات، كانت دور السينما محفوظة للطبعة العاملة، كان (سوقياً ومن دون أهمية كبيرة).

ولكن في عام ١٩١٤، ابتاع البريطانيون ٢٠ مليون تذكرة سينما، والوسيلة التي لها مثل هذا الحجم من الشعبية لا يمكن تجاهلها، وكما يقول بارون الصحافة (لورد نور ثكليف) الذي تم تكليفه من قبل جورج لويد، رئيس الوزراء بمسؤولية الدعاية فيما وراء البحار (ليس كل شخص يقرأ الجرائد، وأولئك الذين يفعلون ينسون ما قرءوه، ولكن ما من أحد يمكنه أن ينسى ما شاهده على الشاشة.[1]

وكان القادة السياسيون والعسكريون قد استقروا على افتراض بأن الصور عن الأجساد الميتة والمجروحة سوف تقدح عاصفة نارية من الاحتجاج وطبقاً لذلك يجب إبعادها عن حقل المعاينة العامة: وهو موقف تمكن تقليده عدة مرات في العديد من الحروب المتتالية، وكان كتشز قد عمل على إبعاد المصورين من الجبهة حتى عام ١٩١٥، عندما أصدر مكتب الحرب أمراً بمنع وجود كليهما، ولكن صور الهلاك والأجساد المشوهة والمقطعة لم تكن هي الصور الممكنة للحرب فقط بالطبع، وحتى دور الصور الصارم في التحذير من خطر الحرب على البشرية لم يكن مهدداً بانهيار في المعنويات، وعلى النقيض من ذلك، فإن بناء وترسيخ الذاكرة الرسمي للتضحيات يعد بإثارة التصميم الشعبي على رؤية الحرب تمضي إلى خاتمة ناجحة، ويمكن للأرواح المفقودة حينها أن تشكل مسوغاتها الخاصة للاستمرار في مواصلة الحرب حتى وإن (أو ربما خصوصاً وإن) مسوغات الحرب الرسمية لم تعد تبدو، أو لم تكن كذلك أبداً، كافية لخوضها، ووفقاً لهذا المنطق فإن النصر وحده هو ما يبرر الخسارة وأن (الموت بكل عريّه المروع والمقيت) سوف يخدم فقط في تقوية وزيادة صلابة القرار الشعبي بمواصلة القتال، كما يزعم المخرج السينمائي غوفري مالينن Geoffrey.Malins.[2]

١- مصدر سابق، هاست، ١٩٧٧، ص ٤٥.

2 - Ferguson, N. (199) The Pity of War, New York, Basic.

ومع مرور الوقت، فإن مثل هذه البديهيات بدأت في غزو تفكير المسؤولين وفي محاولة أولى، تلقى رجال الدعاية الانجليز نسخاً من الصحف القلقة من بطء تحرك الحكومة لتمزيق ورقة من أوراق العدو، وكما اشتكت صحيفة الديلي ميل في نيسان ١٩١٥، أنه في ألمانيا (فإن كل رجل، وكل امرأة وكل طفل يعرف ما تعنيه الحرب، وكيف على الأمة أن تقاتل) وشكراً (لمراسلي الحرب اللامعين ولأفلام الفانوس السحري المتغيرة باستمرار وللصور الفوتوغرافية).[١]

وكانت سرعة العدو المتفوقة ومهارته الواضحة في إنتاج المواد الدعائية، سبباً محفزاً لتعويض هذا النقض، وفي المقابل، أنشأت ألمانيا دائرة الفلم والصور، ومن ثم شركة الأفلام UFA في ١٩١٧، معتقدة بأنها قد أصبحت متخلفة وراء الانجليز.[٢]

وآنذاك، كان رجال الدعاية الانجليز قد انتجوا عدداً من الأفلام، الأول منها كان (بريطانيا مستعدة) الذي ظهر في عام ١٩١٥ و(تم عرضه في كل بلد تقريباً يملك دور السينما) كما أدعت وكالة ويلنغتون هاوس.[٣] وفي الأشهر الستة المقبلة تم إنتاج ٢٧ قطعة قصيرة لاحقة.

وفي عام ١٩١٦، تم إطلاق أفضل فيلم معروف عن الحرب العالمية الأولى المعنون (معركة السوم) والذي مثل إنتاجاً مميزاً نظراً لإنتاجه في فترة الحرب وما تواجهه من صعوبات في الإنتاج، وما يمكن أن تعترض طريقة النظر إليه في بريطانيا، ولقد صعق جمهور مشاهديه بتمثيله الواقعة لحرب الخنادق، واحتوى ما يقرب ١٣٪ من زمنه البالغ ٧٧ دقيقة تضمنت لقطات للجرحى والقتلى، وثمة مشهد يصور جندياً يتسلق فوق الأجساد قبل أن ينهار ويسقط إلى داخل الخندق مجدداً كان صاعقاً في صراحته، وكما لاحظ أحد مؤرخي الأفلام، فإن هذا التتابع من

١- مصدر سابق،فارار، ١٩٩٨، Farrar ، ص٦٦.

2 - Curry, R(1995) (How Early German Film Stars Helped Sell The War(S)) In Dibbets and Hogen Kamp.

3 - Reeves, N (1986) Official British Film Propaganda in the First Word war, London, Gvoo helm.

اللقطات كان مقصوداً ومتصاعداً (مثل بقية المشاهد)، وكما كان المراسلون قد جاهدوا لمتابعة ما كان يحصل خلال معارك السوم، فكذلك كان مصورو الأفلام قد تأثروا بالدخان والضباب والتشوش في ساحة المعركة حينها، ولكن كيف كان بإمكانهم أن يعملوا باصطياد الأحداث من خلال هذه المناظر الهائلة من الخراب أو ينقلوا صراعاً دراميا يطبع فيه السكون حياة الجندية بدون اللجوء إلى التزييف؟

إن إعادة بناء المشاهد وهي تجربة شائعة في صناعة الأفلام، كانت ضرورية لتحويل لقطات المعارك لتكون واضحة ومفهومة ولنقل إحساس بالواقعية الشعورية إن لم تكن الحرفية، بجعل المعارك منسجمة مع توقعات المدنيين عن ما تشبهه الحرب.[1]

ويبدو أن ما يفصح أكثر، أنهم يبدون غير مستعدين تماماً أن يعرض عليهم هذا القدر الكبير مما يفترض أنه واقع الحرب المؤلم، وكما كتبت صحيفة (ستار) اللندنية:

{ ما من شك بأن بعض الصور قد أثارت لندن عاطفياً أكثر من أي شيء آخر منذ الحرب، كل امرئ يتحدث عنها، كل امرئ يناقشها، كل شخص يناقش فيما إذا كانت مؤلمة جداً ليتم عرضها علناً}.[2]

وأن وسواس وحيرة الأشخاص الخاصة حول (معركة السوم) انتشرت وشاعت من مصادر مختلفة، شعر البعض بأن صور الموتى والمصابين يجب أن يحتفظ بها للأحزان الخاصة، فيما اعتقد آخرون بأنه من الخطأ ببساطة تحويل آلام الجنود إلى (فرجة لمتعة أولئك الذين يحبون ان يتفرجوا وهم في سلامة تامة أنفسهم، على معاناة الآخرين).[3]

---

1 - De Bauche, L (1997) (Reel Patriotism: Thmovies and World war1) Madison, University of Wisconsin Press.

2 - Reeves, N (1997) (Cinema, Spetatorship and Propaganda) Historical Journal of Film, Radio and TV ,17 i , 5-58.

٣- رسائل إلى صحيفة مانشتر غارديال في ١٥ آب ١٩١٦، مقتبسة عند ريفز، ١٩٩٧ ص ١٧

ولقد عمل فيلم (معركة السوم) على شحن الإيمان المعادي للحرب للبعض بينما ضاعف من مشاعر معاداة الألمان لدى البعض الآخر، (اثنوا على الرب، الذي تنهال منه كل البركات، فلقد سقط المزيد من الألمان هناك) هتف مترنماً أحد المشاهدين بعد مشاهدته الفيلم.[1]

بعض الجماهير في دول محايدة، لم تتأثر بالفيلم بل شعر بالملل مما وجده البريطانيون ملهماً، أو مريراً للغاية، أو مشوقاً بشكل مغاير عما غيره، وفي الولايات المتحدة، على طرف نقيض، تعرض الفلم للرقابة بعد شكاوى، من أن الرعب المتضمن فيه كان يلقي بظله على الترفيه بشكل مؤذٍ، ولكن إذا كان الفلم لم يحرك الجميع بنفس الطريقة، كما تفعل الصور عادة، فإن رجال الدعاية الانجليز مع ذلك، اعتقدوا بأن فيلم (معركة السوم) قد حقق غرضاً حيوياً ففي الوقت الذي كانت فيه كل عائلة بريطانية تملك على الأقل عضواً واحداً منها في الجيش، فإن الفيلم قدم دعامة إلى المخيلة، وهو الفيلم الذي تم عرضه في ألفي دار سينما عبر أنحاء البلد.[2]

فقد أدى إلى تفعيل حس التماثل بين المدنيين والجنود، مظهراً كما قال لويد جورج ما يفعله (رجالنا في الجبهة وما يعانوه من أجلنا، وكيف أن انجازاتهم أصبح حدوثها ممكناً من خلال التضحيات التي تتم في الوطن.[3]

وعلى كل مهما كان من الصعب لايضاح مدى التدرج في الاستجابة الشعبية لأفلام زمن الحرب، فمن الواضح أن أوقات الحروب لم ترفع فقط من توزيع الصحف، حتى وإن كان أعداد النسخ متذبذباً بسبب نقص الورق والمواد الطباعية، فإنه أيضاً قد رفع من شعبية ومكانة الفيلم، وهذا الأمر كان متماثلاً في كل من

---

١ - ريفز، مصدر سابق، ص١٩.

٢- فيرغسون، مصدر سابق، ١٩٩٩، ص ٢٣٦.

3 Badsey, S (1983) (Battle of the Somme: British War Propaganda) Historical Journal of Film, Radio and TV, 3, ííí, 99-115.

ألمانيا وبريطانيا ، ولكن ليس بقدر الولايات المتحدة حيث بزغت هوليود على أنها المنتفع الأكبر من (الحرب الكبرى).[1]

كانت استوديوهات الأفلام وشركات الإنتاج والتوزيع سائرة نحو تحقيق الهيمنة حتى قبل عام ١٩١٤، محققة جمهوراً محلياً بما يقرب من ٨٠ مليوناً أسبوعياً، ولكن الحرب ساعدت بشكل متزامن في فتح الأسواق الخارجية وترسيخ صناعة السينما كمؤسسة مناصرة للنزعة الوطنية، مع جاذبية أكبر لجماهير الطبقات الوسطى التي كانت منجذبة إلى دور العرض بأشرطة الأخبار News reels، والعروض المتعلقة بزمن الحرب، وخلال الـ ١٩ شهراً التي استغرقتها المشاركة الرسمية الأمريكية في الحرب، قامت هوليوود بالتدرب على الدور الذي ستقوم به خلال الحرب العالمية الثانية بشكل أكبر بكثير، وشكلت هوليود فريقاً مساعداً للجنة الإعلام العام الحكومية، من خلال إنشاء لجنة صناعة الأفلام المتحركة التابعة لها (التي ترأسها دي دبليو، غريفيث Griffith مخرج الفيلم الكلاسيكي الشهير (ميلدد أمة)حادثة الاستوديوهات على إنتاج الأفلام المعادية للألمان مثل (الهون ضمننا) The Hun Within ١٩١٨ ، و(القيصر) و (وحش برلين) (١٩١٨) و(مخالب الهون) ١٩١٨ أيضاً، ومع جهد (لوبي) دور العرض لرفع مبيعات سندات الحرب، فإن نجوم الشاشة الفضية ساعدوا بشكل متزامن في بيع السندات وتمويل المجهود الحربي مما أدى إلى رفع أسهم هوليود، حيث عمل نجوم الأفلام من خلال ضرب المثال الشخصي، خارج وداخل الشاشة على تشجيع الأمريكيين على التنافس معهم في أدوار جديدة كجنود، ممرضات، عمال خطوط إنتاج أو ببساطة كمؤيدين ملتزمين للجهد الحربي.[2]

١- محمود الزواوي (صناعة الأحلام) دمشق، منشورات وزارة الثقافة (٢٠٠٦) الطبعة الأولى.

2 - Tluppauf, B (1995) (Modernism and the Photographic Represent on of War) in Deveraux and Hillman.

الدروس المستفادة:

إن الأحكام المتأخرة على مساهمة وسائل الإعلام في الحرب العالمية الأولى كانت منتقدة بشدة، وأقسى هذه الأحكام تمثلت في اتهام النقاد للصحافة في إثارة حريق هائل والذي لا يستذكر منه الأناس العاديون كيف كانت الصحف تدق طبول الحرب بشكل أخرق أو بشكل له تأثير منوم مغناطيسياً، وكما يذكر الناقد الساخر النمساوي كارل كراوس (Karl Kraus):

{ عبر عقود من الممارسة، فإن المراسل الصحفي قد احضر لنا تلك الدرجة من الإفقار وسلب المخيلة والتي تجعلنا قادرين على خوض حرب الإبادة ضد أنفسنا، طالما ان الكفاءة التي لا حدود لها لأدواته قد استخلصت من كل القدرة للتجريب والتطور النفسي من خلال تلك التجربة، إذ بإمكانه الآن أن يزرع فينا الشجاعة في وجه الموت والتي نحتاجها من أجل أن نندفع إلى المعركة... أن انتهاكه للغة لا يقل عن انتهاكه للحياة}.[1]

وهل ستكون الحرب ممكنة على الإطلاق بدون الصحافة، يتساءل كراوس في دهشة في مسرحيته (الأيام الأخيرة): { هل تكون ممكنة أن تبدأ أو ممكنة في الاستمرار }؟

أما البعض الآخر من النقاد فيتخذون موقفاً مغايراً، وكان نقاد الرأسمالية في مطلع القرن العشرين وعلى رأسهم فلاديمير. آي، لينين، والليبرالي الانجليزي جي، أ، هوبسون قد تنبئوا بأن المنافسة المتوقعة بين الأطراف الامبريالية سوف تقود إلى الحرب، نتاج لعدم قدرة الرأسمالية على إيجاد أسواق محلية كافية وحاجتها اللانهائية لتوفير مصادر جديدة للمواد الخام ومواقع جديدة لإعادة استثمار رؤوس أموالها الفائضة الهائلة، وهذه الديناميكيات الهيكلية شحنت المنازعات والتزاحم العنيف على الأسواق والموارد الاستعمارية التي شهدها العصران الأدواردي والفكتوري المتأخر والتي أدت إلى زيادة التوترات بين القوى الأوربية الاستعمارية

١- مصدر سابق، الاقتباس عند فيرغسون، ١٩٩٩، ص ٢٤٠.

الكبرى، لقد كانت الحرب كارثة إنسانية كبرى بالتأكيد، ولكنها لم تكن لا حادثة عرضية ولا نتيجة مباشرة للدعاية المثيرة للبغضاء، ومع ذلك فإنه من الشائع أن تجد الحرب العالمية الأولى تتعامل على أنها حماقة ملحمية، (عملاً لا معنى له من الذبح) ورطنا فيها من قبل سياسيين غير كفوئين، وتم الحث عليها من قبل صحافة محرضة ومن ثم تم تنفيذها من قبل جنرالات ذوي رؤس صلبة وفقاً لتكتيكات مهلكة، (حتى تم الوصول إلى حالة من الإنهاك لأن أحدا لم يكن يعرف كيفية وقفها).[1]

وهذا التصور عن الحرب كتراجيديا لا لزوم لها قد ولد على ظهر موجات من الانتقاد الحار الموجه لوسائل الإعلام، طارحة التساؤلات العديدة حول ماذا لو أن الصحافة قد غطت الأحداث التي أعقبت اغتيال فرانز فرديناند بتعابير أقل اهتياجاً، أكان الصراع قد اتخذ منحى مغايراً؟

وهل إذا ما عمل المراسلون، والمصورون الفوتوغرافيون ومصورو الأفلام على إظهار مدى دمار وعبثية الحرب بشكل أكبر، لم تكن استمرت بالطول الذي كانت عليه، ومثل هذه الفرضيات ليست تنظر إلى القوى الهيكلية الظاهرة المنتجة للحرب فقط، بل إنها تستند إلى افتراضين آخرين لم يتم امتحانها غالباً، الأول هو أن وسائل الإعلام في زمن الحرب انخرطت منفردة في التلويح بالحرب والتحضير لها، والثاني هو أن تقارير الصحف المعاصرة، والأشرطة الإخبارية والأفلام السينمائية ساهمت في تبلور المواقف الشعبية والتي بالمقابل، كانت مساندة للحرب بشكل موحد، وكلا الافتراضين، على كل حال، لم يكن مؤكداً بالكامل.

وكما أوضح العديد من المؤرخين، فإن العديد من الصحف الكبرى في كل من بريطانيا وألمانيا، كانتا أبعد ما تكون عن حث رجال السياسة على إعلان الحرب، بل كانت تشير بما هو عكس ذلك تماماً في صيف ١٩١٤، حيث أكدت صحيفة (Berliner Tageblatt) في ٣٠ تموز على أن الشعب الألماني كان (مسالماً تماماً)، وعليهم أن لا يقوموا بأي شيء لتأمين الحدود كرد فعل على التحشيد

١- مصدر سابق، نايتلي، Knightly، ٢٠٠٤، ص ٨٣.

الروسي، بينما أكدت الصحيفة المحافظة (Norddeutsche Allgemeine Zeitung) على ضرورة إبقاء النزاع بين صربيا والنمسا محلياً، وفي بريطانيا حذرت صحيفة (مانشستر غارديان) بأن الحرب سوف (تهدد بالخطر كل شيء نحن فخورون به)، أما صحيفة (الديلي ميل) فقد حضت على اتخاذ وضعية من الحياد التام، أم صحيفة (الديلي ينوز) فقد مضت إلى أبعد من ذلك بنشر مقالة حملت عنواناً رئيسياً بشكل فظّ (يجب أن لا نقاتل).[1]

ولكن متى بدأت المعارك فإن العديد من المحررين والمراسلين بدأوا في تبني مواقف أكثر مساندة للحرب، كما هي الحال المعتادة في زمن الحرب، ولكن ضمن الأعمدة العديدة التي تضج بها الصحف، وخصوصاً تلك التي تحفل بتلك النظرة الهادئة المسترخية والمحللة للأمور من وقع بعيد، والتي كانت مثيرة للاشمئزاز للجنود المرابطين على خط الجبهة، فإن الميل إلى النقد لم يختف تماماً بالمرة.[2]

حتى أن صحيفة بارزة مثل (التايمز) حملت تقريراً في نوفمبر ١٩١٤، يعلن بأن (الحرب قد أصبحت غباءً) مؤدية إلى التضحية بعشرات الآلاف من الأرواح من أجل (بضعة مئات من الياردات) من الحدود الإقليمية، وإن (مجزرة الأفراد المجهولين بواسطة أولئك الذين لا يشاهدون) تضفي الكذب على التأكيد المتبلد الحس بأن (إهدار الحياة البشرية) قد مضى تماماً بدون أن تتم تغطيته حتى بعد انتهاء الحرب).[3]

كما أنه من المضلل التسليم، كما يفترض بعض النقاد، بأن كامل السكان قد (اقتيدوا إلى حالة من الجنون) في عام ١٩١٤، وأنهم ظلوا في حالة من الهياج الأعمى طيلة أربع سنوات بعد ذلك، بواسطة الدعاية الناجمة الشكل لامع، والتي أسهمت فيها صحافة خانعة.[4]

١- مصدر سابق، فيرغسون، ١٩٩٩، ص ٢١٧.

٢- مصدر سابق، غريفز ١٩٩٦، Grieves ، ص ٧٢٦.

٣- مصدر سابق، فيرغسون ١٩٩٩، ص ٢١٨.

٤- مصدر سابق، اندرس ٢٠٠٦، Andersen ،ص ١٦.

وبالطبع فإن الأسباب التي دفعت الملايين من الرجال والنساء إلى الإسهام في الحرب تتنوع إلى حد كبير، وغالباً ليس لها علاقة بالكراهية المشتعلة للعدو التي تساهم في إضرامها التقارير الصحفية المهيجة، أو بوسترات الدعاية أو ملصقات الأفلام الملوحة بالعلم لدعم المجهود الحربي، ومن بين هذه الأسباب الذي لا يقل أهمية عن غيره من الأسباب هو الازدياد الهائل لنفوذ الدولة الذي ترافق مع الحرب وخصوصاً في الولايات المتحدة، وكان التجنيد غالباً تطوعياً ولكن الإبقاء على المعارضة المستندة إلى المبادئ كان عملاً يتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة الشخصية، وغالباً ما تعرض الرافضون للخدمة (حتى في النشاطات ذات الطباع غير العملياتي، إلى أحكام بالسجن، وفي الولايات المتحدة، وجد أولئك المعادون للحرب مصاعب جمة في نشر آرائهم من دون التعرض لغضب السلطات، أو إثارة حنق مواطنيهم، وكانت المشاعر الوطنية قد وصلت حداً أقصى في مظاهرها المعلنة، وكما لاحظت المؤرخة سوزان بريوير Brewer بأن شعار سلطة الـ (CPI) (مئة بالمائة أميركيون) جعل من تأييد الحرب شارة على الانتماء الوطني (أنقلب إلى سلاح ضد الأميركيين الذين كان يشتبه في كونهم خونة بسبب انتمائهم الاثني).

حيث تعرض الأميركيين من أصل ألماني إلى إساءات شديدة من قبل أولئك المتحمسين في نزعتهم الوطنية، حيث هاجم على سبيل المثال حشد في سانت لويس رجلاً يدعى روبرت براغر في ابريل ١٩١٨، حينما حاول أن يسجل في سلاح البحرية، لأن اسمه بدأ وكأنه من أصل ألماني، ولاقى براغر قدراً لا يمكن تغييره، على كل حال، حيث تم إعدامه من دون محاكمة ملفوفاً بالعلم الأميركي، حيث اعتبرت (جريمة وطنية) والتي تم بعد ذلك تبرئة مرتكبيها من دون أي تبعات.[1]

وخلال مسار الحرب تم قتل سبعين أمريكياً على الأقل نتيجة لعنف ارتكبه الغوغاء.[2]

---

1 - Andersen, R (2006) Acentury of media, A century of war New York, Peter lang.

2 - Rrewer, S (2009) Why America Fights: Patriotism and War Propaganda From the Philippines to Iraq, New York, Oxford University press.

وكانت أفعال القتل من هذا النوع ليست ناتجاً تلقائياً من ارتفاع الروح الوطنية المتحمسة، فلقد بذلت السلطات الفيدرالية الأميركية قدراً كبيراً من المجهود لتحذير السكان وزيادة وعيهم تجاه (المجموعات الخارجية) الخربة، سواء كانوا ألمان أو شيوعيين أو أمريكان من أصل أفريقي، مستخدمة ذلك كوسيلة لدفع المعارضة إلى باطن الأرض وتشجيع إظهار الولاء علناً، ومدعومة من قبل وزارة العدل، قامت لجنة الحماية الأميركية وهي منظمة ضمت في عضويتها ما يناهز ٢٥٠ ألف مواطن أميركي، بالتجسس على الجيران والزملاء، وفتح البريد، واقتحام المنازل، واعتراض البرقيات والدفاع عن الاعتداءات.[١]

وغير مكتفية من تشجيع مثل هذه اللجان الأمنية الأهلية من هذا النوع، قامت الحكومة الأميركية بإصدار تشريعات مثل قانون الجاسوسية ١٩١٧، وقانون التجارة مع العدو ١٩١٧، وقانون التحريض على العصيان ١٩١٨، والتي ضمنت بأن المواطنين الأميركيين يمكن أن يعتقلوا ويحاكموا ويسجنوا لتثبيط الرجال عن التجنيد أو لأي انتقاد سواء لكيفية خوض الحرب أو أياً من أهدافها، من ضمن أعمال العنف الأخرى والإساءة التي صاحبت زمن الحرب.[٢]

ومع ذلك فإن بعض الأميركيين اعتقدوا بأن مثل هذه الإجراءات لم تكن كافية تماماً، وعلى سبيل المثال فإن جماعة نسويه في نيويورك حضت الكونغرس على جعل تشويه أو تمزيق بوسترات الحرب جريمة فيدرالية يعاقب عليها.

ومع ذلك، بالرغم من هذه السلطة الهائلة والمتوسعة لقدرة إجبار الدولة، وهذه الدعاية الغير المسبوقة لزرع الأفكار في الأذهان، بعضها أحياناً مثلت كراهية قاتلة، في إجازة العامة للاعتداء على الخونة المتوهمين، فإن ليس كل الأميركيين قد أيدوا الحرب (ولا كل البريطانيين كذلك حيث اكتسحت البلد موجة من الإضرابات والمظاهرات في عام ١٩١٧)، وكما يوضح كتاب فرانك كابوزولا عن (تاريخ المواطنة الأميركية والحرب العالمية الأولى):

١- مصدر سابق، بروير، ٢٠٠٩، ص ٧٠.

٢- مصدر سابق، سويني، ٢٠٠٦، ص ٢- ٥٠.

{ما يقرب من ٣٣٧ ألف رجل نجحوا في تجنب التجنيد ، وخلال معركة وادي ميوز- أرغوني في أيلول وأكتوبر ١٩١٨ ، أكثر من مئة ألف رجل فروا من خطوط الجبهة ورفضوا القتال}.[1]

وأن الجهود الدعائية لوسائل الإعلام لم تفلح إلا قليلاً في إبقاء القوات العسكرية على خط الجبهة ، وكانت المحاكمات العسكرية و الإعدامات جزءاً روتينياً من حياة خطوط القتال، وهذا ما قد يدفعنا لتساؤل، لم يكون نزوع الأشخاص إلى التجنيد أو المقاومة في زمن الحرب لا يعود إلا بشكل قليل نسبياً لجهود رسائل الإعلام التجارية أو لجهود الدعاية الحكومية ، وهي نقطة فشلت في استيضاحها العديد من دراسات الإعلام في زمن الحرب أو التأكيد عليها بشكل كافٍ، وثمة قصيدة للشاعر ادوارد ثوماس، معنونة (ليست هذه قضية كوني محق تماماً أو مخطئ) على سبيل المثال، سخرت من جهود الحكومة الدعائية لتأجيج المشاعر الوطنية نحو الحرب.(*)

وعلى الرغم من كتابته هذه، فلقد التحق بالخدمة العسكرية ، ومات في معركة أراس سريعاً بعد وصوله إلى فرنسا في نيسان ١٩١٧ ، وفي زمن الحرب كما في زمن السلم فإن دوافع الأفراد تأتي من مصادر متعددة ومتناقضة أحياناً ، وكان الشاعر ثوماس على سبيل المثال قد تجند نتيجة لاهتمامه وتعلقه بحفظ الحياة الريفية والتي كان يعتقد أنها كانت معرضة للخطر بسبب الحرب، بينما يتجند الآخرون لأسباب أخرى مختلفة ، مثل الحس بالالتزام أو الواجب، أو دفاعاً عن الخطر أو مرغمين أحياناً ، وبغض النظر عن مدى تقبلهم أو اقتناعهم أم لا بعدالة القضية ، وأن السلوك البشري باختصار قد لا يكون مرتبطاً بصورة مباشرة أو نتيجة مباشرة للمعتقدات التي يؤمن بها الشخص.

التحضير للحرب التالية:

كان أدولف هتلر مقتنعاً بأهمية الدعاية وقدرتها على بناء المساهمة والتطوع للحرب المبنية على قرارات واعية بإفراغها في آراء مقولبة تعمل على تحديد المصائر

١- كابوزولا، ٢٠٠٨، ص ٩- ١٠.

* - في ديسمبر ١٩١٥.

الوطنية في الحرب الكبرى، ولذلك فهو كان يتمسك بأن حملة الدعاية البريطانية كانت تعمل على تحطيم معنويات خصومها في (عمل عبقري ملهم) مما أدى إلى انهيار المعنويات الألمانية، ولم يكن لوحده مقتنعاً بهذه الفكرة، صرح الجنرال لوندروف، بأن الجنود الألمان، (كانوا نوموا مغناطيسياً... مثل الأرنب أمام الأفعى)، وخلال عهد جمهورية فايمار في فترة ما بين الحربين، كان هذا المفهوم يترسخ تدريجياً، كقناعة بأن (الشعب الألماني لم يهزم في الحرب في ساحة المعركة، بل كان قد هزم في حرب الكلمات) كما يصوغها الدعائي النازي أيوجين هاد موفسكي.[1]

وبالطبع فإن هذا المفهوم قد خدم الأهداف النازية لإثارة فكرة أن الألمان قد تم طعنهم في الظهر من قبل الخصوم المتلاعبين سيكولوجياً في الداخل والخارج، ومعلين من الحس بمشاعر الضحية الوطنية والحس بالانتقام، ولكن مهما كانت هذه الأسطورة عن الطعن في الظهر أو Dolchsto Blegende بالألمانية، تخدم أغراضاً شخصية، فإن هتلر كان مؤمناً بشكل حقيقي في سلطة الدعاية، كما أظهر ذلك كتاب (كفاحي) بشكل واضح تماماً.

وبمجرد وصول الحزب الاشتراكي الوطني إلى السلطة في ١٩٣٣، سعى أفراده لترسيخ سيطرة كاملة للحزب على الدولة، وسيطرة الدولة على كل منفذ ممكن للتعبير الفردي والجمعي، والهدف كان، كما أعلن غوبلز، هو للتأثير في ما اصطلح جوزيف غوبلز على تسميته بـ (التعبئة الروحية) للحياة الألمانية، فإن الرايخ الثالث ليس لديه محل للمترددين، فإن تكون ألمانياً صالحاً يعني أن تكون نازياً مخلصاً، توحيد (أو الزي الموحد إذا شئت) العقيدة يمكن تحقيقه بالأكراه والرعب إذا كان ذلك ضرورياً، ولكن من خلال الاقتناع لأن (الشعب الآري) سوف يرى بأم عينه كم سيمثل الحزب والدولة مصالحة بشكل مثالي، في وحدة عضوية كما تتمثل في الشعار الذي رفعه رودولف هيس (الحزب هو هتلر، ولكن هتلر هو ألمانيا، بالضبط كما أن ألمانيا هي هتلر)![*][2]

---

1 - مصدر سابق، فيرغسون ١٩٩٩، ص ٢١٣.

* - بشكل مشابه تماماً لشعار كان يتردد في الإعلام العراقي بعد عقود من ذلك التاريخ، كان يقول (إذا قال صدام، قال العراق..)!

2 - Capo Zola, C (2008) (Uncle Sam Wants you: World War 1 and the Making of Modren American Citizen) N y, oxford university press.

ويضيف غوبلز موضحاً بشكل أكثر اتقاناً (ليس من الكافي أن نصلح بين الناس والنظام بشكل أكبر أو أقل، أو ان نحركهم على اتخاذ موقف الحياد نحونا) بل (نريد أن نعمل على ذلك أكثر حتى يصبح الناس ملتصقين بنا) في خطاب له أمام ممثلين عن الصحافة في ١٥ آذار ١٩٣٣.(١)

وهكذا أصبحت وسائل الإعلام في عهد الرايخ الثالث حقناً تضخ المصل الإيديولوجي النازي في الشرايين الألمانية، ولكن كيف يمكن التأكد من أن فقط المواد المخول بها رسمياً سوف تدخل إلى مجرى الدماء الوطنية؟

عند هذه النقطة، أسست الدولة النازية طبقات متعددة من الفلاتر، حيث أحتل غوبلز منصب المسئول عن (الفترة)، مترئساً في نفس الوقت، وزارة الرايخ للدعاية والتنوير الشعبي (Rmvp)، ورئيس هيئة الرايخ للثقافة (Reichskultur Kammer, RKK)، والمشرف على مكتب الحزب للدعاية المركزية، ومن خلال هيئة الثقافة تم وضع شروط التوظيف، وتم إبعاد الأشخاص غير المرغوب بهم، وطالما أن الصحفيين والكتاب وصانعي الأفلام والفنانين يجب أن يخضعوا لعضوية الهيئة التي كان (حارس بوابتها) عضواً متحمساً في الحزب، فإن الأعضاء المحتملين من ذوي (الشوائب) السياسية أو العرقية كان يتم تفحصهم ملياً، وهكذا عمل الحزب على تهميش المعارضة المحتملة من دون جعل عضوية الحزب نفسها شرطاً لازماً للممارسة النشاط المهني، ومؤرخ الدعاية النازية دافيد ويلش يلمح إلى أن إجراءات (RKK) التطهيرية سمحت للنظام إلى حد كبير إلى صرف الرقابة الرسمية طالما أن الكوادر المتبقية احتاجت إلى القليل من الإكراه.(٢)

ومع ذلك فإن وسائل الإعلام الألمانية لم تستمر من دون تدقيق أكثر، على النقيض من ذلك، فإن الدولة اتخذت إجراءات أكثر جذرية لإنهاء كل ما تبقى من محاولة خجلى للمناورة، وهذا ما تطلب وقتاً لإنجازه، ولكن النازيين عملوا عليه بهدوء قبل وخلال الحرب.

---

1 - Taylor, R (1979) Film Propaganda: Soviet Russia and Nazi Germany, London, I. B. Tauris.

2 - Welch, D (1993) the third Reich: Politics and Propaganda, London, Routldge.

وشكلت الصحافة الألمانية المشكلة الأكثر تعقيداً، حيث كانت ألمانيا تملك في الثلاثينات ٤,٧٠٠ صحيفة، بحيث يصل عدد نسخها لكل فرد أكثر من أي بلد آخر، ومن هذه الصحف كان الحزب النازي يملك ٥٩ صحيفة فقط في عام ١٩٣٣، مع حجم توزيع لا بأس به يصل إلى حوالي ٧٨٢,١٢١ ألفاً.[١]

وكان الحل الواضح لتخفيض هذه الكثرة، عن طريق امتلاك الصحف من قبل دار النشر التابعة للحزب (Eher Verlag) والتي كان يرأسها ماكس أمان، وهو عضو فاعل في الحزب، شغل أيضاً منصب رئيس هيئة الصحافة، وبينما كانت مهمة أمان الخفية هي إبعاد أي كوادر غير ملائمة والمضمون غير المرغوب به، كان رؤساء التحرير يختبرون ضغوطاً متصاعدة لإتباع تعليمات يومية تصدرها وكالة الأنباء الرسمية، وابتداء من أكتوبر، كان رؤساء التحرير مكرهين على حذف أي شيء (يمكن أن يضعف قوة الرايخ في الخارج أو في الوطن).[٢]

والمحررون الذين يرفضون الطاعة كانوا يجدون صحفهم إما يتم غلقها أو شراؤها من قبل الحزب وبحلول عام ١٩٣٩، سيطرت (Eher Verlag) على ثلثي الصحافة الألمانية، ولكن كانت الحرب هي من مكن الدولة حقاً من تشديد قبضتها، إذ أن بقاء الصحف ملكية خاصة في زمن الحرب كان يعني أن توزيع الصحيفة كان سينهار بغض النظر عن سياسة الدولة، بسبب النقص في الورق، ومواد الطباعة والأفراد.[٣]

وعلى كل حال فإن النظام النازي استغل هذه المصاعب العملية لأغراض سياسية، مقنناً الورق والمواد الطباعية بطريقة لمكافأة الصحف النازية على حساب آخر الصحف شبه المستقلة المتبقية، وإذ تم إغلاق المزيد والمزيد من الصحف، أصبح بإمكان أمان أن يعلن في١٩٤٣ (ان الحزب يقود الصحافة).[٤]

١- مصدر سابق، ويليش ١٩٩٣، ص ٣٨.

٢- مصدر سابق، ويليش ، ٣٧.

3 - Hale, O (1964) the Captive Press in the third Reich, Princeton, N j, Princeton University Press.

٤- مصدر سابق، ، ص ٢٨٩.

وبحلول فبراير ١٩٤٥ ، أصبحت الصحف نادرة الوجود وتقلصت إلى ما يشبه الإعلانات أو الملصقات التي توزع باليد ، وتتضمن التعليقات العسكرية اليومية ونداءات قادة الحزب اليائسة.

أما بالنسبة للراديو، فإن شبكة الإذاعة الألمانية كانت مملوكة للدولة منذ عام ١٩٢٥ ، فقط أن دولة فايمار كان لها القليل لقوله بخصوص المضمون، ولكن من خلال مرسوم حزيران ١٩٣٣، وضعت المحطات الإقليمية التسعة التابعة للشبكة تحت سلطة وزارة (Rmvp)، وكانت الخطوة الثانية هي تقريب هذه (الوسيلة المغناطيسية) أكثر إلى الشعب، ولزيادة نسبة الاستماع، خططت الدولة لإنتاج أجهزة استقبال زهيدة الكلفة، (راديوات الشعب)، حيث تم دعم هذه الأجهزة لحد كبير، بحيث تكون في متناول القدرة الشرائية للعمال، في وقت كانت فيه هذه الأجهزة نوعاً ما وسيلة جديدة وحديثة نسبياً، وطالما أنها كانت مصممة لالتقاط موجات محددة بعينها، فقد كان المستمعون الألمان يجاهدون حثيثاً للاستماع إلى محطات أجنبية وقلما ينجحون.[1]

ونتيجة لذلك كانت ٧٠٪ من المنازل الألمانية تمتلك جهاز مذياع في سنة ١٩٣٩ ، وهي أعلى نسبة مئوية في العالم كله في ذلك الوقت، وجميعهم تقريباً كانوا مضطرين لسماع الإذاعة الوطنية سواء شاءوا أم أبوا – وبالنسبة لأولئك الذين لم يكونوا يملكون أجهزة، شجعت الدولة على الاستماع (الجماعي) عن طريق توزيع أجهزة مجاناً على أماكن الاجتماع العامة والمناسبات في المناطق الريفية والفقيرة، وتم إنشاء وظيفة حزبية محلية جديدة، وهي ناظر الراديو الجماعي الذي كانت وظيفته ملاحظة ومراقبة ردود فعل الجمهور.

ولقد صاغ هتلر السياسة النازية وفقاً لما اعتقد بأنه كان الممارسة الدعائية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى، وفي تلك الأثناء وبينما كانت ألمانيا تبتلع الدول المجاورة لها ، فإن رجال السياسة البريطانيين تبنوا وجهة النظر القائلة، بأنه إذا

١- مصدر سابق، ويلش ١٩٩٣، ص ٣- ٣٢.

كان على بريطانيا أن تحارب ألمانيا ثانية فإنه يتوجب عليها أن تمتلك نفس الأسلحة التي طورتها ألمانيا، وكما لاحظ المؤرخ ميشيل بالفور (لم يكن هناك أي تميز متكافئ وخصوصاً في وكالات الاستخبارات، بالنسبة لماهية هذه الأسلحة بالضبط وأين تكمن)، وبشكل مثير للسخرية، فعندما بدأت حكومة تشامبرلين تخطط بشكل حثيث لحرب المعلومات القادمة فإن (الانجليز تخيلوا أنهم يعملون على نسخ شيء من الألمان والذي كان الألمان يعتقدون بأنهم نسخوه من الانجليز.[١]

وبطرق مختلفة، كان المسؤولون الانجليز والسوفيات والأميركيون جميعاً يميلون إلى التقليل من احتمالات الحرب المنظورة حتى كانت دولهم في خضمها بالفعل، وفي حكومة ويسمنستر، كان هناك حديث عن استعادة وزارة الإعلام (MOI) والتي تم حلها في عام ١٩١٨، ظل متداولاً منذ سنة ١٩٣٥ وحتى ١٩٣٩، عندما أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا بعد أن قامت بغزو بولندا، وبينما كانت تشامبرلين تأمل في أن هذه العملية سوف تهدئ من أطماع ألمانيا الإقليمية، كان مستشاروه يرون بأن السيناريو المحتمل الأسوأ، في حالة عدم تراجع هتلر، هو سيكون في مواجهة بين سلاح الجو الملكي RAF وبين سلاح الطيران الألماني (لوفتوافه) في حرب جوية عنيفة وسريعة، وفي مثل هذه الحرب يكون إلزامياً الحفاظ على معنويات المدنيين، حيث كان يخشى أن القصف الجوي سرعان ما يمزق أعصاب الانجليز.[٢]

والحفاظ على المعنويات مرتفعة كان أولوية، ولكن ما من أحد كان يعرف بالضبط ما هي ولا كيفية الحفاظ عليها، وفي أيلول ١٩٣٩، كانت السياسة الرسمية البريطانية تجاه وسائل الإعلام قد ظلت متناقلة تجاه الإعلام، حتى أن المراسلين خافوا من العودة إلى (العصور المظلمة) لسنوات ١٤- ١٩١٥، وفي تكرار لصدى آب ١٩١٤، أصدر الجيش تعتيماً تاماً على الأخبار حول قوة الجيش البريطاني

١- بلفور، ١٩٧٩، ص ٥٤.

2 - McLain, I (1979) Ministry of Morale: Home Front Morale and the ministry of information in World War II, London, Allen & Unwin.

المرسلة إلى فرنسا، وقائماً بذلك بعد أن مضت الصحف فعلاً إلى المطبعة، وفي فرنسا نفسها كانت الرقابة شديدة جداً حتى أن أحد المراسلين الأميركيين اشتكى من أن (الأخبار لا تصل أبداً، أو ربما أنها لا توجد أصلاً)، وفي تلك الأثناء كانت الـ BBC قد علقت برامجها المعتادة، وأخذت تبث ساعات مطولة من الموسيقى، وهو أمر لم يكن للمستمعين أن يهربوا منه باللجوء إلى السينما، لأن جميع دور الأخيرة كان قد تم غلقها، تحسباً لحدوث الغارات الجوية، الأمر الذي كان يمكن أن يحول دور السينما المملوءة بمواد فلميه سريعة الاشتعال، إلى مصائد للموت، لكن هذا القرار ما لبث أن ألغي، بعد فاقت الحرب في طولها كل التوقعات.(1)

وما من عجب عندئذ ان اللورد جون ريث John Reith (مؤسس هيئة الإذاعة البريطانية BBC ،هو واحد من ثلاثة رجال سوف يتولون منصب وزير الإعلام خلال السنتين الأوليتين من الحرب) قد تساءل ماذا كان غوبلز سيصنع بكل هذه الفوضى، هل يمكن أنه (سيصدق عشر ما كان يحدث هنا).(2)

أما الاتحاد السوفيتي فكان يقارب الأحداث المكتشفة في وسط أوربا، بمجموعة مختلفة من التحسبات والتوقعات المغلوطة، فبعد التوقيع على معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا عام ١٩٣٩، قام الاتحاد السوفيتي بشن حرب موازية من ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٠، ولكن ليس مع هتلر ولكن ضد فنلندا، التي غزاها الجيش الأحمر في نوفمبر ١٩٣٩، واستمرت حرب الشتاء هذه حتى آذار ١٩٤٠، عندما تخلت فنلندا عن جزء من أراضيها إلى موسكو، ولكن هذه الموافقة الفنلندية لم تمثل أبداً ذلك النصر المجلجل الذي حاول ستالين إقناع شعبه بأنه قد تحقق، وأن المقاومة الفنلندية العنيدة وجهت ضربة قوية إلى هيبة الجيش الأحمر وإلى مدى مصداقية الصحافة السوفيتية، وأدى رفض الكرملين إلى تقييم الأمن السوفيتي بشكل واقعي إلى أزمة كارثية أخرى في حزيران ١٩٤١، عندما اندفعت القوات الألمانية عبر الحدود الغربية

---

1 - Aldgate, Aand Richards, J(1994) Britain Cantakeit: the British Cinema in the Second World War) Ekinburgh, Edinburgh University Press.

٢- مصدر سابق، الاقتباس عند بالفور، ١٩٧٩، ص ١٠٩.

للاتحاد السوفيتي، خصوصاً وأن ستالين كان متمسكاً بأن لا حرب سوف تقع مع الألمان، في الوقت الذي أطلق فيه هتلر (عملية باربروسا) التي كانت ضربة صاعقة، وتركت وسائل إعلام الاتحاد السوفيتي USSR في تشوش وارتباك، بسبب من حالة الإنكار لدى الكرملين التي رفضت رؤية ما يحدث أو التحسب له، ولهذا فإنه في ليلة ٢٢ حزيران، لم يكن هناك أي مراسل للإذاعة حاضراً على الحدود الأوكرانية أو البيلو روسية، عندما اندفعت فرق البانزر الألمانية المدرعة إلى داخل المناطق السوفيتية، في البداية قام راديو موسكو، وهو شبكة الإذاعة الرسمية والذي يملك ما يقدر بـ ٣٠ مليون مستمع منتظم (في حينه) بأحياء هذا الانعطاف الكارثي في الأحداث بالصمت، حيث استمرت البرامج الاعتيادية كما لو أن شيئاً لم يكن.(١)

ولكن كان من الواضح أن حدثاً بهذا المقاس، لم يكن بالإمكان التغطية عليه لما لا نهاية حتى في بلد مثل الاتحاد السوفيتي.

وخلال يومين من بدء الغزو قام الكرملين بإنشاء وكالة إخبارية جديدة، (Informbiuro) للسيطرة المركزية على الرقابة، وإطلاق وتقديم أخبار الحرب، وبعد أسبوعين من غيابه من المشهد العام، كانت أولى تصريحات ستالين استمراراً للتأكيدات غير المقنعة بالنصر المبكر، حتى وأن كانت مساحات واسعة من الأراضي السوفيتية قد وقعت تحت سيطرة القوات الألمانية المندفعة، وبعد ثلاثة أسابيع من أخلاء الكرملين من موسكو وإعادة تمركزه في كيو بايشيف استمر ستالين في الإصرار على أن ٤،٥ ملايين من الجنود الألمان قد تم إخراجهم من نطاق العمل، مفزوعين بفعل الخيالة السوفيات.(٢)

رغم ان العديد من المواطنين السوفيت كانوا يعرفون من التجربة الأولى للاحتلال الألماني أن هذا الأمر لم يكن ممكناً.

١- فون غيلدرن، Geldern ،١٩٩٥ ، ص ٤٧.

٢- فون غيلدرن، ١٩٩٥، ص ٤٩.

ومثل تشمبرلين وستالين، فإن روزفلت أيضاً قد تمسك بأن الولايات المتحدة سوف تبقى بعيدة عن الصراع، وهو إعلان عن وضعية من الحياد والتي بدت أقل قابلية للتصديق، إذ كان الرئيس قد أمر بمساعدة واسعة النطاق للحلفاء الغربيين المتعثرين بشكل قروض ميسرة، وهذا التقدم التدريجي من موقف عدم التدخل إلى الالتزام بتقديم الدعم، كان يتطلب حملة علاقات عامة كبرى لتسويق فكرة الحاجة للحرب إلى المواطنين الأميركيين الكارهين للأمر، ولكن نظراً لعدم الثقة الذي يحيط بالجهود الدعائية المحفزة على الحرب، فإن مستشاري العلاقات العامة للحكومة نصحوا بالتعامل مع هذه المسألة بلطف.[1]

وكانت الجهود التي تحض على المشاعر الداعية للتدخل في الحرب بشكل واضح كانت تهدد بالارتداد بشكل عكسي، وبينما تم فرض الرقابة على الأخبار في ديسمبر ١٩٤٠، حول بعض الموضوعات المحددة " مثل حركة السفن والطائرات الأميركية لمساعدة السفن البريطانية على عبور الأطلسي، أو تطوير أسلحة سرية" فإنه ما من وكالة حكومية يمكن إنشائها بشكل معلن مخصصة للدعاية طالما ان الولايات المتحدة كانت رسمياً على الحياد.[2]

وبدلاً عن ذلك تم إنشاء عدد من الهيئات التي تم تسميتها بشكل محايد، أخذت تعمل على التحشيد للآراء من أجل الحرب من دون أن يبدو أنها تفعل ذلك، وفي أيلول ١٩٣٩ تم إنشاء مكتب التقارير الحكومية لمتابعة الرأي العام المحلي والذي أظهرت استبياناته التي أجراها بشكل لافت مشاعر معادية للحرب، وتم إنشاء مكتب (الدفاع عن المدنيين) الذي ترأسه عمدة نيويورك، لاغوردي (LaGuardia)، الذي أوكلت إليه مهمة تعزيز السلامة العامة ورفع المعنويات، فيما كان قسم الإعلام في مكتب إدارة الطوارئ يضخ عدداً لا يحصى من النشرات الصحفية اليومية حول بناء ترسانة أميركا المتنامية، فيما قاد نيلسون روكفلر كمنسق لشؤون أميركا الخارجية، الجهود الأميركية لتحشيد الآراء الأجنبية،

١- كايسي، ٢٠٠١.

٢- مصدر سابق، سويني، ٢٠٠٦، ص ٦٧.

فيما خدم الكولونيل ويليام دونوفان كمنسق للمعلومات، وهي وكالة أصبحت فيما بعد مكتب الخدمات الإستراتيجية (أو الـ OSS، التي تم إنضاجها فيما بعد إلى وكالة الـ CIA) والتي أوكل إليها مهمة تنفيذ العمليات السيكولوجية ضد العدو، ولتنسيق الجهود بين هذه الوكالات المتزايدة، تم تأسيس مكتب المعلومات والإحصاءات في أكتوبر ١٩٤٠.

وعلى الرغم من كل هذا العمل التحضيري، فإن هجوم اليابان على ميناء بيرل هاربور في ٧ ديسمبر ١٩٤١، كان مفاجئاً للدرجة التي تم إلقاء اللوم فيه على المسئولين الأميركيين، بنفس الطريقة التي أدت فيه عملية (باربروسا) إلى إلقاء اللوم على الكرملين، وكذلك فإن ردة فعل واشنطن الأولى كانت باتجاه القمع والمراوغة، ولقد فرض الجيش الأميركي والبحرية الأميركية القوانين العسكرية في هاواي، فارضاً الرقابة على الاتصالات بواسطة الهاتف أو الراديو والبرقيات بين الجزر والبر الرئيسي، ولقد طلب الرئيس روز فلت من مدير المباحث الفدرالية FBI ادجار هوفر تنسيق أعمال الرقابة.

وعندئذ بدت ألمانيا في أقصى ما توصلت إليه، مستمتعة بأفضلية كبيرة في كل مجال في حرب الكلمات وفي التسليح على حد سواء، وليس فقط أن الرايخ الثالث قد نظم أفضل ماكنة دعائية، وأكثر وسائل الإعلام الملتزمة بانضباط عالٍ، بل أن الجيش الألماني حقق انتصارات باهرة عدة التي أعطت للدعائيين النازيين الكثير ليجاهروا به والقليل من استخدام المنطق، على عكس خصومهم الذين أصابهم الذهول والدوار وفضلوا الالتزام بالصمت.

(قوات صدمة) الدعاية:

الأخبار كانت حسب العبارة التي صاغها مؤسس الـ BBC ، لورد جون ريث هي (قوات الصدمة) للدعاية، وهذه النقطة تم التطرق إليها أيضاً من قبل غوبلز وزير

دعاية الرايخ، وإن تم صياغتها بشكل مختلف بقوله (إن سياسة (الأخبار) هي سلاح الحرب، وغرضها لإشعال الحرب، وليس لإعطاء أية معلومات).[1]

وبكلمات أخرى، فإن الأخبار تمثل سلعة يمكن تصريفها، أو حجبها أو التلاعب بها سعياً وراء النصر، كانت الأخبار تلعب دوراً مركزياً في الحفاظ على روحية الجبهة الداخلية، كما كانت منتقدة في جهودها لتغير رأي الدول المحايدة، وتدمر معنويات العدو .

والموقف في استخدام الأنباء كأدوات كان ظاهراً بشكل واضح في الحرب العالمية الأولى، بعد أن تغلبت العديد من القيادات الوطنية العليا على تصميمها على البقاء صامتة لفترة من الوقت، ولكن في هذا الصراع العالمي الثاني ظهرت الأخبار كجبهة ناقدة أكثر في معركة السيطرة على الرأي العام، حيث كان العديد من الأشخاص يتمتعون الآن بإمكانية الوصول إلى مدى أكبر من وسائل الإعلام، وخصوصاً تلك الوسائل (الراديو والسينما) التي لا تعتمد على التعليم، ولأول مرة أصبح الملايين من الجمهور المستهدف يقبعون ضمن حدود (العدو) بفضل تطور قدرات البث الإذاعي في الوصول إلى مسافات بعيدة وجمهور واسع فيما وراء الحدود الوطنية، وكان بوسع الدول تأمين انفراد محطاتها الوطنية في الساحة عن طريق التشويش على إذاعات العدو، وهي خطوة تتطلب قدرات تقنية واسعة وقد لا تكون ناجحة دائماً، أو من خلال فرض عقوبات مشددة على المواطنين الذين يضبطون وهم يستمعون إلى الإذاعات الأجنبية، وهذه أيضاً برهنت على عدم فعاليتها كوسيلة لكبح فضول الناس في عدم الاستماع إلى إذاعات محظورة، سواء كانوا يبحثون عن محطات تعرض موسيقى أفضل، أو برامج أكثر فكاهة، أو أكثر تسلية أو حتى تقدم أخبار أكثر جدارة بالثقة.

ولقد وضعت التطورات التكنولوجية الراديو في مركز حرب المعلومات هذه كما ساعدت طبيعة وسائل الاتصالات المتغيرة على تشجيع الدول وجيوشها لمقاربة

1- Doob, L (1995) (Gobbled , Principles of Propaganda) in Jackal.

وسائل الإعلام بطريقة ديناميكية أكثر، كمنتجين نشطين، وفيض من الأخبار وكما أدرك غوبلز بأن (التعطش الشعبي للأخبار يجب إشباعه بطريقة ما) أو أن الألمان سوف (يكرهوا على الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية والمعادية).(١)

ولذلك فإن الحرب العالمية الثانية شهدت ازدهاراً هائلاً في وسائل الإعلام، ممتداً على سلسلة كاملة واسعة من إصدارات الدولة من الملصقات والكراريس، والرسوم الهزلية والأفلام حتى الصحف ومحطات الإذاعة العسكرية، وكان الاتحاد السوفيتي قد أصدر مالا يقل عن ٧٥٧ عنواناً صحفياً مختلفاً تابعاً للجيش في نهاية الحرب، أما بالنسبة للإذاعة، فقد وسعت هيئة الإذاعة البريطانية BBC من إذاعاتها الناطقة باللغات الأجنبية (أو الإذاعات الموجهة كما يحلو للبعض تسميتها، من عشر في عام ١٩٣٩، إلى ٤٥ في عام ١٩٤٣.(٢)

وقامت الحكومة الأميركية بإنشاء الخدمات باللغات الأجنبية المتعددة لإذاعة صوت أميركا في عام ١٩٤٢، بينما في الداخل فإن حجم وقت البث الإذاعي المخصص لأخبار الحرب ارتفع من ٥ إلى ٢٠٪ حسب التقديرات، مع وجود تسعة من عشرة مستمعين أميركيين يصغون إلى أربع ساعات يومياً إلى الإذاعة.(٣)

وهكذا فإن كل الجوانب المتعلقة بالمعلومات كسلعة إستراتيجية حيوية أنتجت منافسة حادة بين قوى المحور وخصومها للهيمنة على دورة الأخبار من خلال إطلاق المعلومات بأقصى سرعة ممكنة، أو قمعها مع أقل قدر ممكن من الأدلة على إخفائها.

والأهمية الملصقة بالأخبار زادت من الضغوط داخل الدول المتحاربة، بعد تطويرها لوكالات معقدة ومتداخلة للسيطرة على إطلاق الأخبار وفرض الرقابة على المعلومات، وازداد التوتر ليس فقط بين وسائل الإعلام والدولة ببساطة، بل بين

١- مصدر سابق، مقتبس عند دوب، ١٩٩٥، ص ٢٠٣.

2 - Briggs, A (1995) (The War of Words) 1939 – 45, oxford, Oxford University Press.

٣- مصدر سابق، بريوير ، ص ١٠٢.

المدنيين والمسئولين العسكريين، حيث تجادلوا على ما يجب التصريح به ونشره، وما الذي يجب منعه، وحول التعامل مع المسألة الأكثر إزعاجاً في زمن الحرب: إدارة الأخبار، فإن التراجعات، والخسائر والهزائم كلها من المحتمل أن تثبط من معنويات الجبهة الداخلية، وفي ألمانيا، فإن الصراع الداخلي على سياسة الأخبار اتخذ طابعاً شخصياً بين غوبلز وقيادة الجيش الألماني العليا، وأكثر تحديداً بين وزير دعاية الرايخ وبين الفوهرر نفسه، خصوصاً وأن سلطة غوبلز لم تكن أباً مطلقة، والفضل في ذلك يعود إلى إصرار هتلر على ازدواجية الوظائف ضمن دائرته الداخلية، الطريقة المثلى للتحكم بهم في (فوضى) محسوبة.[1]

وحيث أن زمن الحرب قد أعلى من العسكرتاريا إلى مكانة عليا في صناعة الأخبار، وجد غوبلز نفسه يتصارع مع مكتب دعاية القيادة العليا للجيش(OKW)، وضد هيئة الرايخ للصحافة التي يرأسها أوتو ديتريش، الذي كان يصاحب هتلر شخصياً في جولاته التفقدية لخطوط الجبهة، وكان هتلر هو الحكم النهائي حول إصدارات الـ OKW لأخبار، عملية مراجعة تعترض ماكنة غوبلز بأكملها، وإذا ما كانت تعليقات الـ OKW تحصل على موافقة هتلر، كان يتم إعلانها مباشرة من خلال وكالة الأخبار الرسمية في الوقت المناسب لإذاعتها في نشرة أخبار الساعة الثانية الإذاعية.[2]

وإذا لم تحصل على الموافقة، يتم تعديلها وفقاً لذلك، وغالباً ما يتم ذلك على حساب الحقائق وفي واحدة من الحالات النموذجية: كان ثمة خبر يقول بأن الجيش الألماني قد أخذ ٣٠ ألف أسير حرب، وأصر هتلر على أن الرقم يجب أن يعدل: لا تكتب ٣٠،٠٠٠ بل ٣٠،٧٢٣ ، وهكذا فإن كل امرئ سوف يصدق بأن تعداد دقيق قد تم إجراؤه.[3]

١- مصدر سابق، بالفور، ١٩٧٩، ص ٣٥.

٢- مصدر سابق، بالفور، ١٩٧٩، ص ١٠٥.

٣- مصدر سابق، بالفور، ص ١٢٢.

ولم يكن هتلر يجد غضاضة في الخداع، طالما أن الناس يبتلعون الطعم، وكما يظهر كتاب (كفاحي) بوضوح، فإن مؤلفه كان يعتبر أن الكذب عنصر أساسي في الدعاية الناجحة، وبحسب رأي هتلر فإنه كلما كانت الكذبة جريئة، كلما كانت أقل عرضة للتدقيق، أما غوبلز الذي أصبح تعبير (الكذبة الكبرى)، مترادفاً معه، فقد اتخذ موقفاً أكثر دقة. حيث إنه تبين علاقة متوارية بين المصداقية والدقة، والتي كان هتلر يزدريهما معاً، فإن علاقتهما المهنية لم تكن خالية من الاحتكاك، وعلاوة على ذلك ومع تقدم الحرب عانى الجيش الألماني من تراجع كارثي في ستالينغراد حيث أدت المعركة المريرة التي خاضها الألمان على الجبهة الشرقية على هزيمة مرة في شباط ١٩٤٣، أصبح الخلاف بين منهجيهما أكثر ظهوراً وإذا كان الفوهرر قد تنبأ بالنصر مبكراً، اضطر إلى أن ينأى بنفسه عن الأضواء، وفي نفس الوقت يشدد من قبضته على الصحافة بضراوة حتى إن عمود غوبلز في صحيفة Das Reich نفسه لم ينج من الرقابة، وإذا أخذت الحرب تصل إلى ذروتها، تحول غوبلز نحو مركز المسرح، لتشجيع وحث وحتى تهديد الشعب الألماني المنهك، وفي أكثر خطبه أهمية خلال مسيرته، في ملعب برلين بتاريخ ١٨شباط ١٩٤٣، حذر من أن ألمانيا يمكن أن تخسر الحرب إذا لم يستجيب (الشعب الآري) في عزيمة متوقدة لدعوته إلى مجهود حربي (أكثر شمولية وجذرية مما أمكن تخيله قبلاً).[١]

وهذا التلميح غير المسبوق بالهزيمة، تواق مع إقرار غوبلز بسياسة من (الصراحة التامة) ولكن لم يكن مفاجئاً أن الصراحة لم تمتد لأكثر من ذلك، وعلى الرغم من إصراره على أن وظيفة الدعاية ليست (القيام بالتنبؤات، بل لتقديم الحقائق)، أطلق غوبلز لنفسه العنان لتحليق في الخيال، وجرعات من الأساطير غير العقلانية، استحضر خلالها ألف عام من بقاء دولة الرايخ للأبد، وادعاؤه بأن أسلحة سرية عجائبيه سوف تحقق النصر.[٢]

١- مصدر سابق، بالفور، ص ٣٢١.

٢- مصدر سابق، ويلش، ١٩٨٣، ص ٦.

ولقد تشاركت وسائل إعلام الرايخ في زمن الحرب في صفات متشابهة مع وسائل الإعلام في الاتحاد السوفيتي، لكن مع قدر معكوس فقط، فكلاهما كان تابعاً لأنظمة سياسة تسيطر فيها الدولة بصرامة على كل أشكال الاتصال، وأدوات التوجيه الإيديولوجي ، ومن هنا فهي وسيلة الهيمنة على الرأي العام، في حالتي الحرب والسلم، وكلاهما شهدت هيمنة أكبر للجيش على صناعة الأخبار أكثر مما كان لدى بريطانيا والولايات المتحدة، وأحد الصور التي تجلت فيها هذه السمات المتشابهة، تمثل في النشوء المتوازي لنوع جديد من مراسلي الحرب في كل من ألمانيا والاتحاد السوفيتي، والذين كانوا أفراداً مدربين في القوات المسلحة، حيث كانت الأشرطة الإخبارية الألمانية المنتجة من قبل الدولة، يتم تصويرها من قبل مجندين خاصين من أفراد (Propaganda Kompanien)، والتي كان يتوقع من مصوريها أن يرموا بأنفسهم في خضم المعركة، وهو ابتكار أطرى عليه وزير الدعاية كثيراً، ومع حذف ومراجعة اللقطات القريبة جداً لحذف مشاهد الدماء وتعليقات كان يشرف عليها غوبلز نفسه، اجتذبت أشرطة الأخبار هذه مرتادي دور السينما في الأشهر الأولى من الحرب.

وهي شعبية تحققت على حساب مصوري الـ (PK) أنفسهم،[1] وحيث أن أولوية كبرى كانت تعطى للقطات إدرامية على حساب آرائهم، أكثر من ألف فرد من أفراد الـ PK، قتلوا أو فقدوا في العمليات بحلول أكتوبر ١٩٤٣.[2]

وبشكل مشابه لذلك، تم تنشئة جيل جديد من المراسلين الحربيين (Voenkor) في الاتحاد السوفياتي ، وتم اختيارهم بشكل رئيسي من ضباط الجيش، وتم تدريبهم في معهد لينين العسكري وتم الترخيص لهم بانتقاد أقرانهم من أجل تحسين الأداء العام.[3]

١- نفس المصدر السابق، ص ٢٠٨.

2 - Hoffmann, H (1996) (The Triumph of Propaganda: Film and National Socialism 1933-45) Providence, RI: Bergh am.

3 - Mc Renolds, L(1995) Dateline Stalingrad: New Paper Correspondents at the Front) in Stites.

ومع وجود خطوط واهية من الحدود بين بيروقراطية الحزب الشيوعي، والنخبة المثقفة السوفيتية والجيش الأحمر، نفسه تحت أشراف إيديولوجي صارم من قبل مفوضية الحزب الشيوعي المعروفة اختصاراً بـ (GPU) أصبحت الحدود أكثر تشوشاً، حيث حصل ضباط الجيش الأحمر على مناصب تحريرية هامة في مطبوعات الدولة البارزة، بينما انتقل الصحفيون والكتاب البارزون إلى الوحدات العسكرية في الجبهة للكتابة للصحف العسكرية، وهذه الأخيرة وخصوصاً أكثرها بروزاً (النجم الأحمر) اجتذبت مدنيين للعمل لديها الذين ما لبثوا أن أصبحوا من الكتاب المعروفين جيداً مثل فاسيلي غروسمان، وإيليا اهرينورغ، وميكائل سولوكوف وكونستانتين سيمونوف.[1]

وكما كان على خصومهم الألمان فيما بعد أن يفعلوا، اضطر المتحكمون السوفيات بالأنباء أن يناضلوا ضد النكسات العسكرية، وهي موضوعية تقاوم المعالجة الصريحة في مجتمع يعتبر شخصية ستالين الفذة كجوهر للنص، والشعارات المشهورة قبل اندلاع الحرب مثل (حيث يكون ستالين، يكون النصر)! ما لبث ان تلاشت من صحيفة (البرافدا) ونظراً لتصريحاته الرنانة وصورته الكاسحة في الثقافة العامة السوفياتية كقائد، عظيم قبل عملية (باربروسا) فإن اختفائه عن الأنظار بشكل تام كان صاعقاً، وخلال الحرب لم تظهر الصحف ستالين وهويزور وحدات الجيش أو يتفقد أضرار الحرب أو يتشاور مع جنرالاته، يقول أهرينورغ إن (ستالين يعرف أنه مضطر للكذب بصوت واطئ)، وعندما ظهر على سطح الأحداث مجدداً، كانت نبرة خطابه متغيرة بشكل مختلف تماماً، حيث تحدث إلى مواطنيه للمرة الأولى مخاطباً إياهم بـ (إخواني وأخواتي) و (أصدقائي) مثيراً حب البلاد بدلاً من الإيمان بالشيوعية كمصدر ثابت للتحفيز في وقت الحرب.[2]

وأخذت نبرة الخطاب الدعائي السوفيتي تتغير معتمدة على التمثيل العاطفي لأرض الوطن بـ (الأم) والتركيز على نبل الروح الروسية، بقدرتها التي لا حدود لها

١- المصدر السابق، بروكز، ٢٠٠٠، ص ١٦- ١٨.
٢- المصدر السابق، بروكز، ، ص ١٦١.

على تحمل المعاناة والآلام، العزم الحديدي على الثأر، أصبحت هي التأطير الرسمي السائد للحرب.

كانت الحرب هي (الحكم على كل الأقدار، حتى على قدر الحزب نفسه) يقول غروسمان لاحقاً في روايته الملحمية (الحياة والقدر)، وإذ كان الاتحاد السوفيتي يقاتل من أجل بقائه، فقط شهد من المعاناة والدمار الهائل ما كان من الصعب إخفائه، وغني عن القول، على كل حال، إنه كانت هناك العديد من الجوانب في تجربة الحرب التي ظلت بعيدة عن المعالجة الصريحة أو حتى عن أي ذكر أو معالجة، وكما قد يتوقع المرء فإن الممارسات المسكوت عنها بشكل كبير لم تكن تلك التي ارتكبتها (قطعان هتلر الدموي)، بل كانت ممارسات التعاون من قبل المواطنين السوفيت مع القوات الألمانية المحتلة، والاستسلام الجماعي بجنود الجيش الأحمر لأفراد الجيش الألماني، لقد كانت (حرباً وطنية كبرى) بالفعل، ولكن هذا المد المرتفع من الوطنية الذي تسبب به الغزو الألماني، لم يمنع من أعمال النهب، والاضطرابات بسبب الطعام وازدياد علائم الرعب العام، ولا منع نظام ستالين من معاقبة الجنود والمدنيين بلا شفقة ممن يشتبه فيهم بعدم الولاء أو التخاذل وهي انتهاكات تم تنفيذها بشكل غامض جداً، حتى إن أولئك الذين كانوا يحضرون متأخرين لعملهم كانوا عرضة لأن يجدوا أنفسهم محكومين بسنوات عدة من الأشغال الشاقة في مناطق الغولاق Gulag التي توسع عدد سكانها بشكل هائل خلال زمن الحرب، وفي الجبهة، كان الحل العسكري، (هو ممارسة أقسى عقوبات التأديب الممكنة) كما يلاحظ المؤرخ العسكري انتوني بيفور Beer or، حيث قام الجيش الأحمر بإعدام ما لا يقل عن ١٣,٥ ألف من رجاله خلال الأشهر الخمسة من معركة ستالينغراد لوحدها، وكانت جريمتهم (خيانة الأرض الأم).[1]

ولقد عمل مديرو الأخبار البريطانيين والأميركيين في زمن الحرب على النأي بأنفسهم بعيداً عن خصومهم الألمان، وحلفائهم السوفيت بشكل واعٍ من خلال

1 - Grossman, V(2007) A Writer at War: A Soviet Journalist With the red Army 1941-45, New York, Vintage.

تنمية (إستراتيجية الحقيقة) وهو منهج تبناه كل من وزارة الإعلام (MOI) ونظيرها في واشنطن مكتب إعلام الحرب (OWI) ، والعبارة نفسها موحية بالكثير، حيث أكد الانفتاح، الصورة الذاتية للأنظمة الليبرالية كمجتمعات يتدفق فيها الإعلام بحرية مع أقل القليل من تدخل الدولة، حيث كانت حرية الخطاب واحدة من (الحريات الأربع) التي كانت الحرب تخاض من أجلها، كما يفترض، كما عملت الحكومة الأميركية وحكومة تشرشل على تاطير أهداف الحلفاء من الحرب كما في لائحة الأطلسي المعلنة في ١٩٤١، حيث كانت الحقيقة كلا من خيار استراتيجي وكذلك ضرورة إيديولوجية، درجة من الإخلاص والصراحة تشجع المواطنين على الشعور بأن قادتهم يثقون بهم كفاية لتقبل حتى الأخبار السيئة برباطة جاش، ولذلك فإن الربح من الحقيقة سوف يحسن به في ارتفاع كبير للمعنويات الوطنية، أو هكذا أوصى الخبراء، وفي تقرير إلى وزارة الإعلام في أيلول ١٩٣٩، كان قد نصح بأن (عدم الثقة يولد الخوف أكثر من معرفة أكثر من النقيض، والأمر الأهم الذي يمكن للدعاية أن تنتجه هو الإيمان بأن الأسوأ هو معروف)،[1] وأن أمة من المتذمرين يجب أن تعطى شيئاً تتذمر به وتدمدم به.!

ولكن ما هي النتيجة التي أتت بها مثل هذه الأساليب في النهاية؟ في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، فإن الرقابة استندت، كما كان الحال في الحرب العالمية الأولى على مبدأ (التطوعية) المدعومة بعقوبات قانونية صارمة، أياً من الحكومتين لم تنشئ فئة الموظفين البيروقراطيين اللازمة لمراجعة كل الأخبار قبل النشر، وعوضاً عن ذلك أصدرت قوائم مطولة من الموضوعات (الحساسة أمنياً) والتي كان نشرها محرماً، والتي تتراوح النشرات الجوية وحتى تفاصيل تحركات القوات إلى الأخبار المتعلقة بالصناعات الحربية الإستراتجية، وحول هذه المواضيع، لا يمكن للمحررين أن ينشروا أي شيء قد يساعد العدو تحت طائلة المقاضاة، وحيث أن معايير الممنوعات الرسمية كانت مبهمة لحد كبير، فإن قائمة الممنوعات

١- المصدر السابق، الاقتباس عند ماكلين، ١٩٧٩ ، ٢٨.

البريطانية (قد غطت تقريباً كل مجال يمكن تصوره من مجالات النشاط الإنساني) وفقاً لكلمات أدميرال بحري متقاعد والذي خدم كرئيس لهيئة الرقابة، وكان المحررون يشجعون على إرسال كل الأخبار التي لديهم شكوك حولها إلى الرقباء لإبداء رأيهم.[1]

وكما في الحرب العالمية الأولى رفع رؤساء التحرير عن أنفسهم خطر الاعتقال والمحاكمة بتحويل مهمة التحكيم حول أي المواد قد يجدها العدو نافعة إلى الرقباء، أو ينحون جانباً خطر المنع من قبل الرقابة ببساطة من خلال عدم نشر أي شيء قد يهتم هتلر أو هيروهيتو بقراءته![2]

والأحداث المحيطة باستسلام ألمانيا في ٧ أيار ١٩٤٥، تعرض تصويراً مذهلاً بشكل خاص لانضباط الداخلي في صفوف المراسلين الصحفيين الأميركيين، أحد المراسلين وأسمه ادوارد كينيدي من وكالة اسوشتيد بريس الأميركية (AP)، قد بعث بكلمة عن هذه الحادثة البطولية قبل أن يتم رفع حظر القيادة العليا لقوات الحلفاء (SHAEf) على عمل العلاقات العامة، وكان هناك الكثير من النقاش لهذا الموضوع في الصحافة الأميركية. ومعظم الآراء المتداولة تصب ضد هذا العمل الغير مسبوق من قبل كينيدي، حتى أن البعض مضى بعيداً بالقول بأن إهماله كاد أن يتسبب في تعريض أرواح الجنود للخطر، رغم إن الألمان كانوا بالفعل قد أعلنوا عن إلقاء السلاح بعدة ساعات قبل ذلك، ومع ذلك فكما لاحظ أي، جي، ليبلنك من صحيفة (نيو يوركر)، فمن المؤكد أن الأمر الأكثر صدمة هو اختيار قيادة الـ (SHAEF) بالسماح لثلاثة ممثلين فقط عن الصحافة الأميركية ليشهدوا (واحداً من المشاهد التي لا تنسى في تاريخ الإنسانية، وعلاوة على ذلك، فإن الثلاثة في الموضوع يمثلون الوكالات الإخبارية(AP)، ووكالة هيرست الإخبارية العالمية، واليونايتد بريس، وليس محطات إذاعية أو صحف على وجه الخصوص، ووفقاً لتفسير ليبلنك، فإن الحقد الذي انصب على كينيدي نتج عن اختراقه للتعاون المشترك، والذي

١- مصدر السابق، ثومسون، ص ٦.

٢- مصدر السابق، سويني، ٢٠٠١، ص ٤٠- ٧٠.

بواسطته عملت الوكالات الإخبارية، جنباً لجنب مع المنافذ الإخبارية الأميركية الرئيسية على تكوين عصبة ضد العناوين الصحفية الأصغر حجماً، محتكره النفاذ إلى المصادر العسكرية، ومنحية اللاعبين الأقل نفوذاً جانباً، ونظراً لعدم احترامه للقواعد التي وضعها أعضاء هذا النادي ذو الامتيازات، تمت الإساءة إلى كيندي من قبل الأعضاء المحتجين، أما ضباط العلاقات العامة في الـ (SHAEF) فمن جانبهم، أعلنوا عن انهم سوف يستعدون لتحكمهم بالمراسلين في أوربا، على الرغم من استسلام ألمانيا، بسبب من قلقهم من انهيار النظام الذي خدم كلا الطرفين حتى الآن جيداً، (التغطية المحابية لقيادة الجيش، كانت على كل حال الثمن المطلوب الذي دفعه ممثلو وسائل الإعلام للحصول على حق الوصول الحصري) وتولى رقباء (SHAEF) العسكريين منع أي شيء اعتبروه غير مصرح به أو غير دقيق و(التقارير الزائفة والتصريحات المضللة والإشاعات أو التقارير التي يحتمل أن تؤذي معنويات الأمم أو القوات المتحالفة)، وما فات ليبلنك أن يذكره، بأن معظم قراء الصحف الأميركية أبدوا استيائهم من أطلاق كيندي (السابق لأوانه) عن خبر الاستسلام، وفي استبيان لمعهد غالوب بعد عشرة أيام لاحقاً، وجد أن ٣٥٪ من المشاركين اعتقدوا بأنه كان محقاً في عمل ذلك، وبإصرارهم على أن كل شخص يجب أن يلعب وفقاً لقواعد الكبار فإن الصحفيين الذين عملوا على تأديب زميل لهم، كان بإمكانهم وفقاً لذلك الإدعاء بصورة شرعية أنهم يعكسون مزاج قرائهم!

وهذه الحالة من الاحتكاك والشقاق لم تحدث حتى أيار ١٩٤٥، ووفقاً لذلك فإن النظام التطوعي التلقائي الذي تم تبنيه في كل من انجلتره والولايات المتحدة، كان قد مضى يعمل بدون أي إزعاج خلال معظم الحرب، استناداً على التمييز المكرس في الصحافة الليبرالية بين (الحقيقة) التي يمكن أن تتم رقابتها على خلفية دواع أمنية وبين (الرأي) والذي كان بعيداً عن التدخل فيه، على الأقل حتى عند نقطة معينة.[1]

1 - Pronay, N and Spring, D (1982) Propaganda, Politics and Film 1918-45, London, Macmillan.

ولكن تلك النقطة المعينة هي أبعد ما تكون عن تقبل أي درجة من النقد حتى ان قراء الصحف في انجلتره والولايات المتحدة لم يواجهوا أي تعليقات مريرة أو قاسية على الجوانب المختلفة لإدارة الحرب، وبضمنها في مناسبات معينة، ما تعمل الرقابة على إيقافه والتي تبدو بشكل رئيسي مصممة لحماية سمعة الجيش أو إخفاء الأخطاء العسكرية للرئيس روزفلت.(١)

وكانت أكبر الأخطار على هذا النظام من الرقابة الشخصية لا تأتي من المحررين التواقين إلى دفع سقف حرية التعبير، حيث تمت مقاضاة محرر واحد في الولايات المتحدة خلال الحرب بكاملها، بل من القادة السياسيين المتضايقين من نقد الصحافة، وكان هؤلاء قد وجدوا صعوبة في تقبل أن زمن الحرب لم يمنحهم مناعة ضد الآراء المخالفة أو السلبية، تماماً كما كانت تناضل للإقرار بأن النقد الشخصي لم يكن بحد ذاته ضاراً بالمجهود الحربي.

وكان تشرشل على الرغم من موهبته المذهلة في الدعاية، كان من المقاومين بشكل خاص للـ (إستراتيجية الحقيقة) وفي مناسبات عدة كان يتوجب ثنيه عن أمره بمنع صحيفة (الديلي ميل) العمالية لصراحتها من قبل وزارة الإعلام (MOI)، وكان رئيس الوزراء قد أعلن عن شكوكه بإذاعة BBC رغم ان الهيئة كانت وسيلة الحرب الأكثر موثوقية لدى الرأي العام البريطاني، وكانت نشرة أخبارها في التاسعة مساء تصل إلى ما يقدر بـ ٤٣- ٥٠٪ من كامل السكان.(٢)

ولكونها المصدر الوطني الأهم للأخبار واجهت الـ BBC بشكل خاص مراقبة صارمة من قبل الدولة. مع تهديد تشرشل المتكرر بضمها تحت سيطرته المباشرة، وهو ما لم يحدث قط، إذ قدرت وزارة الإعلام (التي يترأسها حليف تشرشل، بريندان براكين) بشكل لم يتخيله الضابط السابق في قيادة البحرية، ان سيطرة الحكومة على الـ BBC ،سوف تؤدي فقط إلى تدني ثقة العامة في صحة تقارير إذاعة الـ BBC .

١- المصدر السابق، سويني، ص ١٦٥.

٢- المصدر السابق، بريغز ١٩٩٥، ص٤٢.

ومعظم المستمعين بالفعل لم يكونوا واعيين حول إلى أي مدى وصلت إليه الرقابة في بريطانيا زمن الحرب، كانت البرقيات القادمة من وكالة رويتر ووكالة الصحافة المتحدة تذهب مباشرة إلى مقرات وزارة الإعلام الرئيسية، مما يسمح للرقباء للتعامل مع المواد (الضارة) قبل أن يستلم مشتركو الخدمات البرقية المواد المرسلة والتي تعتمد عليها معظم أخبار الصحف والإذاعات في نشراتها.[1]

وبينما كان التعليق الافتتاحي في الصحف يترك بدون تقييد فإن نصوص الإذاعة من جميع الأنواع الممكنة، من برامج الأطفال وحتى برامج الشؤون العامة، كانت عرضة للرقابة المسبقة، وكان المتحدثون الذين تخشى الحكومة من راديكاليتهم المفرطة، من الشيوعيين على وجه الخصوص كان يتم إبعادهم عن موجات الأثير جميعاً، وكأجراء احترازي أكثر إزاء (الهيجان الهستيري المفاجئ للمذيعين والفنانين) ضمت استوديوهات الـ BBC (رقيب قطع Switch Cencor) الذي يمكنه أن يقطع الكلمات المسيئة التي يفترض بـ المتحدثين استبعادها من النصوص الموافق عليها في أثناء الإرسال الحي.[2]

وربما يكون قسم الأخبار في وزارة الإعلام (MOI) يأمل في (قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وبقدر الإمكان، الحقيقة الكاملة) كما صاغها آيفون كيركبا تريك، ولكن بدون شك فإن أسوأ شيء كان أن أياً منهما لا يمكن قوله دائماً بصراحة ولا بدون تأخير، وكانت التطورات المزعجة يتم إعلانها بصورة عامة بطريقة التقطير عبر فترات مطولة، أما أسوأ إحصاءات الإصابات البشرية في معركة الأطلسي فلم يتم كشفها أبداً، وفيما بعد اعترفت وزارة الجو البريطانية بأنها عملت على المبالغة في حجم الخسائر الألمانية بنسبة ٥٥٪، رغم أن الإحصاءات التي كانت تذيعها كان يظن بأنها دقيقة بشكل عام.[3]

١- المصدر السابق، بروناي وسبرنغ ١٩٨٢، ص ٨.

2 - Nicholas, S (1996) The Echo of War; Home Front Propaganda and War Tim BBC 1939-45-Manchester. Manchester University Press.

٣- المصدر السابق، نيكولاس ١٩٩٦، ص ١٩٩.

وفي واشنطن كان التلاعب بإحصاءات الخسائر البشرية، الفعلي منها والمخطط له، قد تطور إلى فن من الفنون الجميلة، ولفترة من الوقت خلال عام ١٩٤٤، كان الجيش الأميركي يضخم من خسائره بإضافة أولئك الذين تم تصريحهم من الخدمة أو الذين يعانون من إصابات غير قتالية أو أمراض إلى جانب أولئك القتلى والمجروحين وهذه الخطة جاءت من حاجة متخيلة للتأكيد للجمهور الأميركي، وبدرجة أكبر لحلفائهم، بأن القوات الأميركية كانت تبذل جهدها الأكبر، على الرغم من الخسائر الأكبر التي كان يتحملها بصورة دائمة الجيش الأحمر والبريطاني.

ولكن التلاعب بأرقام الخسائر البشرية من خلال الخلط بين أنواع مختلفة من الإصابات، كان حيلة قصيرة العمر بالضرورة خوفاً من أن تؤدي إلى التأثير في معنويات الجبهة الداخلية، وهذا الأسلوب في تعداد الخسائر تم التخلي عنه في شباط ١٦٤٥، وفي تلك الأثناء ظهرت ضرورة ملحة جديدة: وهي تحضير الرأي العام للخسائر المبالغ بها التي تم التسليط الضوء عليها بشكل مكثف، أثناء الغزو الأميركي للجزر اليابانية في حملة علاقة عامة لتقليل الانتقادات المحتملة إزاء استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان.

وهذه المحاولات تلمح إلى أن المسؤولين الانجليز والأميركيين كانوا يبذلون أقصى جهودهم فيما يتعلق بالمسائل الإستراتيجية الكبرى، خصوصاً عندما تؤدي التكتيكات العسكرية بشكل محتوم إلى خسائر ثقيلة في صفوف المدنيين وعلى الأغلب عندما يكون المدنيون ليسوا ضحايا غير مباشرين للقصف الجوي للحلفاء بل نتيجة للقصف المباشر المعدلة بدقة، حيث أن كثافة القصف للمدن الألمانية كان يقصد بها تمزيق معنويات المدنيين الألمان، من خلال تدمير الأحياء السكنية المحيطة، والذي كان يتم حجبه من خلال التقارير الصحفية التي تؤكد على أن الاستهداف المكثف للحلفاء هو للمنشآت المتعلقة بالحرب فقط (أو القصف الإستراتيجي)، وبشكل مماثل، فإن مشروع مانهاتن ظل بعيداً عن معرفة الصحفيين الأميركيين، وكذلك تفاصيل تطوير القنبلة الذرية أبقيت بعيداً عن معرفة القيادة

السوفيتية، وبعد أن تم إسقاط القنبلة في آب ١٩٤٥، فإن وجودها لم يعد سراً أبداً، ولكن الآثار المميتة للإشعاع والحروق المروعة التي تنتج عن العاصفة النارية الناتجة عن انفجارها والتي أصابت هيروشيما وناكازاكي، بقيت مكتومة مع إبقاء المدينتين مغلقتين أمام الصحفيين، ومثل هذه المراوغات الإستراتيجية اوحت بوجود جو من الخداع والغش التام، لما كان قسم الأخبار في وزارة الإعلام يدعي فيه بأنه يقول (الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، وبقدر الإمكان، الحقيقة الكاملة، وكما يلاحظ المؤرخ إيان ماكلين بأن المسئولين الانجليز ونظرائهم من الأميركيين كانوا ليس ببعيدين عن (تمطيط الحقيقة إلى أعتاب الكذب) أو كانوا بالفعل قد تجاوزوها بعيداً.[1]

الأفلام السينمائية خلال الحرب العالمية الثانية:

إذا كانت الأخبار هي (قوات) الصدمة للدعاية، فإن السينما كانت سلاح الشبح الخاص بها، إن الحرب الشاملة بلا شك قد وسعت من شهية العامة لبعائث الأخبار من خط الجبهة، التفاصيل حول حياة الجنود اليومية، والمعلومات عن أحبائنا ووحداتهم العسكرية أو أي شيء يوفر الاطمئنان، أو الاستنتاج منه حول مدة الحرب المتوقعة، ولكن أهم ما ينتج عن مثل هذا الصراع الطاحن بكل خصوصياته، هو تنامي حاجة عميقة للإلهاء وما من شيء يوفر الإلهاء أكثر من السينما، التي توفر ذلك الاسترخاء الذي يشكل (إجازة من الحاضر)، وكان القادة السياسيون في ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة على حد سواء يقدرون لحد كبير القيمة الكبيرة للسينما محفز للمعنويات، ورغم أنها كانت تحتل مكانة أقل تفضيلاً في الاتحاد السوفيتي نظراً لحجم الدمار الهائل الذي عانت منه صناعة السينما السوفيتية بدلاً من تقدير مختلف الصورة لهذه الوسيلة، حيث ان البولشفيك منذ الأيام الأولى لقيام الثورة، قد قدروا بشكل خاص قدرتها على التوجيه بشكل ممتع.

١- مصدر السابق، ماكلين، ص ١٣٧.

أما بالنسبة للمتلاعبين بالرأي العام في زمن الحرب، فإن الجاذبية الأولى للفيلم تكمن في هالته من البراءة الظاهرة، وكما يقول ايلمار دافيس، الصحفي في محطة CBS (الذي ترأس مكتب OWI) فإن:

{الطريقة الأسهل لحقن الدعاية في أذهان غالبية الناس، هي عن طريق جعلها تمر من خلال وسيلة صورة الترفيه، عندما لا يكونون مدركين أنهم يتعرضون للدعاية}.[1]

ويقر غوبلز بأن (أفضل دعاية هي التي تعمل بشكل غير مرئي، وتخترق الحياة بشكل شامل بدون أن يدرك العامة أي معرفة بمبادرة رجل الدعاية) ومثلت أفلام الترفيه إغراءاً قوياً للمتحكمين بالرأي العام لانها تبدو نقيضاً مباشراً للدعاية: الترفيه، ومن خلال التطبيق فإن (دعاية الأفلام سوف تكون الأكثر تأثيراً عندما تكون أقل إدراكاً على أنها دعاية) كما يتضح برنامج مكتب (OWI) لأفلام الدعاية في ١٩٤٠، وأين يمكن الإمساك بالجمهور بصورة غير واعية من دور السينما؟

وطالما أن المسئولين الألمان والانجليز والأميركيين قد اعتبروا إن ارتياد السينما هو عملية لرفع المعنويات، بالمقابل يمكن أن نعتبر كل صناعة الأفلام في زمن الحرب هي بشكل أساسي دعائية في مقاصدها، حتى وإن لم تكن واضحة أو ملوحة بأهدافها من ناحية الأسلوب، وبالفعل فإن الأفلام المثقلة بالرسائل ذات المعاني الإيديولوجية والتي واضحة ومميزة لدى المشاهد لدورها الدعائي، تبقى أقلية في هذا المجال.

وهذا الأمر كان صحيحاً حتى في مجتمع كان مشبعاً تماماً بإيديولوجية الدولة مثل ألمانيا النازية، وعندما يزعم مؤرخ الأفلام أيروين ليسير بأنه لا وجود لشيء يدعى فيلم (غير سياسي)، فإن صناعة الأفلام في الرايخ الثالث ظاهرياً تبدو وكأنها تناقض هذه المزاعم، حيث يقدر بأن ١٥٪ فقط من إنتاج استوديوهات UFA

1 - Koppes, C and Black, G (1987) Holly Wood Goes to War- 59 How Politics, Profits and Propaganda Shopped World War 1l Movies, New York, Free press.

الكامل خلال فترة الحكم الهتلري (من ٣٣- ١٩٤٥) كان يتضمن دعاية نازية مكشوفة.[١]

ولكن هذا كان لأن غوبلز وهو إستراتيجي داهية أكثر من الفوهرر نفسه، أمر دائماً ولكن من دون تحقيق النجاح باستمرار بأن (الأيديولوجية يجب أن لا يسمح بأن تكون تحيزاً إجبارياً) وعوضاً عن ذلك، طمح غوبلز إلى (سينما المتعة) والتي يندمج من خلالها المواطنون بشكل كلي في عالم من الخيال الذي يعرض أمامهم على الشاشة بحيث لا يدركوا الأغراض الإيديولوجية الأسمى التي تخدمها، وإن نجاح طموحاته هذه يتحقق من ملاحظة أحد الألمان في سنة ١٩٣٨:

{ أن شخصاً ذكياً فعلاً يمكن أن يزعم بأنه على الرغم من وجود أفلام دعائية، فإن الدعاية ما زالت تندس من خلال تفاصيل الفلم، ومع ذلك فإن هذا الشخص سوف يجد صعوبة كبيرة لإيجاد أمثلة للبرهان على هذه النقطة}.[٢]

وبينما لم يكن من الممكن أطلاق أي فيلم سواء في بريطانيا أو الولايات المتحدة أو ألمانيا في زمن الحرب بدون موافقة رسمية مسبقة، فإن الأخيرة مارست التحكم الأكثر صرامة، (من النص وحتى الطبعة النهائية، فإن كل مرحلة من مراحل صناعة الفيلم لابد من تهذيبها) كما يدعي فريتز هبلر مسؤول الأفلام في وزارة الرايخ(RMVP).[٣]

وتبنى غويلز أداء مهمة الرقابة على النصوص بحماسة شديدة مستخدماً (قلمه الوزاري) مستمتعاً بوجود سيناريست مناسب وشديد الحذلقة، وبالإضافة لذلك يمتلك معرفة حميمة بالعديد من نجوم الشاشة الألمانية، الذين لم يكن معظمهم من أصول آرية نقية.[٤]

---

1 - Reuth, R (1995) (Gobbels) London, Constable.

2 - Rentschler, E (1996) The ministry Ofillusion: Nazi Cinema and its after Life, Cambridge, MA, Harvard University Press.

٣- مصدر سابق، رينتشلر ، ١٩٩٦، ص ١٦.

٤- مصدر سابق، ريوث، ١٩٩٥، ص١٩٥.

وحتى إذا كان أقل من ١٠٪ من الأفلام التي أنتجت خلال العصر النازي كانت بتفويض من وزارة (RMVP) فإن (ما من فلم ظهر على الشاشات الألمانية من دون تحليل مكثف لمحتواه من قبل رجال الرقابة في الوزارة وفي الـ RFK) ، وإذ كان معظم الإنتاج يعتمد على تمويل الدولة ، فإن صناع الأفلام كانوا يدينون بالفضل بشكل مضاعف لنظام كانت قيمه قد ذابت ذاتياً لدى العديد من الأشخاص.

أما في بريطانيا وأميركا فكان التحكم أقل شمولاً ، ولكن غالباً غير إجباري، وخصوصاً وأنها منذ بدايتها كوسيلة تجارية للترفيه الجماهيري فإن السينما كان يتم مراقبتها بحذر من قبل الدولة ليس فقط لمحتواها السياسي المحتمل، بل خشية من قدرتها على تمرير بعض الأفكار الخطرة والتي لا يمكن السيطرة عليها نظراً لقدرات السينما على الاستمالة العاطفية الكبيرة وكما يوضح المؤرخان نيكولاس بروناي وجيرمي كروفت، فإن فشل الحكومة البريطانية بالقيام بوضع خطط مناسبة لصناعة الأفلام في فترة الحرب، لم يكن يعود لهذا السبب أو ذاك، طالما أن (منتجي الأفلام كانوا بالكامل معتادين على العمل تحت ظروف من الرقابة التامة عملياً).[1]

وبعد أيلول ١٩٣٩ ، كان ما يزال على صانعي الأفلام الانجليز أن يرسلوا بإبداعاتهم إلى (مجلس رقابة الأفلام البريطاني) BBFC، والذي كان لسنوات عدة يقوم بتدقيق الأفلام على خلفية (الاحتشام العام) و الاتجاهات السياسية قبل إصدار الإجازات اللازمة للعرض في المسارح، وفي زمن الحرب، تمت إضافة عشر فئات جديدة من الموضوعات الحساسة ، وبضمنها حوادث انفجار القنابل العرضية ، ومعاملة أسرى الحرب، والتصوير المسيء للعائلة المالكة وغيرها.

ومحتفظاً بالحق في حظر أي فلم بشكل مطلق، فإن وزارة الإعلام لم تستخدم هذا الحق مطلقاً ، فقد كان تحكمها شاملاً حتى أن أي مشروع لا يمكن أن يدخل إلى حيز الإنتاج بدون موافقة مسبقة ، وفي عام ١٩٤٠ توصل مجلس التجارة

1 - Pronay, N and Croft, J (1983) (British Film Censorship and Propaganda Policy during the Second World War) In Curran and Porter.

إلى إنفاق مع قسم الأفلام في وزارة الإعلام (MOI)، بأن توزيع خامة إنتاج الأفلام (وهي سلعة إستراتيجية مقننة بحذر) إلى شركات إنتاج الأفلام يمكن أن يتم فقط بعد التشاور مع وزارة الـ(MOI).[1]

وقبل أن تتم هذه العملية، يطلب مجلس التجارة سيناريو الفيلم، والذي يتم تمريره بعدئذ إلى وزارة الإعلام من أجل الفحص المدقق، وبالممارسة تعلمت شركات الإنتاج بأن الطريقة الأسرع لهذه العملية كانت بإرسال معالجة الفيلم إلى وزارة الـ MOI أولاً، وكذلك إشراك مستشار للنصوص في العمل أو حتى كاتب معين من قبل قسم الأفلام فيها.[2]

وعملت أيضاً هوليوود على التعاون بشكل وثيق مع الحكومة ومع الجيش أكثر مما كان يحصل في زمن السلم، مثبتة بشكل قوي لواشنطن بأن الأفلام المتحركة يمكنها بصورة مختلفة إلهاء الأميركيين عن الحرب وفي نفس الوقت تثقيفهم عنها، في الوقت الذي توفر فيه دعماً معنوياً قوياً إلى الحلفاء المتعطشين للأفلام، ومن دون أن تقول شيئاً عن كيف يمكن لها أن تزيد من زخم الروح القتالية لدى القوات المقاتلة، تمت مكافأة هوليود بمحنها مكانة (صناعة الحرب الأساسية)، ووافقت الحكومة الأميركية متأثرة بالمحاجة القائلة) أن الممثل غاري كوبر في دور البطولة على الشاشة عن السرجنت يورك، يمكن أن يسهم أكثر في نجاح مجهود أميركا الحربي من نفس غاري كوبر كعضو في الجيش الأميركي، على منح هوليود ميزة إعفاء كوادرها الذين لا يمكن الاستغناء عنهم من التجنيد، ومع ضمان حصول الاستوديوهات على كميات مماثلة لخامات الأفلام في زمن السلم، فإن هوليود استمرت بإنتاج الأفلام سنوياً بمعدل لم يتأثر بالحرب تقريباً، ما يقارب من ٤٤٠ فليماً سنوياً مقارنة بحوالي ٥٠٠ فيلم سنوياً خلال الثلاثينات، وفي المقابل كان مكتب إعلام الحرب (OWI) يتوقع أن يتلقى مشاركة طوعية من هوليود في جهود الحرب، وهو ثمن الحرية الذي كان يتوجب عليها دفعه للتخلص من

١- مصدر سابق، الدغايت وريتشارد، ١٩٩٤، ص ١١- ١٢.

٢ - مصدر ساق، بروناي وكروفت، ص ١٥٢.

سيطرة (OWI) الضاغطة، وللتخلص من القيود المفروضة عليها بالتقرب تلقائياً من الدولة، وهي الممارسة التي أطلقت عليها هوليوود (التأديب الذاتي الطوعي)، وكان المدراء التنفيذيون لشركات الإنتاج يدركون مدى تبعيتهم، وبالسماح لهوليود بالعمل بشكل طبيعي خلال فترة الحرب، ساعدت واشنطن على حفظ المكانة الاحتكارية المنفردة للاستوديوهات الكبرى، التي كانت الحرب لها تعني أسواقاً جديدة وتجارة متزايدة: عشرات الآلاف من الجنود لتعليمهم وتسليتهم، والمدنيين الذين يبحثون عن التسلية، والحلفاء الذين كانت صناعة السينما لديهم متوعكة.[١]

ولكن علاقة شهر العسل هذه بين واشنطن وهوليوود لم تكن بدون بعض المنغصات، على كل حال، وعلى وجه الخصوص، شكوى صانعي الأفلام من ضغوط مكتب الأفلام المتحركة (BMP) التابع لـ (OWI) لتضمين الثيمات الدعائية في الأفلام، والتي كانت واضحة جداً في اهتمامها بتحقيق أغراض سياسية من دون أن تكون مستندة إلى معرفة عميقة بما الذي ينجح على الشاشة، وكان نيلسون يوينتر الذي ترأس فرع (BMP) في هوليوود لا (يملك خبرة سينمائية مسبقة)، كما أوضح ذلك المنتج والتر وانغر.[٢]

وإن قراءة متمعنة لـ (دليل هوليوود الإعلامي العملي) الذي وزع بفترة وجيزة قبل تشكيل مكتب (OWI) رسمياً في حزيران ١٩٤٢، تظهر لماذا اتخذ صانعو الأفلام موقفاً عدائياً من دفاعه المتصلب عن الديمقراطية الأميركية وتمسكه بأن الأفلام يجب أن تظهر الحلفاء في ضوء إيجابي (إن الصينيين ليسوا أناساً صغاراً يديرون المصابغ، بل هم أمة عظيمة، مثقفون ومتحررون)، وإن إصرارهم المطلق على أن (العسكرة) هي العدو، وليس أمماً بعينها أو أعراق معينة، لم يكن بالمرة المادة اللازمة لشحن المعنويات.

1 - Doherty, T (1999) Projections of War: Holly Wood, American Culture and World Warll, New York, Columbia University Press, Second edition.

٢ - مصدر سابق، دوهيرتي، ص ٤٧.

وعندما تقدم بوينشر طالباً أن يتسلم مكتب كل النصوص الأولية لكل أفلام هوليوود المحتملة، جوبه باستجابة عدائية متوقعة قبل أن يتراجع عن طلبه، ولذلك فإن الأفلام ذات الموضوعات الحربية فقط كانت عرضة للفحص الإجباري قبل الإنتاج من قبل (OWI)، أما بخصوص الأنواع الأخرى فإن (الانضباط الذاتي الطوعي) ظل هو النظام السائد.

وفي كل الدول المتحاربة، خدمت السينما لزيادة الوعي بالهوية الوطنية مظهرة للجماهير من هم بصورة جمعية، وما الذي كانوا يقاتلون للحفاظ عليه، ومن أية مخاطر، وأن مهمة تفسير الحرب كانت تبدو ضاغطة بشكل خاص في الولايات المتحدة، وبينما اختبر الانجليز التعرض للتهديد النازي على شكل غارات جوية، فإن الأميركيين ظلوا غير مطلعين كفاية حول أسباب الحرب ونتيجتها واحتمالاتها في أوربا، وكان مكتب (OWI) يخشى من الدخول إلى الحرب كنتيجة إلزامية لهجوم اليابان على ميناء بيرل هاربر، حيث كان مسرح العمليات في المحيط الهادي هو الأولوية بالنسبة للعديد من الأميركيين وليس أوربا أو شمال أفريقيا. حيث كان الحلفاء يركزون جهودهم، وفي صيف ١٩٤٢، وبعد تسعة أشهر من الحرب، كان ثلث المشاركين في أحد الاستطلاعات قد أكد الاستعداد لتوقيع صلح منفرد مع ألمانيا، واعترف كثيرون بعدم المبالاة بالأسباب التي تخوض أميركا الحرب من أجلها.

ومنشغلاً بالأدلة الوفيرة على عدم وجود التزام كلي نابع من القلب لتحقيق (استسلام غير مشروط) لليابان وألمانيا، عمل الـ (OWI) لتشجيع صانعي الأفلام لعرض كل من طبيعة قوى المحور العدو، وضرورة مقاتلتهم إلى جانب الحلفاء الذين كانوا شركاء جديرين بالثقة ويمكن الاعتماد عليهم، من دون الالتفات إلى مذاهبهم (البلشفية أو الامبريالية)، والمجموعة الأكثر أهمية من الأفلام الدعائية والتوجيهية من هذا النوع كانت بلا شك سلسلة (لماذا نقاتل)؟ لفرانك كابرا، التي زاوج بمهارة بين المحاكاة، والرسوم الغرافيكية واللقطات الوثائقية لفضح وإدانة العدو، والمقابل فإن مساهمة رجال القوات المسلحة الأميركية في مجهود الحرب

كـان يـتم إثـارة الإعجـاب بهـا في صـفوف الأميركـيين المـدنيين مـن خـلال الـسجل الوثائقي لأعمال العديد من مشاهير مخرجي هوليوود مثل جون فورد، وويليام ويلر وجون هيوستون، الذين تجندوا بصورة مؤقتة مع وحدات التصوير التابعة للقوات المسلحة.[1]

إن إيضاح السبب وراء الحرب، يصبح بشكل جزئي مسألة تمثيل للذات، (في الحرب الشاملة، الأمم بكاملها في مواجهة مع بعضها البعض، وكل تعبير عن الحياة الوطنية يصبح من أسلحة الحرب) كما يرى فريتز هبلر.[2]

ولكن هذا الموقف الموسع لم يكن مقتصراً على ألمانيا، فمن خلال تعريفها لمعنى الأمة، فإن السينما في زمن الحرب شحّذت من الخطوط المحددة للهوية الوطنية من خلالها عرضها في مقاومة العدو الآخر.

في الأفلام الأميركية والبريطانية، هذا الآخر كان بشكل عام من مواطني دول المحور أو طابوراً خامساً من الخونة، يعملون على تخريب الدولة من داخل صفوفنا، وكان الـ (OWI) مصراً، رغم ذلك، على ابتعاد هوليوود عن تصوير العدو بصورة نمطية عرقية، ونظراً لالتزام واشنطن العالي في مسائل مثل التصوير العنصري، كان الـ (OWI) يأمل في توجيه (الكراهية بصورة ملائمة) نحو (العسكرتاريا) " والتي كانت أساس روح العداء لدى دول المحور" عوضاً عن توجيهها إلى شعوب العدو.[3]

ولكن هذا كان إحدى المسائل التي لم يتفق فيها مكتب الأفلام المتحركة(BMP) واستوديوهات هوليوود حذر القذة بالقذّة، إذ كانت العنصرية ضد الآسيويين، متأصلة بعمق في الثقافة الأميركية، داخل الشاشة وخارجها، ليمكن محوها بجرة قلم من قبل نيسلون بوينتر، ولذلك فإن التصوير

1 - Meyerson, J (1995) (Theater of War: American Propagand Films During the Second World War, in JacHal.

٢ - مصدر سابق، مقتبس عند رينتشلر، ص ٢٠٢.

٣ - مصدر سابق، دوهيرتي، ص ٤٨- ١٢٢.

الكاريكاتيري لليابانيين الأشرار استمر في السينما كما من قبل، وظل ثابتاً في الإعلام المطبوع كذلك ومن خلال تصوير اليابانيين، بوصفهم خطراً مهدداً، يقول أحد الملصقات الترويجية (أنظر لماذا يجب إبادة اليابانيين الأشرار ببساطة)! لفيلم (وراء الشمس الطالعة) ١٩٤٣، كانت هوليوود قد تمادت كثيراً في ترويج الكراهية العنصرية عوضاً عن زرع المقت تجاه العسكرتاريا.[1]

وكانت سمة (الإفناء) للحرب في المحيط الهادي لها ما يقابلها في الوطن، ففي استبيان في ديسمبر ١٩٤٤، يسأل المشاركين حول ما يعتقدون إن على حكومة الولايات المتحدة (أن تفعله مع الشعب الياباني) بعد انتهاء الحرب، أجاب ١٣٪ منهم (اقتلوهم جميعاً).[2]

وبعد استخدام السلاح الذري على مدينتي هيروشيما وناكازاكي، القلة فقط من الأميركيين أبدوا مشاعر ندم تجاه استخدام القنابل ضد أياً كان.

أما في ألمانيا، فإن الأمة الآرية، لم يكن يتم تعريفها فقط في المعارضة ضد الأعداء الأجانب " البلاشفة البرابرة الذين هم أقل من البشر والانجليز البغيضين الامبرياليين" ولكن أيضاً من خلال الأعداء الذين في الداخل.[3]

وكما توضح ذلك حنة اريندت فإن الدعاية النازية جعلت من معاداة السامية (مبدأ لتعريف الذات) حيث يمكن للألمان أن يميزوا أنفسهم وفقاً لكل شيء ليس اليهود عليه، حيث يتم انتزاع صفاتهم السلبية وتسليطها على هذا الآخر البغيض.[4]

وهكذا تصبح الثقافة الجماهيرية الألمانية تكييفاً مسبقاً حاسماً للجرائم الجماعية، كما يوضح أريك رينتشلر (خادمة كدرع واقٍ ووسيلة للتعمية).[5]

---

١ - مصدر سابق، ص ١٣٣.

٢ - مصدر سابق، بيرنسكي، ٢٠٠٩، ص ٣٨.

٣ - مصدر سابق، ويلش، ص ٢٣٨.

٤ - مصدر سابق، رينتشلر، ص ٥٩.

٥ - مصدر سابق، ص ٢٢٢.

وبينما سعت الأفلام الألمانية لعرض نسخة حصرية من الهوية الآرية، عملت السينما البريطانية والأميركية على الجانب الآخر، جاهدة لتعزيز إحساس شامل بالانتماء الوطني يغلق جميع الطبقات المختلفة والأعراق المتعددة وكلا الجنسين، وكانت مساهمة المرأة في الجبهة الداخلية يروج لها في أفلام مثل (الملايين مثلنا) ١٩٤٣ و (سونك شفت ميسي) (١٩٤٣ أيضاً).

وعمل مكتب (OWI) في الولايات المتحدة السينما على تجسيد صورة (قدر الإذابة) نموذجياً بتصوير أميركا (كأمة الأعراق والأجناس المختلفة، الذين برهنوا على إمكانية العيش معاً والتقدم، وبشكل مماثل، فإن أفلام الجيش عملت (وان كان بشكل مبتور جداً) على الاحتفاء بجهود (الجنود السود) في الجيش الأميركي لتحفيز مشاعر الأميركيين من أصل أفريقي الوطنية.

وفي بريطانيا، كان التأكيد بشكل أقل على التضمين الأثني، من على المجتمعات الوطنية والإقليمية المتميزة (للملكة المتحدة) مع طبقاتها الاجتماعية المختلفة المساهمة بقوة في المجهود الحربي، وكانت الأفلام التشويقية مع تطور روحية القتال ضمن جهودها للترويح عن القوات المسلحة، ملائمة بشكل خاص للمهمة المنوطة بها، مثل أفلام نويل كاوارد (في أي منها نخدم؟) ١٩٤١، وكارول ريد (الطريق للأمام) ١٩٤٤ وغيرها.

وإلى جانب التأكيد على كراهية العدو اللاأخلاقي، وفرت الدعاية الوطنية كذلك حساً إيجابياً بخصوص ما نقاتل (لأجله)، كانت الأفلام المنتجة في زمن الحرب قد قدمت نسخة ريفية بشكل استثنائي مما تمثله بريطانيا، رغم إنها كانت مثيرة للتساؤل حول ما يفعله المشاهدون في ويلز أو اسكتلندا (أو حتى عمال المصانع في المدن المزدحمة في انجلتره الشمالية الصناعية) بنسخة من أمة بريطانية تصور على أنها جنة ريفية، وفيلم مثل (هذه انجلتره) احتاج إلى تغيير اسم تكتيكي إلى (تراثنا) قبل عرضه في اسكتلندا.

والأفلام التي عملت على تجسيد مثل هذه (الأسطورة الرينية) مثل (حكاية كنتربري) لم تزدهر دوماً في شباك التذاكر، ولكن السينما الانجليزية عملت على

المزج بين تصورها الزاهي (انجلتره القديمة) بشكل متزايد مع رؤية مثيرة للجدل عن بريطانيا معدلة والتي كان الأناس العاديون يحاربون لتحقيقها، وكذلك تصوير أكثر واقعية لحياة الطبقة العاملة في الوقت الحاضر.

ومن أجل إنشاء الشخصيات القومية والأساطير والأسلاف القوميين، عملت كل السينمائيات الوطنية على امتزاج الماضي.[1]

وبذلت الأفلام الألمانية في تلك الفترة مجهوداً ضئيلاً لنقل الحياة اليومية في جمهورية الرايخ الثالث إلى الشاشة، ربما لأن الوجود اليومي نفسه كان مختنقاً للغاية بالدعاية النازية، بحيث أدى إلى إحباط تفضيلات غوبلز واختياراته.[2]

وبدلاً من ذلك عمل صانعو الأفلام على دفع المشروع النازي من خلال عرض العظمة التاريخية لألمانيا، بتصوير المواقف والشخصيات من الماضي والتي قد يستقرأها الجمهور كمحاكاة للحاضر، ونتيجة لذلك فإن اختيار تصوير الشخصيات الألمانية الشهيرة مثل فريدريك العظيم أو بسمارك، كانت أقلاً اهتماماً بتصوير تفاصيل سيرة هؤلاء الأبطال، كما يعترف هتلر، من محاولة عقد المحاكاة مع الفوهرر نفسه، وإذا كانت الأفلام الخيالية ممنوعة من تمثيل الشبه لهتلر، وكما كان هو نفسه قد أبدى نفوراً من العرض على العامة، كانت هذه الصورة التاريخية تلعب دوراً ضرورياً في ملء الفراغ لإظهار أين يجب أن تكون صورة الفوهرر تاريخياً.[3]

ولقد أنتجت هذه الأفلام التاريخية ونظائرها، رسائل معاصرة لا يمكن تخطئتها، ولكن صانعي الأفلام كان بإمكانهم تقنيع أي غايات دعائية بالرطانة حول (حقائقية) أفلامهم، ومثل هذه العروض إلى جانب الأفلام الغنائية، والكوميدية والرومانسية التي توفر هروباً من الواقع، ظلت شعبية لدى الجماهير التي كانت تعبة من الحرب ومن انعكاسها السينمائي على الشاشة، على الرغم من

---

١ - مصدر سابق، تايلور، ص ١٦٤.

٢ - مصدر سابق، رينشلر، ص ١٩.

٣ - مصدر سابق، ص ١٧٢.

أن بعض الأفلام التي تدور موضوعاتها حول الحرب مثل (في أي منها نخدم؟) و(الطريق إلى النجوم) كانت أيضاً ضربات ناجحة معاصرة في شباك التذاكر، وكانت الأدلة تشير بوضوح في جميع الدول المتحاربة إلى تفضيل متنامي للعروض السينمائية الخفيفة، وإلى قدر أقل من أفلام الحرب.[1]

وإذا كان هذا هو الوضع في جبهة الوطن (الداخلية)، فلن يكون من المفاجئ إن أولئك الذين كانوا يقاتلون بالفعل، يتوجب أن يفضلوا الترفيه والتسلية أكثر من الأفلام الحربية (البهرجة) على (الواقعية) طبقاً لاستبيان أجرته مجلة (تايم) في عام ١٩٤٤، ولقد صنف أفراد الجيش الأميركي الأفلام (الكوميدية الغنائية أولاً) ثم الكوميدية كأفضل ثاني، ثم أفلام المغامرات والميلودراما، كان الجنود يميلون إلى تفضيل (أحرف اللام الثلاثة The Three's " وفقاً للأحرف الأولى من الكلمات" وهي (الضحك والمشاهد الجميلة، والرسائل)، أو (Laughs, Lookers and, Letters) وكما يوضح الأكاديمي ثوماس دوهيرتي، فإن السينما يمكنها توفير العنصرين الأوليين وتؤدي إلى شعور كبير وحميم بالذنب الكبير إذا لم يكن الجندي يرسل الكثير من الرسائل إلى الوطن.[2]

وكانت الأفلام تخدم كإلهاء رافع للمعنويات، وترفع العبء الثقيل عن كاهل الجنود من خلال إعادة ربطهم بالحياة وبالناس في الوطن بعيداً، وكما يلاحظ أحد جنود المارنيز بعد ٦ أشهر من الخدمة الفعلية في المحيط الهادئ (أن الأفلام تمنعنا من التفكير في أنفسنا وما يحيط بنا... و (تذكرنا) بأن هناك أشياء مثل الفتيات الجميلات، الموسيقى الصاخبة، وحضارة تستحق الحياة من أجلها.[3]

وعندها كانت الحرب بالنسبة لبعض الجنود، من أجل القتال للإبقاء على كل شيء جميلاً كما هو وكما كان، أما للبعض الآخر فكانت من أجل ضمان تغيير كل هذا القبح والشر المحيط بهم، وفي الحالتين خدمت

---

١ - مصدر سابق، الدغايت وريتشاردز، ١٩٩٤، ص ١١.

٢ - مصدر سابق، ص ١٨٠.

3 - Costello, J (1985) Love, Sex and War, 1939- 45, London, Pan.

السينما في تقديم دوافع وحوافز أقوى وأعمق من مجرد الرسائل الدعائية السياسة المباشرة.

الحروب الشاملة كعصور ذهبية؟

في الذاكرة الجمعية العامة للشعوب التي خاضت الحرب على جانبي الأطلسي، فإن الحرب العالمية الثانية تشع في الذاكرة بهالة من البهاء والفضيلة!

حرب تم خوضها مع وحدة غير مألوفة في أغراضها ضد عدو شرير كان يتطلب عدم التردد والمراوغة معه، وهذه الهالة من السعادة تمتد إلى حقل وسائل الإعلام، فإن الحرب العالمية الثانية هكذا يتم استعادتها كصراع بشكل شامل، كان فيه المواطنين الأميركيين والانجليز راضون بشكل عام عن الكم الذي تلقوه من الأخبار، وكان القادة السياسيون راضين عن الطريقة التي تطوع فيها رؤساء التحرير والمراسلون وصناع الأفلام لتسخير مواهبهم لخدمة المجهود الحربي، وكما يوضح ثوماس دوهيرتي فإنه حتى (الزوجان غير المتطابقين) "واشنطن وهوليوود" قد عملا معاً بتناغم لحد كبير من أجل المصالح العامة، ملزمة بإدراك مدراء الاستوديوهات، بأن الحرب لم تكن فقط ممتازة لتوسيع الصناعة، بل أن الفشل في الإيفاء بمتطلبات الحكومة من المحتمل ان يؤدي إلى تقيدات خطيرة على المدى البعيد.[1]

وبالطبع فإن الحرب الشاملة لم تكن مناسبة لوسائل الإعلام جيداً دائماً أو بشكل موحد، ففي الرايخ الثالث، فقد الألمان الثقة بصحفهم حتى أنها في نهاية الحرب تقلصت إلى ما هو أكثر بقليل من منشورات أو ملصقات لنشر تعليقات الـ OKW الرسمية وتصريحات المسئولين المبالغ بها، وعندما كان ماكس أمان قد حقق نصره أخيراً على الصحافة في ١٩٤٣، ولكنه كان انتصاراً مكلفاً جداً، كما أدرك ذلك هو نفسه متسائلاً:

---

١ - مصدر سابق، ص ٣٩.

{كيف يمكن لرئيس تحرير أن يصدر صحيفة جيدة حينما يجلس وإحدى قدميه في السجن والأخرى في كتب التحرير}؟

فتحت توجيه الدولة أصبحت الصحف كلها ترتدي زياً موحداً، منشدة بشكل جماعي الأناشيد التي تفرضها جوقة دعاية الحكومة، وهي حقيقة يشهد على صحتها الشعار المثير للسخرية الذي كان يرفع في حينه (شعب واحد، رايخ واحد، صحيفة واحدة) أو بالألمانية (Einvolk, ein Reich, ein Zeitung).[1]

وبعد الثمالة الأولى المتسرعة بالنصر المتحقق، سرعان ما توصل العديد من الألمان بأنهم مجبرون من خلال السيطرة الصارمة للدولة على الإعلام إلزامياً بالتعرض لما تنقله من رسائل، وان مصير أفلام الأشرطة الإخبارية.[*] يوضح هذا الأمر إلى حد كبير، ففي أيار ١٩٤٠، في ذروة انتصارات الجيش الألماني العسكرية، فإن طول الشريط الإخباري السينمائي ازداد إلى ٤٠ دقيقة، وارتفع عدد النسخ من كل إصدار إلى ٢٠٠٠ نسخة.[٢]

لكن مع تحول الانتصارات اللامعة إلى تعثرات وإخفاقات ومن ثم إلى هزائم متتالية، فإن هذه الأشرطة الإخبارية فقدت شعبيتها، رغم إن معدل ارتياد دور السينما قد تضاعف، وأثر استلام تقارير استخباريه من ضباط المراقبة المحليين في الحزب، بأن الجمهور يقضي وقته في ردهات السينما بدلاً من مشاهدة الشريط الإخباري، أصدر غوبلز مرسوماً في ١٩٤٣ يلزم مشغلي السينما بإغلاق ردهات السينما في قاعة العرض حتى انتهاء العرض، وبالتالي فإن مرتادي السينما المتلكئين أملاً في تجنب مشاهدة شريط الأخبار، كانوا يجدون أنفسهم مبعدين عن المسرح الرئيسي، ولكن إذ لم يعد بإمكانهم التصويت عن طريق أقدامهم، كان ما زال

١ - مصدر سابق، انظر بالفور، ص ٣٥.

* - جنس أولي مبكر من الأخبار المرئية المصورة، للمزيد أنظر كتابنا (الإعلام والعنف) الصادر عن دار أسامة للنشر والتوزيع.

٢ - مصدر سابق، انظر ويلش ، ١٩٧.

بإمكان الألمان المنزعجين التعبير عن عدم ثقتهم (بأصواتهم... بالضحك والسخرية من أشرطة الأخبار التي عشقوها فيما مضى) كما يلاحظ ريتشارد تايلور.[1]

وبما أن مستمعي الراديو لا يمكن إيقاعهم في شرك مماثل بشكل مؤكد، توصل غوبلز إلى وسائل أخرى لاصطياد المستمعين ومدركاً بأن الخطابات المطولة التي تتغنى بالنصر كان يتم الانصراف عنها بشكل مؤكد، أصدر قراراً في ١٩٤٢ يلزم محطات الإذاعة لتخصيص ٧٠٪ من وقت البث إلى الموسيقى الخفيفة، وهي خطو ة آمل غوبلز منها توفير مستمعين مواظبين يمكن تمرير بث الخطابات والبيانات السياسية المهمة إليهم.[2]

وكما يرى المؤرخ أ، ب، زيمان، فإن (النجاح العسكري هو أفضل دعاية في الحرب، فإن وسائل الإعلام الألمانية عانت عندما تحولت الانتصارات المدوية في ١٩٣٩ و ١٩٤٠ إلى هزائم وإخفاقات، انعكاس في الطالع ترافق في ممانعة الدولة بالاعتراف في حجم الكارثة العسكرية.

أما في بريطانيا والاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة، من جانب آخر فإن وسائل الإعلام تمتعت بزخم شعبي مرتفع، باستثناء الصحف التي عانت من نقص متزايد في الورق ومواد الطباعة، وهذا الارتفاع الكبير تجلى في صورة كوادر عمل أكبر وميزانيات وجماهير أكبر، حيث نمت هيئة الإذاعة البريطانية في كادرها من ٤,٨٠٠ في أيلول ١٩٣٩ إلى ما يقارب ١١,٦٦٣ في آذار ١٩٤٤، مع محصلة متضاعفة ٣ مرات في ساعات البث، وزيادة ٥ أضعاف في قدرة الإرسال، والإذاعات بعشر لغات أجنبية في سنة ١٩٣٩، أصبحت بحلول ١٩٤٣، ٤٥ إذاعة (أي خلال ٤ سنوات فقط).[3]

أما هوليوود، في تلك الأثناء، فقد أنتجت (أرباحاً غير مسبوقة) على الرغم من ممارسة مكتب (OWI) نفوذاً (لم يكن له مثيل من قبل أو منذ حينه من قبل وكالة حكومية) على وسيلة إعلامية أميركية، وبحصولها على مكانة (صناعة

---

١ - مصدر سابق، ص ١٦٣.

٢ - مصدر سابق، ويلش، ص ٣٤.

٣ - مصدر سابق، انظر بريغز، ص ١٨.

حرب أساسية) فإن شركات الإنتاج عملت بشكل أفضل مما هو معتاد، وحتى صناعة الأفلام البريطانية، والتي شهدت انخفاضاً في عدد استوديوهاتها من ٢٢ إلى تسعة فقط، وتعرضت إلى تخفيض حصصها من خامة الأفلام، واستدعاء ثلثي فنييها للتجنيد، وأدت الضرائب إلى تضخيم أسعار تذاكرها، فقد شهدت ارتفاعاً غير مسبوق في ارتياد السينما، وزيادة في سمعتها النقدية، مع زيادة في متوسط الجمهور الأسبوعي من ١٩ مليون في ١٩٣٩، إلى أكثر من ٣٠ مليون أسبوعياً في ١٩٤٥، لقد كانت الحرب كما يتوصل الدغايت وريتشاردز (قد أثبتت بكل تأكيد بأنها (عصر ذهبي) بقدر ما يتعلق الأمر بالأفلام المحلية).[١]

ولكن المحاجة بأن ثقة الرأي العام في وسائل الإعلام كانت تعتمد بدرجة كبيرة على الوهم، ليست مقنعة تماماً، لسبب واحد هو أن الرأي العام في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا كان على اطلاع تام بأن رقابة الدولة موجودة بالفعل، ومن هنا فإن كل أنماط المعلومات، حتى ما كان يدو تافهاً جداً ظاهرياً مثل نشرات الطقس، وبعضها الآخر الذي كان يبدو خطيراً جداً مثل عرض صور القتلى والمصابين على الملأ، كانت تحجز كلها بشكل معتاد، ولقد واجهت الرقابة قدراً كبيراً من التعليقات الغاضبة في الصحافة البريطانية والأميركية مع نشر العديد من الرسوم الكاريكاتيرية التي تنتقد وزارة (MOI) ومكتب (OWI)، حيث يمكن المدافعة بأن تحمل الدولة لمثل هذه السخرية تشرع لأحدى مكامن قوة النظام الليبرالي: صمام أمان للتثبيط، يعمل على جذب الانتباه من جهة إلى الرقابة، ولكن يقلل من مداها كذلك، من خلال رسم الاستنتاج التالي ببساطة: إذا كانت الرسوم التي تنتقد الرقباء قد وصلت إلى النشر، فإلى أي مدى كانت هذه التقييدات المفترضة على حرية التعبير والخطاب قامعة فعلاً؟

ولكننا يجب أن نكون حذرين كذلك من تقليل درجة تحرير الحرب العالمية الثانية لما يمكن قوله أو عرضه في بريطانيا وفي الولايات المتحدة وحتى في

١ - مصدر سابق، ١٩٩٤، ص ٣.

الاتحاد السوفيتي، وهذا الارتخاء نوعاً ما في القيود الرسمية لم يكن من تناقضات الحرب الشاملة، بقدر ما كان نتيجة للنمو المضطرد في دمارها الهائل، فحرب بهذا المقياس لم يكن بالإمكان ببساطة إخفائها، مهما كانت الدول تسعى جاهدة لإضفاء الغموض على خسائرها، ففي بعض الأحيان تتطلب الضرورات العملياتيه المضي في الاتجاه المعاكس تماماً، بإشهار الخسائر وتصوير معاناة الجنود بعيداً عن الحط من المعنويات، أخذ ينظر إليها من قبل بعض القادة الأميركيين كوسيلة لتحويل التضحية إلى مصدر متجدد للطاقة في زمن الحرب.

والصراع الذي يمتلك مثل هذه الأهمية والخطر، يعمل كجزيئي مسرع للتغيير الاجتماعي، مولداً ضغوطاً على الدول لتكون (أو على الأقل للتظاهر بأنها كذلك) أكثر استجابة لآمال وتطلعات المواطنين في حدوث تحولات بعد الحرب، فإن (حرب الشعب) لا يمكن أن يتم شنها بطريقة نبيلة أرستقراطية أو استبدادية مطلقة بشكل شديد الوضوح، كما نصح مستشارو تشرشل وستالين والرئيس الأميركي، وأدركوا ذلك بطرق مختلفة.

وفي الاتحاد السوفيتي، شهد الكتاب موجة من التفاؤل بأن الحرب سوف تكتسح معها الستالينية التي كانت قد صمدت حتى الآن، وكما يقول الروائي المعروف لويس باسترناك:

{عندما اندلعت الحرب، فإن فظائعها الحقيقية، وأخطارها الفعلية، وتهديدها بالموت الحقيقي كانت نُعماً بالمقارنة مع حكم الكذب اللاإنساني ولقد جلبت الارتياح لأنها كسرت تعويذة الحرف الميت}.[1]

وعمد أشهر مراسلي الحرب السوفييت إلى تبني وجهة نظر جندي المشاة العادي، كما فعل المراسلون الأميركيون المشهورون ذلك، وأكثرهم بروزاً ايرني بايل (Pyle) الذي كانت تقاريره التي توزع عبر الشبكات تصل إلى ما يقدر بـ ١٤ مليوناً من القراء، مركزة على الكدح اليومي للجنود بدلاً من ادارة الحرب على المستوى الإستراتيجي الاشمل، ولقد وجدت تقارير بايل، نظيراً مرئياً لها في رسوم بيل

١ - مصدر سابق، الاقتباس عند بروكس، ص ١٧٣.

ما ولدين الكارتونية (الذي كان في الثالثة والعشرين من العمر في حينها) والتي كانت تلاقي رواجاً كبيراً.[1]

وبينما كانت الصحافة من خط الجبهة في الحرب العالمية الأولى لقد تبنت وجهة نظر طبقة الضباط، حيث نشأ منظور جديد في التغطية يتم التعبير فيه عن التزام الجنود والصحفيين بالمجهود الحربي، والذي لم يتأثر بالظروف القاسية، أو الطعام السيئ، أو حتى خيانة الحبيبات في الوطن بعيداً، وفي هذه التغطية الحية الثلاثية الأبعاد، كان الخوف والسأم والشجاعة كلها تجد مكاناً لها، حيث كان الرجال الذين لم يخوضوا حرباً من قبل في قلب هذه الدراما المثيرة إنسانياً.

وأصبح التمثيل المرئي للموت والمعاناة أصبح أكثر تصويراً وتسجيلاً مع ازدياد طول الحرب، وكانت جدة هذه السياسة ظاهرة ومعلنة بشكل خاص في الولايات المتحدة، فبينما كانت صور الجنود القتلى قد منعت في الحرب العالمية الأولى، وحتى مع الفلم البريطاني (معركة السوم) خشية من تعزيز (الروح المعادية للحرب) حسب كلمات الميجر كيندال بانيغ من قسم إعلام الحرب.[2]

وفي آب ١٩٤٣، هدد ألمير دافيس رئيس مكتب (OWI) بالاستقالة إذا استمر الجيش في رفضه لتقديم أي لمحة للمدنيين عما كانت الحرب تفرضه على الجنود الأميركيين، وبموافقة الرئاسة الأميركية، أمر الجنرال مارشال مصوري الفوتوغراف لإرسال صور إلى الوطن (تصور بشكل حي الأخطار والأهوال وضراوة الحرب).

والهدف بالطبع لم يكن الواقعية من أجل الواقعية، ولكن من أجل تحفيز التزام الجبهة الداخلية بالمجهود الحربي، مترافقاً مع محاولة لتشجيع الوعي بين المدنيين بأن الآلاف من الرجال سوف يعودون مشوهين من الحرب وآخرون لن يعودوا على الإطلاق، ومع عرض إحصائيات الخسائر الحربية، كان المسؤولون يخشون بأنها قد تتجاوز عملية تعزيز الصفوف إلى نتائج معاكسة تماماً، وثمة اتجاهات مماثلة نحو صراحة وانفتاح أكبر في وسائل الإعلام الأخرى ودول حلفاء أخرى، في

١ - مصدر سابق، بريوير، ٢٠٠٩، ص ١٢٧.

٢ - مصدر سابق، بريوير، ٢٠٠٩، ص ٧٣.

بريطانيا، برزت إذاعة الـ BBC كمصدر أكثر احتراماً وشعبية للمعلومات والتسلية، ولأول مرة سمح لنشرات أخبارها أن تحقق السبق على طبعات الصحف المسائية، حينما خرقت الحكومة اتفاقاً منح الصحف أفضلية دائمة على منافستها الإذاعة، فإن برامجها الأخرى حصلت على جرعة كبيرة من الطاقة المتجددة، حيث أن هيئة الإذاعة تمكنت بشكل واعٍ في الوصول إلى جمهور متنوع من المستمعين ومدركة بأنها يجب أن تحد من آمال وتطلعات مؤسسها لورد ريث قليلاً، الذي نظر إلى المذياع باعتباره آلية قادرة على رفع المستوى الثقافي للرجل البريطاني العادي، ومن خلال الاستعانة بخدمات قسم جديد لبحوث المستمعين لدراسة وتحري تفضيلات الجمهور، عمدت برامج زمن الحرب إلى تضمين المزيد من الكوميديا والتسلية الخفيفة، مع إعطاء انتباه أكبر للجهات المحلية الإقليمية والآراء السياسية المختلفة، وحتى المعلقين اليساريين مثل الروائي المعروف جورج أورويل الذي أشاد بعمل الإذاعة الذي تميز بالاعتماد على نشر (الحقائق)، وأشار إلى الإذاعة كانت هنا "أي في زمن الحرب" (بشكل عام يمكن الاعتماد عليها أكثر من الصحافة).[1]

طرف وحيد فقط كان يسيء الثقة بإذاعة الـ BBC خلال الحرب بشكل متزايد:

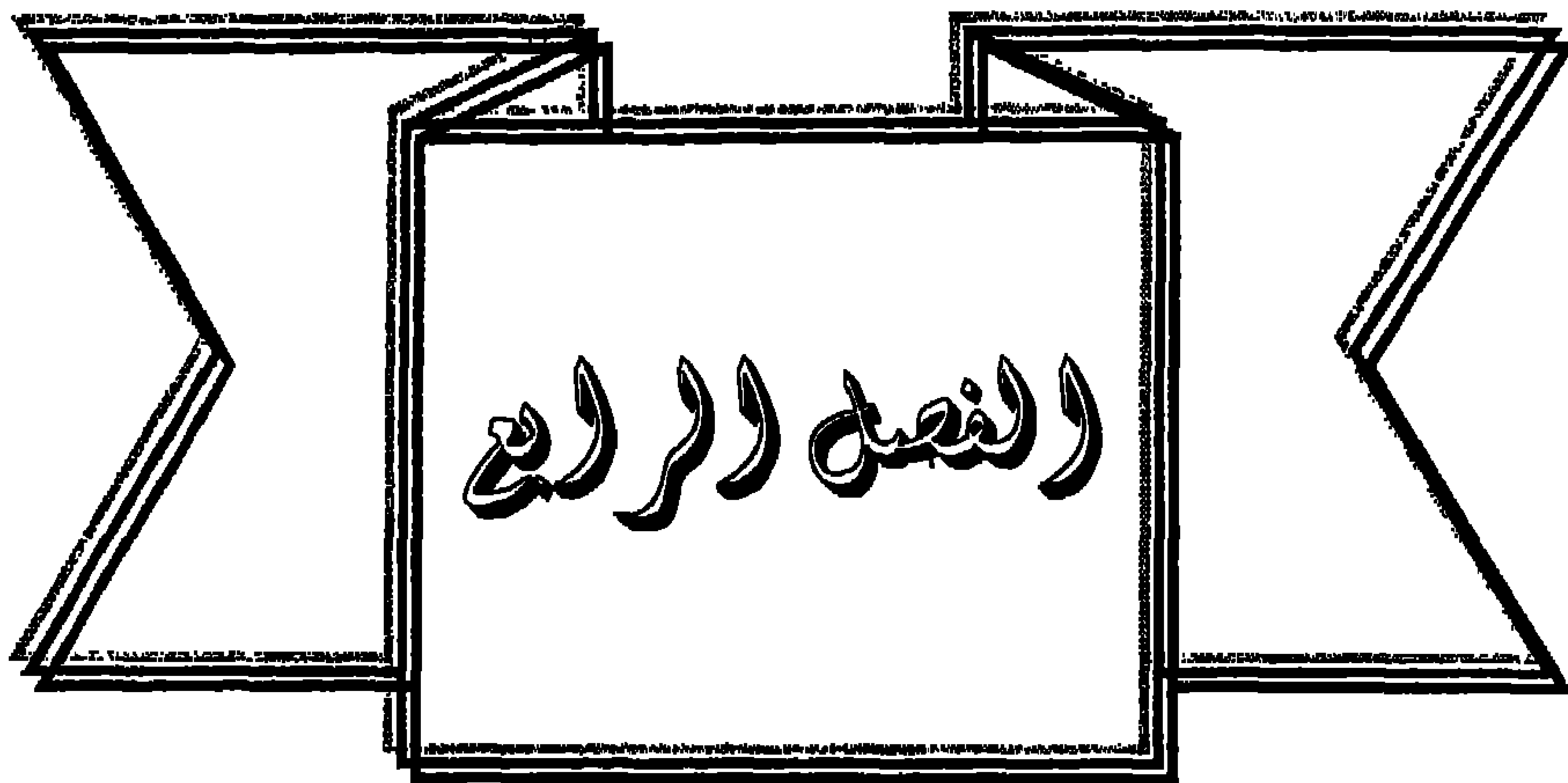
{ وهم السياسيون المحافظون الذين اتهموا الإذاعة بإنهاء من خلال إعطاء الفرصة للمعلقين الاشتراكيين مثل اورويل، والروائي جي، بي، بريستلي، عملت على حصان طروادة، الذي سمح بسرقة النصر الانتخابي من تشرشل وعاكسة النتائج في وجهه لحظة انتصاره التاريخي في حزيران ١٩٤٥}.

ومنذ عام ١٩٤٥، ظلت الدولة الغربية تتطلع إلى الوراء متشوقة إلى زمن تلك (الحرب الجيدة) التي تم خوضها في تعاون منسجم ووثيق: حيث كان كل شخص يدفع بجهده بشكل جماعي من روح الالتزام التام على تحقيق النصر.

ولكن إذا كانت الحرب الشاملة قد مثلت العصر الذهبي لوسائل الاتصال الجماهيرية فلا بد لنا أن نستذكر ما الذي جلبه هذا التخفيف على حرية التعبير في زمن الحرب وأي سيطرة قامعة عليه كانت في زمن السلم والتي أودت بها الحرب،

١ - مصدر سابق، ويست، ١٩٨٧، ص ١٦.

ولم تنتج أي حرب لاحقة هذه الدرجة من المساندة الجماهيرية خلال الحرب العالمية الثانية، ولكن أياً منها لم يكن لها مثل ذلك العبء الهائل على الحياة البشرية الذي كان لتلك الحرب، والذي يلمح بأن الحنين إلى هذا الاتحاد الوثيق بين الدولة، ووسائل الإعلام والمواطنة قد يكون أيضاً مشبعاً بقصر في النظر، لقد كانت شمولية الحرب العالمية الثانية (أو العمل لإضفاء صفة الشمولية على جهودها) هو ما قاد إلى هذا التحرر والليبرالية في عمل وسائل الإعلام وحريتها، وأن الظروف التي جعلت من هذه الفترة، فترة من الثقة الشعبية بالقادة السياسيين في زمن الحرب، وهي ظروف لا يمكن للصحفيين والإعلاميين (ولا يملكون القدرة...) على إعادة إنتاجها أو تقليدها من جديد...



الحروب المتلفزة: حرب فيتنام وما بعدها

ما زال الأميركيون يستمرون في عدم الاتفاق على كل جانب من جوانب حرب فيتنام حتى بعد مرور ما يقرب من أربعين عاماً على انتهائها، ما الذي كان الغرض الذي يخدمه التدخل العسكري في الهند الصينية، لماذا تصاعد الالتزام العسكري الأميركي على خوض الحرب، وكيف تم خوض الحرب؟ وما إذا كان يمكن الفوز بها؟ وما إذا كان يتوجب شنها أصلاً، وكل هذه الأسئلة ما زالت تولد المزيد من النقاش والجدل، ولكن مسألة واحدة لوحدها حصلت على ما يشبه الإجماع: وبالتحديد، الدور الحاسم للتلفزيون في تحويل الرأي العام الأميركي ضد الحرب، التلفاز، كما يظن على نطاق واسع، هو ما أدى إلى خسارة حرب فيتنام.[1]

وعلى الرغم من انتشار التلفاز وملكيته في منازل الولايات المتحدة كان واسعاً وبدرجة كبيرة منذ أوائل الخمسينات، أي بالضبط في الفترة التي كانت فيها القوات الأميركية متورطة في (عمل بوليسي) غير ناجح ولم يحظ بالشعبية، لكن فيتنام كانت هي الحرب الأولى التي حصلت على تغطية إخبارية تلفزيونية متواصلة، وبتعبيرات فنية فإن الحرب الكورية (٥٠- ١٩٥٣) شابهت الحرب العالمية الثانية في طريقة تغطيتها الإعلامية أكثر من لاحقتها حرب فيتنام، وكان ما يقرب من ثلث المنازل الأميركية يملك جهاز تلفزيون في أوائل الخمسينات، ولكن هذه (الوسيلة الجديدة) بالكاد لامست الوعي العسكري حتى يشعر بوجودها في حرب كوريا، ولم تكن المعدات التلفزيونية المتوفرة في ذلك الوقت مهيأة للتغطية السريعة والحيوية التي تتطلبها تغطية المعارك، حيث كانت كاميرات التلفزيون تزن ما يقرب من ٢٥ كغم على الأقل وتتطلب ٣ أشخاص لحمل الكوابل الملحقة بها. والبطاريات ومعدات الصوت.

وفي ذلك الوقت، اعتمدت المحطات الإخبارية على صور تحركات القوات، وغير من اللقطات التي كانت توفر فرق تصوير الجيش للمحطات (هذا إذا ما تم تصويرها أصلاً)، وفي الوقت الذي بدأت فيه حرب فيتنام في اجتذاب اهتمام منتظم

1 - Hall in, D (1989) The (Uncensored War: The Media and Vietnam) New York, Oxford university

من وسائل الإعلام الإخبارية الأميركية في منتصف الستينات، كان التلفزيون قد تطور كثيراً كوسيلة، وكان استخدام أقمار الاتصالات، قد سهل من عملية الحصول على لقطات أكثر جدة، من تلك الفترة التي كان يضطر فيها إلى نقل أشرطة الأفلام جواً من موقع التصوير إلى محل محطة البث، ومع توفر اللقطات الحديثة (بشكل يومي) عن الأخبار، تطورت أخبار التلفزيون من مجرد إعادة سرد أخبار اليوم بصورة مملة تقدم من قبل (صورة) وجه المذيع، إلى صيغة (النصف ساعة كاملة) في الستينيات، ولم يكن من المفاجئ مع ازدياد ملكية المنازل لأجهزة التلفزيون في هذه الفترة بشكل هائل ليصل إلى ٩٠٪، أن تتفوق هذه الوسيلة الجديدة على الصحف لتكون المصدر الرئيسي للأخبار بالنسبة للأميركيين.[١]

وكان تفوق مكانة التلفاز مشفوعة بقوة صورة، زادت من قوة الانطباع الواسع الانتشار بأن تغطية التلفاز للحرب (لابد) أنها تمثل التفسير المنطقي لانحدار المساندة الشعبية للحرب، فلقد كانت أول (حرب في غرفة المعيشة) كما اصطلح ميشيل آرلين Michael Arlen على تسميتها بذلك، كانت أيضاً أقل حروب أميركا نجاحاً، وأكثرها غير شعبية، وبالنسبة للعديد من المراقبين، كان التلفاز هو المتغير المذنب الذي يفسر الهزيمة.[٢]

ومثل هذه التأكيدات كانت تتراكم، بينما كانت الحرب ما زالت تتواصل، فقد وجه نائب الرئيس الأميركي نيكسون، سبيرو اغينو الاتهام لوسائل الإعلام بالتآمر (لتسويق الإيديولوجية الليبرالية لمحور نيويورك – واشنطن)، أو بكلمات أخرى، للدفع بأجندة معادية للحرب.[٣]

ولكن كان المذيع البريطاني روبين داي هو من قام بإطلاق التكهن الذي لم ينس عن الصراع في عصر التلفاز في ذروة حرب فيتنام، ففي عدد أبريل ١٩٧٠ من

١- مصدر سبق ذكره، بريوير ٢٠٠٩، ص ١٨١.

٢- مصدر سابق، هالين، ص ١٠٥.

3 - Gans, H(1970) (Since Spiro Agnew Brought Up The Subject, How Well Does TV Present The News?) New York Times, January ll.

مجلة (ذا انكونتر) قدم داي حكماً تخمينياً مبني على التأمل سيتم تكراره مراراً بعد ذلك:

{ يتساءل المرء ما إذا كانت في المستقبل –الديمقراطية التي تملك تلفزيوناً غير خاضعاً للرقابة في كل منزل، قادرة أبداً على خوض حرب ما، مهما كانت عادلة مهما كانت القضية صالحة، دفاعاً عن النفس، مقاوم لعدوان، أو حتى أن كانت تخاض تحت علم الأمم المتحدة، أن التفاصيل الوحشية للعمل العسكرية سوف تكون معروضة على شاشة التلفاز لتصدم ولتروع، ممتصة ربما إرادة الأمة لمقاومة قوى الشر أو حتى لتحمي حريتها هي}.[١]

ويستطرد (الدم، يبدو قانياً جداً على شاشة التلفاز)، ان التضمين كان واضحاً جداً، فالحرب التي تعرض (بدون رقابة) على التلفاز لا يمكن الفوز بها، وهي نقطة استعادها نيكسون في مذكراته فيما بعد في سنة ١٩٧٨ متسائلاً (فيما إذا كان بإمكان أمريكا مرة أخرى أبداً ان تقاتل العدو في الخارج مستعينة بوحدة الهدف وقوة الجبهة الداخلية في الوطن.[٢]

وخوفاً من تحقق هذه الفرضية عند التجربة، حرص الجيش البريطاني والأميركي على تقييد أي تغطية تلفزيونية للحروب اللاحقة التي خاضوها، ووضعه نصب أعينها الصور التلفزيونية، عملت وزارة الدفاع البريطانية (MOD) خلال الصراع على جزر (المالوين- الفوكلاند) في سنة ١٩٨٢.

عازمة على عدم تكرار ما فهمته على أنه خطأ البنتاغون الأكبر في حرب فيتنام: بالسماح للمراسلين بالنفاذ غير المشروط إلى ساحات المعارك، وفي هذا الصراع القصير بين الجيش البريطاني والقوات الأرجنتينية، أحكمت وزارة الدفاع (MOD) كبح جماع المراسلين الصحفيين والتلفزيونيين بشدة، وكان تحقيق نصر عسكري سريع، تمت تغطيته بكلمات وصور كان المسئولون البريطانيون يمارسون

1- Sulzberger, C (1970) (Foreign Affairs: Danger of the Private Eye) The New York Times, April 26,39.

٢- مصدر سابق، هالن، ص ٣.

عليها سيطرة تامة محكمة، ما ضمن أن موديل حرب الفوكلاند هو ما سيشكل نموذج أدارة وسائل الإعلام الأميركية في زمن الحرب مستقبلاً، ومع (وضع) نجاح وزارة الـ MOD البريطانية في الذهن بقوة، استبعد البنتاغون المراسلين جميعاً خلال غزو غرينادا في عام ١٩٨٣، وأنتج نسخة محورة من نظام (التجميع) Pool، خلال التدخل بنظام الجنرال نوريغيا في بنما سنة ١٩٨٩.[1]

وبالنسبة للمخططين في (المجتمعات الدفاعية) البريطانية والأميركية، فإن هذه الحملات العسكرية القصيرة في عقد الثمانينات، أثبتت بأن الحرب يمكن التفكير والفوز بها في عصر التلفاز، ولكن فقط من خلال فرض القيود التي تبقي التلفاز بشكل فعال عن المشهد، وأن الإيمان (بمقت الرأي العام للخسائر البشرية) ظلت نقطة ثابتة في التفكير العسكري، ولذلك فإن التلفاز ظل هو الخصم المنافس الرئيسي، وكما في مقدمة كتاب وزارة الدفاع البريطانية الصحفي عن حملة الفوكلاند يقول: (إن روح ماكنة الحرب الناجحة هو السرية، وإن روح الصحافة الناجحة هو الإشهار)، وهي حكمة مأثورة تخاطر بتحويل فرضية عن عدم الكفاءة المهنية إلى نبوءة شخصية متحققة!، ولقد شهدت فترة الثمانينات أمثلة لا تحصى على عدائية العسكر تجاه وسائل الإعلام:

{ ينظر البعض إلى الأخبار على أنها كلمة أخرى ذات أربعة حروف، ولكني اعتقد انه من المفيد النظر إليها ككلمة من حروف السي(C)*: رعب، تشوش جريمة، فساد، صبغ الحقائق أو تلوينها، كارثة}، كما يفصح عن ذلك الجنرال باتريك برادي، الذي كان رئيس هيئة العلاقات العامة في الجيش الأميركي.

ومع ذلك فإن كل مفصل من الاعتقادات التي تعزز مثل هذه المواقف حول شهية التلفاز التي لا تتوقف للعرض وللسرد، ونفور الرأي العام واشمئزازه من مناظر

١- انظر يونغ وجيسر ١٩٩٧، Young & Jesser.

* - إشارة للأحرف الأولى من هذه الكلمات وكلها بحرف (C) وهي بالانجليزية على الترتيب: .Catastrophe , color, Corruption , crime , Co fusion, Chaos

سفك الدماء، هي مفتوحة للنقاش الجاد، وعلى عكس الحكمة الشائعة، فإن حرب فيتنام كانت حرباً كانت الأخبار التلفزيونية فيها (محابية) للأطماع الجيوستراتيجية لواشنطن في مناطق جنوب شرق آسيا، طالما أن صناع القرار أنفسهم في واشنطن كانوا ملتزمين بتلك الرؤية.[1]

ورغم ان فتنام كانت تعتبر في تاريخ الجيش الأميركي كحالة من الشذوذ الشديد، تلك الحرب الوحيدة التي سمح فيها للصحفيين بالتنقل بحرية والتغطية بشكل موسع، فإنها كانت في الواقع تلك الحرب التي بذل رجال العلاقات العامة الأمريكان جهداً مكثفاً لتعليبها وتسويقها بشكل جذاب للاستهلاك الداخلي والدولي، فإذا كانت جهودهم تلك قد فشلت تماماً، فلم يكن السبب وراء ذلك هو نقص المحاولة، كما أنها لم تكن غلطة التلفاز!

الدروس التقليدية المستفادة من فيتنام:

متى بدأت بالضبط حرب أميركا في فيتنام هو أمر محل جدل ونقاش: (لا يمكنك أن تجد شخصين أثنين يتفقان على متى بدأت بالضبط، كما يلاحظ ميشيل هير في كتابه (Dispatches)، كانت حكومة واشنطن قد أنشأت مجموعة من المستشارين (تقديم النصح والمساعدة العسكرية) في تدريب وتجهيز جيش الجنوب الفيتنامي الجديد في سنة ١٩٥٥، بعد سنة واحدة من الانسحاب الفرنسي، بعد أن فشلت في إعادة فرض حكمها الاستعماري على الهند الصينية بعد الاحتلال الياباني خلال فترة الحرب العالمية، ومن دون أي إعلان للحرب على فيتنام الشمالية من قبل الكونغرس، عملت الإدارات المتلاحقة للرؤساء أيزنهاور، كندي، وجونسون، على زيادة التزامها بصورة مستديمة بهذه المهمة في أواخر الخمسينات والستينات من القرن الماضي، ومع وصول قوة الجيش الأميركي إلى ذروتها في نيسان ١٩٦٩ إلى ٥٤٣ ألف رجل ولكن إذا ما كان من الصعب القول بشكل حاسم متى

١- هاموند، ١٩٩٨، هالين، مصدر سابق.

بدأت هذه الحرب الغير معلنة، فإن مسيرة الانتصارات الشمالية التي وصلت إلى سايغون في أبريل ١٩٧٥، قد وضعت نقطة فاصلة حاسمة، وأدى إعادة توحيد فيتنام تحت الحكم الشيوعي لنظام (هانوي) إلى جعل قرار نيكسون بتحقيق (السلم المشرف) يبدو هزيمة نكراء لا محالة، فقط كان هناك القليل جداً من الشرف (ان كان أي شيء منه أصلاً) في تلك المشاهد الشهيرة، للمدنيين الفيتناميين والأميركيين وهم يهرعون مسرعين ومتعثرين بفزع في محاولة اللحاق بالطائرات المروحية الأميركية الأخيرة التي كانت على وشك مغادرة سايغون.

وبما أن الهزيمة لم تكن أمراً مألوفاً أو مرحباً به لدى العديد من الأميركيين (فهو أمر لم تشهده أميركا تقريباً في تاريخها القصير كدولة منذ استقلالها عن السيطرة الاستعمارية البريطانية)، فإن عملية إلقاء اللوم أصبحت تشغل حيزاً لا بأس به من الاهتمامات الوطنية، وقدمت وسائل الإعلام كبش فداء مقنعاً بشكل لا يقاوم! وبحلول أوائل الثمانيات كانت تهم (الطعن في الظهر) قد أصبحت أمراً شائعاً، وطبقاً للنقاد المحافظين مثل روبرت ايليغانت، فإن التلفاز قد حال دون إمكانية تحقيق النصر من خلال (تصوير وتشويه مستمر) للحقائق، ممزوجاً مع تصوير بدون تمويه لخسائر أميركا من شبابها، وفضح رابط الجأش للأعمال الوحشية التي ارتكبها رجال القوات الأميركية ضد المزارعين الفيتناميين.[1]

وعملت التغطية غير المتوازنة والمعتمدة على الإثارة على تخفيض عزم المدنيين لتدعيم نظام فيتنام الجنوبية (الديمقراطي) ضد الشيوعية، وشاحنة المزيد من حركات السلم الصاخبة.

وبالنسبة لهؤلاء النقاد وأمثالهم. كانت فيتنام حرباً يمكن أن (ويجب أن) يتم تحقيق النصر فيها، لو أن الجيش تم تخويله والسماح له باستخدام قوة عاتية، فإن القصف الجوي المكثف لشمال فيتنام، وكمبوديا ولاووس كان قد أنتج نصراً قاطعاً (وكأن هذا القصف لم ينفذ فعلاً)، ولكن وسائل الإعلام تحكمت بهذا

1 - Elegant, R (1989) (How To lose a War) in Sevy.

بشكل مؤثر من خلال عرض الكلفة البشرية للقصف، والذي أدى إلى رفض متزايد من الرأي العام الأميركي لتطبيق مثل هذا العقاب.[1]

وكما صاغها رونالد ريغان، فإن حرب فيتنام كانت الحرب والتي كان الجنود الأميركيون قد عادوا (إلى الوطن بدون نصر، ليس لأنهم قد هزموا، ولكن لأنهم قد تم إنكار إعطاء الأذن لهم بالنصر!)،[2] حيث كانت القوات الأميركية ملزمة بالقتال واحد ذراعيها مقيدة خلف ظهرانيها، ومن خلال إثارة نفور العامة، فإن وسائل الإعلام خدمت في تقليص الخيارات الإستراتيجية إلى النقطة التي لم يعد عندها النصر ممكناً.

والاعتقاد بأن وسائل الإعلام قد قادت (إلى خسارة الحرب) له نسخ مغايرة أو بدائل عدة، تتمثل وظائفها غالباً كنقد عدائي لتدخل الصحافة في الحرب: بتصوير المراسلين على أنهم يمتلكون أجندات خاصة معادية للحرب، ومن جانبهم هم، فقد تبنى الصحفيون مدى واسعاً من المواقف تجاه مساهمتهم في الحرب، والبعض منهم، مثل كاتب العمود جيمس ريستوت قد يوافق على أن (المراسلين والكاميرات كانت حاسمة في تحقيق النهاية)، ولكن القلة فقط من المراسلين اتفقوا في الرأي على أنهم كانوا قد عقدوا البنية طوعاً على تلغيم المجهود الحربي.[3]

والبعض الآخر تمسك بالقول أنهم ببساطة حملوا مرآة لعكس حقائق الحرب المزعجة، وإذا كان الصحفيون قد أظهروا فظاعة لا إنسانية مجهود أميركا الحربي، فإن مسؤولية الهزيمة تقع لا على الصحافة، بل على أولئك الذين قادوا وأشرفوا على شن الحرب، فيما حبذ آخرون وشجعوا على مفهوم لصحافة فاعلة أكثر من دون الاهتمام بعواقب تهمة التسبب في الحرب، وهكذا فإن دافيد هاليبر شتام (وهو مراسل شاب لصحيفة نيو يورك تايمز في فيتنام والذي أثار غضب الرئيس الكندي)، يحتج بأن المراسلين في دورهم كـ (كلاب حراسة) ملزمون بإثارة الأمور

---

1 - Kimball, J (1988) (The stab –in the –baek Legend and the Vietnam war, Armed Forces and Society, 14, ííí , 38-433.

٢- مصدر سابق، الاقتباس لدي كيمبل، ص ٤٣٩.

٣- مصدر سابق، هالين، ص ٢.

التي يحاول مسئولو الإدارة الأميركية إخفائها، وطبقاً لوجهة نظر هاليبر شتام، فإنه وزملاؤه (لم يكونوا يحملون معدات سياسية أو سيكولوجية فائضة) بل ببساطة كانوا يتشممون أثر (القصة الإخبارية)، الخبر الذي يحتوي على قدر من عدم الكفاءة، الفساد، والكذب المبالغ به.[١]

وبالنسبة للعديد من النقاد، فإن المشكلة لم تكن في أن الصحفيين عملوا على تغطية الأشياء بصورة سلبية كما كانت، بل تغطية الأحداث بصورة سيئة لم تكن عليها، حيث أسهمت عدم كفاءة المراسلين وقلة خبرتهم وتوقهم للتقدم المهني في تشويه وتحريف صورة الحرب، ويلاحظ الجنرال ويليام ويستامورلاند، القائد السابق لقيادة بعثة المساعدة العسكرية في فيتنام أو (MACV) اختصاراً، بأن ٥١٪ من المراسلين في فيتنام كانوا في بداية عشريناتهم من العمر، متلهفين لصنع اسم لهم، ولقد فعل هؤلاء المراسلون ذلك بأسهل وسيله ممكنة: انتقاد السلطة، ففي بداية الستينات كانت سايغون (واحدة من أقل المناطق في العالم التي قد يرغب رجال الأخبار العمل فيها) ويستطرد، ويستمورلاند قائلاً:

{ بعيداً جداً، في مكان غريب، له القليل من الجاذبية للقراء الأميركيين، ولذلك فإن ما من شيء كهذا يفتقر للإثارة من المحتمل أن يحظى بمساحة في صحيفة المراسل في الوطن، وإيجاد الأخطاء كان هو السبل الوحيد لتحقيق الإثارة، وإيجاد مثل هذه الأخطاء في نظام شرقي لديه القليل من الخلفية في أو الاحترام للديمقراطية بالأسلوب الغربي، كان أمراً سهلاً للغاية}.[٢]

وفي أعين النقاد مثل ويستمورلاند، والنقاد المشابهين له في التفكير، فإن أولويات الصحافة المهتمة بإثارة ونبش الفضائح تلاقت مع ميول هؤلاء المراسلين الشباب (الذين كان النقاد يصنفونهم بشكل لا متغير على أنهم كذلك جميعاً بهذه الصفة مراسلين ذكور شباب)، ولقد أدت حرب فيتنام إلى ظهور (الصحافة الاستقصائية Investigative Journalism) والتي تم هجر فيها التغطية المباشرة

١- مصدر سابق، هالن، ص٦.

2 - Thager, C(1992) (Vietnam: A critical Analysis) in yang.

المستقيمة من النموذج القديم في نقل (فقط الحقائق المباشرة) لمصلحة موقف أكثر مواجهة بشكل متعمد، وكان ويستمورلاند يشتكي بأن (رجال الأخبار الأميركيين في سايغون... يخلطون التغطية الصحيفة مع محاولة التأثير على السياسة) وقد وجد كلامه هذا صدى معارضاً لدى العديد من الجمهور المدني، وفي مقالة مهمة في مجلة (إنكاونتر) قام روبرت ايليغانت (وهو مراسل سابقاً لدى صحيفة لوس انجليس تايمز) بإدانة مهنته نفسها، بأنها أصبحت (أقل موضوعية من الصحف الحزبية) المعادية بشكل غريزي للحكومة، وأن الصحف (كانت تعكس وجهات نظر أعداء سايغون) حتى ان ايليغانت بذلك يكون وسع الاتهامات لتصل إلى درجة الخيانة.[1]

كانت التهم ضد الصحفيين تشملهم جميعاً كفيلق معين ولكن وسط فوضى الاتهامات هذه، أجتذب التلفاز مذمة خاصة من أولئك المقنعين بأن فيتنام تمت خسارتها في غرف معيشة الأميركيين، وكانت الشكاوى من أسلوب الإثارة الذي مورس بقوة فردية (للمبالغة والتبسيط) في وسيلة تمتعت بلقطات دراماتيكية على حساب السياق والدقة والتي هي (على الأقل نظرياً) ممكنة في الصحافة الجادة، وإذا ما عمل صحفي ما على ابتكار مادة ذات عنوان رئيسي جاذب للأنظار، فإن هذا الأمر لا يزعج مراسلي التلفاز أبداً، فكل ما عليهم هو الوقوف أمام الكاميرا ليتغير سلوك الناس من اللامبالاة إلى الاهتمام الكامل وكما يعلق أحد مراسلي الصحافة في عام ١٩٦٦ (إن بعض الأشخاص يفكرون جدياً أمام الكاميرا، بطريقة لا يفعلوها أمام الورق والقلم).[2]

ومدفوعة بصورها المليئة بالحيوية والمثيرة للمشاعر الإنسانية، فإن أخبار التلفاز تقدم شحنة عاطفية أكبر بكثر من نظيرتها المطبوعة أو المسموعة، وجزئياً لذلك السبب أيضاً، فإن الوسيلة الأقل تقديماً للمعلومات كانت هي الجديرة بالثقة على نطاق أكثر اتساعاً وكما يتساءل ايليغانت بصورة بلاغية منمقة:

١- مصدر سابق، ايليغانت، ١٩٨٩، ص ١٣٨.

2 - Raymond, J (1966) (it's A dirty War For correspondents, too) The New York , February 13.

{ كيف يمكن للمرء أن يتشكك بشكل جدي في صحة مثل هذا الشاهد المقبول جداً والمحرك للمشاعر في غرفة المعيشة}.(١)

وكما يعلق سي، سولز بيرغر أحد المعلقين البارزين لصحفية النيويورك تايمز في الشؤون الدولية بأنه يبدو (أن القليل فقط من الأميركيين يتذكرون كيف يقرؤون}.(٢)

والأسوأ من ذلك إن الحرب التي شاهدها الأميركيون على شاشة التلفاز، كما يزعم ويستمورلاند (كانت عنيفة بشكل حصري تقريباً، وبائسة، أو مثيرة للخلاف، مدافع تطلق، رجال يسقطون، تحطم مروحيات، مباني يطاح بها، لاجئون يفرون، نساء ينتحبن).(٣)

كانت أخبار التلفاز مسرورة جداً بمشاهد مثل قيام جندي بحرية أميركي وهو يشعل النار في سقوف القش لأكواخ القرى الفيتنامية حارقاً في النهاية القرية التي قاومت، بدعوى إخراج القناصة المختبئين بداخلها، وهو تسلسل متلاحق أثار غضب ليندون جونسون إلى حد دفعه للاتصال برئيس محطة CBS، ليقول له بغضب أن المحطة قد (لوثت العلم الأميركي).(٤)

ويصر النقاد على أنه بالرغم من التهديدات الرئاسية، والإدانات والتهم التي تراكمت عبر السنين، فلم تؤد إلا إلى القليل من الجهود لإصلاح عادات التلفاز السيئة، في تعطشه وولعه لمشاهد الدم، حيث ان التلفاز لا يتملك أي شهية لـ (الأخبار الجيدة) أو الإيجابية، ويشكو ويستمورلاند من أن (انتباها منقوصاً وضئيلاً فقط،

١- مصدر سابق، ايليغانت، ص ٧٧.

٢- مصدر سابق، سولز بيرغر، ص ١٢.

٣- مصدر سابق، الاقتباس عن تايّر، ص ٩٣.

4 - Sweeny, M (2006) (The Military and the press: An Uneasy truce, Evanston, Northwestern University press.

يتم إعطاؤه إلى عملية فرض السلام، العمل المدني والمساعدة الطبية، والطريقة التي تمضي بها الحياة عموماً بصورة طبيعية لمعظم الناس معظم الوقت).(١)

وبما أن العدو يظل خفياً معظم الوقت، فإن التلفاز عرض بالضرورة صورة منكفئة من الفعل، وكما لاحظت مقالة لـ نيويورك تايمز في شباط ١٩٦٦ بمرارة:

{ يمكن للتلفاز أن يعرض (عدم إنسانية) الحرب بدون رقابة، جنود المارينز الضخام، يفوقون في ضخامتهم رجال صغار قصار، أنصاف عراة، مصابين بالعمى، أطفال منتحبين، وأطفال مفزوعين، لكنهم بالطبع لا يمكنهم مضاهاة هذه المشاهد مع صور عن عنف وإرهاب الفيت كونغ والفيتناميين الشماليين، لأن السلطات في هالوي، وقادة مليشيات الفيتكونغ يرفضون ذلك ولن تعاونوا في هذا المجال}.(٢)

ولقد أدت هذه الوجبة المسائية التلفازية من الموت والدمار بالضرورة إلى شحن المشاعر المعادية للحرب، كما يصر النقاد. إذ كيف يمكن تفسير مثل هذه الصور سوى على أنها إدانة للعمليات الأميركية في فيتنام، ويتفق بعض الصحفيين في هذا الرأي، صرح مورلي سافير مراسل الـ CBS (وهو المراسل الذي كان مسئولاً عن التقرير الإخباري الخاصة بحادثة إحراق أكواخ القش) في عام ١٩٦٦:

{في كل قطعة من أفلام الحرب الخاصة به (يقصد التلفاز) فإنه يتخذ سمة معادية للحرب، ببساطة لا يموتون من إصابة مباشرة تخترق القلب، يتم تفجيرهم إلى أشلاء، والتلفزيون يرويها بهذه الطريقة}.(٣)

ولتخفيف هذه السلبية المتأصلة، كانت أخبار التلفاز بحاجة ليس إلى صور إيجابية فقط عن الجهود الأميركية للفوز بالقلوب والعقول، ولكن إلى إطار تفسري

١- مصدر سابق، ثاير، ص ٩٣.

٢- مصدر سابق، رايموند، ص ٩٣، ١٩٦٦، Raymond.

3 - Fox, T (1995) (The Media and and the Military: An Historical Perspective on the Gulf war) in Walsh.

مطمئناً لتحييد الصور المزعجة والمنفردة، وأشار الرئيس نيكسون إلى نقص السياق كمشكلة بالذات:

{ في كل نشرة أخبار تلفازية مسائية، ومع كل صحيفة صباحية، كانت الحرب يتم تغطيتها معركة فمعركة، ولكن مع القليل أو بدون أي فهم للغرض الخفي من القتال، وفي النهاية قاد هذا الأمر إلى انطباع بأننا نقاتل في رمال متحركة عسكرياً وأخلاقياً، بدلاً من القتال المتجه نحو هدف واضح ومهم}.[1]

ولم يكن نيكسون ممن يشكون بشكل شائع من أن المراسلين توقفوا عن أن يكونوا موضوعيين، وعوضاً عن ذلك، هاجم بشكل ملفت العقيدة الأساسية حول موضوعية الصحافة "التي تفرق بشكل صارم بين الحقائق والتعليق" بالاقتراح بأن إضافة التفاصيل التي لا حصر لها قد ينتج انطباعاً مضللاً، عندما تفتقد الحقائق المنفردة إلى تفسير ملائم، وبالنسبة لنكسون، كان افتقاد السياق، تدويراً متفائلاً للأحداث، قد يشجع الأميركيين على الإدراك بأن، حتى وان كانت الصور تبدو كالحة، فإن الحرب نفسها لم تكن تجري بشكل سيئ، (فرض السلام والتهدئة) والفوز البطيء الصبور بثقة (المزارعين الفيتناميين) سوف تتطلب وقتاً بالتأكيد، ولكن التلفاز كان غير ملائم لإعطاء نظرة شاملة بعيدة، وطبقاً لذلك كان يحبط مشاهديه بجولات يومية من التشاؤم، وبالنسبة للعديد من النقاد، فإن فشل وإخفاقات وسائل الإعلام وصل إلى ذروته خلال أعمال عنف (التيت) والتي ابتدأت في ٣١ يناير ١٩٦٨، مع بدء الاحتفالات بالنسبة القمرية الجديدة، حيث قامت قوات الجيش الشعبي الفيتنامي (جيش فيتنام الشمالي) وجبهة التحرير الوطني (والتي كان نظام الرئيس نغودن ديم المدعوم من الولايات المتحدة يسميها قوات الفيت كونغ) شنت سلسلة من الانتفاضات في أكثر من ١٠٠ مدينة وقرية عبر جنوب فيتنام، وكان هدفها إشعال شرارة انتفاضة شعبية شاملة ضد نظام سايغون تؤدي إلى نهاية حاسمة للحرب، ولأول مرة، انفجرت المعارك في الشوارع في وضح النهار،

١- مصدر سابق، هالين، ص ٣.

ومن هنا بحسب ميشيل هيرر (كان الليل هو أصدق وسيلة للحرب، في الليل تصبح الحرب مثيرة للاهتمام حقاً لأن أطقم التلفاز لا يمكنها التصوير في الليل.[1]

وكانت عمليات (البحث والتدمير) سعياً وراء عدو متملص وغير مرئي غالباً، لم تكن تسمح بالتصوير الليلي أو غيره، وخلال أحداث التيت، على كل حال، فإن كل ما كان على المراسلين (الذين أصبح يتواجد منهم الآن ما يقرب من ٤٦٤ مراسل في مقابل ٢٠ فقط في عام ١٩٦٤) هو أن يخطو خارج فنادقهم ليشهدوا القتال من مدى قريب، كانت الأعمال تجبر على تغطيتها قسراً.

ولكن ما الذي يجب تغطيته؟ لقد كان من الصعب رؤية أو تمييز أنماط واسعة في هذه الهجمات المتنوعة على اتساع البلاد، رغم إن أعمال العنف المنسقة من هذا النوع، لن تخدم بأي شكل العرض الرسمي لـ (الضوء في نهاية النفق) كحلٍ مفترض، وفي محاولتهم للإحاطة بما يجري عامل المراسلون أحداث التيت على أنها دليل بشكل عام على أن الفيت كونغ والفيتناميين الشماليين يدفعون بالقوات الأميركية وحلفائها الجنوبيين على المحك، ولكن ما أن انقشع دخان المعارك، عمل المحللون السياسيون على الاعتراف بأن أحداث التيت " على الرغم من المظاهر التي تؤكد على العكس" قد مثلت بالفعل أنها كانت (نكسة سياسية –عسكرية قاسية لنظام هانوي في الجنوب).

وتلقت رسائل الإعلام المهيمنة لكلمات ولقطات فيتنام... بالإضافة إلى تصوير هزيمة الحلفاء... ودخان أسود مستمر... صور (الكارثة) التقليدية، المبهمة والتي قلة من رجال الأخبار فقط حاولوا إعادة تفحصها، والقليل من المدراء في الوطن فكروا في مساءلتها)، ولكن ما الذي يكشفه هذه التغطية الرديئة لأحداث التبيت؟

١- مصدر سابق، هيرر، ص ٤٠.

يعـزو بارسـتراب هـذا الأمـر إلى التـشاؤم المتفـشي والـذي غـدا يغلـف فـرق الـصحافة الأميركيـة في فيتنـام بحلـول ١٩٦٨، أكثـر مـن كونـه محاولـة مدفوعـة أيدلوجياً، لتتصير المساندة المحلية للحرب.[1]

أمـا بالنـسبة لكـل مـن ايليفانـت ووبـستمورلاند، فـإنهم رأوا في مثـل هـذه التغطية لأحداث التيت على أنها أعمـال محسوبة بدقة وشـريرة، تؤكـد علـى عداوة الـصحفيين الـتي لا تهـدأ ضـد حلفـاء أميركـا، (معظـم الوحـدات الفيتناميـة الجنوبيـة قاتلت جيداً، ولكن هذا ليس في رنية) دوائر وسائل الإعلام، أن تقول أي شيء جيد عن الفيتناميين الجنوبيين.

كما يشتكي ويستمورلاند، (لقد ضللت وسائل الإعلام الشعب الأميركـي في تغطيتها لأحداث (التيت)، وحتى عدد من المسؤولين في واشنطن كـانوا متـأثرين بذلك) ومن المشكوك فيـه إن حتـى الـرئيس جونـسون كـان مـن ضـمن أولئـك الـذين خدعوا بكلام وسائل الإعلام، وفي وجهة نظر هاليبرشتام، كانت حرب فيتنام (أول حرب يتم إعلانها منتهية من قبل كبير المذيعين في محطة تلفاز).[2]

والرجـل المقـصود بـالكلام هـو والـتر كرونكايـت المـذيع المعـروف، والـذي أصدر حكمه على النحو التالي:

{ للقول بأننا نتمرغ في وحل تعثرنا، يبدو وكـأنه الاستنتاج الواقعي الوحيد، رغم إنه ليس بالاستنتاج المرضي} معلناً إياه في ٢٧ شباط ١٩٦٨، هذا الحكم ساعد في إقناع الرئيس جونسون في سحب ترشيحه للسباق الانتخابي في ١٩٦٨.[3]

وبمـا أن كرونكايتـا كـان رجـل أميركـا (الأكثـر جـدارة بالثقـة)، فـإن الإدارة الأميركية إذا كانت قد خسرت مذيع محطة CBS اللامع هـذا تكـون قـد خسرت معظم الطبقة الوسطى الأميركية، وعلق سكرتير البيت الأبيض الصحفي

1 - Barest up, P (1994) Big story`: How the American Press an television Reported and Inter preted the crisis of tet 1968 in Vietnam and Washing ton, Novato, CA, presidio.

٢- مصدر سابق، هاليين، ص ١٦٨.

٣- مصدر سابق، هالن، ص ١٧٠.

جورج كريستيان لاحقاً بأن (موجات من الصدمة تدحرجت داخل الحكومة) بعد بث ذلك التصريح، وفي ٣١ آذار، أعلن جونسون عن قراره بعدم الترشح لدورة ثانية.[1]

وفي خطاب له أمام الجمعية الوطنية للإذاعيين في اليوم التالي، أعلن جونسون بصراحة أمام حشد المتخصصين في التلفاز بأنهم كانوا لحد كبير وراء قراره:

{إذ كنت أجلس في مكتبي في الليلة الماضية، انتظر إلقاء خطابي، فكرت في المرات العديدة كل أسبوع عندما يعمل التلفاز على جلب الحرب إلى المنازل الأميركية، ما من أحد يستطيع أن يقول بالتحديد ما لهذه الصور الحية من تأثير على الرأي العام الأميركي، المؤرخون وحدهم هم من يستطيع أن يخمن ما كان يمكن للتلفاز من تأثير على الصراعات الابكر على مستقبل هذه الأمة: خلال الحرب الكورية على سبيل المثال، في الوقت الذي دفعت فيه قواتنا إلى الخلف عند بوسان، أو في الحرب العالمية الثانية، في معركة بولغي Bulge، أو عندما كان رجالنا يقاتلون في أوربا.[2]

وبشكل ضمني، فإن النصر المتحقق في الحروب السابقة كان يمكن أن يتعرض بشكل مشابه للخطر بتأثير التلفاز، ولم يكن جونسون لوحدة في مثل هذه التصورات عن نفوذ التلفاز، في إعادة تشكيل المنظر السياسي (تخيل ما كان بإمكان غوبلز أن يفعله لهتلر مع وجود التلفاز مع الراديو في متناوله)، حسب افتراض سي، سوليز بيرغر في (النيويورك تايمز) ومع وجود لعدو مثل محطة الـ CBS، لوجود جبهة التحرير الوطني (الفيتنامية)؟

فلا عجب أن القوات الأميركية لم تستطع تحقيق التفوق، مع قيام CBS بمعظم العمل نيابة عن قوات (الفيت كونغ)، وبكلمات أخرى، فإن حرب فيتنام

---

1 - Turner, K (1985) Lyndon Johnson's Dual War: Vietnam and the Press, Chicago, Chicago university Press.

٢- ماك آرثر، ١٩٩٣، Mac Arthur، ص ١٣٣.

على عكس الحربين العالميتين، وحرب كوريا التي سبقتها بقليل كانت حرب أميركا الأولى التي خاضتها بدون فرض الرقابة العسكرية على الإعلام.

ومن هذا المنظار، كان الدرس للعسكر واضحاً، فبإعطائهم الأذن في أن يذهبوا حيثما شاءوا، وأن يكتبوا ما يحلو لهم، وتصوير كل ما تقع عليه أعينهم فإن الصحفيين كانوا متلهفين لعض اليد التي أطعمتهم، وبما أن السياسيين كانوا قد قيدوا الذراع الأخرى خلف ظهر الجيش، فإن الهزيمة كانت محتومة.

تحذي فرضية (الإعلام هو المذنب):

إذن فإن الحكمة التقليدية تقضي بالآتي: الحرب بدون رقابة سوف تغدو غير شعبية باتساع ومن هنا تفتقد إلى التزام الجمهور العام، ولا يمكن الفوز بها تبعاً لذلك، وهذا المنطق أصبح مألوفاً، ولكنه تقريباً بشكل خاص في هذه القصة المهترئة حول دور وسائل الإعلام في حرب فيتنام هو مضلل للغاية إن لم يكن خاطئ تماماً، سلسلة طويلة من الافتراضات التي أمضى الباحثون والأكاديميون أكثر من ٣٠ عاماً في دراستها بشكل انتقائي وإعادة طرحها من جديد.

ودعونا نبدأ هنا، بالتهمة الرئيسية التي توجه إلى أخبار التلفاز، التي عملت على تغذية الأميركيين بمئونة مستمرة من مشاهد الأجساد المقطعة.

وجنود المارينز القتلة الذين يطلقون النار بألم على الأطفال والنساء الفلاحات الباكيات، والتي أظهرت تحليلات المضمون الموسعة لتغطية المحطات التلفازية أظهرت بأن هذه التأكيدات الشائعة، حول المعالجة التلفزيونية الصريحة لأخبار الحرب في فيتنام كانت بعيدة تماماً عن المسار الصحيح، وفي دراسة دانييل هالين (الحرب غير المراقبة) التي تظهر ان معظم التغطية الليلية لمحطات التلفزة، ولفترة معتبرة من الحرب، تجنبت فضح الكلفة البشرية للحرب، كما كانت مترددة بشكل خاص لتغطية الأعمال الوحشية التي ارتكبتها القوات الأميركية، حتى ما

يقرب من زمن أحداث التيت في مطلع سنة ١٩٦٨، كانت أخبار التلفاز (محابية بشكل مائل للسياسة الأميركية في فيتنام)، كما كان واضحاً باستمرار.[١]

ووجدت دراسة هالن أن ٢٢٪ فقط من كل مصوري الأفلام قبل أحداث التيت، صوروا بالفعل المعارك، وحوالي ٢٤٪ فقط من أفلامهم احتوت على لقطات للقتلى أو الجرحى، ولكن بصورة مقتضبة جداً عادة، وأقل من ١٠٪ فقط عرضوا أكثر من لقطة واحدة للجرحى أو القتلى.[٢]

وأيضاً من المناسب أن نتذكر، بأنه بينما (تبدو الدماء قانية أكثر على شاشة التلفاز) كما أوضح روبين داي في جملته المشهورة، فإن ذلك ممكن فقط إذا كان المشاهد يمتلك جهازاً ملوناً، والذي لم تكن أغلبية المنازل الأميركية تملكه حتى ما بعد ١٩٧٣.[٣]

ويتوصل هالن إلى أن فحوى أو مغزى التغطية الإخبارية الأميركية لم تكن غير داعمة أو غير واضحة في دعمها خلال الحرب، وفي عام ١٩٦٨ بدأت نبرة التلفاز بالتغير، ومنذ ذلك الحين بدأت الأخبار تصاحب بشكل أكبر بالصور التوضيحية، وأخذت الشبكات التلفازية تخصص انتباهاً أكبر للحركات السلمية والمشاعر المعادية للحرب، بينما أخذت تسمح بالمزيد من التعليقات النقدية على نظام جنوب فيتنام وقواته المسلحة " وكان هذا عندما ابتدأت عملية (فتنمة)[*] المجهود الحربي" والتي كانت تعنى بأن وحدات الـ ARVN تلعب دوراً مهيمناً في العلميات القتالية، مع وجود القوات الأمريكية لتقديم المساندة التكتيكية، والسؤال هنا، الذي يجب أن نأخذه في الاعتبار، هو لماذا حصل هذا التحول في موقف الشبكات؟

١- مصدر سابق، هالن، ص ١١٠.

٢- مصدر سابق، هالن، ص ٣٠- ١٢٩.

٣- مصدر سابق، بريوير، ص ١٨١.

* - الفتنمة (من فيتنام) مصطلح مشابه لمصطلح تعريب أو تتريك، ويقصد به تحويل الحالة إلى حالة ذات طابع فيتنامي، أو تغليب العنصر الفيتنامي فيها.

هل أن وسائل الإعلام، كما يتم اتهامها بصورة شائعة، قد تبنت دوراً مناهضاً بصورة مباشرة، مستبعدة القواعد القديمة في الموضوعية الصحفية طوال الوقت، أو أن هناك تفسيرات أخرى لسلبية التلفاز المتنامية؟

لقد عملت التكنولوجيا والأفكار اللوجستية دوراً معيناً في تغيير نظرة أخبار التلفاز، ففي أوائل ومنتصف الستينات، كانت تكتيكات حرب العصابات التي وظفت من قبل جبهة التحرير الوطني أو (الفيت كونغ) لم تكن مناسبة للتصوير أو تهتم بالحث على ذلك، وكما يلاحظ جاك رايموند من صحيفة نيويورك تايمز (في الماضي كان المراسلون يختارون وحدة ويرتبون لقضاء بضعة أيام أو أسابيع أو حتى أشهر معها)، ولكن على عكس الحرب العالمية الثانية أو حرب كوريا، كانت هذه الحرب بدون جبهات واضحة للمعارك (ومع القليل من المعارك نسبياً):

{كان التمرد من قبل الفيت كونغ والمدعوم من وحدات جيش فيتنام الشمالية مصمماً لإزعاج الناس وهز ثقتهم بالوحدات الأمنية الحكومية، وعلى الرغم من ازدياد عدد المصادمات العسكرية، معظم الحرب تضمنت محاولات محددة المستوى نسبياً لمجابهة دعاية ألفيت كونغ، أعمال الخطف، غارات العنف والجرائم، وعمليات الإحراق، والأشكال المختلفة من أعمال التخريب}.

وحتى أكثر المراسلين صبراً، لم يكن بإمكانه (تمضية شهر بأكمله في قرية، منتظراً هجوماً إرهابياً، ليدرس كيف يستجيب سكانها تجاه الدعاية الشيوعية، رغم إن هذا كان هو جوهر الحرب) كما يستنتج رايموند.[1]

وأدت أعمال (التيت) إلى حل مسألة (أن لا شيء يبدو إنه يحدث في فيتنام، مع اندلاع القتال في ضوء النهار، ووجود الكثير أمام طواقم كاميرات التلفزيون المتواجدين في المدن لتصويره، ووسائل أسهل كثيراً لنقل المواد عائدة إلى الولايات المتحدة، في بداية الستينات كان الأمر يتطلب، ٤٨ ساعة لنقل أشرطة الأفلام من فيتنام عبر اليابان، وهذا كان يعني أن الكثير منها كان (لازمينا) أو غير مرتبط

١- مصدر سابق، رايموند، ص ٢١٩.

بزمن الأحداث، ولهذا فإن ميشيل أرلين يعدد خصائص حرب التلفزيون على الأقل حتى عام ١٩٦٨، على أنها (مصاغ بأسلوب ليلي، بشكل عام للإلهاء، وعبارة عن استعراض عام لصراع غير مترابط، والذي كان يتم تأليفه بشكل رئيسي من مشاهد لهبوط طائرات مروحية، وحشائش مرتفعة تعصف بها ريح الهيلوكبتر، وجنود أميركيين ينتشرون على شكل مروحة على جوانب أحد التلال مشياً على الأقدام.[1]

ولكن التكنولوجيا عملت على تشكيل محتوى الأخبار بشكل شامل بشكل أقل من الممارسات الصحفية المؤطرة والقيم والأنماط التي تساندها، وطبقاً لـ هالين، فإن التفسير لكلا من مساندة التلفاز الأولية، ومن ثم ميله التدريجي نحو معارضة أكثر " رغم عدم كونه معادياً للحرب بأية وسيلة" يكمن في التزام المؤسسات الإخبارية المستمر بـ (أيديولوجيا ونماذج الصحافة الموضوعية الروتينية).[2]

وهكذا فإن تحول التلفاز الظاهري إلى الممارسة الصحفية المعارضة، هو أمر وهمي نوعاً ما، فإن الصحفيين لم ينحرفوا عن المعايير الصحفية المهنية ولكن مصدرهم أعاد تقييم الحرب بصورة جذرية، وإعادة التقييم النخبوية هذه في المقابل حفزت على إجراء تعديل في نمط ومزاج التغطية بحيث أمكنها استيعاب المعارضة.

ويقترح هالن علينا لفهم هذه القضية بشكل أكثر أحكاماً، أن نتخيل عالم المراسل الصحفي على أنه مقسم إلى ٣ مناطق، (كل منها يتضمن تطبيق معايير صحفية مختلفة) المنطقة الأولى يصطلح عليها بـ (مجال الإجماع) أو منطقة (حضن الأمومة وفطيرة التفاح) حيث تكمن هناك (تلك الموضوعات والأهداف الاجتماعية التي لا يمكن اعتبارها من قبل الصحفيين ومعظم المجتمع على أنها محل خلاف أو جدل).[3]

---

1 - Arlen, M(1982) The Living room War, New York, Penguin .

٢- مصدر سابق، هالين، ص ٥٢.

٣- مصدر سابق، هالن، ص ١١٦.

وباستخدام هذا النموذج، يتقدم هالين بفكرة إن إعادة تقييم التغطية الإخبارية لحرب فيتنام يمكن توضيحه على أكمل وجه بتحرك الحرب من مجال إلى مجال آخر، وليس عن طريق أي حركة نبذ أو هجر ثقافية مضادة للموضوعية من قبل بعض الصحفيين التحريضيين وفي مرحلتها الأولى (يعني الحرب..) كان الالتزام الأميركي بالنظام الفيتنامي الجنوبي، كان يصور بشكل واسع على أنه أساسي لإستراتيجية أميركا الكلية في الحرب البادرة لاحتواء الشيوعية، وأن ضرورة حماية حليف محاصر في جنوب شرق آسيا من تهديد الشيوعية كان بمثابة مسألة (حضن الأمومة وفطيرة التفاح)، فكل امرئ كان مجنداً لها، وهؤلاء الذين كانوا غير موافقين عليها كانوا يمثلون هامشاً ضئيلاً بحيث لم يكن يتم ذكرهم في وسائل الأخبار السائدة، ومدى حكمة سياسة الاحتواء لم يكن يتم مساءلتها أو التشكيك فيها، حتى إذا ما كان المراسلون المرابطون في سايغون قد تساءلوا فيما إذا كان الرئيس نغودين ديم " الذي كانت له عادة طرد الصحفيين الذين يكتبون أشياء غير حسنة عنه" كان القائد (الديمقراطية) الأفضل الذي على واشنطن دعمه في سايغون.

ومع مرور الوقت، تساءلت النخبة الحاكمة في واشنطن، عما إذا كان بالإمكان (إنقاذ الجنوب)، وعما إذا كانت هذه العملية يمكن أن تنجح بكلفة يمكن لدافع الضرائب الأميركي تقبلها، وبحول ١٩٦٧، كانت معارضة النخبة في واشنطن مرئية بشكل واضح، فأصبحت الحرب مسألة داخلة ضمن (الجدال المشروع)، وهي موضوع كان الناس العقلانيون يعترضون عليه بعنف متزايد (ما من أحد هذه الأيام (يطعن أو يلكم) الإدارة الأميركية، وإنما الأمر أشبه بقنبلة مقابل قنبلة)! كتب توم فيليب في صحيفة (نيويورك تايمز) في أكتوبر ١٩٦٧، وبما أن صانعي القانون ومشكلي الرأي العام البارزين لم يعودوا متفقين سواء على المنطلق الجيوستراتيجي الضمني في الدفاع عن نظام فيتنام الجنوبي أو على الإستراتيجية العسكرية الموظفة نحو ذلك الهدف، كان على وسائل الإعلام الإخبارية (ملزمة

بقواعد الصحافة الموضوعية) أن تنقل هذا التضرع في آراء النخبة، وكما يوضح هالن:

{ ولم تعمل وسائل الإعلام فقط على تغطية الجدل المتنامي حول الحرب، بل أنها تأثرت به كذلك، وإذ تغيرت مقاييس الجدل السياسي، كذلك تغير سلوك وسائل الإعلام، : القصص الإخبارية التي تم تغطيتها سابقاً ضمن إطار الإجماع أصبحت الآن تغطي ضمن إطار (المثير للجدل): المواضيع ووجهات النظر التي كانت خارج النطاق أصبحت الآن قصصاً إخبارية مشروع}.[1]

وإذ أخذ الصراع في النخبة بالتعمق، بدأ الصحفيون في الكتابة عن الأعمال الوحشية، والتي كانت سابقاً تحظى بأقل قدر من الاهتمام، طوال الفترة التي تثبت فيها الإجماع المعادي للشيوعية الحرب في (مجال الإجماع)، وقبل أحداث الـ (تيت)، كانت التقارير والأخبار التي تكشف عن حجم العبء الذي تفرضه الحرب على القرويين الفيتناميين نادراً ما تصل إلى صفحات الواشنطن بوست، أو (النيويورك تايمز)، وعلى سبيل المثال فإن الصحفية مارثا غيلهون، وجدت إنه من المستحيل إقناع صحيفة أميركية لنشر سلسلة من التقارير كتبت ما بين ٦٦- ١٩٦٧ عن ما يتطلبه (الفوز بالعقول والقلوب) فعلاً.[2]

وبشكل مشابه لذلك، فإن التقارير عن اغتصاب وقتل، والتمثيل بأكثر من ٣٠٠ قروي فيتنامي في ماي لاي في آذار ١٩٦٨٩، تم حجبها من قبل رؤساء التحرير المتخوفين من الدعوة إلى وضع ممارسات وأهداف أميركا في فيتنام موضوع تساؤل، وتطلب الأمر حتى نوفمبر ١٩٦٩، بعد ما يقرب من ١٨ شهراً بعد حدوثها حتى حصلت الأحداث في ماي لاي على اهتمام صحفي مستمر، بداية في صحيفة (سانت لويس بوست)، والفضل يعود لجهود الصحفي سيمور هيرش، حيث كتب سلسلة من المقاولات التي فضحت التقارير المدفونة عن المجزرة، وجذبت الانتباه إلى تحقيقات الجيش في أفعال اللازم ويليام كالي، العسكري الوحيد الذي تمت إدانته

١- مصدر سابق، هالن، ص ٥٤.

٢- مصدر سابق،نايتلي، ٢٠٠٤ ، Knightley، ص ٨- ٤٢٧.

لاحقاً بجرائم الحرب ومع نشر صور رونالد هايبريلي عن ضحايا المجزرة المرعبة في ديسمبر ١٩٦٩ تم وصم مجزرة ماي لاي بأنها (تراجيدياً أميركية) على حد وصف مجلة التايم، وبعد كشفها الطريق أمام حلقات أخرى، لم تكن ماي لاي بالنسبة لها، لا الأولى ولا الأخيرة التي تصبح جديرة بالنشر، وأدى ذلك كله إلى تعميق عدم الاقتناع بالحرب، وبدأ التلفاز في عرض مسائل مهمشة كانت سابقاً قد تم نبذها إلى (مجال الانحراف).

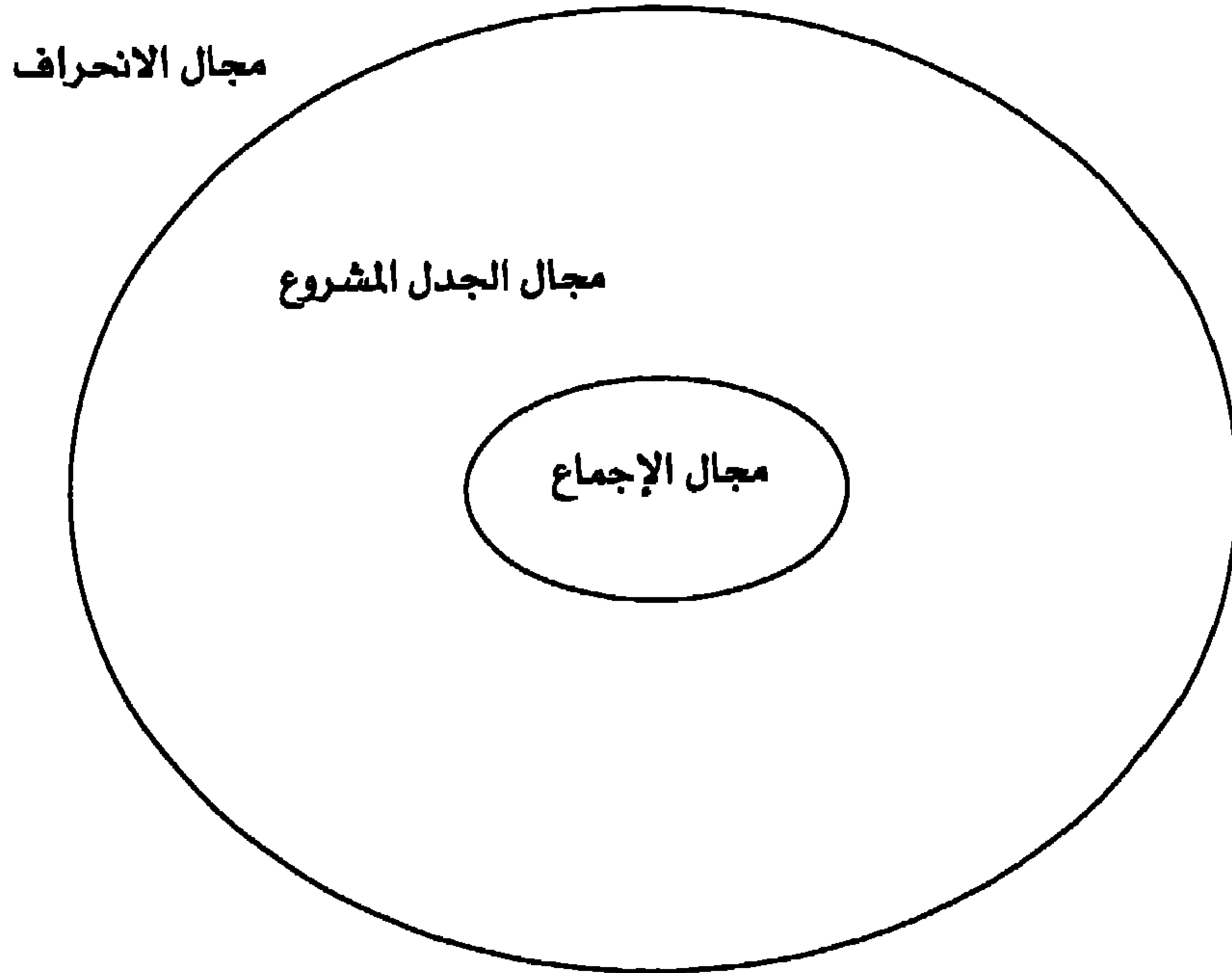
وعلى وجه الخصوص حركات المطالبة بالسلام، وعموماً، فقد أصبحت المظاهرات المعادية للحرب خبراً محلياً معتاداً، من دون أن يصبح المتظاهرون أنفسهم معلقين شرعيين على الحرب، وفي ٤ أيار ١٩٧٠، ومع إعلان نكسون على موافقته على شن غارات على قواعد الفيتناميين الشماليين في كمبوديا، أطلق رجال الحرس الوطني النار على أربعة طلاب وأردوهم قتلى في جامعة كينت الحكومية بولاية أوهايو، وهو دليل على التصعيد الداخلي الذي يؤكد كم أصبحت مسألة الحرب بعيدة عن مجال (الإجماع)، ولكن إذا كانت قضية فيتنام الآن بشكل لا يقبل الشك مسألة خاضعة للجدل المشروع، فإن ذلك لم يكن يعني أن المتظاهرين كان لهم من السلطة والتأثير، ما يسمح لهم بالتحدث بصوت عالٍ ضد مسائل السياسة أو الإستراتجية في أخبار التلفاز، إنما الآن قد يسمح للمتظاهرين بالظهور في الأخبار أكثر من ذي قبل، ولكن غالباً بطرق تميل إلى تصويرهم على أنهم من الهيبيز ذوي النزعات التدميرية والمتمردين على المجتمع الذين يحتجون على الحكومة لمصالحهم هم الخاصة.[1]

وحتى ما بعد أحداث (التيت)، يؤكد هالن، فإن حدود الجدل تظل لحد كبير تعرف بواسطة الجدل الذي كان يموج في الكابيتول هل، وما أظهرته التغطية الإعلامية لحرب فيتنام، عندئذ هو مدى ضيق مفهوم أخبار المحطات المتوازنة الذي تعمل وفقاً له، مثل ممارسات (الموضوعية) "والتي غالباً ما تؤخذ

١- غتلين، ١٩٨٠ ، هالين ، مصدر سابق، ص ١٩١- ٢٠١.

على أنها كلمة مترادفة لعدم التحيز أو الحياد" والتي تعمل على (إهداء) تحيز روتيني لصالح النخب النافذة، وفقط عندما أخذت هذه النخب نفسها تظهر استيائها ومعارضتها، أخذت أخبار التلفاز تعكس هذا الانحراف، (مساهمة في الوعي العام بالحرب والقلق منها، والذي قاد في النهاية إلى جعل فيتنام هدفاً سياسياً.[1]

شكل رقم (٤:١)



نموذج نظري لتبيان مفهوم هالن
عمل الصحفيين هو دعم النظام المعياري لمصادر المعرفة في المجتمع

١- مصدر سابق، هالن، ١٩٨٩، ص ٧.

ولكن إذا كان التلفاز هو قوة للشقاق والخلاف، فإنه لم يكن فاعلاً بتلك الطرق التي تحدث عنها النقاد، ويشير عالم الاجتماع هيربرت غانز من جامعة (MIT) في ١٩٧٠، إلى أن منتجي أخبار التلفاز شكلوا (جزءاً من ثقافة الطبقة الوسطى التي تهيمن على أميركا).

وباختصار فإن الموضوعية المهنية، والمعايرة بشكل دقيق للحفاظ على توازن بين الآراء التي ليست على وفاق أو تشابه تام، وتفرض التحيز لواقع الحال كما هو في النظر للعالم والتي يتم تشاركها بشكل غير واعٍ على نطاق واسع في الوسط المهني للأخبار، ولكن علاقة الإعلام العدائية مع السلطة بشكل مزعوم هي عنصر واحد فقط في المعادلة التقليدية، أما العنصر الآخر فهو الإصرار بأن تمثيل التلفاز الصوري للحرب عمل على تآكل المساندة الشعبية لها، وهنا أيضاً فإن البحوث الأكاديمية مضت بعيداً جداً لتدمير الأفكار التقليدية الشائعة التي تقول بأن ليس فقط الذكريات السيئة هي ما يميز صور التلفاز ولكن تصر بأن هذه الصور يمكن فقط أن تفهم من قبل المشاهد بطريقة واحدة: وقود للمشاعر المعادية للحرب، ووفقاً لهذا المنطق، فإن التعرض للصور (السلبية)، جندي أميركي جريح، أو جثة متهم بانتمائه لقوات ألفيت كونغ، لا يمكن أن يفضي إلا إلى مشاعر معادية للحرب، ومع ذلك فإنه من الممكن جداً لأفراد مختلفين أن يفسروا نشرات أخبار متماثلة أو صور فوتوغرافية بطرق متشعبة جداً، فيما يحبط فرد ما كدليل لا يقبل الجدل على أن بلدهم تخوض حرباً غير أخلاقية لا يمكن الفوز بها، تؤدي إلى صدم فرد آخر نتيجة للإرهاب الذي يقوم به مقاتلو ألفيت كونغ.

وأخذ الأميركيون بشكل عام يبدون أكثر عدائية تجاه الحرب، وثمة أغلبية في سنة ١٩٦٧ اعتبرتها خطأ كبيراً، وهي السنة التي قتل فيها أكثر من ٩,٣٠٠ فرد من القوات المسلحة الأميركية في العمليات، ولكنهم فقدوا الثقة في المؤسسة العسكرية في فيتنام لأسباب متعددة، مع ارتفاع الكلف المادية للحرب وتصاعد الخسائر البشرية، في سنة ١٩٦٨ أكثر من ١٤,٥٠٠ جندي أميركي قتل في فيتنام، وهي السنة الأسوأ في عدد القتلى الأميركيين، واحتمال النصر أصبح يبدو

بعيداً جداً، ومثيرة الكثير من الأسئلة عن أخلاقيات الحرب وتأثيراتها، وإذا كانت الحكمة التقليدية صحيحة، فيتوجب علينا أن نتوقع بأن أولئك الذين يشاهدون التلفاز أكثرهم من المحتمل الأكثر معارضة للحرب، ومع ذلك فإنه لا يوجد دليل مؤكد يؤيد هذه الفرضية، وفي الواقع، أن بعض استطلاعات الرأي التي أجريت في أواخر الستينات تثبت العكس: الأفراد الذين يميلون إلى متابعة أخبار التلفاز أكثر يميلون أكثر إلى مساندة الحرب، وثمة دراسات أخرى، تظهر بأن مشاهدي التلفاز يتطلعون لأخباره من أجل تأكيد مواقفهم المسبقة، ومفسرين ما يثبت وفقاً لذلك، وهكذا فإن الصقور كانوا يميلون إلى اعتبار والتر كرونكايت صقراً، أما أولئك الذين هم من الحمائم يميلون إلى رؤيته واحداً من سربهم.[1]

وعموماً، فإن العديد من الأمريكيين كانوا أقل معارضة للحرب مما قد توحي به بعض الدراسات، وعلى الرغم أن معظم المنازل الأميركية كانت تملك أجهزة تلفاز في أواسط الستينات، فإن امتلاك التلفاز، ومتابعة أخبار محطات التلفاز عن قرب لم يكن أمراً متلازماً بالضرورة، وفي الواقع فإن أخبار المحطات كانت يتم مشاهدتها بأقل من النصف بقليل في كل المنازل الأميركية المالكة للتلفاز في أي ليلة معينة.[2]

وأن بعضاً من هؤلاء الأفراد، يمكن لنا أن نتخيل بأنهم ظلوا لا مبالين بالحرب، أما الأميركيون الذين عارضوا بحماسة الحرب فكانوا ينظرون إلى ما وراء ما كانت الشبكات والصحف تقدمه، منزعجين من غايات ما كانت تقوله وسائل الإعلام البارزة عن أفعال الولايات المتحدة في فيتنام، وكانوا غير موافقين على قلة ما تعرضه هذه المنافذ الإعلامية عن ما كانت القوى العسكرية تفعله بفيتنام، وكما يقول كريستان آبي في رواية الشفهية عن الحرب (ما من موضوع كان بعيداً عن المتناول بشكل مذهل، مثل تجربة الفيتنامي العادي في كل جوانبها).[3]

١- مصدر سابق، هالن، ص ١٠٧.

٢- مصدر سابق، ثاثير، ص ٩٩.

3 - Appy, C (2003) Patriots: The Vietnam War Remembered From all Sides, New York, Viking.

وكرد على ذلك انتشرت المئات من الصحف البديلة محاولة سد هذا النقص بالاعتماد على مصادر متنوعة ومغايرة مثل وكالة أنباء جبهة التحرير الفيتنامية أو مصادر الأخبار السرية لإعطاء لمحة عما كان يحدث في فيتنام.

وفي أواخر الستينات وأوائل السبعينات أصبحنا نرى لذلك، شكوكاً متزايدة بوسائل الإعلام السائدة، من قبل اليسار واليمين على حد سواء.

ونظر الراديكاليون إلى وسائل الإعلام على أنها جزء من ماكنة الحرب الامبريالية وتعمل ببساطة على ترديد أكاذيب الطبقة الحاكمة حول التدخل الأميركي في فيتنام، أما في الأوساط اليمينية فإن الهجمات على (الصحافة الليبرالية) كان رأس الحرية فيها، هما سبيرو أغنيو وجورج بسي، والاس، كانت تتصاعد بشكل مألوف لما نشهده اليوم، ويحتج والاس بأن (انتخابات ١٩٨٦٨ سوف تكشف بأن (الأميركيين العاديين) كانوا (قد سئموا وتعبوا من أولئك المثقفين المجتمعين بأبراجهم العاجية الذين يشمخون برؤوسهم عالياً وينظرون إلينا من وراء أنوفهم، ومن صحافة الجناح اليساري الليبرالي التي ما فتئت تكتب افتتاحيات وتوجيهات.[1]

حرب بلا رقابة؟

طبقاً لعالم السياسة جون مويللر John Mueller، فإن ارتفاع عدد القتلى الأميركيين توفر أفضل علاقة تناسبية ثنائية مع المعدلات المتناقصة للتأييد الشعبي للحرب في فيتنام، فإذا ارتفعت الخسائر الأميركية بمعامل ضرب في عشرة، فإن معدل التأييد الشعبي ينخفض بمعدل ١٥ نقطة مئوية على الأقل، وبكلمات أخرى عندما ارتفعت الإصابات من ١٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ قتيل فإن تأييد الرأي العام تراجعت بنسبة ١٥٪.[2]

وثمة مخطط مشابه كان واضحاً في الحرب الكورية، قد يعطي لمحة لأولئك النقاد الذين يصرون على أن التلفاز قد جعل من الحرب في فيتنام غير قابلة للفوز

1 - Frankel, M (1969) (Agnew: A Broad Attack on tv and the Press) The New York Times, November 23.
2 - Mueller, J (1973) War, presidents and Public Opinion, New York Wiley.

بها، وسوف يمنع من النصر في أي صراع مستقبلي ما لم يتم اتخاذ خطوات جذرية للحد من سلطته الخطرة، إن عدم رضاء الأميركيين عن حرب كوريا، وهي الحرب التي راح ضحيتها ٣٦,٥١٦ جندي أميركي، وأدت إلى مقتل وإصابة أكثر من ٣ مليون كوري وصيني، وأتلفت ما يقرب من عشر أراضي شبه جزيرة ظلت مقسمة في نهاية الحرب كما كانت عند بدايتها، تقترح بأن لا غياب صور التلفاز ولا فرض الرقابة العسكرية يضمنان التأييد الداخلي لتدخل عسكري ذي ضرورات غير مؤكدة ونتائج مثيرة للجدل.

ولكن عدم شعبية الحرب الكورية ليست هي الحقيقة الأكثر بروزاً التي يستذكرها المحللون عند محاولة استخلاص الدروس من حرب فيتنام للاستفادة منها في الصراعات المقبلة، ومتذكرين فقط افتقاد النقد الصحفي نسبياً للحرب في كوريا فإن انتباههم كان مركزاً على مسألة الرقابة العسكرية فقط: فرضت في كوريا وغابت في فيتنام، ومؤدية إلى بناء الفرضية التي تقول بأن (حرب بلا رقابة) أثبتت بأنها غير قابلة للفوز بناء على ذلك السبب المحدد بدقة، قرار الجيش الأميركي بالتعميم على عدم تكرار ذلك ثانية، وبحلول عام ١٩٧٤، كان الجنرال المتقاعد حديثاً، ويستمورلاند قد توصل إلى التفكير بأنه (كان لابد من وجود رقابة على الصحف هناك).[1]

ولقد كانت مكانة حرب فيتنام بوصفها حرب أميركا الوحيدة التي كانت (من دون رقابة)، تعني بأن المراسلين والمصورين الفوتوغرافيين وأطقم كاميرات التلفزيون، كانوا أحراراً في الذهاب أينما أرادوا، وتصوير ما يختارون تصويره، وأن يكتبوا ما يحلو لهم، مع عدم وجود أي تدخل من الجيش أو أي أحد آخر بالضبط، ولكن هذا الانطباع مضلل للغاية، وعلى الرغم من أن هناك العديد من الأساطير والخرافات حول دور وسائل الإعلام في فيتنام قد تم تحريفها وتشويهها من قبل، فإن الدرجة التي عمل فيها مسئولو الجيش الأميركي والمسئولون المدنيون الرسميون للتأثر والعمل على تشكيل التغطية الإخبارية للحرب ظلت غير مقدرة

1 - Ayres, B (1974) (West more land Faces Decision on Entering Carolina Politics) The New York Times, January 13.

بصورة صحية، ووفقاً فقط إلى تعريف مجدد جداً لمعنى الرقابة " وهو تمرير القلم الأزرق للرقيب على نص غير مطبوع أو صور غير منشورة " فإن حرب فيتنام كانت (بلا رقابة)، وبينما قد تكون العسكرية الأميركية لم تطالب الصحفيين بالإطلاع على نسخ ما يكتبونه قبل إرسالها، فإن الضباط الأميركيين ورجال الدعاية المدنيين بذلوا جهداً غير عادياً لنشر معلومات محابية عن جهود (التهدئة) الأميركية، ومقدمة صوراً إيجابية مؤثرة للتخفيف من أكثر جوانب الحرب إزعاجاً وإثارة للمشاكل، ووفقاً لهذا الاعتبار تبدو فيتنام على أنها شكل مسبق أو ممهد لما سيأتي من بعدها أكثر من كونها تقليداً لما تم تجربته من أساليب فيما سبق.

وبعيداً عن كونهم عملاء أحراراً تماماً، فإن المراسلين في جنوب فيتنام كانوا عرضة للقيود من نظام سايغون والجيش الأميركي، وبما أن جمهورية فيتنام الديمقراطية كانت دولة ذات سيادة في الظاهر، مهما كانت هذه المزاعم صورية، فإن الجيش الأميركي لم يكن بإمكانه الإصرار رسمياً على مراجعة كل المواد المكتوبة من قبل الصحفيين الأميركيين من دون أن تترك علامة معلنة بشكل واضح بأنها حريصة على إبقاء السيطرة على الصحف التي امتاز بها نظام سايغون، وهي الرقابة التي مارسها الرئيس نغودين ديم غالباً وبشكل نزوات متقلبة، وقبل عملية اغتياله (بمساعدة الـ CIA) في ١٩٦٣، كان المراسلون الذين يكتبون مقالات تنتقد الرئيس الفيتنامي في أوائل الستينات، كان يتم طردهم من البلاد بشكل منتظم، (المطبوعات المرتزقة التي تروج لدعاية مضرة بالقضايا الوطنية) كما كانت تنظر سايغون إليها، مثل مجلة (نيوز ويك) كان يتم حظرها، والصحفيون الذين يرغبون في إرسال أخبار سلبية، كان عليهم الرحيل من البلد قبل فعل ذلك، لنفي أنفسهم قبل ان يفعل النظام ذلك.[1]

ومع ازدياد عدد القوات الأمريكية بعشرات الآلاف من الجنود، أزداد عدد الفرق الصحفية كثيراً، والعلاقات بين المراسلين وقيادة (بعثة المساعدة الأميركية

١- نقلاً عن تقارير لصحيفة نيويورك تايمز في سنة ١٩٦٣.

في فيتنام) (MACV) أصبحت أكثر احتكاكاً وحساسية وكانت هذه العدائية أقل تفشياً نزولاً من سلسلة القيادة العليا وعلى كل حال، فإن العديد من الصحفيين كونوا علاقات جديدة مع الضباط الأدنى رتبة، الذين غالباً كانوا يشتركون معهم في الشكوى من سوء إدارة الحرب المتكررة، ولم يقلل من ذلك من تدخل قيادة الـ (MACV) لوضع عازل بين المراسلين في الميدان ومصادرهم العسكرية المتبرمة، ففي آذار ١٩٦٥، اشتكى المراسلون بأنهم لم يعد يسمح لهم بالدخول إلى قاعدة دانانغ الجوية ما لم يكن هناك ضابط مرافق حاضراً، وأن هؤلاء الضباط المرافقون عملوا على تبديد قدرة المراسلين على أداء عملهم بفعالية: (هذه هي الحرب الأولى في التاريخ الأميركي، والتي يتم فيها إبعاد رجال الأخبار من منطقة القتال، وفي هذه الحالة الغارات الجوية، القواعد الجوية والأسطول، ومن التحدث بحرية إلى الرجال المشاركين)، وعبر البعض عن تفضيلهم لمراجعة عسكرية رسمية لما يكتبونه، إذا كان ذلك يعني أنه سيكون بإمكانهم الوصول، لـ (رؤية وتغطية كل جوانب الحرب كما تم فعله في الحرب العالمية الثانية) وفقاً لمقال نشر في صحيفة نيويورك تايمز في عام ١٩٦٥، فعندها سيكون بإمكان الصحفيين على الأقل معرفة ما ليس بإمكانهم تغطيته.

وفي استجابة لهذه المشكلة، قامت أدارة الرئيس جونسون بتصعيد حملة علاقاتها للعامة، مرسلة المزيد من ضباط الإعلام العام، لتدعيم كوادر وكالة المعلومات الأميركية في حملتها المتسعة في جنوب فيتنام، وإطلاق الأبواق حول سياسة جديدة من (الصراحة العظمى).[1]

ولكن حدود هذه الصراحة لم تمتد كثيراً فعلاً، ففي عام ١٩٦٥ لاحقاً (تم إصدار خطوط عامة موجهة طواعية من قبل وسائل الإعلام الأميركية بناء على توصيات الجيش، والتي نظر إليها على نطاق واسع كخطوة نحو مزيد من الرقابة الرسمية، وهذا التطور أتبعه حادث، قامت فيه وكالة (UPI) ومحطة CBS

---

1 - Hammond, W (1998) Reporting Vietnam: Media and Military at war, Lawrence, KA, University of Kanasas Press.

بإرسال أخبار عن إرسال وحدتين من سايغو إلى دوكو (Ducco) حيث كان يجري قتال عنيف هناك، في انتهاك للبروتوكول، أدعت فيه القيادة العسكرية بأنه يمثل (مساعدة للفيت كونغ)، وللحماية ضد مثل هذه الحوادث، فإن الجيش أصر بأن المنظمات الإعلامية يجب أن تعمل على حجز تفاصيل تحركات القوات والتقارير حول حجم ونوع الوحدات المشاركة في القتال الدائر.

حتى يتم إصدار مثل هذه المعلومات بشكل رسمي، الأرقام عن أولئك الذين يقتلون أو يصابون في العمليات لم يتم إصدارها، وعوضاً عن ذلك فإن الـ MACV كان تصف الخسائر يوماً بيوم، على أنها خفيفة، متوسطة، أو ثقيلة، وكما يلاحظ مؤرخ الجيش ويليام هاموند:

{وإذا ما حاول المراسلون تجاوز هذه القواعد، فإن الـ MACV لها الحق لاستبعاد المخالفين من الايجازات والتسهيلات الرسمية، وتنكر عليهم الحق في مصاحبة القوات في الميدان}.[1]

وتوصلت وسائل الإعلام وفقاً لذلك إنها ستكون أقرب لفقدان حقها في الوصول، بل وستظهر على أنها خطر على أمن العمليات.

وأخذ صبر الصحافة ينفذ شيئاً فشيئاً بسبب نقص الواقعية في مؤتمرات الإيجاز الرسمية في فيتنام الجنوبية، فما عنته سياسة (الصراحة العظمة) بالممارسة العملية هو تفاؤل لا حدود له وغير مرتبط بالواقع، وفي عمليات العرض اليومي التي أصبحت تعرف في صفوف المراسلين بـ (حماقات الساعة الخامسة)، نسبة إلى موعد عقد المؤتمر الصحفي!

كان المسئولون يعرضون إجادة أداء القوات الأميركية وحلفائها، وكم تم (قتل من أفراد العدو) وإلى أين توصل (الإحصاء العام) لخسائر العدو، وكم تم إنجازه من عمليات (البحث والتدمير) بنجاح، وأي المناطق قد تم تطهيرها من الريف من (قوات الفيت كونغ)، ولكن القائمين على هذه المؤتمرات غالباً كانوا يظهرون

١- مصدر سابق، هاموند، ص ٥٣.

أقل استعداداً وأقل إطلاعاً على الظروف خارج سايغون، من الصحفيين الأكثر تحركاً، وإذ بدأت الشكوك المتزايدة بالتراكم، أخذ المراسلون يسيئون الظن بالإحصاءات الرسمية وينظرون لها على أنها مبالغات بشكل هائل.[1]

وكانت هذه (الحماقات) عرضة للسخرية بسهولة بالغة، قد دخلت إلى ذاكرة الصحفيين بسرعة، وكما يتذكر ميشيل هيرر بأن هذه الايجازات كان يقصد بها (أن تقوم بنفس الشيء لتصورك عن الحرب، الذي يفعله الوميض لرؤيتك الليلية).[2]

ولعل هذا البريق المغشي للأبصار كما يشير هيرر، هو ما دفع المراسلين إلى عدم تحدي الإحصاءات الرسمية الخالية من المعنى حتى أظهرت أحداث (التيت) بصيص (الضوء في نهاية النفق)، وحتى تلك الفترة، كانت الصحافة قد تشككت ربما في الأرقام الرسمية ولكنها لم تفعل شيئاً للتحقق منها، حول فيما إذا كانت نسبة القتلى مقارنة بـ (خسائرهم) إلى (خسائرنا) وهو قياس تم تصميمه للبرهنة على نجاح غير مشكوك فيه، طالما أن خسائر الفيت كونغ كانت أعلى بكثير دائماً من خسائر القوات الأميركية والفيتنامية الجنوبية "مقدمة مؤشر مذهل على من كان يفوز فعلاً" وكمقياس للتقدم فإن تعداد الجثث لم يكن يفترض فقط بأنها قد تم التعرف عليها بصورة صحيحة على أنها (عدوة).

والتي لم تكن هي الحال دائماً، بل إن العدو الشمالي وقوات جبهة التحرير الفيتنامية لم تعد قادرة إلى ما لا نهاية على تحمل هذه المعدلات العالية من الخسائر، وهذا الافتراض ثبت خطئه تماماً، وعندما كشفت أحداث (التيت) هذه الأرقام على أنها أمر مخجل، فإن عملية التضليل كشفت وازدادت فجوة المصداقية.

ولم يعمل ضباط المعلومات العام الأميركيين على إصدار أرقام الخسائر في فيتنام فقط، بل عالجوا مسألة اللغة كذلك، مبتكرين مفردات مخففة لوقع

1 - Mohr, C (1965) (War and Misinformation: America Briefing Officers in Saigon) The New York Times, November 26.2.

٢- مصدر سابق، هيرر، ص ١٢٢.

العمليات العسكرية (كلمات لم يكن لها أي قيمة ككلمات) عالمين بشكل دوري على تعديل مصطلحات معينة ليكون لها وقع أقل إساءة أو أضراراً، ولذلك فإن توجيه العسكر (دعونا نقولها بطريقة مناسبة) حظر استخدام عبارة (نسبة القتل)، والتي تبدو أقل تعطشاً للدماء واستبدلت مصطلح عمليات (البحث والتطهير) بدلاً عن (البحث والتدمير).(١)

وكانت المفردات والمصطلحات المفضلة تأتي وتذهب، ولكن ما بقي ثابتاً من سنة إلى السنة التالية هو الإنكار العنيد في الاعتراف بخسائر وأخطاء، ونكسات وهزائم الجيش الأميركي في فيتنام.

ومع وجود عمليات كبرى لوكالات المعلومات الأميركية (USIA) لمساندة الجهد الحربي، فإن آلية التفاؤل الرسمي لم تتوقف أبداً، ولم يكن أحداً يشعر بثقلها الجائر أكثر من مراسلي الصحف العسكرية و(خدمة الإذاعة والتلفزيون للقوات المسلحة AFRTS) في فيتنام، والتي كانت بالنسبة لهم تمثل حرباً مراقبة بشكل مؤكد تماماً، فإذا كانت وسائل الإعلام التجارية لم تفرض عليها الرقابة تقنياً، فإن القنوات التي كانت القوات الأميركية نفسها تعرف من خلالها عن الحرب ما وراء نطاق رؤيتها المباشر، وعن العالم ما وراء فيتنام، كان مسيطراً ومتحكم بها بشكل مشدد.

وهذا التحكم أتخذ أشكالاً مختلفة، من استبعاد المطبوعات التي تحظى بالشعبية لدى أفراد القوات المسلحة مثل (أوفرسيز ويكلي) إلى مهاجمة صحيفة (ستارز وسترايبز) وغيرها.(٢)

حيث أن النسخة التي كانت توزع في الباسيفكي، كانت تطبع في طوكيو تحت عبارة أسفل ما نشيتها الرئيسي،(٣) أصبحت محل شكوك قيادة الـ MACV على أنه نسخة خطرة غير مخولة رسمياً، بما أن تقارير مراسلي (سترايبز)

١- صحيفة النيويورك تايمز في عام ١٩٧٠، العدد ١٦٧.

2 - Pearson, D and Anderson, J (1967) (Whitten Blocks Food For Miss. Negroes) Washing ton Post, May.

٣- منشور غير رسمي غير مخول.

في فيتنام كانت ترسل مباشرة إلى طوكيو بدون رقابة من مكتب معلومات قيادة الجيش (MACOI)، فإنها كانت تمثل المكان الوحيد الذي يمكن لإفراد الجيش أن يقرأوا فيه (أحياناً عن حوادث إطلاق النار، النزف والقصف، الموت والقتل)، ومنزعجة مما اعتبرته انحرافاً من صحيفة (ستارز وسترايبز) عن خط (الحرب النظيفة) الرسمي، شنت قيادة MACV حملة من المضايقات ضد صحيفة الجيش نفسه، ومضى أحد عقداء الجيش في وصفها بصحيفة (هانوي هيرالد)، وأعلن رئيس مكتب صحيفة (سترايبز) في سايغون، منزعجاً بأن الرتب العليا تريد من الصحيفة (أن تكون ملصقاً دعائياً يمكنهم من خلاله بث وجهات نظرهم، ومنع حتى ولو تلميح إلى أن ما يجري على جبهات القتال ليس كله مكللاً بالإزهار).

وفي عامي ٦٩- ١٩٧٠، تم إجراء العديد من التحقيقات الداخلية من قبل أعضاء مجلس الشيوخ في مزاعم حول فرض الرقابة، ودافعت الـ MACV عن نفسها بقوة في كل مرة، بأن صحف ومجلات الوحدات كانوا من أدوات (أعلام القيادة) بشكل مشابه تماماً لـ (أعضاء البيت الواحد) ومن هنا فإنها تستخدم بصورة مشروعة لبناء روح خاصة بطائفة أو جماعة ما ويتم (تدقيقها من ناحية السياسة والملائمة ولكن لا يتم فرض الرقابة عليها مطلقاً)، وباسم الحفاظ على المعنويات "وهي فئة مطاطية لما لا نهاية" تم حجب كميات هائلة من المعلومات عن أفراد الجيش، وخرقاً لهذه الحالة في ١٩٦٩، كتبت صحيفة (الواشنطن بوسطن) بأن قيصر إعلام البنتاغون جون سي بيرغر، كان يوقف بشكل يومي العديد من الأخبار التي تبثها الوكالات الإخبارية والتي لم يكن يرغب في رؤيتها تبث من قبل AFRTS.

وأن مساعديه سنوا مثل هذه (السياسات الرقابية بيمل ظاهر نحوها) وعندما قام إذاعي عمره ٢٧ سنة من الـ AFRRS، بخبرة سبع سنوات كمدير لمحطة إذاعية مدنية بالإعلان على الهواء مباشرة بأنه وزملاؤه ليسوا (أحراراً لقول الحقيقة) تمت محاكمته عسكرياً على عجل وتم إرساله إلى المناطق الشمالية من البلاد كمساعد قسيس.[1]

١- سيتربا، ١٩٧٠، Sterba، ص ١.

وبحسب أحد ضباط إعلام الجيش الذي يقول (حقيقة إننا نخسر معركة هي مسألة غير هامة، وما أعنيه، هو أنها تحدث في المعركة، وعلى كل حال، فنحن لا نرغب في إشهارها وإذاعتها) وموضحاً في تصريحه في يناير ١٩٧٠ لماذا (إنه في المئات من إصدارات الصحف، والمجلات، والبروشورات والكتب السنوية، والآلاف من أقدام من أشرطة الأفلام والتسجيلات التي تم إعدادها من قبل وحدات الإعلام) في أنحاء فيتنام الجنوبية، فإن الأميركيين لم يبلغ أبداً عن خسرانهم أية معركة).[1]

وتبرر قيادة الـ MACV إجراءاتها على أرضية بأن القوات قد ترسل بذلك أخباراً محبطة إلى الوطن، إذا ما وجدوا مثل هذه الأخبار في صحفهم العسكرية، وعلاوة على ذلك فإن روبرت هوديرني أوضح في كشف مطول للرقابة العسكرية في (مجلة نيويورك تايمز) في نيسان ١٩٧٠، مشيراً إلى أن (الأم في ديز موينس، آيوا، على الأرجح سوف تعرف أكثر عن سير المعارك ككل من ابنها في الجبهة!)، ولكن المصادر العسكرية تضمنت القليل جداً عن أخبار الحرب، والأقل القليل منها كان موثوقاً، كانت سياسة الـ MACOI الرسمية هي في إنكار استخدام القوات الأميركية لغازات الأعصاب المحرمة (CS) وقنابل النابالم والقناصة، كما أنكرت تماماً وجود مشاكل في الانضباط العسكري والمعنويات والاستخدام المحموم للهيروين، ومثل هذه الأخبار مثلث (نظرة سلبية للغاية عن الرجال الأميركي المقاتل)، وإنه من واجب الرجال المقاتلين بالقلم) لدفع مثل هذه الإساءات بأفضل طريقة ممكنة، ومن هنا كان انشغال الـ MACOI واهتمامها بـ (التهدئة وفرض السلام) أو الحرب الأخرى، يلاحظ هوديرني بمرارة (كان هناك جهد مركز على تخفيض دور القتال، وعزف ألحان المحبة) ويضيف (كانت منشورات الوحدات العسكرية وإصدارات العلاقات العامة مكتظة، بالأيام الذين يتم احتضانهم والممرضات العطوفات، والآبار الجديدة المتدفقة، ومدارس جديدة كبيرة، والمرضى

١- مصدر سابق، سيتريا، ص ١٦٧.

الـذين يـتم معـالجتهم مـن قبـل أطبـاء لطـيفين) وعـدد مجلـة مراسـل الجـيش (أرمـي ريبـورتر) للأسـبوع مـن ١٠- ١٦ فبرايـر ١٩٧٠، وهـو الأسـبوع الـذي شـهد مقتـل ١٠٠ جندي أميركـي، لم يحتويعلى ذكـر مقتل ولو جندي واحد!

ولقد عمل ضباط إعلام الجيش ورجال الدعاية المدنيين جاهدين معاً لجعل فيتنام تبدو أكثر هدوءاً بالنسبة للمدنيين في الولايات المتحدة، وأن الـ MACOI لم يشوش فقط الصورة الكبرى عن الحرب ككل، بل عمد إلى بتر الأصوات المحتجة من الوصول إلى ما كان يدعوه (الحرب في الوطن) وإن الغليان المحلي الذي نتج عن المعارضـة للحـرب مـع تمـرد أكثـر اتـساعاً ضـد (النظـام) ككـل، وكـان القـادة العسكريون في فيتنام يخشون بأن أنباء الحركات الراديكالية في الوطن سوف تثير مـشاعر أفـراد الجـيش المعاديـة للحـرب ومـثيرة للتـوترات بـين المراتـب وبـين العرقيـات المختلفة، وبشكل أكثر تحديداً، كانت الـ MACOI أكثر حذرا وتحسساً إزاء عملية اغتيال الدكتور مارتن لوثر كنغ في نيسان ١٩٦٨، وهو الحدث الذي أثار انتفاضة شعبية في العديد من المدن من نـي وارك وحتـى ديترويت، والـذي أيضاً وفقاً لميشل هيرر تدخل في الحرب في فيتنام بطريقة (ما من حدث خارجي قام بها من قبل أبداً)، و(محدث عدداً من الاضطرابات العرقية الصغيرة، وبضعة أعمال طعن، كلها تم إنكارها رسمياً).[١]

ومن الواضح أن أخبار مقتل لوثر كنغ لا يمكـن أن تخـرس جميعهـا، ومـع ذلـك فـإن اللفتنانـت كولونيـل (هارولـد مـاير) رفـض إجـازة برنـامج حـواري متعـدد العرقيات في إذاعة للجيش حول جريمة قتل لوثر كنغ، وقائلاً لمدراء (AFRTS): (لا أريدكم أن تضعوا هؤلاء الزنوج على الهواء مباشرة!).[٢]

ويخلـص هـوديرني إلى القـول (أنـت إذا علـى أرضـية مهتـزة للغايـة عنـدما لا تستطيع أخبار قواتك بالحقيقة عن الحرب، للخشية من أنك إذا فعلت ذلك فإنهم لـن يقاتلوا)!

١- مصدر سابق، هيرر، ص ١٢٩.

٢- مصدر سابق، اندرسون، ص ١٧.

الحروب غير الموثقة: الفوكلاند وغرينادا:

بينما أعاد الأميركيون تمثيل حرب فيتنام في الثقافة الشعبية خلال فترة رئاسة ريغان الأولى، للفوز بها هذه المرة سينمائياً كما يوحي بذلك فيلم (رامبو) بأجزائه المتعددة، فإن الجيش البريطاني كان (عازماً) على الفوز في حملته المقبلة من خلال ضمان بأنها لن تكون حرباً تلفزيونية، وكان هذا عملاً فذا في سنة ١٩٨٢، أو ربما كان سيكون كذلك، لولا أن مسرح العمليات لم يكن جزر الفوكلاند، هذه الجزر التي تقع على مسافة ٨٠٠٠ ميل من بريطانيا في جنوب الأطلنطي، وليست ملحقة بمنطقة (شتلاند) كما اعتقد من البريطانيين عندما عرفوا لأول مرة في عام ١٩٨٢ بأن الأرجنتين قد استعادت السيطرة على هذا الإقليم الذي دعته جزر (لاسن مالفيناس)، وكما يوضح الباحث الأكاديمي ديريك ميرسير (Mercer) : (نادراً ما كانت الظروف ملائمة كذلك مطلقاً للرقيب مثلما كانت بالنسبة للانجليز في الفوكلاند).[1]

ولأغلب فترة استمرار الحملة البالغة ٧٤ يوماً، لم تكن هذه الحرب (مصورة)، ما عدا عن بعض اللقطات الثابتة المصورة والتي كانت تتطلب وقتاً طويلاً كي تصل إلى لندن، أطول بقليل مما تطلبه وصول تقرير هوارد روسل عن تفجير الطراد الخفيف في سنة ١٨٥٤.[2] وبكلمات المصور الفوتوغرافي مارتن كليفر (أنها لم تكن حرباً إخبارية، لقد كانت ببساطة، حرباً في المكان الخطأ).

لقد كانت المواجهات بين القوات البريطانية والأرجنتينية صراعاً يشكل مفارقة تاريخية: كانت الحرب يتم خوضها بدون الاستفادة الكاملة من تكنولوجيا الاتصال الحديثة في أواخر القرن العشرين لقطف ثمار الامبريالية الاستعمارية التي

1- Mercer, D (1987) The Fog of War : the Media on Battlefield, London, Henemann.

٢- مصدر سابق، ص ٣٩.

تعود إلى القرن التاسع عشر، مع إدعاء الأرجنتين ملكيتها المادية للجزر التي كانت حكومة ويستمنستر في لندن مصممة على إبقاء السيادة البريطانية عليها.[1]

ومن الممكن بسهولة التصور إن مثل هذه الحالة الشاذة يمكن أن تنتج أية دروس مفيدة في الصراعات المستقبلية، ومع ذلك فإن سياسة وزارة الدفاع البريطانية (MOD) الإعلامية في حرب الفوكلاند أصبحت نموذجاً لكيفية أن يتم (احتواء) الصحفيين من قبل الجيش، وكيف يمكن أن يتم مراجعة التقارير الإخبارية قبل إرسالها، ونظام التجميع (MOD) الذي رشح للسطح في غزو غرينادا وبنما، وتطور وتكامل في حرب الخليج ١٩٩١.

إذن ما الذي قامت به وزارة الدفاع (MOD) ووجده البنتاغون مؤثراً جداً؟ كانت خلاصة الخطة بسيطة جداً: السماح لعدد قليل من الصحفيين بمصاحبة القوات البحرية إلى المعركة، وضمان بأن المراسلين لن يكونوا أبداً بدون مراقبة عسكرية، وبأنهم سوف يعتمدون حصرياً على معدات الاتصال التابعة للجيش لإرسال تقاريرهم إلى الوطن.

وثمة عوامل متعددة ساعدت الجيش في وضع هذه الخطة موضع الفعل ليس أقلها السرعة التي تم بها إرسال (قوة المهمة) إلى جنوب الأطلنطي وبما أن الغزو الأرجنتيني للجزر في ٢ نيسان قد جعلت الدفاع البريطاني عن الجزر أمراً غير ممكن، فإن قوة من السفن الحربية ترافقها قلة من الصحفيين كان يتوجب تشكيلها خلال بضعة ساعات فقط من الأخطار، كانت الاستعدادات لاستعادة الجزر تجري بسرعة كبيرة جداً ولكن مع نفحة من عدم الواقعية كذلك، فقد افترض العديد من الصحفيين أن عرضاً مبهراً للبحرية البريطانية سوف يؤدي إلى إفزاع الأرجنتين من دون أي حاجة للقتال: في طريقة لاستعادة فن دبلوماسية سفن المدافع التي تعود إلى القرن التاسع عشر، معتقدين بأنهم يرسلون المراسلين في إجازة (على متن السفن) قصيرة، (كما صاغها أحد محرري أخبار تلفزيون الـ BBC)

1 - Adams, V (1986) The Media and The Falk lands Campaign, London, Macmillan.

اختار رؤساء التحرير أفراداً بشكل عشوائي، والعديد منهم لم يأخذ معه أمتعة كافية أكثر من فرشاة أسنان وزوجاً من الملابس الداخلية.(١)

وبينما كان الأسطول يتهيأ للمغادرة، كان رؤساء التحرير في فليت ستريت (شارع الصحافة الانجليزية) يضغطون على دواننغ ستريت للسماح بإرسال ما هو أكثر من العشرة صحفيين الذين عينوا أولاً لمصاحبة القوات، ولم تكن رئيسة الوزراء تاتشر ولا قواتها المسلحة تملك ميلاً متأصلاً نحو الصحافة، وكانت تحديدات المساحة على متن السفن تفرض أسباباً عقلانية لتحديد (تجميع) الصحافة إلى أدنى حد.

وكما يلاحظ أحد الضباط فإن (مقابل كل صحفي يتم نقله كان يتوجب التخلي عن جندي بحرية (ومظلي مكانه)، وفي خضم هذه الأحداث المتسارعة، كانت قلة فقط تتساءل عما إذا كان جندي إضافي سوف يساعد في تحرير الفوكلاند بصورة أسرع من (محارب بالقلم).(٢)

وتحت الضغوط، أعلن سكرتير تاتشر الصحفي بيرنارد انغهام، أخيراً عن السماح لـ ٢٩ صحفياً بريطانياً للصعود على متن السفن الحربية من بينهم خمسة يمثلون الـ BBC ومحطة (ITN)، وواحداً من وكالة (رويترز) لخدمة وسائل الإعلام العالمية، وكانوا جميعاً من الرجال، وإذا (السفينة الحربية أثناء العمليات لا تملك مجالاً لصحفي) كما كان يصر ونستون تشرشل أثناء الحرب العالمية الأولى، فإنها بالتأكيد لا تملك مكاناً لمراسلة (أنثى).

وكان الموقف الرسمي أثناء ذلك يصر على أنه ما من رقابة تمت ممارستها، ولكن الدول عادة ترفض الاعتراف (أو تلويث سمعتها) بأنها تمارس الرقابة نموذجياً، وكما لاحظ أحد المراسلين في ذلك الوقت بأن النظام الذي طبق في حينه (يبدو وكأنه كذلك بشكل ملحوظ تماماً).(٣)

١- وتمبر، ١٩٨٨، ص ٥-٧.

٢- لي بايلي، Le Bailly، ١٩٨٣، ص ١٩٧.

3 - Le Bailly, L (1983) (The navy and the media) Navar Review 71, ÍÍÍ, 184-8.

وفي ٧ نيسان ١٩٨٢، وضع السير فرانك كوبر وزير الدولة المساعد لشؤون الدفاع، الخطوط العامة لرؤساء التحرير حول ما الذي لا يمكن لهم الكتابة عنه، بينما كان الضباط والمراسلون يتم تبليغهم حول ما يمكن مناقشة مع زملائهم على متن السفن، كانت ٨ موضوعات تعتبر غير مقبولة: التوقعات حول الأفعال المستقبلية، خطط العمليات، القدرات والتكتيكات العسكرية، المعلومات اللوجستية، معلومات الاستخبارات حول القوات الأرجنتينية، قدرات المعدات ونقاط ضعفها، والاتصالات.[1]

وكما في فيتنام، لم تكن تفاصيل هذه الأوامر التنظيمية هو ما أزعج المؤسسات الإعلامية، فإن زمن الحرب ينتج إجماعاً بين الصحفيين المهنيين وبين الدولة على أن تقيدات التغطية لحفظ الأمن العسكري تصبح مقبولة تماماً، وهكذا كان الأمر خلال صراع الفوكلاند، وما بعده في حرب الخليج ١٩٩١، المشكلة كانت نوعاً ما في إجراءات وزارة (MOD) كانت تبدو أقل محفزة بالرغبة في حماية سلامة الجنود من حفظ سمعة الجيش الحسنة، منتزعة من الصحافة ما أسماه أحد المراقبين (دور الدعاية في عام ١٩٤٠)، وبكلمات أخرى كانت الصحافة هناك للقيام بدور المشجعين في المنافسات الرياضية، مستحثة المساندة للحرب فقط في شكل الدفاع عن (المصلحة الوطنية)، ولكن بالطريقة التي وضع فيها حزب المحافظين الذي تنتمي إليه تاتشر رئيسة الوزراء آماله في تحقيق النجاح الانتخابي في الانتخابات العامة ١٩٨٣، وكان اعتراض وسائل الإعلام ضد التلاعب السياسي الوقح قد وصل ذروته في ٢٥ نيسان، عندما وقتت تاتشر إعلانها إن القوات البريطانية قد قامت بالإنزال على أرض جورجيا الجنوبية (من جزر الفوكلاند) بشكل متعمد ليتزامن مع إذاعة نشرة أخبار محطة (ITN) في العاشرة مساءً.

وأنتجت الإجراءات المتخذة على متن السفن كذلك المزيد من الخصومة، مع شعور العديد من المراسلين أن توقعات الدولة من الصحفيين بالخضوع قد تجاوز

---

1 - Low, R, and Bishop, P)1982) (Crisis in South Atlantic Starts Fight Over News) the observer, May 9.

كثيراً ما كان في الحرب العالمية الثانية، والتي كانت فيها مسائل (النبرة) تترك للحكم التحريري، وفقط مسائل الحقائق تخضع لتدقيق الرقباء.(١)

وخلال حملة الفوكلاند كان الـ ٢٩ صحفياً المرافقين لقوة المهمة معتمدين تماماً على خدمات المرافقين المعينين من قبل وزارة الدفاع، لإرسال تقاريرهم وصورهم، وهؤلاء تمتعوا بميزة السكوت عن التقارير التي يجدونها مزعجة، وسرعان ما استنتج المراسلون، بأن المرافقين يقومون بالالتزام تجاه أولئك المراسلين الذين ينتجون تقاريرَ زاهية الألوان تلك التي تحيي بالهتاف لـ (أولادنا) الذين في ساحة العمليات، أما أولئك الذين يتبنون نبرة غير متعاطفة أو منتقدة أكثر، فإنهم يجدون أن تقاريرهم يتم تعطيلها لعدة أيام في الانتظار، أو يتم الإشارة إلى (لندوة) لإجراء المزيد من (تدقيق الحقائق) عليها في وزارة الدفاع قبل إطلاقها، وبهذه الطريقة تصبح الأخبار السيئة أخباراً قديمة، أو بمعنى آخر ليست أخباراً على الإطلاق.

ولم يكن مفاجئاً ان هؤلاء المرافقين أظهروا مضايقات كبيرة إزاء نشر أية معلومات عن الخسائر البريطانية، وخصوصاً تلك التي حدثت عندما أغرقت القوات الأرجنتينية سفينة (سير غالاهاد).(٢)

كما كانوا أقل حماسة لرؤية تحليل قرارات البحرية البريطانية كذلك، مثل إغراق الطراد (جنرال بليغرانو) المثير للجدل، وفي تلك الأثناء فإن المزاعم بأن القوات البريطانية قد طعنت بالحراب الأسرى الأرجنتينيين في جزيرة (غرين غوز) لم تجد طريقها إلى التداول العام حتى انتهاء الحرب، كما منعت التقارير عن استقبال وموقف سكان الجزر غير الممتن للقوات المحررة، وسواء كانت ضغوط وزارة الدفاع أو الرقابة الذاتية هي ما أبقى هذه التقارير بعيداً عن النشر أو آخر لفترة من الوقت رؤيتها لضوء النهار يبقى أمراً مسكوتاً عنه.(٣)

١- مصدر سابق، بيشوب، ص ٦.

٢- مصدر سابق، موريسون وتمبر، ص ٥٧.

٣- مصدر سابق، موريسون وتمبر، ص ١١٥.

وبعد انتهاء الحرب، كان النقد الأكثر حدة قد تركز حول لم تكن حرب الفوكلاند متلفزة بشكل كافٍ، وفيما إذا كانت تاتشر ووزارتها بإمكانها أظهار عزم أكبر على جعلها كذلك، وعندما أثيرت هذه المسألة من قبل لجنة خيارات الدفاع في مجلس العموم في جلسات الاستماع ما بعد الحرب حول طريقة تعامل وزارة الـ(MOD) مع وسائل الإعلام، وأصرت كل من الـ BBC والـ ITN على أن المشكلة الأساسية كانت عجز الإدارة أكثر من كونها نقص في القدرات التكنولوجية، وكان من الواضح أنه خلال جزء من (الرحلة) إلى جنوب الأطلنطي على الأقل كان بالإمكان إرسال لقطات بالأبيض والأسود لعرضها على شاشات التلفاز ترسل عبر القمر العسكري البريطاني سكاي نيت Sky net، من خلال السفينة الأكبر ضمن الأسطول البحري، حيث أن البحرية كانت رافضة لإرسال صور بالألوان لعدم تخصيص قدراً اكبر من سعة الموجة التي يمتلكها النظام، ومدعية بأن الصور الملونة تتطلب قدرات تتجاوز كل قدرات منظومات قمرها الصناعي كاملة.[1]

وبمجرد أن أصبح الأسطول يبحر ما وراء جزيرة (جورجيا الجنوبية) فإن استخدام قمر السكاي نت، يغدو متطلباً لوجود سفينة يتم استخدامها كمحطة بشكل دائم عند مجال بث القمر الصناعي، وتخصيص موارد إضافية لما كان يعامل بشكل واضح إنه ليس بمهمة أساسية، وخلال العمليات العسكرية في جزر الفوكلاند نفسها كان يمكن إرسال الصورة من المحطات الأرضية على الأرض من خلال قمر الاتصالات الأميركي Discus، لو تم الطلب من واشنطن الالتزام بذلك، ولكن الاستجابة للمباحثات غير الرسمية مع البنتاغون كما يظهر قادت الـ MOD إلى عدم متابعة المسألة.[2]

١- مصدر سابق، موريسون، ص ١٦٤.

٢- مصدر سابق، موريسون، ص ١٦٧.

وفي غياب مثل هذه الأوليات، فإن مراسلي التلفاز بريان هاراهان ومايك نيكولسن، وجدا أنفسهما قد قلصا فعلياً إلى دور مراسلي الإذاعة، وعاملين على نقل نسخ من زملائهم العاملين في الصحافة المطبوعة لا أكثر، واضطر المراسلان إلى أن يتم نقلهما إلى سفينة مساندة هي (اوليدا) من السفينة حاملة الطائرات (هيرميس) وكانت (اوليدا) مزودة بنظام هاتف فضائي مؤمن (ماريسات Mar sat) والذي من خلاله كان بإمكانهم نقل تقارير بأصواتهم.[1]

كانت الأفلام يتم تصويرها، ولكن لم يكن بالإمكان نقلها إلى الوطن عبر الأقمار الصناعية، ولذلك كان يتم نقل تقارير الفيديو بواسطة المروحيات إلى جزيرة اسانسيون، من أجل أن يتم نقلها مرة واحدة بواسطة رحلات الطيران، ولقد كانت هذه العملية عملية مزعجة ومرهقة، رغم إن مدى بطئها كان متغيراً من مرحلة لأخرى مع تطور مراحل القتال، ومعتمداً على الحس بمدى الضرورة المعلقة على وصول هذه الأفلام إلى الوطن، وطالما أن الإرسال كان يتطلب من ٩ إلى ٢١ يوماً اعتماداً على الموقع للوصول إلى لندن، وسواء كانت يتم مراجعتها مرة أخرى من قبل الـ (MOD)، فإنها كانت تقريباً أشبه بـ (مخطوطات البحر الميت)، وفقاً لتعبير رئيس التحرير في محطة (IIn) دافيد نيكولاس: في أهميتها التاريخية، ولكن أبعد ما تكون مادة نافعة إخبارياً.[2]

أما صور (الأخبار الجيدة) فإنها كانت تأخذ طريقها بصورة أسرع كثيراً نحو الوطن، من أي مادة أخرى يمكن أن تحبط الحماسة الشعبية نحو الحرب، وهكذا فإن لقطة توم سمث للقرويين الذين يقدمون لجندي من البحرية كوباً من الشاي، (Cuppa For A Brave Para) كما تم التعليق عليها في صحيفة (الديلي ميرور) وصلت

١- مصدر سابق، هاريس، ص ٣٢.

٢- مصدر سابق، هاريس، ٥٦.

بسرعة كبيرة، أكثر من الصور التي تصف القتال مثل صورة مارتن كليفر لتفجير (انتيلوب Antelope).(*) (1)

وبقدر تعلق الأمر بنقاد الحكومة، فإن هذه التناقضات أظهرت تدخل الحكومة المعتمد في التمثيل المرئي للحرب، وبشكل عام فإن لجنة التحقيق ما بعد الحرب رفضت الحكم قضائياً بين الحكومة والإذاعيين في قضية التعويق المعتمد، ولاحظ حكمها المخفف بأن الدافع وراء عدم الأمانة لم يثبت بأن الحكومة قد أساءت لوسائل الإعلام من أجل مكاسب سياسية في الواقع، ولكن في دفاعهم عن أنفسهم ضد اتهامات الإذاعات، فإن الجيش والحكومة وممثلي الخدمة المدنية كانوا صريحين جداً في اعترافهم بعدم تعاطفهم تجاه التلفاز.

وإذا لم تكن محاضر استماع اللجنة قد أثبتت أي تهمة، فإنها برهنت على قوة المعتقدات التي ألهمتها تجربة فيتنام حول التلفاز بكونه معوقاً وعقبة أما النصر، وكان السير فرانك كوبر وزير الدولة للشؤون الدفاعية واضحاً بقوله أن لقطات الأفلام عن العمليات لو كانت متوفرة، لكانت تطلبت تدخل وزارة الـ (MOD) على خليفة (الفحص والتحقق من النبرة).(2)

وكان جون نوت وزير الدفاع أبان الأزمة واثقاً بشكل مماثل بأن تأثير التلفاز في زمن الحرب كان سلبياً بالضرورة: (لا اعتقد بأن التلفاز كان سيجعل من عملياتنا أسهل في تنفيذها، فبعد ذلك كله، نحن كنا نحاول الفوز بالحرب) كما صرح أمام اللجنة المذكرة، حتى إنه أصر بأن الحكومة كانت (تنوي أن يذهب التلفاز إلى هناك، ولكن كانت ثمة معضلات تقنية لم نتمكن من التغلب عليها).(3)

---

* - المدمرة الحربية البريطانية التي تم تفجيرها أثناء مجرى العمليات في حرب الفوكلاند في ٢٤ أيار ١٩٨٢، وكانت السفن المهمة المشاركة في قوة العمليات.

١- مصدر سابق، موريسون، ص ١٨١.

٢- مصدر سابق، هاريس، ص ٥٩- ٦٠.

٣- مصدر سابق، موريسون وتمبر، ص ١٧٠.

ومن جانبهم، فإن الضباط الكبار الذين مثلوا أمام اللجنة شهدوا بأن (المشاهد المزعجة) سوف تكون (موهنة بشكل فردي لزوجاتنا وعوائلنا) كما يصوغها البريغادير توني ويلسون، ومن هنا تكون بشكل لا واعي قادرة على امتصاص معنويات الجيش.(١)

ومها عمل الشهود على تزيين وزخرفة ما قدموه من أدلة وشهادات على خطر التلفاز برأيهم، لإخفاء كرههم واشمئزازهم من التلفاز فإن مشهد فيتنام في الذاكرة هو ما كان يؤثر فيهم بشكل أكبر، وكما يوضح ذلك سكرتير تاتشر الصحفي في مذكراته بيرنارد انغهام، فإن الشعور بالعداوة تجاه التلفاز كان مصدرها تلك الحرب بشكل كبير، والأثر الذي كان للقطات المتلفزة الذي يعتقد بأنها تملكه "حتى وان لم يقل أحد ذلك بصورة مباشرة تماماً".(٢)

ومن منظار الجيش فإن الحرب الفوكلاند كانت حرب (معلومات) ناجحة ان لم تكن خالية من العيوب تماماً، رغم أن إذاعة الـ BBC اتهمت بأنها قد أفشت تفاصيل الإنزال المخطط المخطط له في (غرين غوز) قبل أوانه، فلقد قدمت التغطية الإخبارية بالضبط العائد المتوقع الذي خططت له الحكومة ووزارة الدفاع، وكما اكتشفت فريق تغطية أخباري لمحطة أميركية فيما بعد، فإنه لم يكن من الممكن الوصول إلى جزر الفوكلاند بوسائل مستقلة ببساطة، وهذا كان يعني بأن التغطية الإخبارية الأميركية لم تكن محايدة في كل تفصيلاتها مثل التغطية البريطانية تماماً، التغطية عن الحرب كانت تحتوي على لقطات لمراسلين يصورون أمام الكاميرا (Stand-UP) من لندن وبونيس أيرس، ومشاهد أرشيفية للبحارة البريطانيين أثناء التدريب أو الاغتيال، أو يلعبون الورق على متن سفنهم، في الوقت الذي كان فيه الأسطول يبحر متجهاً في طريقه نحو جنوب الأطلنطي، ولاحظ توم شالز من صحيفة الواشنطن بوست في ١٩٨٢، بأن الصراع البعيد جداً والذي يبدو

١- مصدر سابق، هاريس، ص ٦٤.

2- Harris, R (1983) Gotcha! The media, The government and The Falklands Crisis, London: Farber & Farber.

ظاهرياً خال من الدماء، والذي كان يجري في جنوب الأطلنطي بدأ وكأنه (تقريباً أشبه بلعبة فيديو Video game) "هذا الاصطلاح المجازي الذي أصبح شائعاً جداً في حرب الخليج ١٩٩١ فيما بعد"، حيث يتم عرض الكثير من الخرائط والرسوم والأشكال التوضيحية، مع القليل فقط من صور السفن الحقيقية على الشاشة. والقليل جداً من الأدلة على سير العمليات!

والمراسلون الذين حاولوا الالتفاف على احتياطات وزارة الدفاع من خلال تغطية الحرب من بوينس أيرس، والتي تبعد هي نفسه ألف ميل عن الجزر المتنازع عليها، لم يكن حظهم أفضل، طالما أن الأرجنتين هم أنفسهم كان يحاولون للسيطرة على كل تفاصيل ما ينقله الإعلام عن ميدان المعركة كما فعل خصومهم الانجليز، وكما كانت تاتشر صحف وحزبها (المحافظين) شنت هجماتها على الأرجنتين.

فإن النظام الأرجنتيني حاول إثارة مشاعر الانتقام ضد (الانجليز المتعطشين للدماء)، لكن مشاهد القتال كانت أيضاً غائبة عن شاشة التلفاز الأرجنتيني بشكل بالغ الدلالة، وبينما تم تهديد الصحفيين الذين كانت تقاريرهم تؤدي إلى (توليد الرعب) أو (تناقض وتشكل بمصداقية التقارير الرسمية) بالسجن، فإن كلا الجانبين كان رافضاً للكشف عن خسائر سلاح البحرية لديه، مما أدى إلى إثارة موجة من التوقعات حول أي السفن المحددة تم إغراقها أو أصابتها بأضرار بالغة.

وبالنسبة للعديد من المراقبين المدنيين، مثلت حرب الفوكلاند إشارة على هزيمة (حرية المعلومات)، وبالذات فإنها لذلك السبب كانت تمثل للأوساط العسكرية نصراً ساحقاً " ليس فقط في بريطانيا بل في الولايات المتحدة" حيث شوهد (المجتمع الدفاعي) يتعلم ويستخلص الدروس من النصر الذي حققته الـ (MOD) على وسائل الإعلام، فإن (المفتاح لتحقيق الموضوعية المناسبة) كما يلاحظ أحد ضباط البحرية الأميركية في أيار ١٩٩٣، يكمن في استبعاد المراسلين من منطقة القتال أو تجميعهم في مكان واحد معاً، (وفقاً لأقوال لفتنانت كولونيل آرثر همفريس.[١]

١- مصدر سابق، مقتبسة عن ماك آرثر، ص ٤٠.

والاستنتاج النهائي كان، هو المبدأ العملياتي الذي تم اختياره من قبل الجيش الأميركي أثناء غزوه غرينادا في سنة ١٩٨٣: وهي عملية شنت تحت اسم حماية طلاب الطب الأميركيين من عواقب الانقلاب الذي أطاح بالحكومة الثورية الشعبية لهذه الجزيرة الصغيرة، تحسباً من حصول غزو لاحق للقوات الكوبية الجزيرة، أو تأسيس حكومة تابعة للمعسكر الشرقي في هذه الجزيرة الكاريبية.

وخلال فترة شن عملية (الغضب العاجل Urgent Fury Operation of)، تم منع جميع الصحافيين من الوصول إلى مشهد ساحة المعارك معاً، وبينما كان الصحفيون (يبردون) أقدامهم في جزيرة بربارروس المجاورة، وفرت وزارة الدفاع الأميركية (DOD) أشرطة (فيديو تايب) تدعم أحدى أسباب الإدارة الأميركية الرئيسية المعلنة حسب مزاعمها، لغزو الجزيرة، ومظهرة كميات كبيرة من الأسلحة قيل بأن الكوبيين كانوا يخزنونها على أرض الجزيرة (وفقاً لتقرير نشرته صحيفة النيويورك تايمز) وتحت ضغط النقد المتراكم ضد الإدارة الأميركية، سمحت الـ DOD في اليوم الثالث من هذا التعتيم لمجموعة من ١٥ صحفياً بزيارة الجزيرة عصراً، وفق تفاهم معد مسبقاً على ان هذا الاستثناء سوف ينتهي بالنسبة للصحفيين المختارين بعناية وجميعهم من وسائل عالمية (ليس في ولا واحدة أميركية) بالعودة ليلاً إلى (بربارروس).[1]

وبعد ثلاثة أيام، أعلنت (DOD) بأن (كل المراسلين القانونيين والمصورين الفوتوغرافيين) مسموح لهم الآن (أن يروا بأنفسهم)، حيث تم غربلة وتفحص (الراكضين وراء المخيم والغجر المعتادين) بدقة، كما أعلن ميشيل بورج السكرتير المساعد في البنتاغون المعين لشؤون العلاقات العامة.

وكما تلمح نبرة بروج المزدرية، فإن الازدراء والاحتقار نحو وسائل الإعلام تشبع في المبررات الرسمية لمنع وسائل الإعلام وإبقائها خارجاً، خلال غزو القوات الأميركية للجزيرة التي هي دولة لم تكن أميركا في حالة حرب معلنة معها (ولقد لاحظ آرثر شليسنجر والذي نادراً ما كان ناقداً راديكالياً لسياسات الولايات

1 - Ingham, B, (1991) Kill the Messenger. Bondon, Harper Collins.

المتحدة الخارجية بأن عملية الغضب العاجل لم تكن حرباً تماماً. بقدر ما (كانت هجوم خلسة على جزيرة مثيرة للشفقة من ١١٠ ألف نسمة ليس لديها جيش ولا بحرية ولا سلاح جو).[١]

وبشكل مبدئي، فإن الناطقين باسم الجيش والإدارة المدنية زعموا بأن المراسلين قد حرموا من مصاحبة القوات الأميركية للشاطئ لأن سلامتهم لا يمكن ضمانها، وعلى كل حال، فإن نائب وزير الخارجية كينت دام منذ هذه المزاعم لاحقاً، مدعياً بأن الصحفيين قد تم استبعادهم ليس من أجل (حمايتهم) بل عوضاً عن ذلك لضمان سلامة الأشخاص على الجزيرة (لضمان سلامة الأميركيين على الجزيرة وسلامة القوات المسلحة)، بدون الإيضاح كيف أن وجود الصحفيين كان يمكن أن يعرض أياً من هؤلاء الأشخاص للخطر.[٢]

وأكدت ملاحظة دام هذه ما كان الآن واضحاً: بان حماية الصحفيين لم تكن أبداً من أولويات الجيش، وفي يوم الغزو، وجدت مجموعة من الصحفيين الذين حاولوا الوصول إلى الجزيرة المتنازع عليها في قارب بحري مستأجر أنفسها تحت وابل من نيران طائرة أميركية مقاتلة مما اضطرها للتراجع بسرعة، وعندما احتج الصحفيون على هذه التكتيكات المتعسفة، استحضر قائد العمليات المسؤول عن الحبكة المسرحية المعروفة بأن القارب لم يحصل على الإذن (كان يمكن لنا أن نفجركم أشلاء ونقذف بكم خارج الماء) كما قال الأدميرال جوزيف ميتكالف في رده على الصحافيين.[٣]

وبأسلوب مشابه قال مسئول رفيع في الـ DOD من دون ذكر اسمه، متهكماً بأنه في العمليات الخاصة من هذا النوع والمعتمدة على عمل الكوماندوس،

---

[1] - Farrell, W (1983) (US Allows 15 Reporters To go to Grenada For Day) The New York Times, October 28.

[2] - Lorde, A (1984) Sister Outsider: Essays and Speeches by Audre Lorde, Freedom, CA, Crossing Press.

٣- مصدر سابق، سويني، ص ١٥٥.

فإن هذا النوع من العمليات لا تشغل نفسها (بالعناية اللطيفة المحبة وإرضاع الصحافة)! [1]

ولكن الأعمال العدائية تجاه وسائل الإعلام امتدت لما هو أبعد من هذه الحوادث الشخصية، والسبب الآخر الذي لم يتم السماح لممثلي الصحافة نتيجة له بمصاحبة القوات الغازية، هو أنهم لم يكونوا مؤتمنين على "وفي أعين القوات المسلحة غير جديرين بالثقة" الأخطار المسبق بالعملية القادمة، وهكذا تم تبرير التعتيم الإخباري بالحاجة الماسة إلى (مفاجأة القوات) للتو في كل إنحاء الكاريبي.

وكما فعلت نظيرتها البريطانية قبل عام مضى، فإن المنظمات الإعلامية الأميركية، قامت بالعديد من الاحتجاجات الغاضبة على القيود المفروضة على التغطية الإخبارية بمجرد إعلان النصر، ووصف نائب الرئيس التنفيذي لاتحاد ناشري الصحف الأميركية جيري فرايد هايم، القيود بأنها (غير مسبوقة وغير محتملة). [2]

ولكن الجمعيات المهنية الأخرى تبنت منهجاً إستراتيجياً أكثر في إيصال شكاويها إلى البيت الأبيض، وهكذا فإن جمعية الصحفيين المحترفين (سيغما دلتاشي Sigma Delta Chi) كتبت إلى الرئيس ريغن محتجة: (أن نتائج تحكم إدارتكم في الأخبار أن الشعب الأميركي حصل على وجبة منتظمة من الشائعات التي استحضرت صوراً من دون شك أقل ميلاً إلى الحكومة الأميركية من الواقع)، وبكلمات أخرى فإن الصحافة كانت ستفضل تقديم الدعم للغزو وتعزيزه، ولكنها كانت قد حرمت من الفرصة من خلال الحظر الذي أجبر منظمات الأخبار للاعتماد على راديو (هام Ham) في غرينادا، والأسوأ من ذلك، الاعتماد على المحطة المملوكة لدولة كوبا (راديو هافانا)!

واستناداً إلى أسلوب (سيغما دلتاشي) المتملق للبيت الأبيض، يمكن للمرء التخيل بأن العديد من الأميركيين قد سجلوا معارضتهم للغزو الأميركي لغرينادا،

1 - Hunter, M (1983) (US Eases Restrictions on Coverge) The New York Times, October 31.

٢- مصدر سابق، فاريل، ص ١٣.

مع اتضاح لغز العديد من المبررات الرسمية للغزو، فبعضاً من الطلبة الأميركيين المفترض أنهم قد تعرضوا للخطر، أنكروا أن يكونوا في حالة أي خطر مهدد لهم، وفي تلك الأثناء، فإن تأكيدات الإدارة الأميركية بأن القوات الكوبية كانت تخطط للاستيلاء على الجزيرة "وهو سيناريو تمت استعادته من قبل ريغان في ٢٧ أكتوبر" ثبت بشكل مماثل بأنه لا جذور له، والمزاعم بأن الجزيرة كانت تموج بالجنود الكوبيين (بالآلاف منهم) سرعان ما ثبت زيفها، وخلال أيام قليلة قام الجيش بتخفيض تقديراته إلى ألف جندي كوبي (متقني التدريب)، والذين تم تغطية وجود المئات منهم على أنهم عمال بناء منتحلي الشخصية، ولكن في التحقيقات، على كل حال، ظهر أن ذلك كان هو الحقيقة! بأنهم عمال بناء حقيقيون تم اعتقالهم خطأ كأسرى حرب.[1]

وعلى الرغم من تعمد الإدارة الأميركية على تغطية الأخبار، فإن الاحتجاجات العامة في الولايات المتحدة تم السكوت عنها وكأنها لم تكن موجودة، وسجلت استطلاعات الرأي التي تم إجراؤها في أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٣، وجود أغلبية مستمرة مؤيدة للغزو، وأظهر استطلاع مشترك لقناة ABC، وصحيفة واشنطن بوست، إن ٦٩٪ من المشاركين كانوا مقتنعين بأن أسباب إدارة ريغان لشن الغزو (كانت جيدة كافية)، وأظهرت استطلاعات أخرى مستويات مماثلة من الثقة بالمزاعم التي تقول أن المواطنين الأميركيين كانوا عرضة للخطر من قبل الكوبيين وأن الروس كانوا (يدعمون الاضطرابات العنيفة)، ولقد وجدت منظمات الاستطلاع للرأي أيضاً بأن هناك قدراً موازناً تقريباً من المستطلعين ممن وافقوا على تقييدات الإدارة على التغطية الصحفية، وفي استطلاع لصحيفة لوس أنجلس تايمز تم إجراؤه في نوفمبر ١٩٨٣ على سبيل المثال، وجد أن ٥٢٪ من المستجوبين كانوا موافقين لطريقة تعامل الحكومة مع الصحافة في مقابل ٤١٪ فقط ممن لم يوافقوا، وبشكل مشابه لذلك وجد تقرير روبر (Rober Report) المعلن في شهر يناير ١٩٨٤ (تم إجراؤه

[1] - Gailey, P (1983) (US Bars Coverage of Grenada Action: News Groups protest) The New York Times. October 27.

في ديسمبر ١٩٨٣) بأن ١٩٪ من المشاركين، اعتقدوا بأن الصحافة كان يجب أن تكون موجودة منذ البداية في الغزو).

ومثل هذه النتائج، مع بيانات الاستطلاعات المماثلة في بريطانيا، توحي بأن المواطنين البريطانيين والأميركيين كانوا أقل تحمساً وغيره في الدفاع عن حق العامة (في أن يعرفوا) مما كانت عليه قطاعات من الصحافة في جدالها ضد تقييدات الدولة، وبوقت قصير بعد حرب فوكلاند، كتب الآن بوثيرو من هيئة الـ BBC في مجلة (المستمع The Listener) بأن (فيتنام برهنت بأن الرأي العام يتوقع ويتطلب، ويطالب فعلاً بالمعلومات والصور وبأن مثل هذه المواد تحتاج إلى أن يتم توزيعها في أنحاء العالم)، ومع ذلك فإن الأميركيين والبريطانيين لم يكونوا يخبرون القائمين بالاستطلاعات عن هذا الجوع والتعطش الكبير للمعرفة بأرقام أو نسب مؤثرة، وبدلاً من ذلك، يبدو أنهم كانوا يقدرون الأسباب التي كانت تقدم من قبل المسئولين العسكريين والمدنيين لحجب ومنع المعلومات، وحظر نفاذ المراسلين أو سهولة وصولهم إلى الأحداث، وكما أدركت العديد من المؤسسات الإخبارية فإن ثقة الرأي العام في وسائل الإعلام قد انحسرت بينما كان الإيمان في الجيش قد ارتفع عالياً.

وكان بعضاً من الصحفيين قد لاحظوا هذا التناقض في الثقة الشعبية بانزعاج، فيما رأي فيه البعض حالة تظهر عملية (إعادة عسكرة المجتمع، من خلال إعادة موضعية أنفسهم بشكل لفظي ومعلناً إلى جانب (أولادنا) ونابذة أي مظهر الإدعاء بالموضوعية جانباً، وكما يقول ماكس هاتنغ (عندما تكون أمة المرء في حال حرب، تصبح التغطية الإخبارية جزءاً من المجهود الحربي) مكرراً صدى المقولة المستمدة من تجربة والده كمراسل خلال الحرب العالمية الثانية بقوله (إن الموضوعية تعود لتكون أسلوباً سائداً فقط عندما يسود التعتيم مرة أخرى).[1]

وطالما أن مشهد العمليات كان على بعد ٨٠٠٠ ميل لم يكن السكان البريطانيون في حاجة إلى التعتيم على نوافذهم ليلاً، ولكن الصحافة مع ذلك

1 - Taylor, R (1983) (Gobbels and Function of Propaganda) in Welch.

شجعت ثقافة المشاركة في الحرب والتي تعود إلى الوراء إلى الحرب العالمية الثانية، عندما كان البريطانيون يشجعون على (الحفر من أجل النصر) و (العمل من أجل كسب العيش والتعمير ... الخ).

وأخذت صحيفة (ذاس) الصدارة في تقديم ساحات للقراء من أجل المشاركة بشكل شخصي في حملة بعيدة المسافة جغرافياً، خصوصاً وأن معظم البريطانيين لم يكونوا يعرفون أين تقع جزر الفوكلاند، عدا عن الشعور بأية مشاعر كره ضد الشعب الأرجنتيني أو الرئيس الأرجنتيني في حينه (غاليتري) وكانت المهمة الأولى هي تشجيع حملة من التشهير والكراهية ضد (الأرجنتين) أو (الآرجي) كما كانوا يدعونهم، وحملت شعارات ضد الرئيس الأرجنتيني.

إلى جانب حملة ضد لحم (الكورند بيف) الأرجنتيني المستورد (الذي تشتهر به الأرجنتين)، كما أطلقت الصحيفة حملة لتشجيع الفتيات والنساء المتزوجات من رجال يخدمون في (قوة المهمة) أو لديهن أحباء في تلك المهمة، على أن يحملن بفخر أسماء السفن الحربية التابعة للأسطول البحري التي خدم فيها رجالهن، على قمصان يرتدينها ليشجعن الحملة، كما تم دعوة قراء (السن) إلى حملة (تمويل سايدويندر) "اسم لصاروخ تحمله الطائرات" وهي فكرة محورة عن أساليب الحرب العالمية الثانية، عندما كان رجال القوة الجوية يكتبون أسماء أحبائهم على مقدمات طائراتهم وحتى على الصواريخ والقذائف كما كانوا يكتبون بعض العبارات المعادية للعدو أو أسماء أشخاص وقادة من أفراد العدو... الخ.[1]

وفي مجتمع بريطانيا الذي يعاني من الأزمات " حيث واحد من كل عشرة رجال كان عاطلاً عن العمل" مع اعتراف تاتشر بأنه لا يوجد (مثل هذا الشيء الذي يسمى مجتمع) بل مجرد (رجال ونساء أفراداً)، وفرت مثل هذه الحملات شكلاً مجتمعياً وتأكيداً على العظمة الوطنية التي تجد صداها لدى العديد من البريطانيين.

١- مصدر سابق، هاريس، ص ٣٢- ٥٥.

أما فكرة أن الحرب يمكن تغطيتها من موقع منفصل، بما فيها نقطة المرجع للطرف الآخر، لم تجد ترحيباً ولو ضئيلاً في مثل هذه البيئة الملتهبة بالوطنية، صحف التابلويد من جهتها أساءت للـ BBC لاستخدامها تعبير (القوات البريطانية) في الإشارة إلى الجيش البريطاني بدلاً من استخدام ضمير الجمع (نا) في (قواتنا Our Troops) مكررة صدى مزاعم الحكومة بأن (الهيئة قد اقتربت من فعل الخيانة) في جرأتها على مسألة إحصاءات وزارة الـ MOD، وتعرض الصحفيون البريطانيون الذين عملوا على تغطية الحرب من بوينس آيريس إلى رد فعل عنيف من الصحافة التي تستمتع بأداء دورها للواضح كحارس لحدود التعبير عن الوطنية، وأن تتواجد في الأرجنتين في زمن الحرب يعني أن تظهر نفسك كخائن، أو هكذا أدعت صحف التابلويد، مظهرة رفضاً مطلقاً لفكرة تقديم صورة متعددة الجوانب عن الحرب، والتي عادت إلى السطح مرة أخرى في عام ١٩٩١، عندما تمركز بعض الصحفيين في بغداد لتغطية الحرب من هناك.

وما أظهرته وكشفت عنه حملات الفوكلاند وغرينادا، في حينه ليس فقط موقفاً غير متوازن إزاء حرية الصحافة من جانب الدولة، ولكن عدم تقبل موازي على الجانب لبعض منافذ الأخبار ومستهلكيها، ومع حالة من تأرجح قيم الموضوعية تبعاً للمزاج والظروف، كشفت صحف التابلويد عن حالة من (رهاب الأجانب) "زينوفوبيا"،(*) هاتفه بالتشجيع لـ (أولادنا) ومطلقة الصيحات لمقتل أفراد قوات العدو، ومن هنا جاء العنوان الرئيسي لصحيفة (المن) البارز (ظفرت بك! Cotcha) (**) في استجابة لإغراق البارجة الأرجنتينية (الجنرال بيلغرانو)، ولكن إذا كانت حرب الفوكلاند قد استشرفت الأشياء القادمة، فإن من المهم ملاحظة ان

---

* رهاب الأجانب (Xenophobia) حالة مرضية من الخوف من الأجانب وكراهيتهم.

** مصطلح أصبح شائعاً ويعني ظفرت بك ترجمة لـ (I've got you)، ويشير عادة إلى اكتشاف غير متوقع أو ضبط أحد ما بحالة غير متوقعة أو بالجرم المشهود... الخ وأشتهر باستخدامه كمانشيت (عنوان رئيسي) لصحيفة الصن اللندنية في يوم الثلاثاء ٤ أيار ١٩٨٢، كاختفاء عن الخبر الرئيسي حينها، بعد إغراق البارجة الأرجنتينية (الجنرال بيلغرانو).

أولئك الأكثر مسئولية عن هذه التغطية المبالغ فيها لم يكن صحفيو (التجميع) Pool الذين كانوا تحت توجيه وزارة الـ MOD، بل عوضاً عن ذلك تلك النبرة التي يخطط لها من قبل المحررين والكتاب البارزين في لندن، الذين يعملون على تضخيم المضمون الذي أسست له تاتشر ومجلس وزرائها، فعلى الرغم من قلق الدولة المزمن إزاء الصور المتلفزة، فإن الصحافة المطبوعة هي كان ما يهمها أكثر، أو على الأقل هي الناحية التي تركزت عليها جهود مراقبي الإعلام والمسيطرين عليه زمن الحرب.

عملية (عاصفة الصحراء): (حرب التلفاز الحقيقية الأولى):

بالنسبة للجيش البريطاني والأميركي، فإن حرب الفوكلاند وغزو غرينادا برهنت على أن العمليات العسكرية في عصر التلفاز بقيت مسألة عملية ملائمة، ولكن فقط إذا تم إبقاء الكاميرات بعيدة عن مسرح العمليات بقدر الإمكان، ولكن احتمالات، أو إمكانية إبقاء أطقم التلفاز بعيداً في الصراعات المستقبلية تبدو غير مشجعة أبداً، وعلى كل حال لا يمكن أن يتم خوض الحروب والنزاعات على جزر صغيرة وبعيدة جداً عن أي طرف للمواصلات التجارية دائماً وفي كل الأحوال، خصوصاً في ظل تطور معدات الاتصالات وتوفرها وارتفاع قدراتها العملياتية التي تساعد الصحفي أكثر في عمله وتنقلاته السريعة، وعلاوة على ذلك فإن رد وسائل الإعلام الأميركية بإثارة مثل هذه الضجة أثر إبعادها من غرينادا مما أجبر البيت الأبيض على تدبر تشكيل نظام تجميع خاص للصحافة التي وسوف ترافق القوات الأميركية خلال القتال في أي عمليات مستقبلية، وأن مجموعة متنافرة الألوان من المراسلين المختارين، تم تشكيلها خلال فترة بضعة ساعات قبل انطلاق عملية غزو بنما في عام ١٩٨٩، ليتم إنجازها من على بعد كاف وآمن من العمليات أثناء عملية قصف العاصمة بنما.

وإذا كان حلم الإستراتيجي في الأبعاد التام للصحفيين جميعاً لم يصل إلى نهايته في أواخر عقد الثمانينات، فإنه كان بالتأكيد تحت ضغوط شديدة، وأن غزو العراق لجارته الكويت في آب ١٩٩٠، وردة فعل الإدارة الأميركية المتشددة

إزائه، أجبر مخططي البنتاغون على التكيف للظروف الجديدة: الحرب في زمن الاتصالات عبر الأقمار الصناعية، حيث شهدت حرب العراق تغطية من فرق صحافة عالمية بحجم غير مسبوق من قبل وبعضهم كان يتمركز في العراق نفسه، ومع تحالف كبير لم يشهد مثله منذ الحرب العالمية الثانية (من ٣٢) حيث قام بنشر عدة مئات من الآلاف من الجنود (منهم نصف مليون على الأقل من القوات الأميركية) في صحراء العربية السعودية خلال خريف ١٩٩٠، كما شهدت تجمع غير مسبوق لما يقرب من ١٦٠٠ صحفي أو ما يقرب ذلك من أفراد وسائل الإعلام الذين طاروا إلى الظهران في السعودية إذ بدأت عملية (عاصفة الصحراء) في اتخاذ شكلها المؤمل، مزدحمين في قاعات مكتب الإعلام المشترك للقوات المسلحة الأميركية (JIB)، ففي ذروة حرب فيتنام في سنة ١٩٦٨، وصلت الصحافة إلى أعلى قمة لها بتواجد ما يقرب من ٦٣٧ مراسلاً في فيتنام.[١]

ومثل التحكم مع وسائل الإعلام بحجم هائل مع الصحافيين الذين أصبحوا الآن مجهزين بمعدات متطورة، حيث يأتون ومعهم حاسباتهم المحمولة، وكاميرات ديجتال، وهواتف رقمية مرتبطة بالأقمار الصناعية، وهواتف محمولة (وإن كانت في هذه الفترة كبيرة الحجم بشكل مزعج) ووصلات للاتصال بالأقمار الصناعية، مسألة مزعجة بالنسبة للجيش.

ولكن بعيداً عن أي تغيير قد حصل، فإن الاعتقاد بأن وسائل الإعلام تمثل تهديداً قادراً على إحداث الضرر أكثر من النفع الذي قد تعود به في ساحة القتال ظل دون أن يمس، كتب بيرنارد ترينور في ١٩٩٠: (يحمل ضباط .. مثل العنصرية ومعاداة السامية وكل أشكال التعصب الأعمى الأخرى، هي مزعجة ولكن مع ذلك حقيقية.[٢]

1- Williams, K (1992) (Something more Important Than Truth : Ethical issues in Vrar Reporting) in Betsey and Chadwick.

٢- مصدر سابق، ريد ـ ص ٦١.

والعديد من مهندسي حرب الخليج وأكثرهم شهرة هو الجنرال نورمان شوارزكوف، كانوا معروفين جيداً باحتقارهم للصحافة، وتعود في كراهيتها إلى ما يقرب من ربع قرن، وبطرق عدة، فإن أول حرب (مشتعلة) في فترة ما بعد الحرب (الباردة) كانت حرباً تم خوضها تحت ظلال من تأثير حرب فيتنام، وعندما أعلن الرئيس بوش بشكل قارع للجرس، بأن القوات الأميركية لن يطلب منها أن (تحارب بذراع مربوطة خلف الظهر)، بدت وكأنها ملاحظة مُنذرة للكونغرس والصحافة على حد سواء من أحد لن يضع حدوداً على القوة العسكرية، كما فعلوا بحسب المزاعم في فيتنام.(١)

ولكن محاولة بوش (لركل أعراض فيتنام) تلاقت مع إيمان صدام حسين المتوازي والمساوي بأن عدم قدرة الأميركيان على تحمل الخسائر البشرية، ظل كذلك صلباً لم يمس.

إذ إن (الحملات الناجحة) في غرينادا وبنما، على أية حال لم تكن حروباً بالمعنى المفهوم للكلمة وفقاً لأي تعريف تقليدي للمصطلح، وإذا كان الأمر كما كان ظاهراً أن الجيش الأميركي يؤمن بذلك، بأن النجاح يعتمد على إبقاء الصحافة جانباً، وصور الأذى البشري بعيدة عن شاشة التلفاز، فإن الظروف المسبقة للنصر الأميركي كانت بعيدة جداً عن أن تكون مؤكدة في حرب الخليج ١٩٩١.

وخلال فترة عملية (درع الصحراء) "من آب إلى ديسمبر ١٩٩٠" بدأ وكان صدام حسين كان يهدف إلى استعراض أفضلية العراق في الحرب للرأي العام من خلال جعل البلد سهل المنال للصحفيين الغربيين، وعلى وجه الخصوص استضاف النظام العراقي قناة الـ CNN، والتي تمكنت لأول مرة من تحقيق الحضور والظهور العالمي المؤثر من خلال تغطيتها الحية من بغداد في الشهور التي سبقت/ وخلال فترة القصف الجوي للحلفاء الذي ابتدأ من ١٧ يناير ١٩٩١، حيث تم السماح للمحطة المملوكة لتيد تيرنر (ومقرها في ولاية جورجيا) بالحصول على حق حصري بأربعة

1 -Rid, T (2007) War and Media Operations: The US Military and the Press From Vietnam to Iraq , New York, Rout edge.

خطوط في قمر اتصالات عسكري إلى العالم الخارجي في مقابل رسوم بالغة ١٥٠ ألف دولار أسبوعياً.[١]

وعندما ابتدأ القصف، سمح صدام لمراسل الـ BBC جون سمبسون، وبرينت سادلر من محطة (ITN) ومراسلين آخرين للانضمام إلى بيتر آرنيت مراسل الـ CNN.

وضمن وجود أطقم محطات (التلفاز) في العراق بأن قادة التحالف لن يستطيعوا تحقيق (بيئة إعلامية) مغلقة تماماً، من النوع الذي حققته وزارة الـ MCD في الفوكلاند، وأعادت محاكاته ووزارة (DOD) في غرينادا، ولكن عدم السيطرة على المراسلين في بغداد، دفعت القيادة العسكرية وزادت من عزمها لتشديد قبضتها على مجموعات الصحفيين الهائلة في الظهران، بأي وسيلة يمكن أن تكون في متناول قيادة التحالف، وبغض النظر عن التطورات والإمكانات التكنولوجية.

فإن هذه الوسائل لم تكن من دون دلالة بالغة "معتمدة على نظام من مجموعتين يقسم هذا الحشد الهائل إلى مجموعة من النخبة الذين، على الأقل من الناحية النظرية، يسمح لهم بمشاهدة أفعال عملياتية من خلال (فرق مراسلي وسائل الإعلام) التي يسمح لها بالوصول إلى بعض مناطق الجبهة مع القوات الأمامية، بينما تظل الأغلبية تستمع إلى آخر التطورات من خلال مؤتمرات إيجاز يومية في مقرات قيادة التحالف الرئيسية في السعودية.

وبالطبع فإن هذه السلسلة المترتبة هرمياً، أنتجت جدلاً حامياً بين مراتب الصحافة، وفي الأسابيع الأولى من عاصفة الصحراء، فإن مركز النزاع والجدل الرئيسي كان توزيع نسب فرق مراسلي وسائل الإعلام (MRT) حيث كان يحق فقط للمراسلين البريطانيين والأميركيين والفرنسيين التمتع بهذا الحق، على أرضية أن قواتهم الوطنية تشكل القوات الأكبر ضمن التحالف أما بقية الجنسيات فقد أغلق في وجوههم باب هذه الترتيبات جميعاً، كما كان الحال بالنسبة للمطبوعات الصغيرة أو الأكثر انتقاداً من الدول الثلاث المذكورة، وبما أن عضوية هذه الفرق

1 - Simpson, J (1991) From The House of War: John Simpson in the Gulf, London: Arrow.

بدت وكأنها محصورة بالمراسلين المحابين فإن منتقدي هذا النظام استنتجوا بأن وظيفة الفرق الرئيسية كانت تقديم صورة إيجابية عن قوات التحالف، وهو دور سيتم فرضه من خلال ضباط العلاقات العامة في الجيش الذين سيعملون على مراقبتهم.(١)

وللانضمام إلى فرق (MRT) كان على الصحفيين التوقيع على مجموعة من القواعد الموجهة، تحدد من حقوقهم في إجراء مقابلات غير رسمية مع أفراد الجيش، والموافقة على إرسال ما يكتبونه إلى (المراجعة الأمنية) وعلى البقاء مع وإطاعة مرافقيهم العسكريين في كل الأوقات.(٢)

وفي رسالة جماعية إلى بوش للشكوى من قبل محطات التلفزة الأميركية البارزة، تقول: (لم يواجه هذا البلد أبداً في تاريخ أميركا، مع هذا الالتزام الهائل من القوة البشرية والمعدات، مع فرصة ضئيلة جداً للكتابة عنها من قبل الصحافة).(٣)

ومع ذلك فإن جهودهم الضاغطة تركزت باتجاه زيادة حجم فرق (MRT)، وعلى عضويتها، بالرغم من كل القيود المحيطة بما يمكن تغطيته أو الكتابة عنه، فإنها اعتبرت امتيازاً، على الرغم من أنها يجب أن تكون حقهم الطبيعي، وفشلت المحطات الرئيسية في الانضمام إلى أجراء قانوني دفعت به المطبوعات الليبرالية ضد الحظر الذي فرضه البنتاغون على ما دعوه المقابلات (الفجائية أو الكمين) مع القوات المقاتلة أو التصوير الفوتوغرافي للجنود في حالة (معاناة أو الصدمة الشديدة).(٤)

وباختصار فإن المنظمات الإعلامية الرئيسية كانت مستعدة لانتقاد الدولة، ولكن فقط إلى حد معين فقط، ومن دون السؤال الجوهري حول ما الذي تهدف إليه تقييدات وزارة الدفاع (DOD) على الصحفيين.

---

1 - Fialka, J(1991) Hotel Warriors: Covering The Gulf, Washington, DC, Wood row Wilson Center.

٢- مصدر سابق، ماك آرثر، ص ١٩.

٣- مصدر سابق، الاقتباس عند ماك آرثر، ص ١٠.

٤- نفس المصدر السابق، ص ٣٩.

وبمجرد أن ابتدأت الحرب، أصبحت الرغبة في عضوية فرق (MRT) بسرعة محل تساؤل، وعلى الرغم من إصرار الأوساط العسكرية على أن ذلك النظام قد صمم باهتمام حصري في حفظ أمن العمليات ولمنع الصحفيين في (الهيمنة على ساحات القتال) كما صاغها بيتي ويليام، أما على الأرض فإن الأمور تبدو مختلفة جداً، وبعد الحرب فإن العديد من الصحفيين عملوا على توضيح الطرق المتعددة جداً التي تم بها تعطيل وإعاقة عملهم، وتم فرض الرقابة عليه لمختلف الأغراض والمسببات، وكما في حرب الفوكلاند، فإن نظام مراجعة النصوص وبثها كان متوفراً بطريقة غير مسبوقة وغالباً بطيء جداً، ولقد تذمر الصحفي ميشيل غيتلر من صحيفة (الواشنطن بوست) من نظام (الرقابة عبر التعطيل) وبما أن الصحفيين لم يكن مسموحاً لهم استخدام هواتفهم المرتبطة بالأقمار الصناعية لإرسال موادهم، فإن المراقبين كان بإمكانهم تعطيل تقاريرهم المعترض عليها أو الإشارة بهم بإجراء المزيد من المراجعة، حيث تتحول هذه المنتجات الإخبارية القيمة إلى (أخبار مبتذلة لا أمل فيها) بحلول الوقت الذي يسمح فيه لها بالإرسال.[1]

وكانت التقارير تتطلب يومين أو ثلاثة للنقل، ويتم نقل أشرطة الفيديو بالطريقة القديمة، بالتسليم من يد ليد، وهي الطريقة التي أسماها بعض المراسلين (قطار المهور السريع Pony Express) نظراً لبطئها.

وأغضب العملية التاخيرية في البث الصحفيين المهتمين بأن تقاريرهم كانت عرضة للفحص بطريقة مختلفة عن تلك المتضمنة في العملية التي تحمل الاسم الرسمي (المراجعة الأمنية) على الرغم من إصرار بيتي ويليام (بأننا لا نحاول تكميم أفواه الصحافة أو منعها من قول الأشياء السيئة حول العملية)، ولكن هذا ما يبدو أنه كان يدون في أذهان العديد من ضباط العلاقات العامة.[2]

فخلال حرب الفوكلاند كانت عملية الفحص تبدو محسوبة بتأن، فوق كل شيء لحماية (وتعزيز) سمعة الجيش الجيدة، وإلا لما يهتم المراقبون في استخدام

---

1 - Browne, M (1991) (The Military Vs the Press) the New York Times, March 3,227.
2 - Kurtz, H (1991) (Pentagon to ease Coverge Rules) Washington Post, January 5.

صفة مثل (الطائش) لوصف طيار بعد عودته من مهمة قصف، مفضلين استخدام كلمة (فخور) في السياق؟

ولقد وجد الصحفي مالكولم براوني ان إشارته إلى (القاصفات المقاتلة) قد تم تعديلها ببساطة إلى (المقاتلات) وكأن الطائرات في هذه الحالة لم تكن في مهمة قصف جوي، بل منخرطة في شيء بطولي أكثر مباشرة (القتال)!

ولقد كان القتال في الواقع في هذه الحرب شحيحاً جداً خلال فترة استمرارها!، فإذا كان القتال يتضمن نزاعا بين طرفين متقابلين ومتقاربين في الإمكانات ومتكافئين تقريباً كخصوم، ففي هذه الحرب، وبعد فترة طويلة استغرقها بناء وتجميع القوات، فإن الحرب الجوية التي صممت لضرب نظام المواصلات العراقي ومراكز القيادة ومعدات الجيش وقواعده المهمة والتأثير على معنويات القوات العراقية في مواضعها الدفاعية بالكويت استمرت ما يقرب من ٤٠ يوماً، وما أن أكملت القوة الجوية مهمتها، اكتسحت قوات التحالف خطوط القوات العراقية، مع قيامها بدفن العديد من الأفراد أحياء في مواضعهم، كما سيتكشف فيما بعد.[1]

وبعد الكثير من المبالغة عن قوة وحدات الحرس الجمهوري وهي نخبة الجيش الذي قيل عنه بأنه رابع أو خامس أكبر قوة عسكرية في العالم (في حينه) لم يستطع أن يبذل جهداً مركزاً في المقاومة بعد ما يقرب من ستة أسابيع من القصف العنيف المكثف، ولكن كيف كان هذا الصراع قد تم خوضه من قبل طرف واحد بدقة، وما هي التكتيكات التي وظفت لتحقيق نصر عسكري سريع، تبقى غير واضحة تماماً خلال الفترة الوجيزة التي استمرت فيها العمليات البرية، ويشتكي مراسل الـ BBC، مارتن بيل بأن اللقطات التي صورها طاقمه على خط الجبهة أعيدت من دون إرسالها.

1 - Sharkey, J (1991) Under Fire: US Military Restriction on the Media, Washington, DC, Center For Public Integrity.

على الرغم من أن هذا الشريط لم ينتهك أية قواعد عمليات، بإظهار إصابات لتحالف البشرية، ولكنه تضمن صور لأجساد ميتة، ومن بينها أكثر الصور رعباً عن هذا الصراع، والتي تمثل رأس جندي عراقي محترق يطل من دبابته المحترقة بقذائف التحالف، والتي لم تظهر حتى تاريخ ٣ آذار في صحية (الأوبرزوفر) في لندن، حيث كان قد تم في وقتها توقيع اتفاق وقف إطلاق النار.

إن قصر فترة العمليات البرية الشديد " ما يقرب من ١٠٠ ساعة فقط" كان يعني بأن نظام التجميع للصحفيين (Pooling System) لم يتح له الوقت للاختبار في ظروف العمليات قبل أن يعلن التحالف النصر، وخلال تلك المقدمة الاستهلاكية القصيرة، وجد العديد من الصحفيين أنفسهم أبعد ما يكونون عن فعل أي شيء مميز أو ملهم، وهي ظاهرة كانت واضحة جداً حتى أن نائب رئيس شبكة ABC التلفازية وصفها بأنها (رقابة من خلال الافتقار إلى حق الوصول).[1]

حيث (تاه) بعض المراسلين في الصحراء أو احتجزوا مع الوحدات التي ظلت في مؤخرة القوات الزاحفة نحو الكويت، ومثل هؤلاء المراسلين المحظوظين ظاهرياً الذين سمح لهم بمرافقة القوات لم يكن يستطيعوا (قطف ثمار الأخبار العاجلة) بل كانوا على الأرجح يلجأون إلى التوقعات والتخمينات.[2]

وعلاوة على ذلك فإن البنتاغون أعلن عن تعتيم شامل على كل أخبار تفاصيل الهجوم البري طوال فترة استمراره، بل أنه حتى علق مؤتمراته الصحفية اليومية.

وبمجملها فإن هذه المراوغات تلمح إلى أن إجراءات التحكم بوسائل الإعلام كانت تخدم حاجات عاطفية أكثر من كونها حاجات إعلامية، وبضمنها حاجة حاجة الجيش إلى تلميع صورته، وحاجة (المدنيين) إلى صلة أو رابط مع أقربائهم وأحبائهم الذين يرتدون البزة العسكرية، وميزة نظام التجميع والتي تم تضخيمها في إجراءات الدمج والاحتواء (Embedding) التي تم تطويرها فيما بعد في ٢٠٠٣، هي إنها حولت المراسلين إلى مجرد حروف في قصة عسكرية كبرى من الإشارة إلى

١- مصدر سابق، فيالكا ١٩٩١، ص٦.

٢- مصدر سابق، براوني، ص ٢٢٧.

تعزيز الذات، وحقيقة أن عملية الدمج نفسها أصبحت هي (القصة) التي يتم سردها من مراسلي التلفاز الذين تم استضافتهم في بيئة جديدة، محاطين بالرجال الذين يرتدون البزات العسكرية، وحقيقة إنهم كانوا لديهم القليل فقط من الأخبار ليقوموا بنقلها لم تكن أبداً نقطة محل اهتمام، فإن (الوجود هناك) هو ما كان يهم فعلاً، بالنسبة لمراسلي التلفاز الذين كانوا مفتونين بالمكانة شبه العسكرية التي حظوا بها والتي تقترح خطراً مهلكاً وإحساساً بالبطولة يتأتى من الوقوف كتفاً لكتف مع رجال القوات المكلفة بالواجب وهي تتجه إلى المعركة.

وبطرق عدة، فإن المسرح الرئيسي في هذه الحرب الإعلامية لم يكن على خط الجبهة أبداً (أو حتى مكان قريب منها حتى) بل كان بعيداً إلى الوراء في مكتب الإعلام المشترك (JIB) في الرياض (تبعد ما يقرب من ٨٠٠ كلم عن مسرح العمليات!)، لأنه هناك كانت تجري مؤتمرات الإيجاز اليومي والتي كانت تؤسس للسجل اللفظي والمرئي للصراع، وحتى قبل أن يجد مالكولم براوني نفسه متعرضاً للوم والانتقاد لإشارته إلى (القاذفات المقاتلة)، كان قد غدا من الواضح إن التعويق والتعطيل هو النظام السائد فإن وسوسة وشكوك الجيش بشأن المفردات اللغوية لم يكن أمراً فريداً خاصاً بحرب الخليج، فإن ضباط العلاقات العامة في حرب فيتنام كانوا قلقين جداً وحريصين على ان الصحفيين (يقولونها بالطريقة المناسبة)، ولكن المدى الذي مضى إليه قادة التحالف العسكريين في الاملاع إلى ان القتل هو أمر أساسي في الحرب، هو أمر جدير بالإشارة مع ذلك، وهكذا فإن الخسائر في صفوف (المدنيين أصبحت (خسائر غير مباشرة Collateral Damage أو غير مقصودة، (*)

وهو مصطلح لا يلغي فقط إنسانية أولئك الذين تعرضوا للأضرار بل يشدد على حقيقة (عدم تعمل) إحداث هذه الخسائر وطبيعتها الصرفة كحوادث عرضية، وبشكل مماثل لذلك، فإن الجنرال نورمان شوارزكوف وشارلز هوريز كانا

* - لشيوع هذا المصطلح وذيوعه، أصبح عنواناً لفيلم شهير من بطولة الممثل آرنولد شوارزيناكر، يتحدث عن خطر الإرهاب وهجماته على الولايات المتحدة!

يفضلان الحديث عن (تخفيض قدرات العدو) بدلاً من استعمال كلمة (القصف الجوي)، وكانا مصران على معارضة أي مناقشة لأية إحصاءات عن الخسائر البشرية أو الاعتراف بالتسبب بأية أضرار بشرية، ويقول شوارزكوف (أنا معاد لإحصاء الخسائر البشرية) ويكمل أن (إحصاء الجثث لا يعني شيئاً، لا معنى له مطلقاً).[1]

ونظراً لأن حرب الخليج كان يخطط لها أن تستبعد أي آثار سيئة لحرب فيتنام فإن (عرض نورم وتشاك)، كما كان يدعى كان يعقد عند الساعة السادسة مساء، لتجنب التذكر بـ مؤتمرات (حلقات الساعة الخامسة) سيئة السمعة، وفي تناقض مع الأخير فإن الأداء في حرب الخليج، كان أحداثاً متلفزة ببراعة تتمحور حول عرض لقطات (موافق عليها من وزارة الدفاع) من أشرطة فيديو مصورة مأخوذة من كاميرات تصوير الصواريخ وهي تنطلق نحو أهدافها (التي تكون مثبتة على جسم الطائرة الأم)، حيث كانت هذه الصور (الملونة بالأبيض والأسود) والتي تظهر الأهداف داخل (علامة التقاطع للتسديد على الهدف) وهي يتم اصطيادها بمهارة ما أصبح العلامة المميزة لحرب الخليج، حيث خدمت لقطات الفيديو هذه في تكوين انطباع مؤثر عن نوع جديد تماماً من الصراع، يتم خوضه باستخدام الأسلحة (الذكية) التي تصيب أهدافها بدقة، والتي تم إعادة بثها في نشرات الأخبار حول العالم باجمعه، لتؤكد على حقيقة مرسومة بتعمد، حيث بدت الحرب لعبة (أخلاقية) تمجد دقة (صواريخ الباتريوت) ضد صواريخ (السكود) العراقية (المجرمة)، وكما حولت الحرب في ليلة وضحاها بعض مراسلي الحرب إلى رموز شهيرة يحتفل بها مثل مراسل الـ CBS، آرثر كنيت (المدعو بـ رجل السكود Scud Stud) بأنها حولت صاروخ الباتريوت المضاد للصواريخ إلى إيقونة وطنية أميركية مبجلة!

١- مصدر سابق، الاقتباس لدى شاركي، ص ١٤٧.

ومذهولين من هذا العرض للأسلحة الفائقة تكنولوجياً، ومحذرين الحس بمفردات الجيش المبلدة للإحساس، فإن العديد من الصحفيين فشلوا في فضح مدى صحة ووثاقة ما يتم إبلاغهم به وما تعرضه أشرطة الفيديو لهم، وفقط بعد شهر واحد من انتهاء الحرب، تم الكشف بأن إدعاء شوازركوف وبول بأن الغارات الجوية لقوات التحالف (كانت فعالة بنسبة ٨٠) في الأيام الأولى للحرب الجوية، لم يكن يعني بأن ٨٠٪ من القنابل قد (خفضت) بنجاح من أهدافها المقصودة، وبدلاً من ذلك، فإن غارة (ناجحة) كانت تعني ببساطة هي غارة تم من خلالها تفجير القنابل، في مكان ما![1]

كما أن الجيش الأميركي اعترف بأنه في آذار ١٩٩١، على الرغم بأن المؤتمرات الصحفية قد بالغت في مدى الدقة المحددة،للباتريوت، فإن الأغلبية الهائلة من القنابل التي أمطر العراق بها، كانت اعتدة تقليدية، ذات مستويات اعتيادية من عدم الدقة ومن مجموع ٨٨,٥٠٠ طن من القذائف التي تم إلقائها، كان هناك ٥٦٢٠ طن فقط من القذائف الموجهة بدقة، وأن ما مجموعه ٧٠ ٪ منها أخطأت أهدافها.[2]

وهكذا فإن العروض المسائية التي كانت تقدم للصحفيين كانت عبارة عن معلومات زائفة بشكل كيدي ومغرضة، وإن مراوغات هؤلاء القائمين على هذه المؤتمرات تركت بدون تدقيق أو فحص من قبل المراسلين الصحفيين الذين (لا يعرفون الدبابة من الغائط!) كما يصوغها الكولونيل المتقاعد دافيد هاك ورث بطريقة لاذعة (والذي كان هو نفسه مراسلاً حربياً خلال حرب الخليج).[3]

وطبقاً للنقاد، فإن هذه الحرب لم تكن حرباً يتم نقلها بشكل نموذجي ويتم جعلها نظيفة (للتغطية على فظائع الحرب)، بل تمثل انحرافاً جذرياً جديداً، محاولة لتمثيل القوة العسكرية كأداة يمكن تطبيقها بكل مهارة مبضع الجراحين لإزالة الأجزاء الفاسدة مع أقل الأضرار بالأنسجة المحيطة، وإذا كان

١- مصدر سابق، تايلور، ص ٦٦.

٢- مصدر سابق، تايلور، ص ٢٢٠.

3- Hack Worth, D (1992) (the gulf crisis: The media Point View) in young.

(الدم يبدو قانياً جداً) على شاشة التلفاز، فيجب أن تظهر هذه الحرب لا دموية، وهكذا كانت، حيث تمت مسرحتها وإعدادها صورياً بشكل خاص للكاميرات التلفزيونية، وتقدم معلقون مثل دوغلاس كيلنير وبروس كمنغز للقول بأن (حرب الخليج كانت أول حرب متلفزة حقيقية).[1]

حيث يتم تنظيفها (إشارة إلى المصطلح الذي أطلق لوصف هذه الحرب من قبل دوائر البنتاغون على أنها (الحرب النظيفة) صحياً بحيث لا يتم لقطات الفيديو الصادرة عن البنتاغون تبدو بلا شائبة مع تزويدها بالمؤتمرات التي ينتجها الكمبيوتر، وكل منها يبدو واقعياً، وغير واقعي ومبالغ فيه مثل الآخر، وهو أمر يصعب فك شفرته أو غموضه مما دفع بالمفكر الفرنسي (ما بعد البنيوي) جان باودرلارد إلى إطلاق زعمه الشهير (أو السيئ السمعة) بأن حرب الخليج لم تقع في الواقع، في كتابة الذي حقق عنوانه اللافت للنظر سمعة عريضة (حرب الخليج لم تحدث The gulf War did not Take Place) في عام ١٩٩٥، ولم تحدث في أيامنا الحديثة هذه وإذا كان المرء يتم تنويمه مغناطيسياً بهذه الصورة التلفزيونية الغربية، كيف يمكن له أن يعرف أبداً ماذا كانت أو ما إذا كانت هذه الحرب فعلاً؟[2]

وبذلك يكون البنتاغون قد توصل إلى تحقيق أهدافه القصوى، ولكن السؤال الذي يتردد في الذهن لماذا لم يعمد صحفيون أكثر إلى الخروج عن النظام الرسمي والذهاب للتغطية بشكل مستقل؟

إن تجار أولئك الذي اختاروا أن يكونوا (على عاتقهم لوحدهم) كما أطلق عليهم توفر بعض اللمحات التي قد تقود على إجابة ما، حيث ان كلا من المناخ السياسي والطوبرغرافي للعراق لا يوحي ببيئة مضيافة ومساعدة للصحافيين الغربيين الذين يرغبون بالانطلاق والتجوال بشكل حر على الطريقة الغربية.

1- Kelleer, D (1992) (The Persian Gulf TV War) Boulder Co, West view press.
2 - Der Derian, J (2001) Vitruos War: Mapping the Military – industrial Media – Enter tainment net Work.

كما أن الاندفاع بالتقدم نحو مناطق حدودية كانت ملغمة بالقوات العسكرية بشكل مكثف لم يكن يبدو تحرراً حكيماً مطلقاً، كما أن التجوال في الصحراء السعودية لم يكن مهمة سهلة، إضافة لخطر التعرض للقصف أو أطلاق النار من قبل قوات الحلفاء في حالة بدء العمليات البرية، وفي حالة اضطرار الصحفيين أن يندفعوا إلى داخل العراق، فثمة احتمال كبير أن يتعرضوا للاعتقال او لما هو أسوأ، وخصوصاً مع ميل النظام العراقي وأجهزته على اعتبار الأجانب غالباً كجواسيس أو عملاء، وما يعزز ذلك هو ميل العديد من الصحفيين أن يرتدوا ويظهروا بمظهر عسكري أو تبني حلاقة الرأس على طريقة جنود المارينز وحتى ارتداء بزات عسكرية أصلية لقوات التحالف.[1]

وكانت المشكلة الأكثر شيوعاً بالنسبة لهؤلاء الصحفيين بالرغم من ذلك، هي العدائية التي تواجههم من قوات التحالف والبوليس العسكري على وجه الخصوص، وخصوصاً ان الحكومة السعودية كانت قد أصدرت قراراً بأن أي صحفي غير مرافق من قبل مسئولين عسكريين يتواجد ضمن ١٦٠كلم من منطقة الحرب سوف يتم اعتقاله ويتم ترحيله، وأفضل ما يمكن أن يأمل به المراسلون في هذه الحالة هو أن يتم سحب تراخيصهم الصحفية، وهي عبارة كانت تحمل دائماً (تلميحاً ضمنياً بـ البتر.. ، أو ما هو أسوأ) كما يلاحظ باتريك بيشوب.[2]

ويقول دافيد هاك ورث الصحفي الأميركي الأكثر تطوعاً للدفاع عن القوات الأميركية خلال حرب الخليج بأنه (تم توجيه بنادق نحوي من قبل الأميركيين والسعوديين الذين كانوا يعملون على التحكم والسيطرة على الصحافة أكثر مما حصل طوال خدمتي العسكرية في مسارح العمليات)، فيما اشتكى صحفيون آخرون بأنهم قد تم ضربهم أو احتجازهم مؤقتاً في سجون ميدانية.[3]

١- مصدر سابق، انظر بيشوب ١٩٩٣، ص ١١١.

٢- مصدر سابقن بيشوب، ١٩٩٣، ص ١١٢.

٣- مصدر سابق، براوني ص ٢٢٧.

وإذا كانت هذه الظروف الغير الملائمة ليست كافية تماماً عن ثني الصحفيين للذهاب على عاتقهم في مهام صحفية، كان ثمة تساؤل إضافي حول نوعية القصص التي يمكنهم الحصول عليها وتغطيتها بهذه الطريقة، كانت القوات تصدر أوامر مشددة لهم بعد التحدث لمثل هؤلاء المراسلين، وحتى إذا ما فعلوا ذلك، فإن قراء بعض الصحف كانوا قد أوضحوا موقفهم بما لا يقبل الشك من مثل هذه التغطية ومن هؤلاء الصحفيين الذين يحاولون اختراق النظام، وتلقى رئيس تحرير صحيفة (الاندبندنت) الذي كان مراسله روبرت فيسك الخبير، صاحب السيرة الصحفية الأعلى في بريطانيا كمراسل مستقل (على عاتقه!) رسائل غاضبة من القراء بعد نشر تقارير فيسك حول الارتباك في صفوف القوات البريطانية في موقعها في الصحراء.[1]

وأصر محرر (الإندبندت) في رده (أن الوطنية لا تعني (ويجب أن لا تكون كذلك) أطلاق الأكاذيب وسردها بالنيابة عن الحكومة) مستذكراً (بعائث) المراسل ويليام هوارد رسل، التي تم إطراؤها بالتحديد لعملها على كشف عدم كفاءة القوات العسكرية في حرب القرم.(*)[2]

بينما أصر العديد من الآخرين على أن مقياس الوطنية في هذه الحرب كان بالإخلاص والثبات الدقيق على الأنظمة والقواعد العسكرية.

وكان الكره الموجه نحو هؤلاء الصحفيين المستقلين لا شيء مقارنة بما واجهه أولئك المراسلون الذين بقوا في العراق، حيث كان موقفهم أكثر إثارة للنزاع بما لا يقبل الشك، خصوصاً أنهم عملوا تحت أشراف مباشر من قبل وزارة الإعلام العراقية، والتي ثبت أنها كانت تهدف إلى تقديم فهم بديل للأحداث التي قادت إلى وخلال الحرب، ومدى ما حمله القصف الجوي للتحالف، جاهد مراقبو الإعلام

١- مصدر سابق، مارك آرثر، ص ١١٣.

* - حرب القرم دارت في القرن التاسع عشر بين بريطانيا وروسيا من جهة والإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى، وكانت تسمى من قبل الجانب الروسي باسم الحرب الشرقية.

٢- مصدر سابق، مارك آرثر، ص ١١٤.

العراقيون على تهديم الصورة التي قدمها التحالف على أنه يستهدف الأهداف العسكرية والإستراتيجية فقط بـ (التخفيض)، عارضين أمام الصحفيين الغربيين مستوى كاملاً من الدمار والخسائر البشرية مع منعهم من تصوير الأهداف الإستراتيجية التي تم تدميرها بنجاح.[1]

وهكذا فإنه في ٢٣ يناير (بعد أسبوع فقط من بدء الغارات الجوية) تم أخذ مراسلو وسائل الإعلام إلى الموقع المدمر لما أصبح يعرف في وسائل الإعلام العربية والانجليزية بـ (مصنع حليب الأطفال)، والذي أدعت قوات التحالف بأنه كان منشأة عسكرية، تم إخفائها وتمويهها بشكل زائف على أنها منشأة مدنية، كما شهدوا الحادثة المرعبة لتدمير ملجأ مدني في منطقة العامرية ببغداد والذي أصبح يعرف بـ (حادثة ملجأ العامرية) في ١٣ فبراير، وهذه البناية أيضاً، طبقاً للبنتاغون كانت مركزاً للقيادة العسكرية،[*] وأن صدام تعمد وضع مدنيين فيها.[٢]

وأثر اختراق قنبليتن (ذكيتين) موجهتين بدقة، لسقفه، مما أدى إلى مقتل مئات من العراقيين وأصابهم بشكل بالغ في طريقة موت مثيرة للحزن حيث (تحول الملجأ إلى مدمرهم، على فرن).[٣]

وقامت طواقم التلفاز الغربية بتصوير مشاهد لبقايا بشرية محترقة بعد أن تم رفع الرقابة العراقية عن التصوير، كان يتم إخراجها من البناية المدمرة، وكانت محطة الـ CNN أول من أذاعت الخبر، ولحقتها كل من الـ BBC و محطة الـ ITW، كانت المشاهد تكشف عن الكثير، حيث كان الناجون من الحادث يعرضون بحزن أمام الكاميرات أشلاء من الأجساد البشرية الذائبة، وكما قال مقدم برنامج (نيوزنايت) في الـ BBC:

---

1 - Thompson, M (1992) A paper House: The Ending of Yugoslavia, London, Vintage.

* - انظر كتابنا (وسائل الإعلام والصراعات السياسية) الصادر عن دار أسامة للنشر والتوزيع، التفاصيل أكثر عن هذه الحادثة وكيف تم إدارتها كأزمة سياسية.

٢- انظر آرنيت، ١٩٩٥، ص ٢٩٦- ٤٠١ و تالور، مصدر سابق، ص ١٨٧- ٢١٨.

٣- مصدر سابق، انظر ثومسون، ص ٢٢٥.

{حتى اليوم كانت تبدو كحرب نظيفة خارقة للعادة، حيث كانت القنابل الذكية تدمر البنايات، ويبدو أنها كانت بطريقة ما تترك المدنيين بدون إن تمسهم بعنف}.[1]

ورغم ان هذه اللقطات التي عرضتها الـ BBC كانت لقطات غير مسبوقة عن حرب الخليج، ومع ذلك فقد تم عرضها بشكل منقح جداً، ليس لأن مدراء الإعلام في التحالف مارسوا تحكماً على اللقطات القادمة من بغداد ولكن نظراً لاعتبارات (الذوق والنبرة) التي أملت حذراً وتكتماً تحريرياً (العديد من اللقطات القادمة من بغداد لأجساد المدنيين المحترقة تعتبر فظيعة جداً ليتم عرضها لكم، كما يقول كبير مذيعي الـ BBC ميشيل بويرك محذراً مشاهدي المحطة.[2]

ورغم هذا التدقيق والتردد، فلقد أكسبت حلقة (العامرية) إذاعة الـ BBC لقب (هيئة الإذاعة البغدادية).[*]

من قبل أعضاء البرلمان وصحف المحافظين التي اعتبرت أن أي تغطية للإصابات بين المدنيين في فترة الحرب لنفس التأثير فيما رسم محررون آخرون توازياً أكثر وضوحاً مع فترة الحرب العالمية الثانية مرجحين أن القرار الذي اتخذ بعرض مثل هذه اللقطات إلى قرار الـ BBC لعرض تأثير غارات الحلفاء على دريسدن وبرلين.[3]

وكما في نزاع الفوكلاند، غالباً ما أثبت صحفيو الإعلام المبطوع بأنهم حليف الدولة الثابت في تهذيب وضبط المؤسسات الإخبارية الأخرى التي كانت مصداقية وطنيتها محل تساؤل، وبشكل مشابه لذلك، في الولايات المتحدة كان اشرش منتقدي قناة الـ CNN، تتضمن كتاب أعمدة غاضبين وكذلك محطات تلفازية منافسة متلهفة

١- مصدر سابق، تالور، ص ٢٠٨.

٢- نفس المصدر، ص ١٩١.

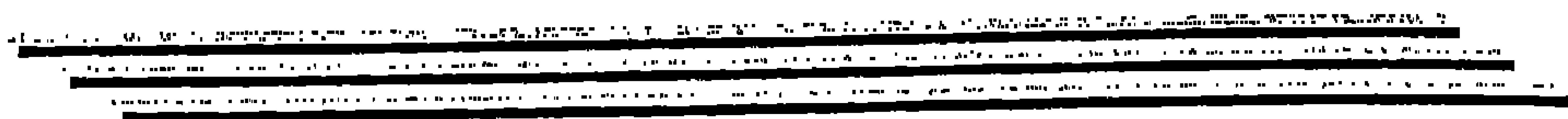
* - بدلاً من هيئة الإذاعة البريطانية التي تشير إليها الأحرف الأولى (BBC) والتي هي نفسها الأحرف الأولى من عبارة هيئة الإذاعة البغدادية بالانكليزية في تهكم واضح لا تخفى معانيه!

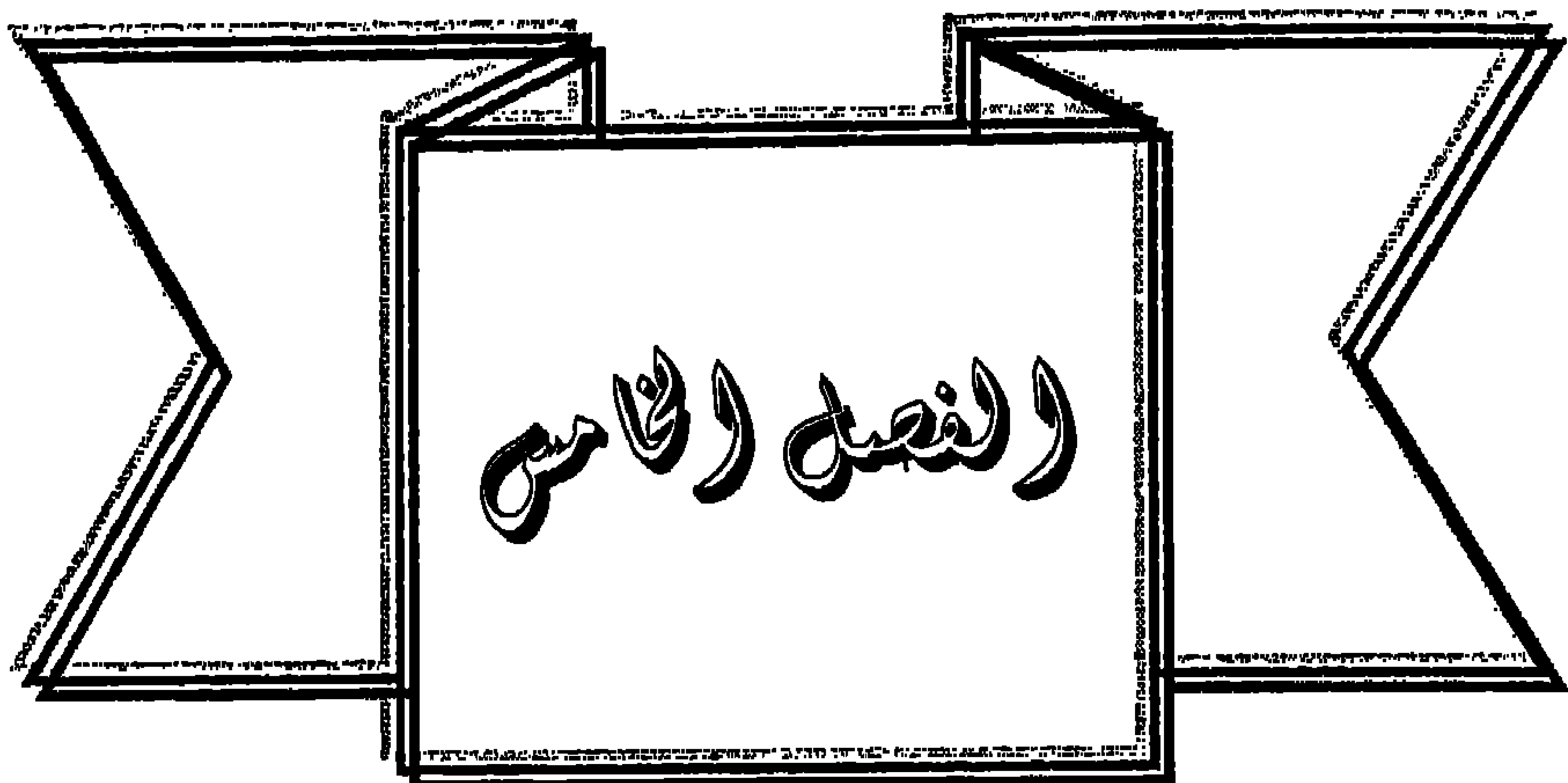
٣- مصدر سابق، ثومسون، ص ٢٢٨.

لتأكيد تهمة عضو الكونغرس الأميركي عن بنسلفانيا لورنس كوغلين بأن (بيتر آرنيت كان جوزيف غوبلر لنظام صدام حسين الشبيه بهتلر).[1]

كما أن كبار الضباط الأميركيين والبريطانيين أيضاً لم يبذلوا جهداً لإخفاء إيمانهم بأنه ليس من واجب المراسلين أن يكونوا في العراق، وأصر الجنرال سيربيتر دي لا بيليري قائد القوات البريطانية المشاركة في التحالف بأن المراسلين في العراق (هم لسان ناطق باسم العدو الذي غايته قتل وتدمير رجالنا العاملين في القوات المسلحة)، وأن اعتقاده الواضح بأن وظيفة الصحافة هي لمعاونه القوة العسكرية. وجدت قبولاً لدى المدنيين، وبذلك فإن توجيه الانتباه إلى معاناة سكان العدو (بعرضها بهذه الطريقة) تخدم فقط لاستنزاف الإدارة الشعبية في الاستمرار بمتابعة الحرب الجوية بالنشاط الحالي (في حينه) ومن هنا فهي تمثل عائقاً في وجه النصر، وبالنسبة لـ دي لا بيلري، فإنه ليس من واجب المراسلين أن يغطوا الحرب من موقع منفصل،وأن زمن الحرب لا يوفر أرضاً محايدة يمكن للصحفيين أن يشغلوها ويعملوا من خلالها، غير أن المرء يمكن أن ينحاز لهذا الجانب أو يساعد العدو.

١- مصدر سابق،آرنيت ، ص ٤٢٠.





حروب الآخرين

التدخل في الزمن الحقيقي!

بزوغ تأثير الـ CNN:

في شباط ١٩٩١، مع دخول حرب الخليج في شهرها الثاني، لاحظ نقاد وسائل الإعلام في الولايات المتحدة وباء جديداً يبدو وكأنه كان يشل الأميركيان بشكل جماهيري واسع، فعبر إنحاء البلاد، كان الملايين من الناس مستمرين بشكل دائم لمتابعة تغطية الـ CNN على مدار الساعة للحرب الذي كانوا يرفضون مغادرة مقعدهم أما شاشة التلفاز في غرفة المعيشة، خوفاً من تفويت أي تطورات عاجلة، وأدى ذلك إلى هبوط في مبيعات المواد الاستهلاكية، ومعاناة صناعة السياحة، وتستشهد صحيفة (نيويورك تايمز) بأقوال مربية أطفال من واشنطن، التي كانت (الأعراض المرضية) التي تعاني منها نموذجية (عندما ابتدأت الحرب أولاً: لم أكن أرغب في ترك التلفاز فضلاً عن السفر) كما تقول هذه المربية التي تدعى بريدجيد ماك دونل وفقط بعد مرور بضعة أسابيع، بعد أن فقدت تغطية (الحرب في الزمن الحقيقي) جدتها الأولية، كانت قادرة على مداواة نفسها من هذا الإدمان.

وهذه الأعراض المرضية ابتكرت صحيفة نيويورك تايمز أسما لها (تأثيراً الـ CNN effect, CNN) وهي عبارة تم تلقفها بسرعة على نطاق واسع، وهيمنت بشكل كبير على النقاش حول سلطة وسائل الإعلام في التسعينات.[1]

وسرعان ما تعدد وتضاعف معنى المصطلح مع توسع الجمهور العالمي لقناة الـ CNN، مع لعب (شبكة أخبار الكابل) أو ما بدأ أنها لعبته، من دور مؤثر في التدخلات المتعاقبة في فترة ما بعد الحرب البادرة، في كردستان العراق، وفي يوغسلافيا السابقة، وفي الصومال ورواندا، وبالنسبة لمعظم المعلقين فإن مصطلح (تأثير الـ CNN) يصف قدرة الصور عن المعاناة الإنسانية، التي تنقل في الوقت الحقيقي على تحشيد وتسيير الغضب والاحتجاج على نطاق عالمي مرغمة الحكومات الوطنية والمنظمات الدولية على إغاثة الأزمات الإنسانية، أو حمل

1 - My Dans's (1991) (Travel Resurges Across Vs As Americans Adjust to war) The new York times, February 14.

السلاح بالنيابة عن الأطراف المغلوبة في حروب (الأناس الآخرين)، وكإثبات على هذه الفكرة، فإن مثل هذه التحليلات تستشهد بصور الأطفال الجائعين كعامل محفز لعملية (استعادة الأمل Restore Hope Operation) في الصومال سنة ١٩٩٢.

وصور اللاجئين الرونديين المتدفقين على كيغالي كانت وراء تدفق جهود الإغاثة الواسعة في ١٩٩٤، وتغطية الفظائع التي ارتكبها نظام بلغراد ضد ألبان كوسوفو على أنها الشرارة التي قدحت حملة القصف الجوي لحلف الناتو في عام ١٩٩١، لمنع الصرب من تنفيذ (التطهير العرقي)، ومحيياً قوى التلفاز لزيادة وإذكاء الوعي على أنه (الاهتمام الإعلامي الذي يسبب تحسناً في الظروف الإنسانية).[1]

ولكن ليس كل امرئ كان مقتنعاً بأن ذلك (التلفاز في الوقت الواقعي). كان بالفعل يصدر الأنماط السائدة للدول ذات السيادة، المشككين تضمنت حتى أولئك المدافعين والمطالبين بالتدخل المتعدد الجوانب، لمنع وإيقاف ومعاقبة الانتهاكات الكبيرة لحقوق الإنسان، الذين لاحظوا بأنه بينما أن هذه الصور عن المعاناة الإنسانية تثير مشاعر رأي عام قوية، تضغط لذلك على الدول والمنظمات غير الحكومية (Ngo) (لفعل شيء ما)، فإن الـ CNN ونظرائها غير فعالة في إدامة مثل هذه الدوافع والهبّات، حيث أن نفس المشاهدين الذين يضغطون من أجل التدخلات الإنسانية المباشرة، لم يكونوا دائماً مهيأين لتحمل عبئها على المدى الطويل، ولقد قدمت (عملية استعادة الأمل) في الصومال مثالاً على هذه النقطة، فبمجرد أن بثت قناة الـ CNN صور الخسائر في صفوف القوات الأميركية في العاصمة الصومالية (مقديشو) "بعضاً منها عبارة عن لقطات لأجساد أربعة من الحراس الأميركيين يتم سحلها في الشوارع من قبل قاتليهم" وهو البرنامج الإخباري الذي ألهم فكرة فيلم المخرج رايدلي سكوت الشهير (بلاك هوك دوان)، فإن غضب الرأي العام تأجج مرة ثانية، عاملاً هذه المرة على تهديد وتقويض المساندة الشعبية للمهمة، وبكلمات أحد أعضاء الكونغرس الأميركي (أن صور الأطفال الذين يتعرضون للمجاعة، وليس

1- Marx, C (2008) (Using the past to Sap pert Future Intervention) the Boston Globe, October 4.

الأهداف السياسة، هي ما قادتنا إلى الصومال في ١٩٩٢، وأن صور الخسائر البشرية الأميركية، وليس تحقيق أهدافنا، هو ما دفع بنا للخروج من الصومال.[1]

أما بالنسبة لبعض المحللين، فإن هذا التقلب في الأهواء يطابق (تأثير الـ CNN) تماماً، وهي ظاهرة يمكن فهمها بشكل أفضل على أنها ضغط دائم ولكن متقلب على مسؤولي الحكومة للتصرف بشكل عاجل ومفاجئ، بدلاً عن كونها قوة.

أما النقاد الآخرون فقد قاربوا هذه المسألة من منظار مختلف، أولئك المنادون بواقعية السياسة الخارجية، الذين يتمسكون بأن الحساب الدقيق للمصالح الوطنية، هو الذي يجب أن يملي السياسة عوضاً عن الأفكار المثالية في فعل الخير" يتفجعون على النفوذ الطارئ لقناة الـ CNN الذي أدى إلى انحراف أولويات صناع القرار وأشار جورج، ف. كينان أحد مهندسي إستراتيجية الاحتواء الأميركية في فترة الحرب الباردة إلى هذا التأثير في مقالة افتتاحية نشرات في صحيفة نيويورك تايمز في أيلول ١٩٩٣، مشيراً إلى كلفة وعدم كفاءة عملية لا يمكنها معالجة ما اعتبره السبب الأساسي لمجاعة الصوماليين وهو غياب حكومة مركزية فاعلة، ووجه كينان اللوم للتلفاز لتوليده مساندة غير حاسمة لهذا التدخل المتصور بصورة خاطئة، وإن خطيئة التلفاز الرئيسية في أعين كينان، كانت في إشعال (ردة فعل عاطفية)، وهي المشاعر التي لا تؤدي إلا إلى تعويق تشكيل سياسة حصيفة: (إذا كانت السياسة الأميركية من الآن فصاعدا... يتم التحكم بها من قبل نزوات العواطف الشعبية، وعلى وجه الخصوص تلك التي تثيرها صناعة التلفاز التجاري) يستنتج كينان (عندها لن يوجد مكان " ليس فقط لي نفسي" بل لمن كان يعتبر تقليدياً على أنه أجهزة الحكومة المسئولة والمتدبرة).[2]

ومثل هذه النقاشات قد تبدو الآن غير منطقية أو فوضوية بعد مرور ٢٠ عاماً، حيث لم تعد الـ CNN في موقع الصدارة المتفرد، حيث فقدت مكانتها

1 - Minear, Scott, C, and Weiss, T (1996) The News Media Boulder, Co, Lynne Rienner.

٢- كينان، ١٩٩٣، Kennan، ص ٢٥.

بوصفها مزود (الأخبار العالمية) الوحيد، حيث نافستها في البداية مع صعود قناة الـ BBC العالمية (BBC World)، ومن ثم لحقتها المحطات الفضائية العالمية والإقليمية الأخرى التي حصدت جمهوراً عالمياً متزايداً سواء لمضمونها المذاع على الهواء أو المنشور على الانترنت، وفي الفترة الأخيرة، أثيرت ضجة كبيرة حول مفهوم (تأثير الجزيرة)، (*)

والفرضية القائلة بوجود (تأثير اليوتيوب You Tube Effect) والذي يتوقع بعض المعلقين في شؤون وسائل الإعلام بأنه سيكون أكثر تأثيراً، خصوصاً مع انتشار الهواتف المحمولة والأجهزة الأخرى التي تحتوي على قدرات تصوير واضحة، وفي نفس الوقت تمتلك وصلات لخدمة الانترنت مما يسمح بنقلها في نفس اللحظة إلى مواقع الانترنت، وانتشار هذه الأجهزة بأيدي الناس في كل مكان بأعداد هائلة، بينما لا تنتشر كاميرات الـ CNN إلا بأعداد محدودة وفي أماكن معينة فقط من العالم، وبعضها لفترة من الوقت فقط.[1]

ويمكن لنا أن نستنتج بأن الاختراعات الحديثة في تكنولوجيا الاتصالات تؤدي بشكل ثابت إلى ردود أفعال ممتزجة وعنيفة، وبينما يرحب البعض بالإعلام الجديد كقوى تقديمه في عالم التغيير، من جهة أخرى يتباكى البعض على التآكل الحاصل في النوعية التي تصاحب ازدهار وزيادة نشر المحتوى والفورية في تبادل المعلومات، وصناع القرار بوجه خاص يميلون إلى النظر إلى كل تطور تكنولوجي جديد على أنه نذير على تلاشي نفوذهم وسلطتهم مع انسياب السلطة من أيدي السلطة التنفيذية إلى قبضة الجماهير العاطفة ولكن غير المطلعة جيداً.

ولهذا فإن الجدل حول (تأثير الـ CNN) أخذ موقعه ضمن سلسلة طويلة متعاقبة من المخاوف الأخلاقية العميقة من تنامي تأثيرات ونفوذ وسائل الإعلام،

---

* - هو عنوان لكتاب من تأليف الباحث فيليب سيب صدر في عام ٢٠٠٨ وتمت ترجمته إلى العربية وصدر عن مركز الجزيرة للدراسات في عام ٢٠١٠.

1 - Seib. P (2008) The Aljazeera Effect: How the nee Global Media are Reshaping World Politics, Washington, DC. Potomac.

مروراً بداية بنشوء الصحافة المطبوعة إلى الصور المتحركة، وأخيراً، الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي الجديدة، وأن عدم الاتفاق حول عملية ترويج القيم الأخلاقية والحط من قدر التنوع الذي جاء به تلفزيون (الزمن الواقعي) في نقل الأحداث، يمكن فهمه وإرجاعه إلى كونه ناتجاً إلى لحظة شديدة السيولة والميوعة في فترة ما بعد " في فترة ما بعد" الحرب الباردة غير المستقرة، التي أتبعت حل الاتحاد السوفيتي السابق في ١٩٩١، حيث وصلت أميركا ذات التاريخ من ٥٠ عاماً من المواجهات مع عدوها السابق الشيوعية العالمية إلى نهاية، ومعها نهاية الأطر والمنظور المنظم لإستراتيجية أميركا العظمى حيث كافح صناع السياسة، والأكاديميون، والمتلاعبون بالرأي للتنبؤ بشكل الأشياء القادمة، متجادلين حول ما إذا كان (النظام العالمي الجديد) الذي أعلن عنه الرئيس جورج بوش في ١٩٩١، سيكون ببساطة ميثاقاً لعصر الامبريالية الأميركية الجديد، أو سيكون مدخلاً لدور أكبر للأمم المتحدة التي ستكون قادرة على الدفع بعمليات حفظ السلام وأدوارها الحمائية بشكل نزيه ومخلص، ومبشرة بعصر جيد من حركة الإنسانية العالمية، ولقد كان ضمن هذا المناخ الواسع من التوقعات غير المؤكدة، أن تفتح الجدل حول فعالية وقوة التلفاز (في الزمن الحقيقي) لأول مرة، ممتزجة مع التفسيرات المختلفة المتصارعة لتفسير (العولمة) كقوة تعمل على (التجزئة) القسمة أو التكامل الموحد والمماثل، أو على كلا النمطين في وقت واحد، كما يقترح جميس روزناو (Rosenau) صائغ مصطلح الـ (اندماج التشنطّي Fragmegration).[1]

ولكن لدراسة (تأثير الـ CNN) بطريقة تاريخية لا يعني إنكار المؤثرات الأخرى، أو خصائص توجيه الانتباه أو الإشهار التي امتازت بها هذه الوسيلة فإذا أردت طرح قضية على مائدة المجتمع الدولي وضمن اهتمامات قادة العالم البارزين

1 - Rosenau, J (1997) along the Domestic – Foreign Frontier, Cambridge, University Press.

يتوجب إدراجه ضمن اهتمامات قناة الـ CNN، أو جعل هذه القناة تسلط الضوء عليه (كما ناقشنا ذلك سابقاً).

وعلى المحك أيضاً ثمة تساؤلات عن عملية وضع الأجندة (Agenda-Setting) ودور الوكالة، ضرورية بشكل خاص في أي طرح ينظر في تأثير وسائل الإعلام على تشكيل وصناعة السياسة وكيف ومتى تتدخل وسائل الإعلام في هذه العملية، وإن النظر في تأثير تلفزيون الزمن الحقيقي، وهو أيضاً يعني التفكير والتأمل في القوة المحفزة للصور المتحركة و (تشكيل) الرأي العام، أو كما يصوغها بعض المعلقين (مجتمع مدني كوني) كامن يتم تحشيده بواسطة التكنولوجيات الحديثة التي تمكن الأفراد المشتتين في أماكن واسعة ومتفرقة من العالم لتقدير إنسانيتهم المشتركة، حالة من التعاطف المشترك تتأثر بمشاهدة الأجساد البشرية التي تعاني من الألم والشقاء، وتزداد عمقاً مع نقل هذه الصورة وتبادلها بصورة فورية مباشرة.[1]

1 - Keane, J (Reflections On Violence) London, Verso.

شكل (١ : ٥)

(رسم كاريكاتير عن وضعية الرقابة في حرب فيتنام)

الطفل يسأل والده: إذن يا أبي... ما هي القصص التي غطيتها في الحرب؟

دراسة للحالات المماثلة:

قبل تفحص الحالات المحددة والتي اعتقد بأن لـ (تأثير الـ CNN) كان له فيه دوراً غير مسبوق، من المهم أن نتوقف لنلقي نظرة على العديد من التأثيرات المحتملة (أو التي افترض نظرياً) والمنسوبة إلى قناة الـ CNN، والتي هي غالباً تأثيرات عامة أو مفتوحة لأخبار التلفاز المصورة بشكل عام أو لصور التلفاز في الوقت الحقيقي بشكل أكثر تحديداً.[1]

وكما يلاحظ الأكاديمي المتخصص بالدراسات الاتصالية ستيفن ليفنغستون، فإن معظم الأدبيات حول الموضوع: (هي غير مترابطة وغامضة كمفاهيم) وهو نقص عمل على وضع علاج له من خلال تقديم تصنيف لأنماط أو أنواع التأثيرات التي عزتها التحليلات والدراسات إلى أخبار التلفاز.[2]

ويعرض ليفنغستون تصنيفاً ثلاثياً، حيث أن أنصار التأثير الأقوى لقناة الـ CNN، يميزون حالة من (إعلان لترتيب الأولويات أو الأجندة) ومن خلاله يتم (إغراء القادة للانخراط في صراعات أو أزمات بعيدة، حتى تلك التي تفتقد إلى مصالح وطنية واضحة بشكل معقول).[3]

وهذا يشترك مع وجهة النظر التي تقدم بها جورج كينان، ولكن أيضاً بطريقة أكثر مباركة من قبل الصحفيين الذين يؤمنون بدور المنافحة عن الحقوق والحريات في الإشارة إلى نجاحهم الشخصي في دفع القادة السياسيين بعيداً عن الحسابات المهتمة بالمصالح الذاتية وفقاً لمبدأ السياسة الواقعية، نحو سياسات من التعاطف العالمي للتدخل وإنقاذ الشعوب المتورطة في أزمات طاحنة، أما الفئة الثانية من الآراء هي التي اصطلح عليها ليفنغستون بـ (إعلان العوائق أو الإعاقة) وبكلمات

1 - Gilboa, E (2005) (The CNN effect: the Search For a Communication theory of international Relations) Political Communication, 22,27,44.
2 - Livingston, S (2007) (Limited Vision: How Both the American Media and Government Failed Rwanda) In Thompson.

٣- نفس المصدر السابق، ص ١٤.

أخـرى، إن تغطيـة وسـائل الإعـلام تهـدد ـ في أوقـات معينـة (مـساندة العامـة والنخبـة للعمليـات الجاريـة حاليـاً) نموذجيـاً مـن خـلال التأكيـد علـى الخـسائر البـشرية الـتي تحدث ـ في العمليات العسكرية، ثالثاً، يحدد ليفنغستون الفئة الثالثة (إظهار التعجيل أو التسريع) والتي من خلالها فإن التغطية الإخبارية المتدفقة بسرعة تتم لتسريع درجة نشاط صناعة القـرار ـ في ظروف الأزمـات (ـ في هـذه العمليـة، فـإن الاسـتجابة الـسريعة الـتي تنـدفع لتلبيـة مطالـب وسـائل الإعـلام العالميـة مـن خـلال وكـالات الاسـتخبارات والمستشارين و العناصر الأخرى للحكومة.[١]

ورغم أن بعض التحليلات أو المناقشات تميل إلى تفنيد بعض هـذه الأفكـار التي طرحها ليفنغستون كافتراضات ثلاثة، ومن المحتمل إن تلك التغطيـة الإعلاميـة ـ في الـزمن الحقيقـي، قـد تنـتج تـأثيرات مختلفـة ـ في ظـروف خاصـة أو متميـزة أو ـ في المراحل المتعاقبـة لأزمـة متطـورة ومتسارعة، والـسؤال هنـا هـو عـن أي الظـروف الـتي تحدد ظهور تأثيرات أقوى أو أضعف، من خلال تقييم للمتغيرات المتنوعـة الـتي حـاول العديد من الأكاديميين دراستها وبحثها.[٢]

ومـع ذلـك فـإن نظريـة لينغـستون تظـل عونـاً مفيـداً للبـاحثين، فإنهـا أيـضاً لا تستنفذ (قائمة الخيارات) الأخرى الممكنة، حيث أن بؤرة اهتمامـه كانـت متركـزة على العمليـة الـسياسية، ولكـن القـضايا الأخـرى هـي أيضاً لهـا دور ـ في الجـدل الـذي تثيره الـ CNN، والأكثر إلحاحاً من بينها هـي كيـف يشعر صـناع الـسياسة بمـا ينـتج مـن تموجـات نتيجـة لتغطيـة التلفـاز للأحـداث، العديـد مـن التقـديرات لـ تـأثير الـ ـ في الفعـل، تـضع (التلفـاز ـ في الـزمن الحقيقـي) ـ في مركـز ثقـل التـأثير علـى الاسـتجابات للجمهور العام للصور المتحركة عن المعاناة الإنسانية، وهـذه تحـدث اتساقاً عامـاً ـ في ردود الفعـل يـدفع صـناع الـسياسة للاسـتجابة بكـل الـسرعة الممكنـة للأزمـات الإنسانية العاجلة، ولكن هذا السيناريو يشحذ أسئلة عدة، كيف يختبر مسؤولو الدولة هذه الضغوط بالضبط؟

١- نفس المصدر السابق، ص ١٤.

2 - Kall, sand Ramsay, C (1994) Chistian Since Monitor, 22 February.

هـل يتعرضـون إلى طوفـان مـن الرسـائل والمكالمـات الهاتفيـة (أو كمـا في السنين الأخيرة بالرسائل الالكترونية، أو رسائل الهاتف SMS أو عبر التويتر)؟(*)

هل يستشيرون استطلاعات الرأي التي تسجل تفضيلاً سائداً نحو الاستجابة الفاعلة والنشطة؟

أو هل أن القادة السياسيين ببساطة يعملون على اختلاف استجابات الجمهور واستحثاثها، من خلال تخيل الصورة والرسوم البيانية الضرورية لتعزيز مثل هذه ردود الأفعال المتعاطفة التي يرغبون بها؟(١)

وفي نقاش مثل هذا، كما في النقاشات الأخرى عن تأثير وسائل الإعلام، فإن (الرأي العام) هو التصنيف الأكثر مراوغة: كتلة من الجماهير المتجمعة التي يمكن غزو قوة دافعة لها بسهولة، ولكن يصعب تأكيدها عملياً إلا بصعوبة كبيرة، ولهذا فإن بعض الباحثين يشرون إلى (الرأي العام المتخيل) للتشديد على الدليل الواهي والذي يسعى من خلاله صانعو السياسة، ووسائل الإعلام على تقدير استقرائي للاستجابات الجماهيرية نحو الأخبار والصور التي يعرضوها.(٢)

وللنظر للمسألة من جانب منظري المجتمع المدني الذين يرون بأن الإعلام العالمي يعمل على تسهيل الأمور لرأي عام فاعل عابر للحدود والمسافات، بحيث لا يمكن للنخبة السياسة تجاهله، فيما يصر روبرت اينتمان على أن القوة المتنامية للرأي العام قد تم المبالغة في تقديرها كثيراً.(٣)

* - أصبح مصطلح التويتر من المصطلحات التي دخلت معجم اللغة الإنكليزية لكثرة استخدامه، كما اشتق منه فعل Twetting ويقصد به القيام بفعل الدخول على موقع التويتر، أو فعل المراسلة غير هذا الموقع.

1- Mermin, J (1999) Debating War and Peace: Media Coverage of Vs intervention in the Post-Vietnam Era, N J. Princeton University Press.

2 - Nacos, B, Shapiro, R and Lsernia, P (2000) Decision-making in a Glass House: Mass Media, Lanham, MD, Row man & little Field.

3 - Entman, R (2000) (Declarations Of Independence: the Growth of media Power after the Cold War)in Nacos, Shapiro, and isernea.

وأن نشوء الـ CNN كمحطة ذات امتداد عالمي مثل تطوراً نوعياً جديداً، متعهداً لتموين الأخبار! وبحلول منتصف التسعينات، كانت المحطة تمتلك ما يقرب من ٦٥ مليون مشترك في (٢٠٩ بلداً وإقليماً).(١)

بينما كانت في الماضي محطات التلفاز الإخبارية سواء كانت ممولة من الدولة أو من المصالح التجارية الخاصة، كانت تمثل مؤسسة وطنية (أو محصور بالحدود الوطنية) حصرياً، وبالاستثمار في تكنولوجيا اتصالات الأقمار الصناعية والكابل التي كانت سريعة الانتشار في التسعينات، ظهرت محطة الـ CNN وكأنها تعمل على كسر قبضة الإذاعة على الحدود الوطنية، عاملة على اجتذاب جماهير هائلة في كل مكان في العالم، ولم تعد الحدود الإقليمية تمثل علامة على الحدود التي تمثل اهتمامات الجمهور بالأخبار وتعاطفه معها، أو تمثل الحدود المميزة لهذا الجمهور عن غيره، وأصبحت تمثل وعداً بظهر (التلفاز الكوبي) Global Television.

ولكن قدرة الـ CNN على عبور القارات لم تكن ميزتها الفريدة الوحيدة، حيث إن أنصار مفهوم (تأثير الـ CNN) قد ألصقوا ثقلاً بشكل خاص إلى بث الصور الحية من مواقع المعاناة والأزمات، وبالنسبة للعديد من المراقبين، فإن الفورية في نقل الصور تزيد لحد كبير من نفوذ الصور على إثارة المشاهدين، حيث إنه ما يصنع الفارق الكبير هو معرفة أن هذا الطفل الذي يعاني من المجاعة، بالرغم من وجوده على بعد الآلاف الكيلومترات، فإن معاناة هذا الطفل التي نراها هي وليدة هذه اللحظة وبأنه (الآن مباشرة)، فإن هذه المجموعة البائسة من اللاجئين يتم وضعهم في مخيم بائس في منطقة مثلجة، حتى وان كان مشاهد التلفاز المحظوظ يجلس مرتاحاً أو يجلس إلى طاولة العشاء، وعند تصوره بهذه الطريقة فإن الإرسال في الزمن الحقيقي يضفي قوة مضاعفة للشعور بالذنب من خلال تفعيل شعور غير مريح بالمعرفة بالمفارقة بين ما يحدث (هنا) وما يحدث (هناك) وهي هوة يتم تجسيرها

---

1 - Parker, R (1995) (The Future of Global TV News: an Economic Perspective) Political Communication, 12, IV, 431.

بدون أي فارق زمني تقريباً بواسطة تكنولوجيا الأقمار الصناعية، التي كانت تؤثر على وضعية التواجد على مسافة بعيدة من الحدث في التأخير بالنقل، وفي البعد المادي، بإنتاج انفصال عاطفي عن الحدث، وهذا الإحساس الجديد بـ هنا والآن قد يشجع المشاهدين أيضاً بأن فعلاً سريعاً جداً من جانبهم أو من حكومتهم، قد ينقذ بالفعل العديد من الأرواح المشارفة على الهلاك.

وبالنسبة لبعض المحللين، فإن هذه القدرة المتزايدة بالشعور والوعي الكوبي هي ما يعلم الـ CNN ومنافسيها اللاحقين عن وسائل الإعلام في الماضي، وهكذا فإن عالم الاجتماع مارتن شو يقترح بأنه بينما في الفترات السابقة كان (الناس يستجيبون للأحداث الوطنية والمحلية، وللصراعات الدولية الخطيرة "مرة أو مرتين في حياتهم" والتي تهدد مجتمعاتهم الوطنية، فإنهم اليوم (يواجهون تياراً مستمراً من الحروب، كل منها تمثل لنا وتطالبنا، وفق حس ما، بالاستجابة).[1]

ولكن بينما يحتفي شو بدور التلفاز في تفعيل حس بالمواطنة العالمية، بينما يتفجع آخرون على ما يرونه (وهنا عاطفياً) تتسبب به وسائل الإعلام التي تتعمد أسلوب الإثارة الرخيصة الزائدة في (الدق) على أوتار القلب، ومن وجهة نظر سوزان مويللر، فإن الأفراد (لا يمكنهم) الاستجابة إلى مطالب لا تنتهي بالتعاطف "فهم لا يتملكون سوى مصدر محدود" وبالتالي فإن التعرض الزائد لا يؤدي إلا إلى إضعاف قدرة الصور على إحداث الصدمة أو صعق المشاهد.[2]

وبغض النظر عما يفعله المرء بها أو ما يعتقد أن الآخرين يفعلونه بها، فإن الصور ليست بالطبع هي السلعة الوحيدة التي تموننا بها الـ CNN، إن الابتكار الذي قامت به الشبكة الأكثر إثارة للجدل، ليس البث الفوري للأحداث البعيدة عبر تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية، بل تقديم التغطية المستمرة على مدار الـ ٢٤ ساعة، ففي الماضي، كانت الأخبار محكومة بمواعيد نهائية لا يمكن تغييرها،

1 - Shaw, M (1996) Civil Society and media in Global Crisis: Representing Distant Violence, London: pinter.

2 - Moeller,s (1999) Compassion Fatigue: How the Media sell Disease, Famine, War and Death, new York: Routldge.

فالصحف (تذهب إلى السرير) في ساعة معينة للسماح للمطابع للدوران لتوفير النسخ في الموعد المحدد بالضبط، وكما في نشرات الأخبار فإن صياغة الزمن أو (فعل الحدوث) يتم تعابير صباح اليوم، حدث مساء أمس ... الخ) والقليل فقط من الأحداث الهامة جداً مثل اغتيال جون كينيدي، وما شابه، اخترقت مواعيد وتوقيتات إذاعة الأخبار المعروفة بشكل نادر جداً، وبالنسبة لبعض المتخصصين على الأقل، فإن نمط تغطيتها الإخبارية التي لا تتوقف أبداً في عصر قنوات التلفاز المكرسة للإخبار تماماً، هي ما ميز قناة الـ CNN " وفيما بعد منافساتها المشابهة لها" بسلطتها الحقيقية لإزعاج صانعي القرار وتجبرهم على اتخاذ رد الفعل على أثر التطورات العاجلة (كل إذاعة لـ خبر عاجل Breaking Neüs حول نفس الحدث تفرض ثقلاً ضاغطاً على السياسيين وتسبب لهم قلقاً مؤرقاً!).

وفي نفس الوقت فإن بعض علماء الاجتماع المتخصصين في الإعلام، والمتخصصون المتحررون من السحر (الذي كان لهذه القناة الجديدة ورافقها في أيامها الأولى)، قد لاحظوا أيضاً بأن الطريقة التي كانت تقدم فيها هذه الأخبار على مدار الساعة، أنها كانت تميل إلى تمطيط المحتوى بشكل يضعفه ويخفف منه.(*)

وإظهار المراسلين كأنهم سلطات أو (مسئولين) مطلعة لتقديم المعلومة، والاستعراض المستمر للرؤوس – المتكلمة (الخبراء)، بدلاً من تقديم تقارير تصور موقع الحدث أو فعلاً يجري، والمجبرين على أن يكونوا متوافرين للأداء أمام الكاميرا لما لا نهاية، فإن مراسلي التلفاز لا يعود بإمكانهم أداء العمل الحقيقي للصحافة، تنمية وزرع الاتصالات والعلاقات، تعميق معرفتهم المحلية بالموضوع، ونقل وجهات نظر مختلفة عن الحدث بصورة متوازنة، فما نفهمه عن (الخبر) قد تغير بصورة جذرية مع ظهور التغطية الـ (٢٤/٧٪) وأقصى ما أمكن الوصول إليه من نتائج (في أعين بعض النقاد)، هو انحدار في عمق التغطية المقدمة للمشاهدين.

---

* - وهذه ظاهرة يشترك فيها أسلوب عمل كل القنوات الإخبارية التلفازية المتخصصة (الفضائيات).

وهنا إذن، يمكن لنا ان نتعرف على وجهات نظر متعددة مختلفة بناء على نقطة المرجعية المنطلقة منها، ومن خلالها يمكن لنا تفحص (تأثير الـ CNN) الذي يبالغ فيه بعض الأكاديميين المركزين اهتمامهم على التوازنات المتحولة للقوة بين النخب السياسية ووسائل الإعلام، وتبعات التغطية الإخبارية (في الزمن الحقيقي) على موضوعاتها التي تلم بها، ومهما كان تأثير الـ CNN ونظيراتها، وما فعلته لهز صناع السياسة، سواء في الكابيتول هل أو الكرملين أو في الأمم المتحدة، فإن وجودها يغير بالتأكيد الظروف المادية على الأرض في أي أزمة محلية التي يتم تحويلها إلى مشهد وسائل الإعلام العالمية.

ولعل التأثير المشهود لـ (أثر الـ CNN) هو ما يختبره أولئك الأفراد (الذين لا صوت لهم غالباً) التي تصبح حياتهم الشخصية مادة تغطية (الزمن الحقيقي)، وكما تقر بذلك العديد من وكالات الإغاثة الإنسانية فإن حضور الكاميرات ليس محايداً ولا بريئاً، وإذا كانت الـ CNN قادرة على تحويل وتغيير أولويات السياسة، فإنها يمكن أن تلقي بثقلها على عمل جهود الإغاثة، حيثما ذهبوا ومهما كان ما يفعلونه، طالما إنه مثل أي أحد آخر في عصر ضمير الصور، فهم تواقون لاستغلال نفوذ وسائل الإعلام في زيادة الأموال والواعي على حد سواء!

الأزمة الكردية: (عملية توفير الطمأنينة) ١٩٩١:

العديد من المراقبين يفترضون بأن أول عملية تشغل الإنسانية في فترة ما بعد الحرب الباردة، هي (عملية توفير الطمأنينة Provide Comfart Operation) أو عملية (الفردوس) كما اصطلح عليها في بريطانيا، تفي على أفضل وجه بتعريف وسائل الإعلام للأزمة العالمية.(١)

وبحسب وجهة نظر ديبورا آموس من محطة ABC، فإن استجابة وسائل الإعلام إلى كارثة (اللاجئين الأكراد) تمثل (لحظة عندما كان نفوذ صحافة التلفاز في أوج ذروته).(٢)

1 Gowing, N)1991) The media Dimenssion 1: TV and Kards World today,ííí -12.
2 - Seib, p (1997) Head Line Diplomacy : How News Coverage affects Foreign Policy, West Port, Co, Praeger.

وخلال الفترة من ٦ أبريل وحتى ٢٤ حزيران ١٩٩١، عملت قوة متعدد الجنسيات من القوات البريطانية والأميركية والفرنسية والتركية على إقامة مخيمات مؤقتة لتوفير الإغاثة والحماية لبضعة ملايين من الأكراد العراقيين الذين لجأوا إلى حافة الحدود التركية هرباً من قراهم ومنازلهم الأليفة، (بعد اكتساح قوات الحرس الجمهوري بتوجيه من الرئيس العراقي صدام حسين لمدن وقرى شمال العراق)، حيث مثلت ما يشبه هجرة جماعية بعد فشل الانتفاضة التي قام بها السكان الأكراد في محاولة للتمسك بالسيطرة على المناطق الكردية من شمال العراق بعد حرب الخليج ١٩٩١، محاولين الاستفادة من هزيمة صدام حسين في معركة (تحرير الكويت) والمعنويات المنهارة لوحدات الجيش العراقي، وتمكن المتمردون الأكراد من السيطرة بشكل مؤقت على مدن وقرى الشمال العراقي، بتشجيع من إذاعة صوت أميركا، ومساعدة الـ CIA السرية، ولكن لم يمض وقت طويل، حتى عمل النظام العراقي على إرسال قاذفات القنابل والمروحيات العسكرية لعكس اتجاه حركة التمرد ومعاقبة الأكراد المتمردين بقسوة، وفي نفس الوقت كانت ثمة انتفاضة أخرى مشابهة في الجنوب من قبل الشيعة العراقيين التي تم إلهامها بما اعتقد إنه وعود أميركية(*) بالمساعدة إذا قاموا بإتمام عمل الإطاحة بنظام صدام الذي ابتدأته قوات التحالف.(١)

ورغم أنها أدت إلى مقتل المزيد من الأرواح، فإن عملية قمع الدولة العراقية لانتفاضة لشيعة، ظلت لحد كبير بدون تغطية تقريباً من قبل مراسلي التلفاز الغربيين الذين افتقدوا النفاذ إلى جنوب العراق، فإن كردستان على النقيض من ذلك، يمكن الوصول إليها بسهولة من تركيا، مما سمح لطواقم كاميرات التلفزيون بتصوير مأساة اللاجئين الأكراد.(٢)

---

* - هذه وجهة نظر المؤلفين والمراقبين الأميركيين التي تنقلها هنا، وإلا فإن للعراقيين وجهة نظر خاصة حول الموضوع.

١- شو، ١٩٩٦، ص ٣- ٢٢، تايلور، ١٩٩٧، ص ١٧٢.

٢- مصدر سابق، شو، ص ٨٠.

وعلى عكس المتمردين الشيعة الذين تم النظر إلى حركتهم في إطار الثورات الإسلامية المتطرفة، فإن الأكراد تم تصويرهم بشكل أكبر على أنهم ضحايا لا لوم عليهم لوحشية النظام، (٢ مليون شخص كردي في ذروة المأساة) بدون طعام ولا ملجأ آمن، تم إسكانهم في مخيمات مهلهلة في مناطق جبلية ثلجية، حيث كانوا عرضة (بسهولة) لأن يتم قصفهم من قبل طائرات دولتهم، وطبقاً لمارتن شو Show محلل التغطية الإخبارية للتلفزيون البريطاني، مضى المراسلون لما هو أبعد من تغطية وعرض المعاناة الكردية إلى منافحين مباشرين بالنيابة عن الأكراد للقيام بعملية تدخل، وعند هذه النقطة، شددوا على المسئولية الأخلاقية والمعنوية الملقاة على عاتق القادة الغربيين الذين عملوا سابقاً على تجاهل هؤلاء المتمردين الذين استجابت لهم بغداد بالرد بالقوة، ويلاحظ شو أن (التلفاز كان يضع قادة العالم على المحك) من خلال (ربطهم مباشرة بالمعاناة المرئية لهؤلاء اللاجئين البائسين وواضعين اتهامات اللاجئين في مواجهة من يملكون النفوذ).[1]

وعلى مدى شهر، أصبحت واشنطن ولندن أكثر ميلاً لتبني موقف أكثر حزماً وتأكيداً، في ٣ آذار ١٩٩١، كان نورمان شوازكوف قد حذر العراق من أن طائرات التحالف سوف تسقط أية طائرات عراقية تحلق في سماء البلاد، وهو تهديد تم تأكيده وزيادة صلابته عندما قامت طائرات بإسقاط طائرات عراقية قاذفة مقاتلة في ٢٠ آذار ١٩٩١.(*)

وبعد شهر لاحقاً أصدر مجلس الأمن القرار ٦٨٨ في ٥ نيسان، الذي دعا العراق إلى إنهاء عمليات القمع وفي اليوم التالي بدأت عملية (توفير الطمأنينة) والتي تضمنت تأسيس منطقة آمنة في شمال العراق من خلال تنفيذ منطقة حظر الطيران فوق خط العرض ٣٦° شمالاً، وتراجع رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور الذي

١- مصدر سابق، شو، ١٩٩٦، ص ٨٧- ٩٧.

* - وهذه الإشارة كانت من ضمن علائم أخرى فسرت على أنها دعوة وتشجيع من قبل الرئيس الأميركي والولايات المتحدة، للعراقيين لكي يقوموا بالثورة والتمرد ضد سلطة صدام حسين في حينه.

تخلى بشكل أولي عن أي مسئولية عن التمرد مصرحاً (أنا لا أستذكر أبداً الطلب من الأكراد أن يقوموا بهذا التمرد بشكل خاص).[1]

وفي وقت متأخر حتى ٣ نيسان، كان الرئيس بوش (الأب) ما زال مصراً بأنه على الرغم من (الإحساس بالحزن من أجل الأبرياء الذين تم قتلهم بوحشية) فإن قوات التحالف لم تكن مهمتها (لم تكن هناك للتدخل).[2]

ومع ذلك فإنه في غضون أيام بعد ذلك قامت قوة أرضية، من البريطانيين والأميركيان والفرنسيين والقوات التركية بالدخول إلى شمال العراق للبدء في تأمين اللاجئين الأكراد، بينما كان يتم إلقاء مواد الإغاثة والتموين من الجو عند الضرورة.[3]

وبهذا التغير المفاجئ في اتجاه اهتمامات النخب السياسية تحت الضغط، فإن الأزمة الكردية مثلت قضية كلاسيكية للتدخل الذي يقوده التلفاز، ويعادل مراسل الـ BBC الدبلوماسي نيك غاونغ، الذي تبحث كتاباته غالباً في نفوذ التلفاز في الزمن الحقيقي على تغير السياسية بطرق جوهرية، عملية (الملاذ الآمن أو الفردوس) على أنها استثناء، ويؤكد جون ميجور نفسه في مقابلة مع غاونغ، بأنه قد تأثر كثيراً باللقطات المصورة عن اللاجئين الأكراد، حتى إنه عمل على الضد من النصائح الدبلوماسية، بوضع خطة مشروع (الملاذ الآمن) على ظهر مغلق أثناء طيرانه لحضور قمة للاتحاد الأوربي في لوكسمبورغ.[4]

وضمن هذا السيناريو قدم ميجور نفسه كتجسيد شخصي للرأي العام البريطاني الغاضب ومؤسس لقوة مضادة تعمل لصالح النشاط الأخلاقي الفاعل، الذي يندفع (حيثما ينسج الرعب والخوف خيوطه).[5]

١- مصدر سابق، الاقتباس لدى شو، ص ٨٩.

2 - Robinson, P (2002) The CNN Effect: The Myth of News Foreign Policy and Inter Vent ion, London, Routldg.

٣- مصدر سابق، سكوت وفايس، ١٩٩٦، ص ٥١.

4 - Cowing, N (1994) (Real-time Television Coverage of Joan Shorenstein Bar one center, Working Paper-94-1.

5 - Bell, M (1995) In Harm's Way: Reflections of a War -22 Zone Thug, London, Hamish Hamilton.

وعلى كل حال، فإن رواية ميجور لردة فعله نحو المعاناة المتلفزة تغني عن الكثير مما يمكن قوله لتفسير لم تعمل السلطة الظاهرة لوسائل الإعلام في هذه الحالة على إعادة نفسها في الأزمات الإنسانية الأخرى خلال عقد التسعينات بضمنها تلك التي تمت (تلفزتها) بكثافة، وكما يعترف شو، فإن الأزمة الكردية كانت استثنائية في تلك المسؤولية التي يمكن إلصاقها بسهولة إلى القادة الغربيين، وخصوصاً بوش وميجور، الذين شجعها على عصيان العراقيين خلال وما بعد حرب الخليج ١٩٩١، ولم يكن على مراسلي الـ BBC ومحطة الـ (ITN) أن يتلفظوا مباشرة بواجب بريطانيا والولايات المتحدة لمساعدة الأكراد بصورة مباشرة (رغم إنهم فعلوا ذلك أحياناً)، فمن خلال إجراء المقابلات مع اللاجئين الأكراد الذين أقاموا الصلة بصورة واضحة بين تمردهم ورغبة الدول الغربية في إنهاء حكم صدام حسين، فإن الصحفيين حثوا بشكل ضمني على القيام بالتدخل، وكان المراسلون الذين مقرهم واشنطن، مرغمين أكثر على التشديد على مسؤولية بوش تجاه الأكراد.[١]

وما أدى إلى تلك النتيجة بالنهاية كان بدرجة أقل الصور نفسها، مما عمل الاعتقاد الذي أحاط بطريقة تعامل التحالف مع المتمردين العراقيين، ومن خلال تأسيس منطقة الملاذ الآمن، فإن القادة الأميركيين والبريطانيين استعادوا الرصيد الأخلاقي، في أثناء تدعيم الأسس والمنطلقات الدولية التي توفر الإسناد لاستخدام القوة الجوية للقيام بدور الشرطي في عراق ما بعد الحرب، وخدمت سياسة الملاذ الآمن أيضاً لتهدئة مخاوف شريكة التحالف (تركيا) من ثقل تأثير ٢ مليون كردي لاجئ يحاولون النفاذ إلى كردستان التركية.[٢]

والتغطية التلفازية للأزمات الإنسانية المشابهة لم تستطيع مواكبة نفس الحس بالاعتقاد الخاطئ ولا دفعت الاعتبارات الجيوبولتيكية إلى الدفع بهذه الدرجة من الثقل لصالح التدخل.

١- مصدر سابق، شو، ص ١٥٦.

٢- مصدر سابق، روبنسون، ص ٦٤.

وأكثر من ذلك، كما يلاحظ (مينار، سكوت، وفايس)، بأنه كانت هناك (عوامل سياسة محلية) فاعلة في تغير موقف ميجور (حيث لاحظت مصادر مقربة من صناعة القرار بأن رئيس الوزراء جون ميجور كان يخشى من الانتقادات لعدم الفاعلية التي قد توجه له من سابقته مارغريت تاتشر، التي أخذت على نفسها مهمة لقاء قادة الأكراد اللاجئين في مجهود لدفع حكومتها لاتخاذ الفعل).[1]

وبينما استمرت تاتشر في القيام بمثل هذه الجهود والمحاولات للتلاحم والتقارب مع البوسنيين خلال أزمتهم، والتي قام ميجور بتجاهل هذه الجهود لحد كبير، فإننا علينا أن نتذكر بأن ميجور في نيسان ١٩٩١، لم يكن قد مضى في دوانغ ستريت أكثر من خمسة أشهر، حيث حصل على رئاسة الوزراء، علاوة على ذلك خلال منافسة مريرة على قيادة حزب المحافظين التي أعقبت تنحية تاتشر والتي قدم نفسه خلالها على أنه مرشح معتدل (لتوحيد) الحزب وقادر على شفاء جروح (حزب المحافظين) الملتهبة بشدة، وفي نيسان التالي، كان يتوجب إجراء انتخابات مقبلة، ولكي يتم انتخابه فيها رئيساً للوزراء من قبل جمهور الناخبين، يعتمد ذلك أولاً على اختيار أعضاء حزب المحافظين له ولذلك قلقاً من إغضاب جناحي الحزب.

وهو ما جعله واهناً بشكل خاص للنقد من قبل سلفه، خصوصاً إذا كانت آراؤها موافقة للرأي العام، ولم تكن أياً من هذه العوامل قد ظلت قوية كمؤثرات فاعلة للتحفيز على اتخاذ أفعال عندما واجه ميجور نزاعات في يوغسلافيا السابقة، ولهذا فإن الأزمة الكردية بالنسبة للمتشككين في (تأثير الـ CNN)، توحي بأن التحالفات السياسية والاهتمامات الانتخابية المحلية كانت أكثر نفوذاً وتأثيراً بكثير من ضغوط التلفاز.[2]

١- مصدر سبق ذكره، ١٩٩٥، ص ٥١.

٢- مصدر سابق، روبنسون، ص ١٥٨.

الصومال: (عملية استعادة الأمل) ٩٢- ١٩٩٣:

في بداية التسعينات وبينما كان الانتباه الأوربي مركزاً على يوغسلافيا السابقة، فإن المجاعة كانت تعصف بسكان شرق أفريقيا وخصوصاً في الصومال وجنوب السودان، وفي كلا الحالتين، كان الجفاف الذي أدى إلى نقص حاد في المحاصيل لم يكن هو السبب الوحيد الذي أدى إلى ندرة الغذاء، أن المجاعات نادراً ما تكون نتيجة (لكوارث طبيعية) أكثر من كونها نتاجاً لظروف سياسة متقلقلة وغير مستقرة، والتي تقوم فيها بعض الجماعات نظراً لقربها من السلطة أو موضع النفوذ أو امتلاكها لتسليح أفضل، باحتكار الموارد على حساب الآخرين، ولقد لعبت الحرب الأهلية دوراً حاسماً في حرمان الآلاف من السودانيين والصوماليين من الغذاء في بداية التسعينات، وواحدة من هذه المجاعات حصلت على تغطية إعلامية مهيمنة وكانت موضوعاً لتدخل من الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة، أما الأخرى، في السودان، فإنها لم تحصل إلا على تغطية مؤقتة أو متقطعة في أحسن الأحوال، رغم أنها أدت إلى إزهاق أعداد أكبر من الأرواح.[١]

ولفترة من الوقت، خشي عمال الإغاثة ومسئولو الإغاثة في الدول الغربية بأن مجاعة الصومال سوف تلقى إهمالاً مماثلاً، وفي تموز ١٩٩٢، أثار الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي ضجة بتصريحه بأن مأساة الصومال هي ضحية لحرب (الأغنياء) في يوغسلافيا التي حصلت على قدر كبير من الإشهار والدعاية.[٢]

وعلى عكس المفاهيم التقليدية السائدة فإن وسائل الإعلام الغربية لم (تكتشف) المجاعة في الصومال وتسلط عليها الأضواء والانتباه من قبل الحكومات البعيدة التي كانت حتى الآن متجاهلة للأمر، وأن الاندفاع المفاجئ لجماهير واسعة من طواقم تصوير الإخبار إلى مقديشو في خريف ١٩٩٢، ربما

1 - Neuman, J (1996) Lights, Camera, War is Media technology Driving International Politics? New York, ST Martin's Press.

٢- مصدر سابق، انظر مينار، سكوت وفايس، ص ٥٤.

يكون قد شحن الانطباع بأن الـ CNN تعمل كخدمة استخبارية ومعلم أخلاقي في نفس الوقت للحكومات الغربية، ولكن هذا الانطباع هو مضلل لحد كبير.

وفي الواقع فإن وسائل الإعلام الأميركية بدأت في الاهتمام في الصومال بعد أن عمل المسؤولون الأميركيون ومنظمات الإغاثة على تشجيعهم لعمل ذلك، وفقط بعد أن مات ما يقرب من ٣٠٠ ألف إلى ٥٠٠ ألف صومالي من المجاعة في منتصف صيف ١٩٩٢.[١]

ويجادل الباحث في علوم الاتصال ستيفن ليفنغستون وتود إيكاوس بشكل مقنع بأن الأفراد المتخصصين في واشنطن في وكالات الإغاثة عملوا لوضع الصومال على قمة أجندة صناعة القرار، ومحاولين توجيه انتباه وسائل الإعلام نحو القضية جزئياً من أجل التغلب على المشاكل البيروقراطية وممانعة العسكريين ضمن إدارة بوش للتدخلات الإنسانية على نطاق واسع.[٢]

وطبقاً لأندرو ناتسيوس من كتب (المساعدة في الكوارث الخارجية) فإن الجهود الأولية حتى هذه النقطة لم تكن ناجحة، كما كانت مؤتمرات الصليب الأحمر والجولات التي قام بها للصحفيين في الخريف الماضي.[٣]

وتم توجيه انتباه ضئيل من قبل الإعلام تجاه مؤتمر مكافحة الجوع الذي عقده الكونغرس الأميركي والذي أدلى تايتوس بشهادة أمامه، وإلى بعض المؤتمرات الصحفية التي عقدت في الصومال في يناير وفبراير ١٩٩٢، وتدريجياً، فإن جهود تاتيوس لوضع المجاعة في الصومال في منظار (أسوأ أزمة إنسانية في العالم اليوم) "وفقاً لما جاء في شهادته" بدأت تفعل فعلها، ويورد لينفستون وزميله ايكاوس (٥٠ استعمالاً) لعبارات مماثلة من قبل وسائل الإعلام عبر الأشهر القليلة التالية.[٤]

1 - Livingston, s and Each us, T (1995) (Humanitarian Crisis and US Foreign Policy) Political Communication, 12, 413. 29.

٢- نفس المصدر، ص ٤١٨.

3- Gassman, P(1995) (TV Without Government: The New World Order?) In Girardet.

٤- مصدر سابق، ص ٤٢٤.

ورغم ذلك، فإن قطعة تقليدية من المراسلات الدبلوماسية، دفعت إلى تحول في القرار نحو تدخل عسكري: برقية من السفير الأميركي في كينيا، يصف بشكل تصويري زيارته إلى مخيمات اللاجئين الصوماليين على طول الحدود الكينية.(١)

البرقية الملقبة (يوم في الجحيم) تم وضعها محل انتباه الرئيس بوش (الأب) من قبل مستشار الأمن القومي برينت سكوكروفت الذي كان هو نفسه معارض للتدخل العسكري، وعلى كل حال، فإن البرقية على ما يظهر أثارت ذكريات لدى (جورج وبربارة) عن رحلة قاما بها إلى ملجأ لمنظمة (كير) خلال فترات مجاعة اجتاحت مناطق (السواحيلية) في منتصف الثمانينات، ويزعم بوش إن ما شهده في حينه قد (أثر بشكل واضح في قراره لإرسال القوات إلى الصومال).(٢)

ولاحقاً فقط عزا قراره إلى مشاهدة الصور المتلفزة عن (أولئك الأطفال الجائعين... الذين يبحثون سعياً وراء كوب صغير من الرز).(٣)

وكما توحي بذلك النسخ المتعددة التي قدمها الرئيس بوش عن (ما حركة لإطلاق عملية استعادة الأمل)، فإن الباحثين واجهوا معضلة في التأسيس أو عدم الموافقة على ظاهرة (تأثير الـ CNN) بناء على حوادث من هذا النوع،فليس فقط أن الذاكرة "مثل التلفاز" متقلبة وانتقائية، فإن صناع السياسة مؤهلون دائماً لتقديم روايات خادمة لمصالحهم الشخصية حول حساسيتهم نحو القضايا الإنسانية عندما يكون ذلك ملائماً لهم، كما أنهم ينكرون في أحيان أخرى أي احتمالات أو شكوك بخصوص الصور المحركة.

ورغم ان بوش قد يكون بالفعل قد تأثر بالبرقية والصور، فإن هذا لا ينفي وجود دوافع وأسباب معقدة كانت في محل الفعل أيضاً، فنظراً لتلويث

---

1 - Strobel, W (1997) Late –Breaking Foreign Policg: The News Media's Influence on Peace Operations, Washington, D C, United Stated In statute of Peace Press.

2- Natsios, A (1996) (Illusion of Influence: the CNN Effect -28 in Complex Emergencies) in Rot berg an Weiss.

3 - Fearer, and Gelpi, C (1999) (A Look At... Casualty Aversion: How Many Deaths are Acceptable?) Washington Post November 7.

صورته من خلال الاتهامات التي وجهها له كلينتون خلال حملة الانتخابات في ١٩٩٢، بأن الإدارة الحالية لا تقدم إلا بالقليل النافع لمساعدة المجاعة في الصومال، كان لدى بوش (بعضاً من الأماني الشخصية في أن يغادر المنصب إنسانياً).[1]

وما يثير الصدمة، هو إنه اختار عدم الاستجابة للمجاعة الحاصلة في جنوب السودان، رغم زيارته المؤثرة لهناك في العقد السابق، ولكن عوضاً عن ذلك فضل عملية عسكرية في الصومال، وفي أعين نقاده، كانت هذه خطوة محسوبة بدقة لاستعادة ذكريات النصر في حرب الخليج، مما يسمح لـ (رئيس السياسة الخارجية) بالخروج من منصبه في (شعلة من المجد) مما يدفع بعيداً التهم الموجهة له بأنه قد تجاهل التصرف بفعالية في البوسنة.[2]

وكان التدخل في الصومال يشي بكونه عملية، قليلة التكلفة، التي تعمل على استعادة (الهيبة الرئاسية) (بدون أي مخاطر كبرى من رجوع أكياس الجثث عائدة إلى الوطن) أو كما نصح وزير الخارجية لورنس ايغلبيرغز بشيء مقارب لذلك.[3]

أما كيف ستخلص القوات الأميركية لاحقاً من هذا المأزق فكانت هذه مسألة أقل وزناً وتأثيراً طالما أن خليفة بوش هو من سيلقى عليه عبء إيجاد إستراتيجية للخروج وهكذا فإن التدخل في الصومال تم تخيله وتصوره كحملة علاقات عامة بأساليب عدة كما يوحي بذلك الأسلوب الذي تم تنفيذ وتغطية وصول سفن الإنزال البحري الأميركية إلى سواحل الصومال عند العاصمة مقديشو في الساعات السابقة للفجر في ٩ ديسمبر ١٩٩٢.(*)

١- مصدر سابق، نيومان، ص ٢٢٩.

2 - Rather, D (1995) (Covering Somalia: recipe for Disaster) in Girardet.

٣- مصدر سابق، مينار فايس ونسكوت، ص ٥٥.

* - لاحظ أن في هذه الفترة التي اتخذ فيها قرار التدخل وتنفيذه، كان بوش الأب قد خسر الانتخابات للتو أمام منافسه كلينتون، لذلك فإن قرار التدخل (الإنساني) هذا هو ما رغب أن يتذكره العالم به!

ولذلك فإنه في لحظة وصول سفن الإنزال المتوقعة تحت جنح الظلام، تمت مقابلتها على الساحل بما يقرب من ٦٠٠ شخص من أفراد فرق الصحافة ووسائل الإعلام العالمية (انظر شكل ٥:٢) في الصفحة المقابلة.



شكل (٥:٢)

الإنزال الأميركي على سواحل الصومال تحت غطاء الظلام
في ديسمبر ١٩٩٢ (الصورة نقلاً عن أسوشيتدبريس)

وبضمنهم أربع من كبار المذيعين في المحطات التلفازية الرئيسية، وربما يكون القادة العسكريون قد تذمروا بأن هذا الحشد الهائل من وسائل قد أنتج تأثيراً خاطئاً " أنوار التلفزيون قد أزعجت أفراد القوات الأميركية وأصابتهم بالدوار وهم يستعملون مناظير الرؤية الليلية على أعينهم" ولكن في الواقع فإن المسئولين الأميركيين كانوا قد دعوا الكاميرات لحضور كيفية (السيطرة) على الصومال،

وطبقاً لصحافي بريطاني كان حاضراً وقتها، فإنه كان يعلم منذ اللحظة الأولى لمشاهدته (الإنزال المتلفز) في الصومال (بأن الصومال سوف تكون كارثة بالنسبة للولايات المتحدة... لغزو الصومال كما لو كانت هدفاً عسكرياً وتعامل كل الصوماليين كما لو كانوا أعداءً محتملين كان أسوأ من مجرد خطأ، كان مقدمة إلى الكارثة).[1]

وكانت (مسرحة) عملية الإنزال سهلة، مع وجود (سيرك) من وسائل الإعلام العالمي التي كانت تقدم لحد الآن المزيد من الصور الإيجابية حول القوات الأميركية، الأمم المتحدة، التي توفر المساعدة الإنسانية للصومال، ولكن تقديم المساعدة لأولئك الذين كانوا بالفعل بحاجة لها ثبت أنه أكثر صعوبة، حيث وجد القادة العسكريون الأميركيون أنفسهم في خضم القتال الدائر بين الجماعات الصومالية المسلحة المتحاربة فيما بينها.

وضد الوجود الأجنبي المتدخل في بلادها، في بلد كانت فيه الدولة قد إنهارت بشكل واضح، وسرعان ما تم وضع خطة لـ (زحف المهمة) مع توسع أهداف العملية التي تقوم بها الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة لحد كبير، وتم تسليم مهمة بعثة الأمم المتحدة لتسليم الغذاء والمساعدات الأولية (UNITAF) إلى بعثة مهمة جديدة (اليونسوم ٢، قوة العمليات في الصومال (UNOSOM II) التي أوكل إليها نزع أسلحة الميليشيات الصومالية المتقاتلة، وتعقب الجنرال محمد فرج عيديدو اصطياده، واستعادة النظام والسلطة وليس الأمل فقط، وبكلمات فرانك ستيش، فإن (زحف المهمة) أصبح (عدواً بالفرس للمهمة) مع إرسال المزيد من الدول قوات للمشاركة ضمن قوات الأمم المتحدة التي كانت تحاول الإيفاء بجملة من الأهداف المتناقضة والمتزايدة (بناء دولة، تأمين الغذاء، فرض السلام وحفظ السلام، وبعد أن قامت قوات عيديد بقتل بعض من أفراد قوات الأمم المتحدة/ الباكستانية، ثأراً لهجوم على محطتهم الإذاعية الخاصة، وضعت الأمم المتحدة مكافأة على رأس

1 - Dow den, R (1995) (Covering Somalia: Recipe for Disaster) in Girardet.

عيديد (ما كان مهيناً تحول إلى أمر شخصي) يلاحظ أحد كبار الضباط الأميركيان (الرجولة كانت على المحك).[1]

وإذ خرجت الأوضاع عن السيطرة، فكذلك فإن عملية السرد انحرفت كذلك عن مسارها، فلم تعد الأخبار الآن عن قوات أميركية تعمل على إنقاذ الضحايا الأبرياء للمجاعة بل عن عملية تعقب لرجل أخذت (طابعاً شخصياً) والتي تم خلالها قتل أعداد من الصحفيين وأفراد قوات الأمم المتحدة من ذوي القبعات الزرقاء وأعداد من الصوماليين، وخلال صيف وخريف ١٩٩٣، كانت الأوضاع الأمنية قد تدهورت إلى الحد الذي لم تعد فيه القوات الأميركية قادرة على حماية الأعداد المتناقصة من المراسلين الغربيين الذين ما زالوا يعملون في الصومال وفي تموز ١٩٩٣، تم ضرب ثلاثة صحفيين حتى الموت بعد مقتل ٦٠ صومالياً في هجوم لمروحية أميركية على مناطق يسيطر عليها عيديد.[2]

بينما وجد أفراد آخرون من وسائل الإعلام أنفسهم يتعرضون لاعتداءات من قبل القوات الأميركية، وفي حادثة في أيلول ١٩٩٣ أبلغ ٣ مصورون ومراسل عن تعرضهم لتوجيه البنادق نحوهم من قبل أفراد الجيش الأميركي لمنعهم من تصوير وتغطية مشهد عملية عسكرية.[3]

وكانت هذه هي الخلفية العنيفة التي عرضت بإزائها صور سحل الجنود الأميركيين في شوارع مقديشو الشهيرة التي تم عرضها في ٤ أكتوبر ١٩٩٣، بعد أن قامت قوات عيديد بإسقاط مروحيتي (بلاك هوك) أميركيين، والتي أدت إلى إشعال قتال مستمر بالأسلحة أسفر عن مقتل ١٩ جندي أميركي مع سقوط مئات من الجرحى والقتلى من الصوماليين المدنيين والمسلحين (من المرجح ان العدد يقارب ١٥٠٠ شخص).[4]

1 - Stech, F (1994) (Preparing for more cnn wars) in petrie.
2 - Iy man, R (1995) (Occupational Hazards) in Girardet.

٣- مصدر سابق، كينان، ص ١٥٦.

٤- مصدر سابق، ستروبل، ص ١٧٦.

وحسب العديد من التقارير فإن الصور المتزايدة لما تم بثه من قبل الشبكات الإخبارية الأميركية، وضعت حداً (لعملية استعادة الأمل) مستحثة اشمئزازاً عنيفاً من قبل الرأي العام حول التدخل الجاري في الصومال حتى أن كلينتون كان ملزماً لسحب القوات الأميركية من هناك، حيث أن البيت الأبيض على ما يبدو تلقى الآلاف من الاتصالات الهاتفية الغاضبة.[1]

وحتى إن كلينتون نفسه، نقل عنه إنه (كان غاضباً جداً)، وداعياً هذا بأنه (أسوأ يوم في حياتي).[2]

ويؤكد مستشار الأمن القومي الأميركي انتوني ليك واصفاً الصور (لقد ساعدت الصور في جعلنا ندرك بأن وضع الجيش في مقديشو قد تدهور بطريقة لم نكن تدركها بصراحة)، مما يبدو أنه يؤكد النقطة التي أخذت تتكرر بشكل متزايد بأن الـ CNN أخذت تحل محل الـ CIA بالنسبة لصناع القرار كمصدر حديث ومواكب للتطورات حتى اللحظة الآنية للمعلومات الاستخبارية.[3] وتم الإعلان عن الانسحاب بعد ذلك بسرعة خارقة.

إذن هل تقدم الصومال حالة نموذجية بشكل مثالي عن تأثير الـ CNN؟ بعد أن عرضت الشبكات الإخبارية الأميركية صور العراقيين وهم يسحلون جثث المتعاقدين الأمريكيين الأربعة المشوهة في شوارع الفلوجة في ٢٠٠٤، عدداً لا يحصى من المعلقين عادوا بذاكرته ١١ عاماً إلى الوراء لاستحضار صور مقديشو تلك، التي اتفقت العديد، على أنها أدت إلى أجبار إدارة كلينتون إلى الانسحاب، لكننا يجب أن نلاحظ أولاً، بأن اللقطات نفسها رغم كونها مدمرة، لم تستمد أياً من تأثيرها كونها بثت في الزمن الحقيقي أكثر، بحلول أكتوبر ١٩٩٣، كانت أعداد الصحافة العالمية قد انخفضت كثراً من ٦٠٠ فرد إلى حوالي ستة إلى ثمانية أفراد فقط، والصور التي عملت على إنهاء المهام (الإنسانية) هناك رغم عدم انتهاء دورها،

١- مصدر سابق، مينار، وسكوت وفايس، ص ٥٥.

٢- مصدر سابق، غاونغ، ص ٦٧.

٣- مصدر سابق، غونغ، ص ٦٧.

تم التقاطها من قبل سائق صومالي، تم تسليمه كاميرا من قبل طاقم رويتر المغادر للصومال الذي أصبح الآن بالنسبة لهم غريباً، وصورة للجندي الأميركي الذي تم سحله نقلت إلى قناة الـ CNN التي عرضتها ثم تم إعادة بثها بسرعة من قبل الشبكات الأخرى التي تلقفتها ولكنها لم تكن متزامنة في نفس الوقت مع الأحداث نفسها.[1]

ثانياً: يقترح البعض أن إدارة كلينتون في ذلك الوقت، وعلى عكس إدعاء (ليك) بأنه قد تم جذب انتباهها من خلال اللقطات لما كان يحصل هناك كانت بالفعل تأخذ في الاعتبار تخفيض حجم العمليات في الصومال ومن ثم الخروج من عملية الصومال بعد فترة من الوقت، وقدمت الأخبار المروعة من مقديشو في مفارقة كبيرة، الحجة لإعلان ذلك بشكل علني، وحتى آنذاك كان كلينتون يقاوم الإغراء لإعلان انسحاب فوري، محاولاً بشكل أولي تقوية موقف الولايات المتحدة قبل الإعلان بأن المهمة سوف يتم إنهاءها في ٣١ آذار ١٩٩٤، وعلى ما يبدو فإن ضغط الرأي العام من أجل الانسحاب لم يكن أمراً لا يمكن معالجته أو تذليله، وفي دراسة أجريت في جامعة ميريلاند أظهرت أن معظم مشاعر التأييد لانسحاب مبكر نتجت عن تصور الأميركيين بأن الصوماليين (يريدون) من القوات الأميركية أن تغادر، وعند سؤالهم فيما إذا كانوا سيستمرون في تأييد العملية فيما إذا تبين العكس، أجاب ٥٤٪ من المستطلعة آرائهم بالإيجاب.[2]

ويؤكد كل من بيتر فيافر وكريستوفر غيلبي بأن (بحوث أظهرت أن معظم الأميركيين كانوا سيتقبلون جهوداً أوسع للقبض عليه "أي الجنرال عيديد" ومعاقبته).[3]

1 - Pilkington, E (1993) (shots that Shook the World) Guardian, October ll.

٢- مصدر سابق، كول ورامنري.

٣- مصدر سابق، فيافر وغيلبي، ص ٨٨.

ولكن الرئيس كلينتون لم يكن مهتماً في الاستمرار لما لا نهاية في عملية كانت أصلاً قد توسعت ما وراء مقاييسها الأولية، وهكذا تم وضع حد لإنهاء العملية، ومن ذلك الحين، تم وضع حدود أكثر صرامة للظروف التي يمكن فيها أن تتدخل الولايات المتحدة خارجياً، وتم إعلان مثل هذه السياسة في الأمر الرئاسي رقم ٢٥، ولقد عملت قضية الصومال على إعادة فرض الاعتقاد الذي ساد ما بعد – فيتنام بان الأمريكيين يعانون من عقدة (الخسائر البشرية) المستندة إلى دليل غير مقنع أو غير حاسم، وهذا المعتقد مع ذلك كان له عواقب ظاهرة على الأزمات المستقبلية في البوسنة، ورواندا، وكوسوفو، معلية من الرفض الرئاسي للفعل، وتوجيه خطط البنتاغون نحو غاية (عمليات عسكرية: صفر من الخسائر البشرية).[1]

الحروب في يوغسلافيا السابقة (٩١- ١٩٩٥):

ان سلسلة الحروب التي رافقت حل جمهورية يوغسلافيا الاتحادية في بداية التسعينات لم تفتقر إلى انتباه واهتمام وسائل الإعلام، إلى الحد الذي دفع المراسل السابق لـ BBC مارتن بيل إلى القول بأن (ما من حرب أخرى –حتى حرب الخليج نفسها، والتي اتخذت شخصية (الحدث المصنوع خصيصاً لقناةCNN) قدّ تم خوضها بهذا القدر علنا، تحت أعين الكاميرا، كما في صراع البوسنة والمرسل الذي تم خوضه بين قوات الحكومة البوسنة، وقوات صرب البوسنة المدعومين من قبل نظام بلغراد.[2]

وبالنسبة لـ بيل وعدد آخر من مراسلي الصحف والتلفاز مثل ماجي أو كاني من (الغرديان) البريطانية، كانت قضية البوسنة تحتاج المزيد من الاهتمام عالمياً وإعادة تقديم لقيمة التوازن في التغطية.

1- Jackobsen. P (2000) (Focus on the cnn Effect Misses – the point: the real Media impact on Conflict Management) Journal of Peace Research, 37, Íí, 131 – 43.

٢- مصدر سابق ،بيل، ١٩٩٥، ص ١٣٧.

ويرى بعض الباحثين الأكاديميين في التغطية المشبوبة العاطفة من البوسنة كدليل ملزم على تأثير الـ CNN في موضع الفعل، مع تغيرات وتحولات أساسية في سياسات الأمم المتحدة والناتو والاتحاد الأوربي والولايات المتحدة التي فرضت من خلال تركيز المراسلين على انتهاكات حقوق الإنسان التي تم ارتكابها من قبل الصرب البوسنة، ولكي يقيموا الدليل على هذه النقطة، قاموا باستحضار العديد من الحوادث المسلم بها بشكل صوري أو في رسوم غرافيكية التي اجتذبت عناوين رئيسية كبيرة مثل صور الأسرى في أومراسكا وترونوبلجي في آب ١٩٩٢، وقصف سوق سرايفو في ٥ شباط ١٩٩٤، والصورة التي نشرت على الصفحة الرئيسية لصحيفة (الواشنطن بوست) التي تعرض صورة امرأة مسلمة التي شنقت نفسها بعد الاعتداء عليها من قبل الصرب.

ولكن ليس كل المعلقين يتفقون على مثل هذا التقدير لقوة وسائل الإعلام، وبالفعل فإنه بالنسبة لأولئك الذين عقدوا فكرهم على فضح مزاعم (تأثير الـ CNN)، فإن يوغسلافيا السابقة توفر التمثيل الأكثر وضوحاً على غياب أي صلة مسببة بين صور وسائل الإعلام عن المعاناة الإنسانية وبين التدخل المبني على قرارات مسبقة لرفع هذا الظلم والحيف، ولدى بيرس روبنسون، فقد برهنت يوغسلافيا، على أن تأثير الـ CNN القوي يعمل فقط عندما يكون صناع السياسة مترددين في اتخاذ القرار أو منقسمين على مسار ونوع الفعل الذي يجب اتخاذه، كما كان الحال بالنسبة للساسة الأميركيين حتى قرارهم في سنة ١٩٩٥ عندما تم استخدام القوة الجوية لأول مرة ضد مواقع صرب البوسنة لأول مرة ويمضي مينار، سكوت، وفايس أبعد من ذلك حتى، في النظر إلى حروب البلقان في التسعينات بأنها مثلت (تغطية معتمة، وأفعالاً انتقائية).[1]

وبشكل مشابه لذلك، فإن المذيع الرئيسي في الـ CBS، دان راذر، مخاطباً مقالة جورج كينان الافتتاحية في (نيويورك تايمز) حول القوة التدميرية لوسائل

١- مصدر سابق، ص ٥٧.

الإعلام، رداً بالقول إنه إذا كان مستشار الأمن القومي السابق محقاً، لوجب (ان يكون هناك جنود مارينز أميركيين الآن حالاً على أسوار سرايفو، يدافعون عن المسلمين البوسن)، وبكلمات موجزة فإن دفاع وسائل الإعلام كان بأنه لا يوجد مثيل لقسوة فؤاد وعناد السلطة الرسمية.

ووفقاً لحكم العديد من الباحثين المتخصصين في العلاقات الدولية فإن تصميماً على تجنب الالتزام في أرسال قوات برية لمنع الاعتداء في يوغسلافيا السابقة كان هدف السياسة الضاغط لدى القادة الغربيين، فهم بشكل مؤكد لم يظهروا أي التزام لحماية وحفظ البوسنة، وهي نظام سياسي مختلف أثنياً عما هو سائد في أوربا، في مواجهة المحاولات العنيفة من قبل القوات الصربية والكرواتية لخلق دول وكانتونات نقية عرقياً في ما كان سابقاً جمهورية فيدرالية يتعايش فيها العديد من الأقليات العرقية والدينية المختلفة بسلام، وطبقاً لجيمس غاو فإن القادة الغربيين تمكنوا من قيادة مسارات مباشرة أو غير ذلك من الاجتناب، نتيجة لـ (انتصار الافتقار إلى الإرادة) كما صاغها بشكل تهكمي.

وتصميماً على وضع حدود واضحة لالتزامهم بالمهمة، عمل الأعضاء البارزون في مجلس الأمن أن يكون القرار الصادر عن الأمم المتحدة، ليس أكثر من تفويض إرسال (قوة حماية) بدون قيادة مركزية أو هيكلية التي سميت (UNPROFOR) والتي كانت مهمتها محددة لتوفير ممرات آمنة لإمدادات الغذاء والدواء إلى المناطق التي قطع عنها بسبب القتال المندلع، ولذلك فإن قوة (UNPROFOR) لم تكن حينئذ " قوة لفرض السلام أو حتى قوة لحفظ السلام" وهي نقطة مفهومة وواضحة من حقيقة ان جنود هذه القوة لم يكن مسموحاً لهم للرد بإطلاق النار إذا ما تعرضت المناطق المنكوبة التي تكون تحت حمايتهم على هجوم في عام ١٩٩٥، بعدما قام المتطرفون من صرب البوسنة بأخذ أثنين من أفراد قوة الأمم المتحدة كرهائن، وسقطت اثنتان من (المناطق الآمنة) المفترضة تحت سيطرة الصرب، عندها فقط

قامت الأمم المتحدة بالتحويل بتوجيه ضربات جوية لرد الاعتداءات، بعدما فشلت في الاستجابة بطريقة مماثلة للتهديدات السابقة باستخدام ضربات جوية تأديبية.[1]

وفقط بعد أن أصبح التقسيم الاثني للبوسنة أمراً حتمياً بواسطة قوات صرب البوسنة، أن قام الرئيس كلينتون بالالتزام بإرسال قوة من ٢٥ ألف جندي أميركي من القوات البرية للعمل على حراسة اتفاق السلام مبنياً على تقسيم البلد إلى كانتونات، وهكذا تفككت البوسنة، وهو الأمر الذي اعترف كلينتون قبلاً بمقته له، ولهذا أصبحت تحت مراقبة وإشراف القوات الأميركية والتي رفض الرئيس أن ينشرها مسبقاً دفاعاً عن البوسنة المتعددة العرقيات.

وعلى الرغم من توجيه الانتباه الإعلامي المستمر تجاه معاناة المدن البوسنية المحاصرة، فإن القادة الغربيين نادراً ما ظهر إنهم تحت حالة من الضغط الذي لا يقاوم من أجل القيام بعمل ما ، وهذه الحالات تلمح إلى أن وسائل الإعلام يمكنها بشكل متقطع أن تدفع السياسيين لاتخاذ القرار، ولكن الأفعال الناتجة عن ذلك هي لحد كبير على مستوى التكتيك لا الإستراتيجية.

وبالفعل فإن دوغلاس هيرد (وكيل الخارجية البريطاني طوال هذه الفترة تقريباً) قام بالتباهي بأنه لا يحيد عن مسار السياسة المفضل لدى حكومته سوف لن تندفع إلى المشاركة في تدخل عسكري: (ببساطة بسبب الضغط اليومي من قبل وسائل الإعلام).[2]

في أي الظروف إذن تعمل الأخبار بشكل واضح على تعديل السياسات؟

يقترح غاونغ إن المناسبة الأولى جاءت مع تنبه وسائل الإعلام البريطانية والأميركية إلى التقارير التي أشارت إلى معسكرات العزل الصربية التي أقامها

١- مصدر سابق، روبنسون ٢٠٠٢، ص ٧٥.

٢- مصدر سابق، مينار سكوت، فايس، ص ٥٨.

البوسنيون الهزيليون، مثلت نسخاً صاعقة من صور الناجين من الهولوكست، وطرح معاملة الأسرى على أجندة صانعي القرار مع الممارسات الأوسع من التطهير العرقي الذي قام به الصرب وذبح الرجال البوسنيين، أدى إلى إثارة الجدل حول إذا ما كان القادة الغربيون يعرفون أصلاً بوجود هذه المعسكرات، والفضل في ذلك إلى مفوض الأمم المتحدة لحقوق اللاجئين، ولكن حتى إذا كانوا يعرفون بذلك، فإنهم لم يتخذوا قراراً بالفعل وفقاً لما كشفه المراسلون.[1]

وبعد ذلك في مؤتمر الأمم المتحدة/ المفوضية الأوربية في لندن، في أواخر شهر آب، أصبحت معسكرات الموت الصربية قضية رئيسية، وتم الحصول على تعهد من قائد صرب البوسنة رادوفان كراديتش بالعمل على إغلاقها.

ويمكن الجدل، حينئذ بأن وسائل الإعلام كان لها تأثير في هذه الحالة، رغم إنه لم يكن ذلك التأثير الذي أمل به روي غوتمان الفائز بجائزة بوليتزر للصحافة، والذي كان أول من كشف عن وجود هذه المعسكرات.[2]

ويمكن الجدل بشكل مشابه بخصوص قرار الأمم المتحدة المرقم ٨١٩ في نيسان ١٩٩٣، والذي خول إقامة (مناطق آمنة) في المدن البوسنية المحاصرة " سريبنتشا، تسيبا، وفيما بعد غورزادي" والتي كانت قوات صرب البوسنة تقريباً قد أنهت مهمتها من حواليها في (التطهير العرقي).

وهذا التحول التكتيكي تمت نسبته بشكل كبير إلى لقطات تلفازية من سريبنتشا تم تصويرها من قبل المصور توني بيرتلي، الذي قام بالدخول سراً إلى المدينة، مترافقة مع توسل الجنرال في قوة الأمم المتحدة فيليب موريلون بشكل شخصي لإنقاذ سيريبنتشا مهما كانت القيادة في

١- مصدر سابق، غاونغ، ص ٤٣.

2 - Gut man, R (1993) A witness to Genocide) Shaftsbury, Element

نيويورك تومي به بشكل مناقض، وطبقاً لـ غاونغ فإن أشرطة بريتلي المصورة أثرت في الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن لحد كبير، حتى إنهم عملوا على الضغط بشكل حثيث للخروج بخطة المناطق الآمنة على الرغم من معارضة الأعضاء الدائمين في المجلس بقوة.(١)

وعلى كل حال فإذا كانت المناطق الآمنة في الواقع قد خدمت في حماية البوسنيين، في ظل غياب أي تفويض لقوة الأمم المتحدة لاستهداف المعتدين عليها، أو أي أعمال تؤدي إلى تسوية طويلة الأمد، فإنها تظل موضع شك كبير طالما أنها لم تقم بأي فعل لتغيير أعمال التطهير العرقي في المناطق المحيطة بها!

وفي عام ١٩٩٤، تم اتخاذ أسلوب أكثر إرغاماً وقوة من قبل الناتو وكلينتون، حيث تم شن غارات جوية على قوات صرب البوسنة لمنعهم من القيام بأفعال عدوانية في مناسبات عدة ولردعهم، وكان هذا التشدد في اتخاذ القرار، عائداً أيضاً بشكل واضح إلى لقطات التلفاز التي أظهرت العواقب المؤسفة لهجوم بقذائف المورتر على سوق في سراييفو في شباط ١٩٩٤، وكتب أحد الصحفيين التابعين لمحطة التلفاز التي صورت اللقطات: (الأجساد تم تقطيعها إلى أشلاء وانتشرت الفوضى لإنقاذ الضحايا المصابين بشدة، وصرخات المعاناة، والحزن المدمر) ويضيف قائلاً (وكل ما كان ينقص هو رائحة الموت العفنة).(٢)

وفي رأي مارتن بيل، فإن التغطية التي قدمها هذا البرنامج أنتجت تحولاً في السياسة، ويجادل غاونغ بأنها كانت تمثل حالة محدودة التأثير، ورغم أن الرئيس كلينتون إنه (تميز) من الغيظ بسبب المشاهد المتلفزة للمذبحة، إلا إنه تصرف في الواقع بشكل متردد وغير حاسم، وعقد

١- مصدر سابق، غاونغ، ص ٤٩.

2- Matthews, M (1994) (Television Shifts Focus of us Foreign Policy) Baltimore sun, February II.

اجتماعاً في المكتب البيضاوي لدراسة المسألة، لكن الضغط الحقيقي من أجل شن الغارات الجوية جاء من الحكومة الفرنسية، كما يزعم غاونغ، والتي كانت تحرض على القيام بها منذ فترة من الوقت.[1]

وإن التضافر بين الجهود الدبلوماسية وضغط وسائل الإعلام هو ما يوضح، لما أدت هذه الصور، وليس الفظائع الوحشية السابقة، إلى التحريض على الفعل، وحتى آنذاك كان الرئيس كلينتون ما زال متأرجحاً بعد أن تم اتخاذ القرار، ولكن فقط قبل أن يتم قصف المواقع الصربية بالفعل.

ولكن قرار كلينتون الكامل بتفعيل التهديد الذي طال أمده باستخدام الضربيات الجوية، جاء في السنة التالية، مترافقاً مع (إستراتيجية إنهاء اللعبة)،[*] وتفعيل قوة الأمم المتحدة (UNPROFOR) والالتزام بحماية غروزادي وفرض تسوية إقليمية على الطرفين المتحاربين، وجاءت هذه الخطوة في تموز ١٩٩٥ (الانتخابات الرئاسية في نوفمبر ١٩٩٥)، بعد أن سقطت (المنطقة الآمنة) المفترضة بأيدي الصرب، تاركة قوة الأمم المتحدة والناتو تبدو عاجزة تماماً بما لا يتناسب مع مهمة حماية أرواح البوسنيين، توسعت تقارير التلفاز المصورة في تفاصيل مذبحة أكثر من عشرة آلاف من سكانها العزل، وتدفق اللاجئين الهاربين من المدينة المنكوبة، وبينما حثت المقالات الافتتاحية على جانبي الأطلنطي صناع السياسة على الإمساك (بالشوك) واتخاذ القرارات الصعبة اللازمة، فإن الوضع كان أسوأ فوضى شهدناها في أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، كما يستخلص ريتشارد

١- مصدر سابق، غاونغ، ص ٧٠.

* - السنة التالية (١٩٩٥) هي سنة حملة الترشح الانتخابية، وكان كلينتون بحاجة إلى عمل حاسم، يظهره بمظهر البطل (الإنساني) والمنتصر، مما يحقق له الشعبية ويسمح له بالفوز في الانتخابات "كما حصل فيما بعد".

هولبروك مساعد وزير الخارجية الأميركي في برنامج (نايت لايت) التلفزيوني في محطة الإخبارية.[1]

وبحسب روبنسون، فإن التغطية الإخبارية (المؤطرة بصيغة التعاطف) كانت مؤثرة بشكل خاص عند هذا المفترق، حيث كان صانعو السياسة الأميركيون منقسمين بشأن الخطوة القادمة، البعض كان يفضل مقترح إنطوني ليك بـ (إنهاء اللعبة)، بينما استمر الآخرون بالتردد، مع تعرض كلينتون لضغط مستمر ومتراكم من الحكومة الفرنسية لاتخاذ موقف صلب، وكون مصداقية الناتو على المحك، ربما تكون وسائل الإعلام قد ساعدت في تغليب كفة الميزان قليلاً من دون أن تكون العامل المؤثر الوحيد.[2]

والأمثلة على الحالات التي لا جدال حولها من الاستجابة السريعة والفورية لهذه الصور المؤثرة أو غيرها من الصور التي تهدف إلى التلاعب بالرأي العام، هي تلك الحالات التي أدت إلى أفعال ناتجة عنها تهدف إلى الاستهلاك التلفزيوني، وليست إلى إنتاج تحول في السياسة، بشكل أقرب لأن تكون (حدثاً زائفاً) محسوب بدقة للظهور بمظهر أفعال التعاطف، ومن الأمثلة المذهلة على هذه الظاهرة حدثت في آب ١٩٩٣، عندما عرضت الـ BBC قضية الطفلة البوسنية البالغة من العمر خمس سنوات المصابة بشظايا انفجرت في عمودها الفقري، وعبر ليلة أصبحت (الصغيرة إيرما) طفلة وسائل الإعلام المدللة، حيث تنافست العديد من صحف التابلويد لإجلائها من البوسنة ونقلها إلى لندن لتحصل على معالجة طبية خاصة.[3]

١- مصدر سابق، روبنسون، ص ٧٦.

٢- مصدر سابق، انظر روبنسون ٢٠٠٢، ص ٧٦- ٨٦.

٣- مصدر سابق، غاونغ، ص ٨٠.

وعلى كل، فإن ذلك كان نتيجة لعمل الحكومة البريطانية، التي عملت هي نفسها على تنظيم إخلاء جوي للطفلة المصابة و ٤٠ مصاباً آخر من سراييفو، إن الرغبة في الظهور بمظهر من يقوم بفعل شيء ما، القيام باستجابة فورية لما تطرحه وسائل الإعلام، كما يوضح القائد في قوات الأمم المتحدة بريغادير هايس، ظهر إنه كان ساحقاً طريقة قليلة التكلفة للظهور بمظهر المستجيب للمعاناة، بدون اتخاذ أي خطوات بالفعل مبنية على قرار لمعالجة أسبابها.[١]

وزعم دوغلاس هيرد وهو يهز كتفيه نافياً الاتهامات بالانتهازية بأن الحكومة أدركت بأنه لمجرد (إنك لا تستطيع مساعدة الجميع، لا يعني بأنك يجب أن تساعد البعض منهم).[٢]

وهكذا فإن قضية البوسنة قدمت تأييداً معتبراً لوجهة النظر القائلة بأن التلفاز متقلب في جذبه للانتباه، وانتقائي في الإشارة إلى أفراد أو جماعات مثيرة للشفقة في الوقت الذي يتجاهل تقديم إطار تفسيري للمشاهدين يعطي فهماً منطقياً للعنف الجاري في يوغسلافيا السابقة، ولقد فشلت محطات التلفاز الغربية بالفعل في تفسير الدور الذي كان للقوى الخارجية في حدوث وتسهيل الحروب في البلقان (من خلال السماح والدفع بجهود تفكيك الجمهورية الاتحادية) كما تجاهلت تماماً، كيف أو ما إذا كانت هذه القوى قد ساهمت في إحلال (سلام عادل) في المنطقة، وفي أعين بعض الصحافيين الليبراليين، فإن التلفاز قد تم الاحتفاء به كثيراً في الفترة الأخيرة، كوكيل للمجتمع المدني الكوني، قد فشل في اختراق (جرح المصالح الوطنية) أو كما يصوغها ميشيل إيغناتيف، إن تغطية التلفاز لم

١- مصدر سابق، بيل، ص ١٤٣.

٢- مصدر سابق، الاقتباس عند غاونغ، ص ٨١.

(تخترق درع الانغماس في الذات التي تحيط بعوالمنا الداخلية والتي تفصلنا عن العوالم المعنوية للآخرين) فيما أصر آخرون، على أن التلفاز قد نجح فقط جيداً في زجّ الرأي العام البعيد بوعي صاعق حول سفك الدماء الجاري في البلقان، ويزعم ريتشارد هولبروك بأن الصور المزعجة المتزايدة قد ساهمت في (عدم رغبة الأميركيين بالالتزام بإرسال قوات برية إلى البوسنة، خشية من الانغماس في مستنقع لا يمكن الهروب منه من (العداوات القبلية القديمة) "وهو الإطار السائد لتفسير الحرب" الذي تم تدويره إلى ما لا نهاية.[1]

رواندا (١٩٩٤):

مسؤولية ودور وسائل الإعلام في الهام عملية الإغاثة الهائلة الحجم لمساعدة اللاجئين الذين فروا من رواندا في بداية الإبادة الجماعية في عام ١٩٩٤، قد تم مناقشتها وتناولها بشكل أقل من الحالات الأخرى التي عرضناها هنا حتى الآن، رغم إن تأثير التلفاز على سياسة الحكومات والمنظمات الغير حكومية (Ngo)، كما يجادل (مينار وسكوت وفايس) كان أكثر أهمية ومباشرة من أي مكان آخر.[٢]

وعموماً، فإن العديد من المعلقين، وبضمنهم الصحفيين أنفسهم، أوضحوا تقديرهم لدور الإعلام في تحذير الجماهير البعيدة من المأساة التي تحصل في رواندا، وكانت معظم شبكات التلفاز الرئيسية قد (فوتت) الخبر المهم في رواندا: الإبادة الجماعية لما يقرب من ٨٠٠ ألف فرد من التوتسي وبعض الهوتو من المعتدلين، من قبل الميليشيات التابعة للحزب الحاكم.[٣]

1- Kincaid (1995) (Radio talk Show Vent Public Opinion On Bosnia) Human events, December 22,16.

٢- مصدر سابق، ص ٦٢.

3 - Thompson, A (ed) (2007) The Media and The Rwanda genocide, London, Pluto press.

رغـم ان حفنـة مـن الـصحفيين وبـضمنهم آنـي جـاون مـن وكالـة (الصحافة الفرنسية (AFP) ومارك دويل من محطة الـ BBC، قد كتبوا عن هـذه المذبحـة الجماعيـة بينمـا كانت في مراحل تطورها، فإن طواقم تصوير التلفاز قد وصلت بشكل جماعي فقط بعد انتهاء عمليات القتل وتدفق لأعداد كبيرة من اللاجئين إلى خارج البلد، وبضمنهم الآلاف من الأفراد الذين شاركوا بصورة فاعلة في أعمال الإبادة الجماعي.[1]

وهـذه النقطة الهامة تم بحثها ملياً من قبل بعض الصحفيين الذين خلطوا بين الضحايا الذين هم من التوتسي وبين الضحايا الذين هم من الهوتو في المخيمات، حيث رأوا ببساطة جماهير واسعة لا فرق بينها من (الضحايا)، العديد من اللاجئين، على كل حال، كانوا قد هربوا من البلاد خوفاً من معاقبتهم على اشتراكهم في أعمال القتل من قبل (جبهة الوطنيين الرواندين)، وهي حركة للتوتسي في المنفى والتي عادت إلى رواندا من أوغندا بعد اغتيال الرئيس هايبرمانا.

ولكن كيف ننظر إلى عدم انتباه ويقظة وسائل الإعلام نحو الإبادة الجماعية في رواندا؟ وتلاحظ مراسلة محطة (IIN) ليندسي هيلسوم بأن رواندا كانت بعيدة عن المسارات المعتادة لدى مراسلي شرق أفريقيا المتمركزين عادة في (نيروبي)، والذين كان منهم في معظم الحالات قلة فقط يتواجدون.

وخلال الثمانينات، كان هذا البلد الصغير، يعتبر (بلداً مملاً) "مكان يقوم فيه المزارعون بالزراعة، والحكومة بالحكم!" لكن مثل هذا الوصف لم يكن صحيحاً بأي طريقة كانت بالنسبة لـ رواندا في مطلع التسعينات، نظراً للتحضيرات والاستعدادات الواضحة لعملية القتل الجماعي التي كانت تجري على قدم وساق (انظر الفصل الثاني)، وإذا لم يكن هذا كافياً فإن مذبحة جرت في بورندي في أكتوبر ١٩٩٣، كان يتوجب أن تنبه

1 -Chaon, A (2007) (Who Failed in Rwanda, Journalist or the media?) in Thompson .

المراسلين إلى الأوضاع المضطربة في أفريقيا الوسطى، ولكن هذا أيضاً تم تجاهله.[1]

ودفاعاً عن النفس، يشكك الصحفيون في هذه النقطة، متذرعين بالعديد من المشاكل اللوجستية والتنظيمية التي واجهتهم، كان على المراسلين المتمركزين في نيروبي تغطية رقعة جغرافية واسعة، وطالما أنهم لا يمكنهم أن يكونوا في كل مكان في نفس الوقت، فإن اهتمامهم كان موجها إلى تلك المناطق التي كان وصولهم إليها سهلاً، بفضل السلطات المتعاونة والمواصلات المتوفرة، ونظراً للعديد من الأسباب المشابهة كانت المجاعة في جنوب السودان أقل تغطية "مواصلات ضعيفة وتقييدات حكومية على منح الفيزا" وكذلك كانت المرحلة الأولية من الإبادة الجماعية في رواندا.[2]

كانت رواندا المضطربة أيضاً مكاناً شديد الخطر، ولقد رسمت الصحفية الأميركية (دونتيلا لورج) التي وصلت بفترة وجيزة بعد مقتل الرئيس هابير مانا إلى البلاد، صورة شديدة الحيوية عن المخاطر التي واجهت المراسلين الذين حاولوا تغطية أعمال القتل التي تلت ذلك في كتابها الصادر عام ١٩٩٥.

وفي مثل هذه الظروف الخطرة، لا يمكن للصحفيين أن يتوقعوا، وهم لا يحصلون دائماً على إعفاء من الأذى لهيبة مكانتهم المهنية، وتعزو لورج إلى ما واجهه بعض زملائها من ممانعة مؤسسية من قبل محرريهم في الولايات المتحدة لتغطية هذا الموضوع.[3]

وبالطبع فإن هؤلاء المحررون لم يكونوا الوحيدين الذي يضعون حماية وسلامة كوادرهم كأولوية، والأكثر إثارة الأزمة، حيث قامت

1 - Lorch, D (1995) (Genocide Versus Heart strings) in Girardet.

٢- مصدر سابق، ص ٦٨- ٨٩.

٣- مصدر سابق، ص ١٠١.

المنظمة بأجلاء كوادرها الغربية تاركة أفرادها من الروانديين لوحدهم ليعيلوا أنفسهم.[1]

وبشكل أولي، فإن رواندا عندها بدت كقضية من انتباه وسائل الإعلام الذي تمت معايرته ليس بناء على أهمية أعمال القتل التي تحدث، بل على مستوى الاهتمام أو (عدمه) الذي كان يثار في العواصم الغربية البعيدة.

وبينما انطلقت ميليشات (انتراها موي) للعمل، تزامن ذلك مع (خبر جيد) كان يجري في الجزء الجنوبي من قارة أفريقيا، ففي ١٠ أيار ١٩٩٤ كان نيلسون مانديلا قد تم انتخابه كرئيس لجنوب أفريقيا (المتعددة العرقيات) وهذه كانت ذروة الابتهاج بالنصر بعد عقود طويلة من النضال ضد نظام الفصل العنصري (الابار تهايد)، التي جذبت اهتمام وسائل الإعلام الغربية، وبعض (المنافذ) الإخبارية شعرت بأنها غير قادرة على تغطية كلا القصتين في نفس الوقت، ويسرد بيير غاسمان رئيس قسم الإعلام في مقرات الصليب الأحمر الرئيسية في جنيف، زيارته إلى مكاتب قناة الـ CNN في أتلانتا في أوائل نيسان ١٩٩٤ لمناقشة تغطية القناة لـ (الصراعات الأقل حظاً من التغطية):

{ حاولت ان أقنع محرر المهمات لتغطية رواندا مباشرة، نعم بالتأكيد، أجاب، أنه يعرف بشأن رواندا، ولكن كل طاقمه المتوفر ووصلات الأقمار الاصطناعية كانت في جنوب أفريقيا، كما أن رؤساء التحرير أبدوا شكوكاً حول إمكانية عرض موضوعين عن أفريقيا في نفس الوقت، حيث إن هذا قد يربك جمهورهم} [2]

وهذه الملاحظة الأخيرة توفر تشجيعاً أقل لأولئك الذين ينظرون إلى (وسائل الإعلام الكونية Global Media) كوكلاء لتنوير الوعي الإنساني، وتكشف ليس عن ضيق أفق الـ CNN فقط بل عن محدودية

---

1 - Hilsum, L (1995) (Were is Kegali) Granta, 51, 145-79.

٢- مصدر سابق، انظر غاسمان، ١٩٩٥، ص ١٥٧.

طاقتها لتكون في كل مكان في نفس الوقت، بل في وجهة نظرها المعوجة عن جمهور يمكن أن يرتبك بسبب أخبار جيدة وسيئة قادمة من أفريقيا في نفس الوقت، في قارة تكون فيها الأخبار السلبية أمراً نمطياً (غالباً ما ينظر إليها ويتم تأطيرها نموذجياً على أنها أعمال الرب "مثل الجفاف") وأعمال الإنسان التي تكرر بلا نهاية (الأحقاد والعداوات القبلية القديمة)، وكما يوضح فيرغال كينان، مراسل الـ BBC في جنوب أفريقيا حينها (الأخبار الأفريقية تصبح أخباراً هامة عادة، عندما تتضمن قدراً كبيراً من الأجساد الميتة).[1]

ولقد استطاعت رواندا جذب دائرة الاهتمام فقط بعد أن أصبح بلا شك (قدراً كبيراً من الأجساد الميتة)، وبمجرد أن غادرت فرق الصحافة العالمية جنوب أفريقيا بعد (انتهاء العرس) هناك حطت رحالها هناك في طريق رحلة عودتها إلى مقراتها.[2]

ولم يتم تأسيس تجهيزات ومنشآت البث الحي عبر الأقمار الاصطناعية في المدينة الحدودية المنتفخة باللاجئين في كيغالي حتى أواخر أيار من ذلك العام.[3]

وإذا كان بالإمكان انتقاد وسائل الإعلام لخطوتها المتأخرة، فإن نفس النقد يمكن أن يوجه إلى الدول والمنظمات الحكومية، ان تجمع رؤساء العالم في جوهانسبرغ للاحتفال بتنصيب مانديلا، قد يكون وفر فرصة مثالية لتكوين قوات متعددة الجنسيات وتنسيق الجهود للتدخل هناك ولكن بحسب كلمات اندرو ناتسيوس: (إن الجهود الأفريقية لتجنيد قوات من دول أفريقية كانت في حالة سبات!)، وكانت إدارة كلينتون رافضة بشكل خاص، من (كما يلمح إلى ذلك مسئول سابق) من (متلازمة أعراض

١- ف. كياني، ١٩٩٦، ص ٧.

٢- مصدر سابق، لورج، ص ١٠٤.

٣- مصدر سابق، انظر مينار، سكوت وفايس، ص ٦٤.

فيتنام والصومال)، وبالتحديد (الخوف من الخسائر) والذي تم التعبير عنه بصورة واضحة في المرسوم الرئاسي رقم ٢٥.[1]

وعندما شاركت واشنطن بعد ذلك فعلاً في قوة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة، كانت تهدف بشكل رئيسي إلى مساعدة اللاجئين، الذين تضرروا من انتشار مرض الكوليرا حينها في مدينة (غوما)، وهي مدينة تكونت بشكل رئيسي من اللاجئين.

وإن القضية الوثيقة الصلة جداً بتأثير التلفاز على الوضع في رواندا، ليس في كونه قد أدى إلى التحريض على التدخل في رواندا بل في كيفية تأطير وسائل الإعلام الإخبارية للأحداث، وكيف إن وجود المراسلين، في وسط تجمعات اللاجئين من أواخر أيار وطوال صيف ١٩٩٤، قد عمل على صياغة شكل العمليات الإنسانية على الأرض، وبالنسبة لعمال الإغاثة فإن الصحفيين يمكن اعتبارهم إزعاجاً لا يستهان به، وكما تلاحظ هيلسوم أن الذين تجمعوا في غوما في أواخر تموز ١٩٩٤، أضافوا إلى فوضى الطرق المسدودة، ورفعوا من كلفة استئجار سيارة أو مترجم، والمرضات اللواتي كن يعتنين بالأطفال المصابين بالكوليرا، وجدن أنفسهم يتعثرن بمساند أجهزة التصوير، ويزاحمهن رجال التصوير الذين كانوا يبحثون عن زاوية أفضل للتصوير.[2]

واشتكى عمال الإغاثة إن وجود وسائل الإعلام يشجع على مضاعفة الجهود عند الوكالات التي لا تعد ولا تحصى للعمل في مخيمات اللاجئين، طالما إنه بحضور الكاميرات، فإنه لا يمكن تجاهلهم إلا نادراً، وأكثر من ذلك، فإن مسئولي إعلام وكالات الإغاثة أدركوا بأن وسائل الإعلام يمكن أن تكون مفيدة جداً، فكل منظمة تبغي أن ترفع من (سيرتها)

1 -Shattuck, J (1996) (Human Rights and Humanitarian Crises, Policg Making and the media) in Rot berg and Weiss.

٢- مصدر سابق، هيلسوم، ص ١٦٧.

ودورها، حتى تصور من خلال أشرطة التلفاز على أنها المنظمة الأكثر نشاطاً في جهود الإغاثة مما قد يشجع المشاهدين على التبرع بمساهمات نقدية: (كان هناك عدد محدود من الوكالات المهيأة للعمل في القطاعات الصحية... وهو وضع يتناقض بشكل مذهل مع عدد الوكالات التي تعمل مع نشاطات ذات الدور الأكبر في لفت الأنظار، مثل تأسيس مراكز لمعاجلة الكوليرا ومراكز للعناية بالأطفال الذين لا يملكون عائلة).[١]

وعملت منظمات الـ (Ngo) التي كانت متلهفة لاستثمار انتباه ووعي الرأي العام الذي وفره لهم التلفزيون، متواطئة معاً. في عرض صور نمطية مقولبة عن (معاناة أفريقيا) حتى إذا أدى ذلك إلى التعارض مع ميثاق عملها المتعلق بعدم استخدام الصور للكشف أو العرض العام.[٢]

وظهرت تشوهات أخرى من تأطير وسائل الإعلام لـ رواندا على أنها (أزمة لاجئين) عوضاً عن كونها (إبادة جماعية وعواقبها)، وكذلك ركزت منظمات الـ (Ngo) وبعثة الأمم المتحدة فيما بعد، جهودها على أولئك الذين خرجوا من رواندا، متجاهلة مساعدة أولئك الذين ظلوا في الداخل، أو ذهبوا إلى مناطق أخرى خارج مناطق سكناهم أو مساعدة النظام الجديد الذي قادته جبهة الـ (RPF) في استعادة الاستقرار.[٣]

وبما أن الأمم المتحدة ومنظمات الـ (Ngo) قامت بالقليل من الجهد لفهم من كان هؤلاء اللاجئين ولماذا هربوا من بلادهم، ولهذا أصبحت المخيمات حسب كلام مسئولي (أطباء بلا حدود) (جنات إنسانية) للقتلة.[٤]

ولتسهيل توزيع الغذاء وإحلال النظام في المخيمات الهائلة، سمح عمال الإغاثة بإعادة تشكيل البنى الاجتماعية للهوتو في رواندا داخل المخيمات.[٥]

١- مصدر سابق، مينار وسكوت وفايس، ص ٦٦.

2 - Bent hall,J (1993) Disasters, Relief and the Media, London: IB Tauris.

٣- مصدر سابق، لورج، ص ١٠٥.

٤- مصدر سابق، الاقتباس لدى كياني، ص ١٨٦.

5 - De Waal, A (1994) (African Encounters) index on Sensor ship, 6, 14-31.

وكنتيجة لذلك فإن هذه المستوطنات المؤقتة سقطت تحت سيطرة ميليشيات (انترا هاموي) الفعالة (والتي هي كانت المتسببة بأعمال الإبادة الجماعية)، وشجع أعضاء الميليشيا اللاجئين الهوتو على البقاء في المخيمات بشكل شبه دائم خوفاً من أعمال إبادة ثأرية تقوم بها حكومة جبهة (RPF) المشكلة حديثاً في حالة عودتهم إلى ديارهم.

وطبقاً لـ جويل بوترو، رئيسة بعثة مفوضية اللاجئين (UNHCR) في غوما، فحيثما تذهب الـ CNN، حتى إذا كانت تتبع أو تلاحق بعضاً من مراسلي الوكالات أو منافسيها، فإن الآخرين يتجمعون (كل واحد يعمل كحجة غياب للآخر).(*)

كما يلاحظ المراسل الإيطالي فوريو كولومبو، وأينما تلاقت أو تجمعت طواقم كاميرات التلفاز، فإن وكالات الإغاثة أيضاً تتجمع وتلتقي، ولذلك كما لاحظت بوترو فإن دزينة من وكالات ومنظمات الـ (Ngo) التي لا ترغب مفوضية اللاجئين UNHCR في وجودها ظهرت على المشهد، كلها تواقة لأن تشاهد وهي تقوم بفعل الخير، حتى وان كانوا غير مهيئين بشكل جيد أو كانوا ممزقين في جهودهم التي تستهدف الظهور أمام الكاميرات.[1]

وبالطبع فإن الـ CNN لا تتحمل لوحدها المسؤولية عن تأثير منظمات الـ (Ngo)، وعلى كل حال فإن الوضع الفوضوي في غوما، قد صادق على الدرجة التي تصل إليها الكاميرا ليس فقط في اصطياد الفعل الإنساني وإنما الدرجة التي تعمل بها على تشكيل وتعديل السلوك، فمهما كانت نية الصحفيين طيبة، فإن مجرد وجودهم كان يعترض عملية رفع المعاناة الإنسانية، ويزيد من غموض وتعقيد مسبباتها الخفية.

---

* - حجة الغياب (Alibi)، مصطلح قضائي وشرطي، وهو الحجة التي تثبت وجود المتهم في مكان آخر ساعة وقوع الجريمة، أي هي حجة تبرر براءة المتهم من ارتكاب الجرم نظرياً على الأقل.

١- مصدر سابق، هيلسوم، ص ١٧٦.

إعادة النظر في مفهوم (الإعلام الكوني):

منذ بداية التسعينات، عندما كان الحديث عن القوة الصاعدة (لوسائل الإعلام الكونية) في إعادة تشكيل السياسة الخارجية، في قمة رواجّه، أكثر من أكاديمي واحد وصف مفهوم (تأثير الـ CNN) بأنه (خرافة).[1]

إن الإجماع المتفق عليه أكاديمياً، والذي يتشارك به العديد من الصحفيين الذين كتبوا باستفاضة عن الموضوع، بأن التلفاز نادراً، إن لم يكن مطلقاً، ما يقود السياسة، رغم إنه يمكن أن يولد ضغوطاً كبيرة لتصميم حركات وفعاليات (استجابات زائفة) متعجلة، وفي أحيان كثيرة يعيد توزيع وخلط الأولويات، والفكرة القائلة بأن الصور المتلفزة تنتج مباشرة أو (تدمر) الإدارة الشعبية.

وتقود ليس فقط الانتباه بل الأفعال، هي تبسيطية جداً لدرجة السذاجة، وهذه التأكيدات عن تأثير الـ(CNN) بشكلها المبالغ، تستذكر نظريات الحقنة تحت الجلد التي فات أوانها حول تأثير وسائل الإعلام، وحالات من التفكير السحري والعجائبي حول الصورة كوكيل مستقل يعمل على هز تفاؤل وإيمان العالم بشكل مشابه لما أمتاز به النقاش عن تأثير صور حرب فيتنام، إن الاعتقاد بأن صورة واحدة يمكن أن (تغير العالم) هو نفسه يحاكي افتراض رئيسي لمنظور صناعة الأخبار: إن التاريخ يتحرك بطرق وبدايات لا يمكن التنبؤ بها، وبأن الأفعال المتقلبة للقدر لا يمكن عكسها أو تصليحها إلا بأفعال محتومة بقدر مماثل للرجال والنساء.

وأن التعبير عن الشكوك حول ظاهرة تأثير الـ (CNN)، لا يعني إنكار بأن الصورة في الأخبار قادرة لحد كبير على تحفيز ردود أفعال

١- ميرمين ١٩٩٩،Mermin ، روبنسون ٢٠٠٢.

عاطفية متأثرة، وأن الصور كما هو مثبت يمكن لها أن تحرك وتؤثر في أولئك الذين يتطلعون إليها، وتعلمنا بملاحظات عن أحداث اليوم الحاضر، وتخدم كبطاقات (الفلاش) والتي من خلالها نستعيد الأحداث الماضية.[1]

ولكن هذه الصور لا تمنح سلطات لا تقاوم من الإلزام ولا معاني نهائية لا تقبل الجدل، فهي مثل كل النصوص، هي مفتوحة للعديد من التفسيرات المتعددة وأحياناً المتعارضة، وكما توحي قضية الدراسة المطروحة الآن، فإنها تمثل خانة واحدة في اللعب أثناء عملية تدبر السياسة المستقبلية في أي حالة أزمة والتي تخضع فيها الرغبة لرفع أو القضاء على المعاناة الإنسانية تخضع نموذجياً للعديد من الاعتبارات الجيوستراتيجية والانتخابية وتلك المتعلقة بموارد الميزانية... الخ.

وأولئك الذين ينسبون إلى محطة الـ (CNN) دور (ضوء المصباح) الذي يبدد الظلام الذي يغلف المعاناة الإنسانية، يضعون ثقة في استقلالية الشبكة الذاتي وقدراتها أكثر مما تمتلكه بالفعل، فبعد ذلك كله، فإن طواقم التصوير لا يزحفون عبر إنحاء العالم بلا هوادة بحثاً عن جيوب منسية من الفقر أو الشقاء ليقوموا بتسجيلها، ولو أنهم قاموا بذلك، لكان مستهلكو نشرات الأخبار في دول العالم الغربي والمتقدم سمعوا وعرفوا أكثر عن الحرب الأهلية في انغولا التي قتلت ما يقرب من ٣٪ من كامل سكان البلد في التسعينات، أو عن الصراع في جمهورية الكونغو الديمقراطية الذي وفقاً للجنة الإغاثة الدولة (IRC) قد أدى إلى مقتل ما يقرب من ٣,٩ مليون نسمة ما بين ١٩٩٨ و ٢٠٠٤.(وهذا الرقم يعادل سكان بعض الدول) مع حوالي مليون شخص قتلوا في العام ٢٠٠٠ لوحده.[2]

1 - Son tag, S (2003) Regarding the Pain of the others, New York: Picador.
2 - Mamdani, M (2009) Saviors and Survivors: Darfur, Politics, and The war on Terror, New York: Pantheon.

وكما اشتكى الأمين العالم للأمم المتحدة السابق بطرس غالي في عام ١٩٩٣، في ذروة الحرب في البوسنة بأنه (عندما تكون أزمة ما في نقطة الضوء، فإن المواقف الأخرى المساوية في الخطورة تترك في الظلام)، حيث قتل في يوم واحد من الناس في لواندا خلال الحرب الأهلية في الكونغو، أكثر مما قتل طوال أشهر في سراييفو، ومع ذلك فإن التلفاز لم تطرف له عين، كما يلاحظ بطرس غالي، قبل أن يعدد قائمة طويلة من الصراعات الأخرى المنسية وبضمنها، أفغانستان، أرمينيا، وأذربيجان، ميانمار، وطاجيكستان، وبالطبع فإن وسائل الإعلام التجارية هي ليست، ولا يمكن أن يتوقع ذلك منها، العمل كنظام إنذار مبكر لـ الإنسانية، ولا حتى مؤرخ وقائع حوادث القتل الجماعي، وفي الحقيقة فإن العديد جداً من الصراعات في الجنوب في الماضي، مرت من دون الاهتمام بها من مقرات الإعلام العالمية في الشمال، التي تسيطر على رئة الإعلام في العالم، تتحدى فكرة دور الإعلام في التأثير بالأصبع نحو ماله قيمة إخبارية، وبحسب رؤية الأكاديمي الإعلامي جاب فإن غنيكين (عشرة الآلاف وفاة في قارة أخرى، تعادل ١٠٠ وفاة في بلد آخر مجاور تعادل ١٠٠ وفاة في موقع ناء في البلد تعادل ١٠ وفيات في العاصمة، تعادل وفاة شخصية شهيرة واحدة).[1]

ولكن كما برهنت حالتي أنغولا والكونغو، فإن عدد الجثث لوحده غير كاف لاجتذاب انتباه وسائل الإعلام الخارجية، ونظراً لمثل هذا التعتيم شبه الكامل من قبل وسائل الإعلام على دول أفريقيا الفقيرة، كيف يقدر سكان الدول الصناعية الكبرى، بأنه في عالم ما بعد الحرب الباردة، فإن ما يقرب من ٩٠٪ من الوفيات الناتجة عن الصراعات والحروب قد حدثت هناك؟[2]

---

1 - Grossman, V (1998) Life and Fate, London, Harrell Press.

٢- هاوكنز، ٢٠٠٩، Hawkins ، ص ٢٢٩.

أذن ما الذي يضع الأجندة الإخبارية؟ لماذا يتركز ضوء وسائل الإعلام على بعض الحروب دون الحروب الأخرى؟ وبينما يكون من السهل التحليل بأن الصحفيين يكونون (حيث تكون الأخبار)، وكأن الأخبار تقدم نفسها للفحص جاهزة للتقديم، فيما يصر مارتن بيل من محطة الـ BBC، على أن (الأخبار تكون حيث يكون الصحفيون).[1]

إذن، كيف يتم الوصول للقرار، حول متى يتوجب إرسال طاقم تصوير إلى موقع أزمة في مكان بعيد عندما يكون وجودهم هو ما يدفع الموقف على أنه (أخبار)؟

إحدى الإجابات السريعة سوف تكون بأن الصحفيين يذهبون غالباً إلى حيث تقودهم مصادر النخبة التي يعتمدون عليها كمفاتيح، وكما تلمح معلومات الإعلام إلى حيث يجب أن يكونوا، كما كانت الحال في الصومال ١٩٩٢، وبعبارة كل من جون زالر ودينيس تشيو فإن وسائل الإعلام تبقى مساعد (الحكومة) الصغير، رغم إن واضعي الأجندة الرئيسيين في عالمنا اليوم لم يعودوا بالضرورة من مسئولي الدولة.[2]

ومن خلال قوة الضغط المستمر واللجوح، فإن المنظمات الإنسانية والجماعات الحقوقية يمكن أحياناً أن تقود المراسلين إلى مواقع الكوارث الإنسانية، ولكن كما يوضح الوكلاء الصحفيون لمنظمات الـ (Ngo)، فإن مهمتهم في الإقناع تغدو أكثر صعوبة فأكثر.

١- مصدر سابق، بيل، ص ٥٠.

2 - Haw Kins, V (2002) the other side of the CNN Factor the media and Conflict, Journalism Studies , 3.ÍÍ , 225-40.

شكل (٥:٢)

رسم كاريكاتير للرسام العالمي مات (Matt)



رسم كاريكاتير نشر في صحيفة الديلي تلغراف، وفيه إرهابي يتكلم مع زميله قائلاً (لا تفزع حتى الـ CNN قادمة!) نشر بفترة وجيزة قبل انطلاق عملية (العدالة المطلقة) في ٢٠٠١.

عندما يكون وجودهم هو ما يدفع الموقف على أنه (أخبار)؟

إحدى الإجابات السريعة سوف تكون بأن الصحفيين يذهبون غالباً إلى حيث تقودهم مصادر النخبة التي يعتمدون عليها كمفاتيح، وكما تلمح معلومات الإعلام إلى حيث يجب أن يكونوا، كما كانت الحال في الصومال ١٩٩٢، وبعبارة كل من جون زالر ودينيس تشيو فان وسائل الإعلام تبقى مساعد (الحكومة) الصغير، رغم إن واضعي الأجندة الرئيسيين في عالمنا اليوم لم يعودوا بالضرورة من مسئولي الدولة.[1]

ومن خلال قوة الضغط المستمر واللحوح، فإن المنظمات الإنسانية والجماعات الحقوقية يمكن أحياناً أن تقود المراسلين إلى مواقع الكوارث الإنسانية، ولكن كما يوضح الوكلاء الصحفيون لمنظمات الـ (Ngo)، فإن مهمتهم في الإقناع تغدو أكثر صعوبة فأكثر.

وغالباً فإن الأحكام التي يتخذها المحررون في مثل هذه الحالات تعتمد على العديد من العوامل المختلفة، ومن بينها القرار الأكثر وعياً الذي يتضمن حداً أساسياً من الكلفة المادية لا يمكن تجاوزه، وطالما إن المؤسسات الإخبارية تعمل وفقاً لميزانية محددة ويتوجب عليها (إذا كانت مؤسسات تجارية) أن تعمل لإنتاج العوائد الإعلانية، والتي تعني إبقاء نسب المشاهدة عالية "ومن هنا التمسك بجذب انتباه واهتمام المشاهدين" يتوجب على المحررين بشكل إلزامي أن يزنوا كلفة تغطية صراع بعيد في مقابل اهتمامات المشاهدين المتوقعة، وتمثل الحروب في الأماكن البعيدة حالات مكلفة جداً، والقليل منها يمكن تغطيته في نفس الوقت ولمدة طويلة. ويغض النظر عن المزاعم اليوتوبية بأن وسائل الإعلام لها دور تأسيسي في إنتاج وعي عالمي شامل، فإن محرري الوسائل الإخبارية يتصورون اهتمامات مشاهديهم عموماً على أنها محددة بشكل ضيق ومتجذرة بشكل ثابت بحد كبير في الموضوعات المحلية والوطنية، والمزايا مثل (المقاربة) و (وثاقة الصلة بالموضوع) هي تشكل عماد

1 - Haw Kins, V (2002) the other side of the CNN Factor the media and Conflict, Journalism Studies , 3.Íİ , 225-40.

الحكم على الأخبار، ورغم إنه حتى الأشخاص القريبين جداً يمكن أن يهمشوا من خلال الأخبار السائدة أو الأكثر شيوعاً، فإن مفهوم منوما يمثل ميزة القرب. تبقى مع ذلك مرتبطة بشكل رئيسي مع المسافة المادية.[1]

وتأمل كي تغدو كارثة أو صراع بعيد عادة موضوعاً للعناوين الرئيسية، عندما يكون واحداً أو أكثر (منا) متعرضاً للخطر من خلالها: طلبة محصورون في منطقة الحرب. سياح يجرفهم مد التسونامي، عمال إغاثة يختطفهم متمردون، فمن خلال إضفاء طابع محلي على الأخبار الأجنبية، فإن هذا الأسلوب في التأطير يلمح إلى أن (حيواتنا) تمثل اهتماماً أكبر، وتطبع من افتقاد الاهتمام بصراعات (الآخرين)، ووجود تقييم في مراتب متسلسلة للحياة الإنسانية.[2]

وإن وجود ضيق الأفق في التفكير في عصر وسائل الإعلام ذات الانتشار الكوني يعني بأن الأخبار الظاهرية عن حروب (الناس الآخرين) غالباً ما تروى كأخبار بشكل رئيسي (عنا) وعن تدخلات (نا) نحن، ولهذا فإن الخبر يمكن أن يكون حول ما تقدم به قواتنا أو منظماتنا الإغاثية لفرض النظام أو تأمين المناطق المضطربة، أو يمكن أن تركز على شخص المراسل نفسه، كما يلاحظ "غير أرديه"، أن ظهور صحافة المشاهير (من الصحفيين) قد زودت الاتجاه نحو تأطير الأخبار حول وفق شخصية النجم بالوقود اللازم.[3]

وحيثما يتوقع المحررون وجود نقص في الاهتمام لدى مشاهديهم، فإن شخصية المراسل تخدم كنقطة ارتكاز للجمهور للتماثل في الهوية والتعاطف مع شخصية المراسل.

وأيضاً فإن (صحافة الباراشوت)، حيث يتم إنزال المراسلين في مناطق الاضطرابات للحصول على تقارير تحمل بصمة المراسل المعروف أو (بصمة القناة) من

1 -Zaller, J and Chiu, D (2000) (Government's Little Helper: US Press Coverage of Foreign Policy Crisis 1946- 1999) in NCOs, Shapiro and Siena.

٢- مصدر سابق، غاسمان، ص ١٤٩.

3 - Shoemaker, P and Reese's (1996) mediaing the Message: Theories of Influence on mass Media content, white Plains NY, Longman.

كوسوفو، أو من كردستان مثلاً، تعطي إشارة عن الثقة المعطاة بشكل خاطئ والتي تلبس سلطة على شهود العيان هؤلاء، فهم على كل حال، بالكاد يكونون على أرض الواقع بما يكفي من الوقت لتنمية تقدير صحيح للظروف المحلية، أكثر من كونهم يقدمون تخيل شعوري مضاف له معلومات معادة من الخلفيات التاريخية، وإن مسائل التسبيب أو العلية نادراً ما تكون في مقدمة أخبار التلفاز، بل إنها تتراجع إلى الوراء أكثر.

إذ يتم تذويب الصراعات المعقدة الناشئة في قوالب خام مسبقة التشكيل تصنف هذه الصراعات في عناوين عامة: كوارث طبيعية، سفك دماء عشائري عداوات قديمة، عنف عرقي.. الخ، وفي هذه الأثناء فإن (التدخل) يقدم بصورة واضحة على إنه أعمال (فضيلة) خبرية، وتعادل بأعمال الإنقاذ غير الأنانية، ونادراً ما تكون عرضة للفحص والتدقيق سواء من ناحية دوافعها أو أساليبها (نزعة الخير نحو الإنسانية كما يبدو تملك مسوغاتها الخاصة)، كما يفترض اليكس دي وال.[1]

ولكن بعيداً عن كونها تملك مسوغاتها الخاصة، فإن (الخيرية نحو الإنسانية) جاءت في عقد التسعينات لترخيص كل حالات الممارسات التي كانت ستبدو لولا ذلك عرضة للتساؤلات، إذا لم تكن غير شرعية بصورة مطلقة، وبالفعل، فإن ما يبدو إنه كان مميزاً لذلك العقد لم يكن بزوغ وسائل الإعلام ذات الطابع الكوني، أو تفشي لقطات التلفاز في الزمن الحقيقي، بل خطاب الإنسانية، التي شرعت، ومكنت وزادت من قيمة التدخلات في بيئات مثل، العراق، الصومال، رواندا، يوغسلافيا السابقة، وهايتي.

وهذا لا يعني القول بأن حقوق الإنسان كانت غائبة بالكامل عن خطاب الأنظمة السياسية للقوى العظمى، ففي عهد رئاسة كارتر كانت الأخيرة مهتمة بشكل خاص بشن هجمات مباشرة على انتهاكات حقوق الإنسان لدى النظام

1- Shoemaker, P and Reese's (1996) mediaing the Message: Theories of Influence on mass Media content, white Plains NY, Longman.

السوفيتي داخل حدوده وخارجها: ابتداء من معاملة الكرملين لمعارضيه، إلى ممارسات الجيش الأحمر الوحشية أثناء احتلاله لأفغانستان.[1]

واستلم رونالد ريغان لاحقاً هراوة معاداة الشيوعية (كما سنرى في الفصل اللاحق) مستخدماً لغة معاداة الإرهاب، ولكن مهما كانت هذه الهجمات متحمسة في دفاعها عن حقوق الإنسان، فإن هذه الإدارات لم تحول إيمانها بالمبادئ الإنسانية إلى حق دولي في ممارسة التدخل، وعلى النقيض من ذلك، فإن محاولات ريغان لدعم (مقاتلي الحرية) "كما كانوا يسمونهم" على الرغم من كون هؤلاء أنفسهم لا يكنون احتراماً كبيراً لحقوق الإنسان، مثل حركة يونيتا في انغولا، وحركة الكونترا في نيكارغوا، كانت تتم بالوكالة (عن طريق ثالث)، وحتى إن كانت هناك إساءات واسعة لحقوق الإنسان في هاتين الدولتين، فإن واشنطن لم تسع إلى إثارة قضية رأي عام لتأييد إرسال القوات الأميركية إلى نيكارغوا لإسقاط (ساندنيستا) أو إلى انغولا للإطاحة بالنظام الشيوعي هناك.

ولكن طوال عقد التسعينات، على كل حال، فإن قادة الدول الغربية والوكالات الدولية الخاضعة لسيطرتهم، عملوا على إنشاء نظام جديد يتحرك ما وراء مجرد (التدخل الإنساني) في مواقف مثل حالة كردستان والصومال، إلى مفهوم جديد عن (الحرب الإنسانية)، وهو تشكيل كما ثبت بشكل واضح في حملة الـ ٧٨ يوماً من حملة القصف الجوي للناتو على كوسوفو من مارس إلى حزيران ١٩٩٩، وكان كتاب المقالات الافتتاحية في الصحف الغربية يحتفون بأقدام الناتو على التصدي بـ (القصف الجوي على البربرية) حتى وإن كانت هذه الحملة قد أدت إلى حدوث خسائر في صفوف المدنيين (من بينهم ألبان كوسوفو الذين يفترض بالحملة أن تحميهم وأعلن القادة الغربيون إن مفهوم السيادة التي لا يمكن انتهاكها، أصبحت تصوراً عفى عليه الزمن للنظام الدولي القديم، حيث إن السيادة التي اعتبرت لزمن طويل بأنها الحاوية التي تحمي الإرادة الوطنية، أصبحت الآن درعاً

1 - Smith, T (1994)America's Mission: the United States and The World wide Struggle For demo Cracy, Princeton, Princeton University Press.

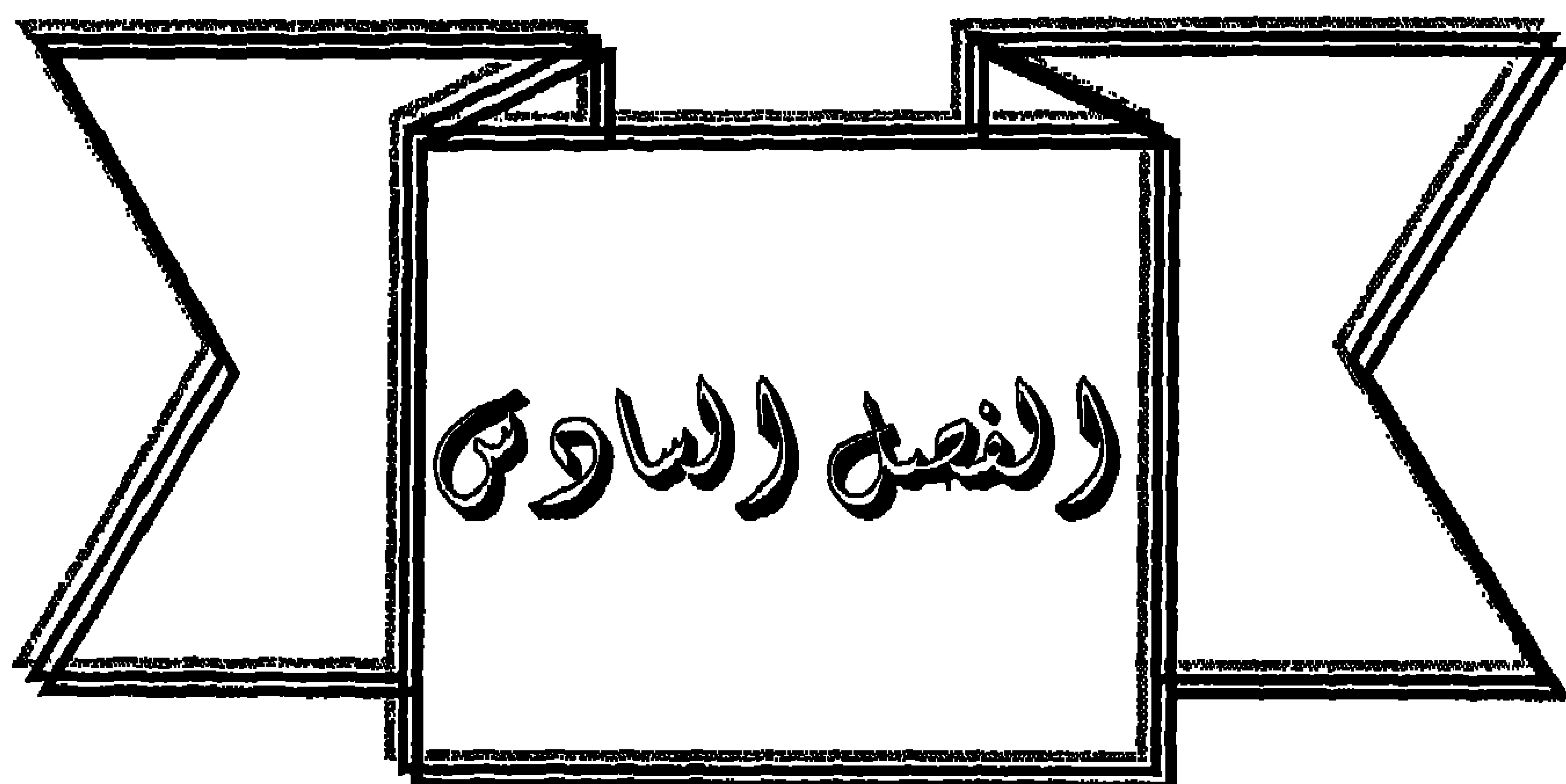
واقياً لحماية الطغاة مثل ميلوسوفيتش الصربي وصدام حسين الذين يقومون بذبح المدنيين الأبرياء، وهو غطاء يجب تمزيقه و طرحه جانباً من (المجتمع الدولي) الذي عقد عزمه على فرضها بالقوة المسلحة.[1]

ومع الإطاحة بـ السيادة من موقعها كأولوية ضرورية ورئيسية، تم الرفع من دور القوة العسكرية ببلاغة مفوهة على أنها أداة التحضر! وحظيت القوة الجوية بمكانة مفضلة جديدة بوصفها سلاح (الإنسانية) المختار، والذي تم التوسع باستخدامه بحرية ليس فقط على كوسوفو)، بل أيضاً لـ (تخفيض) قدرات العراق من أسلحة الدمار الشامل خلال عقد التسعينات!

وكما لاحظ بعض المتشككين، ففي الماضي كان الليبراليون العالميون يميلون لشن حملات من أجل إحلال السلام، أما الآن فهم في طليعة من يدعون للتدخلات العسكرية، وهي ظاهرة وصلت إلى ذروتها مع حركة سلام دارفور التي كان شعارها لحمل السلاح بـ (الخروج من العراق والذهاب إلى دار فور)![2]

1 - Feher, M, (2000) Powerless by design: the age of the International Community, Durham, NC, Duke University Press.

٢- مصدر سابق، مامداني، ص ٧٠.



الحرب على الإرهاب

على مدى الثلاثين عاماً الماضية، ما من موضوع ارتبط بالتغطية الإعلامية لأعمال العنف اجتذب اهتماماً أكبر وأنتج جدلاً حاداً، من تغطية وسائل الإعلام للإرهاب، وقبل أحداث ١١ أيلول بكثير، كان موضوع الإرهاب موضوعاً مشحوناً بالكثير من الطاقة والتوتر والجهد، ومن ذلك الحين فصاعداً، فإن (الحرب العالمية) التي شنتها واشنطن على الإرهاب، مصاحبة مع العمليات في العراق، أفغانستان، والفلبين وغيرها من الأماكن الأخرى، مع حملة عالمية للفوز بـ (القلوب والعقول)، أعادت قدح الجدالات المطولة حول ما الذي يريده الإرهابيون، وأي موقف يتوجب على المنظمات الإعلامية تبنيه تجاه المتمردين الذين يبغون لفت الانتباه، أو التظاهرات الاحتجاجية.

ووفقاً لبعض المنطق أو التفكير المتأمل، فإن مثل هذه الضجة قد لا تكون مناسبة لطبيعة الظاهرة نفسها، ظاهرة، الإرهاب إذا ما تم فهمها على أنها تكتيك محسوب بدقة وتأن لتوليد الرعب والخوف لتحقيق نتائج سياسية مرغوب فيها، فإنه قد أدى إلى قتل أعداد أقل من الناس سواء من الحرب التقليدية (ما يقرب من ٧ آلاف شخص في السنة طوال الـ ٣٥ سنة الماضية) أو من السلسلة المتنوعة من الكوارث في المجتمع المعاصر، من حوادث المرور إلى مرض الإيدز، إلى جرائم القتل بالأسلحة النارية إلى الوفيات الناتجة عن سوء التغذية![1]

لكن من جهة أخرى، فإن مثل هذا النوع من أعمال العنف لابد أن يثير قدراً كبيراً من الجدل والنقاش، خصوصاً وإنه لا يوجد جانب متعلق بهذه الظاهرة مقبول عالمياً بأي شكل، بما فيه حتى تعريفه نفسه!

وحتى التأكيد المتعلق بالخسائر الناتجة بشكل مباشر عن أعمال الإرهاب الذي ذكرناه سابقاً يثير المزيد من الجدل والأسئلة، من الذي يقوم بإحصاء مثل هذه الأرقام؟

1 - Jackson, R (2005) Writing the war on the Terrorism: Language Politics, and Counter terrorism, Manchester, Manchester University .

ما هي أعمال العنف التي تم تضمينها، وما هي الإعمال والحوادث التي تم استبعادها من الحساب؟

وهل أرقامه النهائية تتضمن الوفيات التي تنتج عن أعمال القوات التي ترتدي الزي الرسمي لجيوش الدول التي تهدف من أعمال العنف التي تقوم بها إلى إحداث حالة من (تغيير السلوك الناتج عن الرعب)؟

وإذا كان ذلك صحيحاً، فعلى أية أرضيات يمكن للمرء القيام بمثل هذا التمييز وما هي أسسه الفكرية؟ وطالما إن الإرهاب كمفهوم يقع في شرك من القيود الإيديولوجية والأخلاقية والتعريفية، فإن البعض من المحللين يميل إلى نسفها جميعاً، وبالنسبة لهؤلاء، فإن هذا (المصطلح التي تم إغراقه بالبحث) لا يمكن إنقاذه أو تخليصه من (التسييس) ليغدو مصطلحاً محايداً، (الإرهاب) هذه الكلمة التي تتطلب إثارة للشكوك لاقتباسها الرعب " والتي يمكن انتقادها للدور الإيديولوجي الذي تؤديه كمصطلح عن الانتهاك[1]. وملتصق باللاعبين السياسيين الذين يطلقونه على أعمال العنف التي تعتبر لا شرعية، فهو لا يخدم للوصف بل لدمغ الظاهرة بالوصمة المطلوبة، طالما ان كلمات قليلة فقط تمثل دعوة مفتوحة لانتقاد الظاهرة انتقاداً مراً مثل كلمة (إرهابي)،

وهذه النظرة الناقدة بالطبع، ليست هي تلك السائدة بين النخب السياسية والعديد منها (سواء في أوربا الغربية، شمال أميركا، روسيا أو الصين) تعامل الإرهاب بشكل خاص على إنه شكل مستهجن للغاية من العنف: من النوع الذي يمكن تعريفه باقتضاب ويؤدي فعلاً إلى تراكم النفور الأخلاقي، ومن هذا المنظار، فإن الإرهاب هو عنف غير شرعي، يقوم بارتكابه لاعبون لا يمثلون الدول الذين يشنون هجمات على الضحايا الأبرياء من المدنيين من دون سابق إنذار أو حتى أدنى أخطار أو تلميح.

1 - Hacking, J (1992) (Government's Perspective) in Paletz and Schmid.

بينما تقاتل الجيوش النظامية بشكل علني مفتوح، مستهدفة أولئك الذين يرتدون البزات العسكرية الرسمية فقط، فإن الإرهابيين يبزغون من الظل ليمزقوا الحياة الهادئة المسالمة، وليس لديهم أي حصانة للأطفال أو النساء أو العجزة أو المتقدمين في السن، ومن خلال هذه الأضواء، فإن هجمات القاعدة في ١١ أيلول ٢٠٠١، تمثل المثال الأكمل على الوحشية الإرهابية: طائرات مدنية يتم اختطافها وتحول إلى أسلحة للحرب، تخترق الأجواء لتضرب ما كان يمثل رمز القدرة الاقتصادية للولايات المتحدة، وتؤدي لمقتل أكثر من ٣ آلاف مدني خلال هذه العملية، و لفهم لما تضخم وسائل الإعلام لهذا الحد في النقاش حول مخاطر الإرهاب، يجب أن نبدأ بتقدير أن صناع السياسة والإستراتيجيين والمتخصصين قد فهموا منذ زمن طويل الإرهاب هو الإستراتيجية التي من خلالها يحصل فاعلوه على الدعاية.

وهي شاغلهم الرئيسي، ولهذا فإنه (وفقاً لهذا الفهم) فالإرهاب هو سلاح الضعفاء، الذي يتم تبنيه من قبل الجماعات الغاضبة التي تطمح لتغيير الواقع الراهن ولكن لا تستطيع فعل ذلك من خلال وسائل الحرب التقليدية، إذ إن الدول وحدها هي التي تتمتع (بامتياز) إعلان الحرب، وإن لجوء الآخرين لذلك (وفقاً للتعريف) إلى النزاع المسلح هو غير شرعي، وذلك في مواجهة الخصوم الذين يملكون ترسانة من الأسلحة والقدرات العسكرية الهائلة فإن الإرهابيين الذين يسعون إلى مضاعفة ما يتمتعون به من ميزات نسبية.

نظراً لعدم التزامهم بأي قوانين للحرب أو الالتزام بأي نصوص اتفاقات أو معاهدات او قوانين دولية، فإنهم يختارون ضرب الأهداف التي لها تأثير رمزي أكثر، والتي من الممكن أن تنتج التأثير الدراماتيكي الأقصى، فإن هدف هذه الاعتداءات كما يوحي المصطلح، هو للترويع، لإنتاج رعب مرضي واسع الانتشار على أمل بأن السكان المرتعبين سوف يضغطون على قادتهم للاستجابة لمطالب هذه الجماعات، الإرهاب إذن هو إستراتجية غير مباشرة.[1]

---

1 - Stohl, M (1990) (Demystifying the Mystery of international Terrorism) in Kegly.

وكما يلحظ محلل مؤسسة (راند) الإستراتيجية في الثمانينات برايان جينكنز، بأن (الإرهابيين يرغبون بالعديد من الناس يشاهدون، وليس العديد من الناس يموتون).(١)

وبكلمات أخرى، فإن الأهداف المادية المباشرة للعنف هي أقل أهمية من الرسالة "أو الرسائل" التي ترسل عبر حقيقة الاعتداء: العنف الذي قد يرعب البعض، قد يفوز أيضاً بالبعض من المؤيدين الجدد من بين المتابعين أو المشاهدين، وإذا ما كان على الإرهاب تحقيق النجاح، فإنه يتطلب أن تقوم وسائل الإعلام بتكبيره وتضخيمه فإن الناس يمكن تحشيدهم أو عدم تحشيدهم من خلال تأثير العنف فقط إذا عرفوا بأن أهدافاً معينة قد ضربت، فبدون الدعاية أو الإشهار لا يعود لأعمال الإرهابيين أي أهمية أو حتى دليل على حدوثها كما يلاحظ كبير مذيعي محطة الـ ABC، تيد كوبل.

وبينما يمكن شن الحرب التقليدية في وجود المراسلين الصحفيين أو عدمه، فإن الإرهاب يجعل من التغطية الإعلامية مطلباً أساسياً، وهذا التغيير لكيفية أداء الإرهاب وظائفه يمتلك جذوراً تاريخية عميقة، كما سوف نلاحظ، وهو أيضاً يمتلك ترابطاً في المفهوم، في علاقة (تكافلية) بين الإرهاب ووسائل الإعلام، وبكلمات أخرى، إن الإرهابيين يتمنون الحصول على انتباه وسائل الإعلام وهذه الأخيرة تعمل على توفيره في عملية استرقاق لهؤلاء الذين يرسلون الأجندات الممزقة، والتي تعمل الكاميرات التي تراقبهم على دفع كبير في أرقام ونسب المتابعة وتكون جمهوراً كبيراً، وأن عمليات الاختطاف، واحتجاز الرهائن والتفجيرات والاغتيالات هي كلها حوادث شديدة الدرامية والإثارة "مثالية جداً لما يشكل الأخبار في ثقافة وعرف وسائل الإعلام الغربية" حتى يمكن تجاهلها من قبل وسائل الإعلام، سواء كانت توافق على طروحاتهم السياسية محل مثار القضية أم لا، فإن المؤسسات

1 - Jenkins, B (1988) (Future Trends in international Terrorism) in Slater and Stohl.

الإخبارية لا يمكنها مقاومة تغطية الإرهابيين (فهم مقدمو التسلية الخارقين في زماننا) وتعمل على تغطيتهم بشكل مكثف.[1]

وسواء أكان ذلك مثيراً للسخرية أم لا، فإن وسائل الإعلام تصبح الشريك الأقوى والأكثر تأثيراً للإرهاب، فهي لا ترضي تعطش (مروجي الحدث) هؤلاء للعناوين الكبيرة البارزة، فإنها تشكل ناقلاً للجرائيم ينتقل من خلاله (التأثير المعدي) على نطاق واسع ويشجع على ارتكاب نسخ مقلدة من أعمال الجرائم الوحشية، وتعمل في نفس الوقت على رفع الحاجز للمشاهد المستقبلية لكي تمرر على أنها ذات قيمة إخبارية كبيرة.[2]

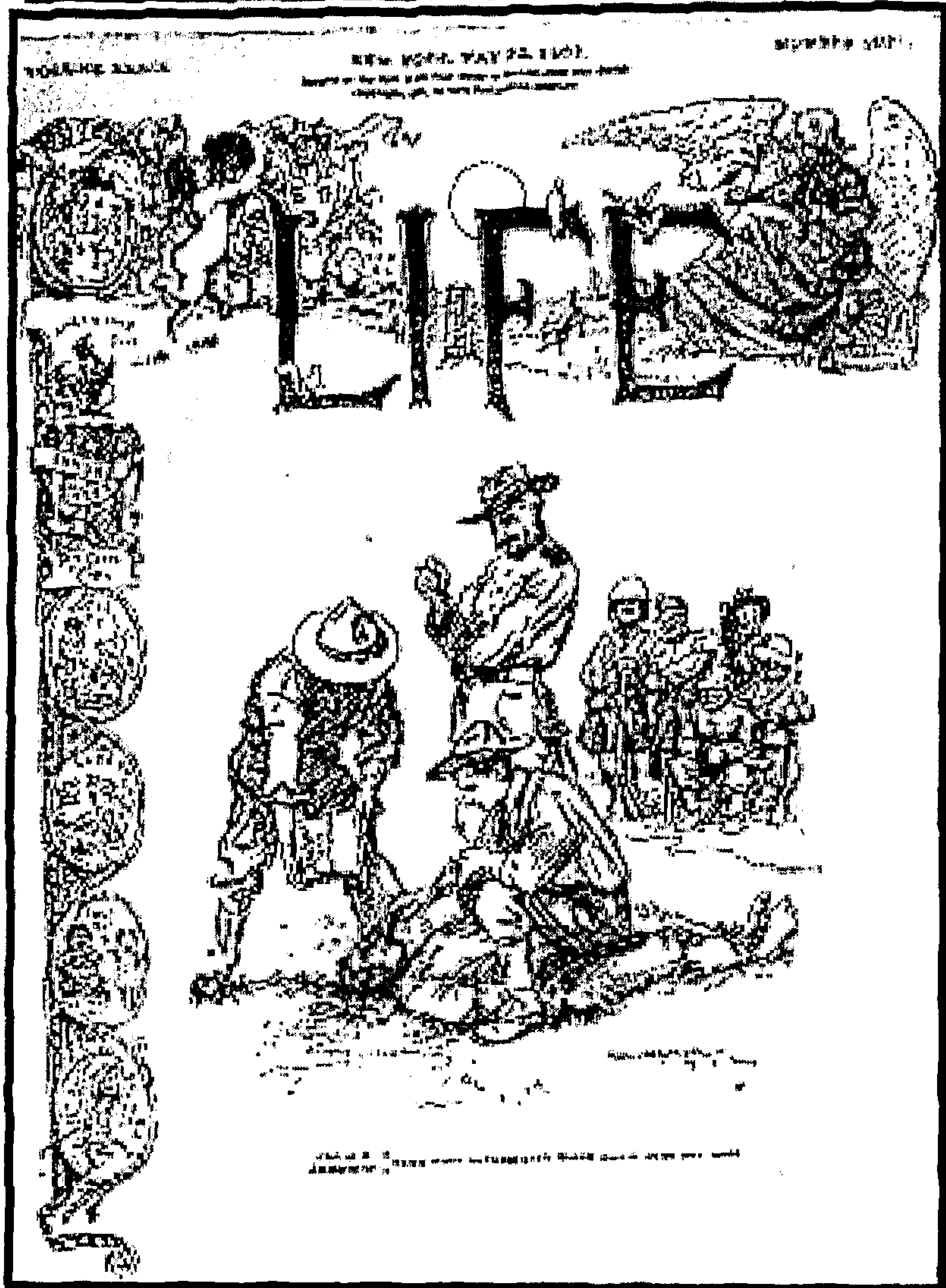
حرب الفوز (بالقلوب والعقول):

متى بالضبط نشأ الإرهاب لأول مرة وفي أي عصر من عصور العالم الذي نعيش به، هو موضوع محل نظر، فبعض الباحثين يرجع أول إرهاصاته إلى حركة (الحشاشين) في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في منطقة الشرق الأوسط أبان فترة الغزو الصليبي للمنطقة وضعف وانتشار الدويلات الإسلامية المفككة، فيما يرجعه البعض إلى المتطرفين اليهود في القرن الأول الميلادي، ويرون فيه أول نموذج بدائي له، وهي صلة ينازع فيها أولئك الذين يرون في الاستهداف بالاغتيال لأفراد معينين، عملاً مناقضاً جداً للإرهاب الذي هو (قتل عشوائي لأناس أبرياء).[3]

ومثل ميشال والتزر فإن العديد من المعلقين، يرجعون أصول الإرهاب بشكل مناسب إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويحددون سنة ١٩٦٨، على أنها فجر عصر جديد، مستشهدين بذلك على اختطاف طائرة العال من قبل منظمة (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين).[4]

---

1 - Laqueur, W(1977) Terrorism, London, Weiden Feld& Nicolson.
2 - Paletz, D. and Boiney, J (1992) (Researchers, Perspective in Paletz and Schmid.
3 - Walzer, M (1992) Just and unjust wars: Amoral Argument With Historical Lustrations, New York, Basic.
4 - Schmid, A. and De Graaf, T(1982) Violence as com media, London, Sage.



شكل (١:٦)

غلاف مجلة لايف الأميركية في سنة ١٩٠٢ ويمثل صورة (للمعالجة بالماء أول نموذج للتعذيب بالإيهام بالغرق!

غلاف العدد ١٠٢١ من المجلة

وسرعان ما تبع ذلك فيض من (الاستعراضات الإرهابية)، سواء أكانت تهدف إلى لفت الأنظار إلى معاناة الشعب الفلسطيني (التي صنفت وسائل الإعلام ظلماً وأطرت الحوادث التي نفذتها بعض فصائل المقاومة من خطف الطائرات المدنية على أنها حوادث إرهابية، أو كانت ما زالت تحت سيطرة الاستعمار الأوربي، وكما تصاعدت في هذه الفترة مظاهرات الاحتجاج ضد حرب الولايات المتحدة في فيتنام في تلك الفترة التي وصمت بأنها فترة انتشار الحركات الراديكالية عالمياً والرفض الشعبي في أواخر الستينات ومطلع السبعينات.

والحركات القومية المتطرفة الانفصالية مثل حركة استقلال إقليم إلباسك في أسبانيا (ETA) والجيش الجمهوري الأيرلندي السري، بالإضافة إلى الحركات التي طورت أسلوبها الذاتي من حرب العصابات الثورية مثل الألوية الحمراء في إيطاليا، وبايندر - ماينهوف في ألمانيا، وبعض المنظمات في الولايات المتحدة، جميعها تبنت تكتيكات مثل، التفجيرات، الاختطاف أو الاغتيالات.

ويبدأ من الواضح أن (عصراً من الترويع) قد بدأ، وبحسب رأي غيرارد تشاليناد، فإنه قد ولد (تقريباً بشكل حصري) بواسطة التطورات الجديدة في المواصلات وتكنولوجيا الاتصالات التي مكنت من أن تسافر الأجساد والصور والمعلومات حول العالم بسرعة غير مسبوقة من قبل.(١)

وما يتم إغفاله في هذه الرواية عن نشوء الإرهاب، هو إن الأعمال الإرهابية والمخاوف المترتبة عنها، هي أمر كثير الحدوث ويتميز به القرن العشرون ويعود في القدم حتى ١٩٠٠ في جزيرة مانهاتن، وهي جزيرة مزدحمة، مع إنشاءات حديثة، وسيل من المهاجرين الجدد يتدفقون في كل مكان، مع أشكال جديدة من الترفيه الشعبي مثل المسارح الصغيرة التي تعرض أفلاماً صامتة قصيرة، ومن ضمن موضوعاتها المتباينة عرضت قضية الإرهاب الفوضوي الذي تمتع بمثل هذه البيئة الملائمة، كان فيلم د. دبليو، غريفيث (صوت الكمان) في سنة ١٩٠٩، يمثل أفضل

---

1 - Chalinad, G (1987) (terrorism: From Popular Struggle to Media spectacle, London, saqi.

نموذج على هذا الجنس من الأفلام الأخلاقية بأقصى قدر من البهرجة، وكما يلمح عنوانه، فإن هذا الفيلم البالغ طوله ١٦ دقيقة بالأسود والأبيض، فإن قصته تدور حول الموسيقى ولكن فقط بشكل ظاهري، وتدور حبكته حول معلم متواضع، كانت طالبة لديه جميلة وشديدة الجاذبية يحبها، ويقع فريسة لجماعة فوضوية والتي تحاول تجنيده من اجل قضيتها، ويغدو هذا الموسيقى الذي استنزفه كرهه لوالدها الرأسمالي من (القطط السمان) هدفاً سهلاً لمثل هذه الجماعات من المحاربين الطبقيين، ، الذين سرعان ما يعهدون له بمهمة حمل قنبلة للاغتيال الرأسمالي، عند الساعة الحادية عشر، لكنه وفي صحوة من الوعي توضح له كل شيء يرفض المضي بالمهمة، وبشكل بطولي ينقذ كل شيء، ويفوز أيضاً بيد الفتاة التي يحبها!

وعند مشاهدته بعد ما يقرب من ١٠٠ سنة! (الفيلم ملك لموقع يوتيوب حالياً) فإن الفلم قد يبدو لا شيء غير شذوذ تاريخي مميز لشخص دون غيره، وعموماً، فإن (صوت الكمان) يعطي إشارة مهمة إلى أمر جدير بالملاحظة حول البنية الاجتماعية للإرهاب، كخطر مع الافتتان الطويل المدى للثقافة الشعبية بالتهديدات الخطيرة لشخصية الإرهابي، وبينما الصورة النمطية الآن لـ (الجهادي) هي عن العربي المسلم الملتحي أو الملثم، فقبل قرن مضى كانت هذه الشخصية الشيطانية كانت تمثل شخصية الأوربي الشرقي الداكن البشرة، التي غالباً ما تشير إلى كونه يهودياً، وهي علامة يوصم بها بشكل مبالغ به العديد من المهاجرين إلى أميركا في تلك الفترة، حيث يتوارى فوضويو فلم غريفيث، وراء الحافات المظلمة للمجتمع المتحضر، ويبحثون بشكل دائم عن الضعاف السذج لتجنيدهم، و لتمزيق نسيج الحياة البورجوازية.

وكان فيلم (صوت الكمان Voice of The violin) قد ظهر في أعقاب (رعب الفوضويين) في سنة ١٩٠٨ "وهو رعب نتج عن عدة أعمال عنف غاضبة"

بضمنها مقتل قس في دينفر على يد مهاجر إيطالي ومحاولة قتل رئيس شرطة شيكاغو من قبل يهودي روسي مرتبط بشكل مزعوم بدوائر فوضوية.(١)

ومثل هذه الحوادث مع أخذها في الاعتبار مع سياق أوسع يشمل الاضطرابات التي حدثت في روسيا بعد الثورة عنها عام ١٩٠٥، مما سبب تراجع الطبقات السياسية في كل مكان في رعب، من تهديدها بخطر الفوضويين الذين يحملون القنابل، ومن الواضح إن غريفيت كان يتشارك بنوع من الألفة مع هذا الفزع، وهو فزع لم يكن ببساطة سياسياً فقط بمعناه الضيق.

ويهاجم (صوت الكمان) بتأكيدات شديدة الحزم، الفوضويون وأفكارهم المتهالكة، ولكن فيلم غريفث الميلودرامي يحمل أيضاً أفكاراً عن (ارهاب الأجانب)، مصوراً المهاجرين كخطر على نقاء ورفاهية البلد وكيانه (السياسي بنفس الطريقة التي عبرت فيها افتتاحية لصحيفة (سان فرانسيسكو كرونكل) في١٩٠٨، والتي انتقدت الفوضويين و (عقيدتهم الملعونة) التي هي (لا قيمة لها كالجرذان ولكنها أكثر خطراً بكثير).(٢)

وبعد الحرب العالمية الأولى، خمدت المخاوف بشكل خاص من الإرهاب الفوضوي، بعد قيام الجيش الجمهوري الأيرلندي السري بنشر تكتيكات حرب العصابات في حملته لينل الاستقلال عن الحكم البريطاني، حيث اكتسب الإرهاب ظلالاً متنوعة، كما وصفته الصحف البريطانية، حيث أصبح الإرهابي هو (فينيان)(*).

الذي ينصب كمائن للقوات البريطانية ولأفراد الإدارة الملكية في أيرلندة، ويعمل على ترويع السكان المحليين ويجبرهم على تقديم الطعام والمأوى (للجمهوريين) بالتهديد، " وغالباً ما يتحقق" بالانتقام العنيف من أولئك الذين يثبت

---

1 - Porton, R (2005) (Film and the Anarchist Peril) in Slcum.

٢- مصدر سابق، الاقتباس لدى بورتون، ص ٥٣.

* - فينيان (Fenian) كلمة باللغة العامية الأيرلندية تطلق على أعضاء أحذية الجيش الجمهوري الأيرلندي، ربما تكون أشبه بتعبير (الرفيق) لدى الجماعات الشيوعية والماركسية وتنظيماتها.

تعاونهم مع السلطات البريطانية، ورغم أنهم ينسحبون من المعارك المعلنة، مع ذلك فقد اجتذب حوله انتباه واهتمام الرأي العام بشكل غير مألوف (حسب أقوال الصحف البريطانية في تلك الفترة)!

كانت حركة الجمهوريين الأيرلنديين، كما يتصورها منافسوها، منغمسة في الدعاية بالكلمة وكذلك بالأفعال، ومنذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر فصاعداً، حاول الجمهوريون كسب الرأي العام في أيرلندة، وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها بطريقة مسهبة جداً، حيث أنتجت العديد من الجماعات الجمهورية الأيرلندية مطبوعاتها الخاصة بها، وأفعالاً من العنف تم تبريرها من خلال الرسائل الإخبارية والكراسات والبوسترات... الخ.

وكانت الخطابات والحديث للعامة المتعاطفين، وكذلك جنازات ومآتم أعضاء الجماعات الجمهورية، قد أصبحت مناسبات للتشويه العلني للسلطات البريطانية وإعادة التوكيد على الالتزام بالاستقلال الأيرلندي، ومن هذه المناسبات على سبيل الذكر لا الحصر، جنازة جيرماية دونوفان روزا (مؤسس أخوية الجمهوريين الأيرلنديين المعروفة بشكل شائع باسم فينان)، والإيمان بالشهادة مترافقاً مع العقيدة الكاثوليكية (التي يدين بها الأيرلنديون من دون الانجليز) التي تؤمن بالتضحية والمعاناة بشكل خاص للحصول على الخلاص والغذاء، شكلت دافعاً سائداً في مخيلة وذهنية الجمهوريين المتمردين، وكان المسئولون البريطانيون يدركون قيمة الشهداء والشهادة لدى خصومهم ومع ذلك لم يمسكوا عن الإمداد بالمزيد من قتلى الـ (فينان)، ومستجيبين إلى انتفاضة عيد الفصح في عام ١٩١٦، بالإعدامات والزج بالسجون، وهو ما كان يدفع قادة الجيش الجمهوري للرد بإيجابية أكبر.

وخلال فترة حرب الاستقلال الأيرلندية (١٩١٩- ١٩٢١)، حارب كلا الجانبين ليس فقط من أجل السيطرة على الإقليم، ولكن حول مفاهيم الشرعية في هذا الصراع الدموي على السيادة الأيرلندية، وانغمرت منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي السري) في (حرب بالكلمات) موجهة نحو الفوز بتجنيد الناس في أيرلندة

وإلى أولئك المتعاطفين في الولايات المتحدة وفي بريطانيا، وأجزاء إمبراطوريتها البعيدة، التي كان سكانها الخاضعين يتبنون برامج وطنية النزعة.

وفي حقل الاتصال الاقناعي، كان السين فين (الجناح السياسي تشايدرز مؤلف (غربال الرمال)، وكانت صحيفته (النشرة الأيرلندية) (ايريش بوليتن) تصل إلى جماهير حول أنحاء العالم، وتلفت انتباههم إلى وحشية التكتيكات التي تتبعها القوات البريطانية في أيرلندة، ومنها تطبيق الأحكام العرفية على أجزاء كبيرة من البلاد، وفرض الرقابة، وكذلك تطبيق السجن بالجملة (من دون إجراء محاكمة) للأشخاص المشتبه فيهم مساعدتهم لمنظمة (IRA)، ومن وجهة النظر السائدة في مطلع القرن الواحد والعشرين فإن معظم هذا لا يبدو غريباً جداً: (الاشتباه بالإرهاب)، جلسات التحقيق والسجن: حيث يتم تعليق دور القانون ويستبدل بـ (محاكم التحقيق العسكرية) وهو نظام (شبه قضائي) تم تمديده ليطبق على كل سكان أيرلندا المدنيين ككل من خلال (قانون إعادة النظام في أيرلندة) الذي تم إقراره من قبل البرلمان الانجليزي في آب ١٩٢٠.[1]

وفي تلك الأيام التي لم يكن فيها قد تم صياغة عبارة (الفوز بالقلوب والعقول)، فإن المفهوم نفسه مع ذلك كان موجوداً، وربما يكون بصورة بدائية نوعاً ما، حيث شنت السلطة البريطانية جهوداً منسقة لتبرير تكتيكاتها القاسية، ولافتة الانتباه إلى حملة الإرهاب التي تقودها منظمة (IRA) ضد القوات البريطانية وضد الموالين لها على حد سواء، ومصورة الأمر على إنه حملة من (التطهير الأثني) ضد مجتمع (البروتشانت) في أيرلندا.

وفي آب ١٩٢٠، تم إنشاء قسم للدعاية في قصر دبلن (مقر السلطة البريطانية في أيرلندا، والذي حاول التمسك بالخط الوحدوي بين البلدين، ومن ضمن النشاطات العديدة للتأثير على الرأي العام، هي ثبوت قيامه بنشر مقالات (غفل من الاسم) في الصحف البريطانية والصحف الصادرة ما وراء البحار، تنفر من منظمة

1 - Townshend, C (1975) The British campaign In Ireland 1919 -21: The Development of Political and military policies, Oxford, oxford University press.

(IRA)، وتشرع من استخدام الإجراءات القاسية المضادة للإرهاب ضد عدوها غير الشرعي، محاولة (إلهام) قصص إخبارية محابية.

أو حتى تدفع في مقابل نشرها، وهي نسخة محورة، عن ما قامت به مجموعة لنكولن من زرع المقالات والأخبار في الصحافة العراقية بعد حوالي ٩٠ سنة مرت لاحقاً، وعلى الرغم من كثرتها وانتشارها، فإن هذه الجهود افتقدت القوة الأخلاقية والبلاغة اللائقة التي كانت لقضية الجمهوريين الأيرلنديين وخلال فترة حرب (١٩- ١٩٢١)، وكما في الحملات اللاحقة المضادة للتمردات فإن جهود الحكومة البريطانية في إيجاد المبررات الذاتية كافحت للتغلب على العنف الزائد لقواتها المسلحة والشرطة والميليشيات المساندة التي وظفت للتغلب على الثورة الوطنية وأي فرد يدعى بأن الإرهاب هو دائماً[1]. ومحتوم عليه بهزيمة ماحقة، عليه أن ينظر إلى النجاح الذي حققته منظمة الـ IRA في حملتها هذه،وكما هو معترف به، فإن الجيش الجمهوري لم يحقق نصراً كاملاً تماماً، حيث إن المقاطعات الشمالية الشرقية الست من أيرلندا تم اقتطاعها من الدولة الأيرلندية المستقلة التي أنشأت في عام ١٩٢٢، وبقيت تحت السلطة البريطانية، مؤدية إلى إثارة موجات متعاقبة من العنف في العقود اللاحقة منذ ذلك الحين، ولقد أدت تكتيكات حرب العصابات غير التقليدية إلى النجاح في استخلاص السيطرة على أجزاء كبيرة من الريف الأيرلندي، وحفز القمع الحكومي المزيد من المقاومة، والتي بالمقابل أدت إلى أعمال عقابية من جانب الدولة، وفي النهاية فقدت الحكومة الرغبة والإدارة للاستمرار، وحتى البابا نفسه تدخل للحث على التهدئة.

وكانت كلفة التمسك بإقليم غير مسيطر عليه بشكل متزايد أعلى من المنافع العائدة من استعادة الجزيرة بكاملها ضمن الإمبراطورية البريطانية، وبحلول

١- مصدر سابق، تاونسند، ص ١٧٢

تموز ١٩٢١، كانت حكومة لويد جورج تتفاوض على تسوية تمكن من إقامة دولة أيرلندية حرة ضمن ممتلكات التاج البريطاني.

وخلال العقود التي توسطت القرن العشرين، فإن الإرهاب ظل مصطلحاً يطبق بشكل رئيسي على المنظمات ذات النزعات القومية التي رفعت السلاح ضد الامبريالية الأميركية أو الأوربية، وبعد الحرب العالمية الثانية كانت الظروف ملائمة جداً لمثل هذه الحركات لتضرب النظام الامبريالي المتآكل، فلم تكن الحرب قد أضعفت فقط قبضة القوى الأوربية بل وفرت لملايين من رعايا المستعمرات الشباب التدريب العسكري والخبرة والروحية اللازمة للقتال، سواء كمنخرطين في الجيوش الأوربية، أو كأعضاء في المقاومة ضد اليابانيين، والتي أيضاً تم تدريبها وتجهيزها من قبل الحلفاء.[1]

أما بالنسبة للولايات المتحدة، وهي أول من تعرض ما بعد الحرب، لما اصطلحت عليه واشنطن بالإرهاب الذي بدأ في عام ١٩٤٦، عندما شن الجناح العسكري للحزب الشيوعي الفيليبيني (Hukbalanap) (والذي شكل لأول مرة لمقاتلة الاحتلال الياباني في عام ١٩٤٢) حملة ضد قادة ما بعد الحرب الذين زرعهم (ترومان) بعد انهيار اليابان، وبينما كانوا يحاولون التغلب على هذا التمرد، كانت أعين صانعي السياسة تتوجه عبر الباسيفيكي نحو مكان آخر في الهند الصينية، حيث كان حليف آخر من الحلفاء الغربيين يواجه تمرداً آخر من قبل جيش عصابات كان الحلفاء قد دعموه لمقاتلة اليابان في فيتنام، الذي كان يقاتل للتخلص من السيطرة الاستعمارية، مما أدى لهزيمة فرنسا في ١٩٥٤، تاركة (فراغاً) وراءها ما لبث (المستشارون) العسكريون الأميركيون أن اندفعوا لملئه.

ولقد وظفت هذه المنظمات وأمثالها تنوعاً واسعاً من الأساليب المختلفة: حرب العصابات في المناطق الريفية، الاغتيالات الموجهة، أعمال التفجير وغير من أعمال الاضطرابات والغضب في المناطق الحضرية، الاحتجاجات العمالية والإضرابات

[1] Chalinad, G. and Blin, A(eds) (2007) the History of Terrorism: From Antiquity to Al Qaeda, Berkeley, University of California Press.

العامة..الخ، وبدرجات متفاوتة عملت هذه المنظمات على تحشيد وتعبئة الرأي العام العالمي، كما فعلت الـ (IRA) من قبل، ولكن في عالم جديد تضمن محكمة جديدة للتحكيم في النزاعات والمظالم وهي منظمة الأمم المتحدة مع وسائل جديدة ومكلفة من فرق الصحافة العالمية، وبينما قاتلت بعض هذه الحركات مثل الماو ماو في صراعات محلية من أجل الأرض والأخلاق، فإن منظمات أخرى كانت تعمل عن وعي لجذب انتباه الرأي العام العالمي وتعاطفه.

وإذا كان الجدل يدور على أن الزمن يكون إلى جانب الإرهابيين في مثل هذه الحروب من الاستنزاف، وكذلك وسائل الإعلام، أو على الأقل هذا ما كان يؤمن به مسئولو المستعمرات، ولكن هذا الانحياز لم يكن مستمداً من تعاطف زائد عن الحد مع التطلعات والآمال الوطنية لتلك الحركات، بل من المفاهيم الصحفية حول القيمة الإخبارية، والتي تحبذ الأحداث والمشاهد قصيرة العمر التي يفتعلها الإرهابيون، مثل عملية اغتيال في شارع مزدحم، أو تفجير فندق أو كمين لدورية... الخ. على الأعمال المستمرة والمملة لحد الإحباط من عمليات مقاومة التمرد: التفتيش من منزل لمنزل والانتشار عبر مناطق الريف لتطهير المناطق الريفية والحضرية من المتمردين وأولئك الذين يسندونهم، كيف إذن يمكن استعادة المبادرة؟

لقد عملت السلطات الاستعمارية على توظيف لغة الشرعية، من خلال فهم ما يعنيه وصف جهة ما بأنها (عدو الفرد)، وإن أسواء ما يمكن به وصف عدو ما هو وصفه بـ (الإرهابي)، وفي الملايو على سبيل المثال تم نبذ مصطلح (العصابات) وهجره لصالح مصطلح (الإرهابيين الشيوعيين) و هي عبارة تقترب من الاستخدام السياسي للمفردة المعاصرة حالياً، ولقد تمتع المسؤولون الاستعماريون بأفضلية وضع المفردات اللغوية لمصطلحات التدخل، وعلى سبيل المثال فإن الصحافة البريطانية وصفت بشكل روتيني حركات الماو ماو والـ EOKA (مقاتلو تحرير قبرص) والـ MRLA (جبهة تحرير الملايو) وعصابة الأرغون الصهيونية، بأنها منظمات إرهابية، وكذلك (نيويورك تايمز) افتتحت أول تقرير لها عن حالة الطوارئ المعلنة حديثاً في كينيا في

أيلول ١٩٥٢ كالآتي: (إن المخاوف من انتشار الإرهاب في شرق أفريقيا البريطاني قد أعيد أحياؤها بهجوم ليلة أمس من قبل عصابة من الزنوج، قيل بأنها مرتبطة بجمعية الماو ماو السرية) أما صحيفة (الواشنطن بوست) فقد مضت إلى ما هو أبعد من ذلك، ومشيرة إلى الماو الماو على أنها (الجمعية السرية الكارهة للبيض) والتي (أقسمت بأن تصفي الحكام البريطانيين)، ولكن إذا كانت حركة (الماو ماو) بالفعل حركة كارهة للبيض، فإن نشاطاتها لم تعط مؤشراً على ذلك، وعندما انتهت حالة الطوارئ في عام ١٩٦٠، كانت قوات الأمن البريطانية وحلفاؤها المحليون قد قتلوا أكثر من ١٠,٥٠٠ آلاف من مقاتلي الماو ماو، بينما لم تزد أعداد القتلى من المدنيين الأوربيين (البيض) عن ٣٢ شخص.[١]

وكما توحي هذه الطرق في التصوير العنصرية المبالغ فيها في وصف الحركات المعادية للامبريالية، فإن الدول الاستعمارية تمتعت بأفضلية أخرى على مناوئيها في معركتها الدولية لكسب الشرعية، من خلال عرضها لحملاتها المضادة للتمرد والثورات على أنها مواجهة بين (التحضر) و (البربرية)، فإنهم قد نقروا على تخيل عنصري عميق الجذور، بشكل مؤثر ومنتج، كما قدمت من قبل المسئولين البريطانيين والفرنسيين، فإن قواتهم المسلحة كانت تمثل الحضارة وحكم القانون، التطور والحداثة، بينما كان خصومهم الوطنيين يهددون بإعادة رعاياهم في المستعمرات إلى ظلمة الفوضى القبلية أو ما هو أسوأ.[٢]

وعملاً على إثارة استجابات وردود أفعال متخوفة عمل المسئولون البريطانيون على نشر وتبادل نشيط للصور الفوتوغرافية عن فظائع الماو ماو، وكانت أكثرها ترويعاً تظهر صوراً لأجساد أطفال رضع ملفوفة بأربطة بشكل كثيف نتيجة لطعنات بالسكاكين (محلية الصنع) ويحتاجون لحقنة تحت الجلد، فعندئذ كان

1 -Corfield, F (1960) Historical Survey of the origins and Growth of mau mau, London: Her Majesty's Stationery Office.

2 - Lonsdale, J (1990) (Mau Maus of the mind: Making Mau Mau and remaking Kenya) Journal of African History, 31, 393-421.

الملف (يعرض بكثير من الفطنة للأشخاص الذين يعتقد بأنهم سوف ينتفعون من رؤيته) كما لاحظ مسئول خدمات الإعلام لدى السلطات البريطانية بشكل دقيق.[1]

ومن خلال تصويرها لنفسها وقد تم تمزيقها وتقطيعها من قبل المتمردين الساعين وراء الدعاية، فإن السلطات الاستعمارية تمتعت بامتيازات لا حصر لها، حيث تمكنت من تطوير ميكانزمات محكمة للتحكم بالصحافة في المستعمرات لإجبار أولئك الذين يقبعون في عواصمها، كما أنها تحكمت بشكل نموذجي بالوصول المادي للمراسلين للمناطق التي تشهد نزاعات عنيفة، ومنح قوانين الطوارئ إمكانية لجم وكبح الصحف المحلية (المحرضة).

وكما في (الحروب المحدودة) الأخرى، فإن المنظمات الإخبارية أكدت على أنها لم تعامل نفسها على أنها غير متحيزة بين السلطة ومتحديها، حتى إذا احتفظوا بالحق في نقد بعض التكتيكات التي تبدو غير مساعدة، ولهذا فإنه على سبيل المثال، عندما أكد المشرف العام على الـ BBC، على حق الهيئة في بث مقابلة مع (العقل المدبر) المعترض لمنظمة (EOKA) في ١٩٥٥، فإنه لم يفعل ذلك بالإشارة إلى المبادئ المطلقة عن حرية التعبير، أو التزام الـ BBC بلوائحها حول عدم التحيز السياسي، بل على العكس من خلال الإشارة إلى كم كانت المقابلة منحازة تماماً، حيث أن المقابلة المتلفزة بين الأسقف مكاريوس والصحفي وودرو وايات كانت (كشفاً مثيراً للاهتمام وعادلاً لنذل مراوغ واسع الحيلة) كما يصر المشرف العام في توضيحه للحكومة الساخطة.[2]

وبكلمات أخرى، عند إعطاء (الحبل الكافي) فإن المسلحين سرعان ما يشنقون أنفسهم بأنفسهم.

ولكن الأفضلية الأكبر والأكثر بديهية للدول الاستعمارية المتمثلة في قدرتها النارية الهائلة يمكن أن تشكل أيضاً أكبر مساوئ، إن الحملات

1 - Caruthers, S (1995) (Wining Hearts and minds) London Leicester University Press.
2- Gris Wood, H (1698) one Thing At A time: An Autobiography, London, Hutchinson.

الاستعمارية المضادة للثورات كانت تشن، في كل حالة، بأقصى درجات العنف والضراوة وبشكل لا متوازن ولا متناسب، لا يمكن إغفاله.

ومهما كانت باريس أو لندن تصر بقوة على أن الإرهابيين لا يستجيبون إلا لمنطق القوة وحدها، وإن افتقارهم لاحترام مناعة المدنيين في الحروب التقليدية تتطلب ردة فعل من هذا النوع، ومع ذلك فإن مثل هذه التكتيكات المستخدمة بوحشية أدت إلى الكثير من الاحتجاجات وعلامات الاستفهام المنزعجة، عندما يتبنى المتمسكون والمدافعون عن الحضارة، التعذيب كعنصر منتظم في معاملة السجناء (كما فعل الانجليز في الملايو) أو سجن ثلث الذكور البالغين (كما حصل للسكان من قومية الـ Kikuyu الكيكويو في كينيا) يصبح من الصعب الإبقاء على الإطار التفسيري السائد متماسكاً دون أن يمس.

وأصبحت الاتهامات بأن الدول الاستعمارية هي الوكيل الحقيقي للإرهاب بدأت تبدو أكثر مصداقية، حتى بالنسبة لمؤيدي الواقع الراهن، وظل الصحفيون الذي أبقوا على مسافة نائية، غافلين لدرجة كبيرة عن القصف المكثف على مناطق (القتل بالنيران) في غابات الملايو أو المناطق الجبلية المكسوة بالغابات في كينيا، أو المذابح المنتظمة التي ارتكبها الجيش الفرنسي ضد القرى العربية في الجزائر، ولكن كان من الصعب إبقاء مثل هذه الممارسات الواسعة سرية عن أعين الوكالات والمؤسسات الصحفية العديدة، وبالإضافة لكون إحدى الممارسات الرئيسية لمقاومة التمرد، هي في إعادة (التثقيف) فإن المسؤولين الاستعماريين لم يحاولوا بالضرورة طرد المراسلين وإبعادهم نهائياً.

وهكذا اندلعت موجة من الاحتجاجات العنيفة داخل مجلس العموم البريطاني أثر الأنباء التي تواردت عن إساءة المعاملة بشكل مميت لـ ١١ سجين من الكيكويو، ضربوا حتى الموت من قبل الحراس في مخيم (هولا) في آذار ١٩٥٩، لرفضهم العمل.

وهذه الحالة، سعى المسؤولون في المستعمرات لغسل آثارها من خلال نسبة هذه الوفيات إلى (ماء ملوث)، مما أثار إدانة غير مسبوقة لظروف الاعتقال في كينيا، ومن ضمنها تلك الاحتجاجات التي قادها إينوخ باول عضو البرلمان البريطاني، التي عكست حالة من عدم الثقة الامبريالية تسببت فيها الصحف البريطانية التي وصفت الحادثة بأنها (مذبحة هولا).

حيث لم يعد كل إجراء يتم اتخاذه تحت مسمى (مواجهة الإرهاب) مقبولاً، أو كما جاء في كلام باول (سوف يكون لنا معايير أفريقية في أفريقيا، ومعايير آسيوية في آسيا، وربما معايير بريطانية هنا عندنا في الوطن).[1]

وهكذا عملت الحوادث الشهيرة مثل حادثة مخيم (هولا) على تبلور الرأي العام في العواصم الكبرى الغربية، رغم أنها بالتأكيد لم تكن تحمل أي مفاجأة لسكان مناطق النزاعات الذين كانت خبرتهم عن أساليب مواجهة التمرد اليومية هي خبرة عن الممارسات الوحشية، حيث كانت العقوبات الجماعية، وفرض الضرائب الإضافية، وأعمال السخرة الإلزامية، والتهجير القسري، ومنع الغذاء والتجنيد الإجباري في الميليشيات الموالية، هي الإجراءات القاسية الشائعة.

رغم حقيقة إن الفوز (بالقلوب والعقول) للسكان التابعين هي القاعدة التي يعتمد عليها نجاح عملية مواجهة التمرد كما هو معروف، وفي الأربعينات والخمسينات، فإن القادة الأوربيين في الميدان قد طبلوا للأفعال الخيرة (المصممة للتأثير في السكان المحليين وإثارة إعجابهم بميزات وفضائل النظام السياسي القائم، أو ذلك الذي تعديله بشكل طفيف في اتجاه الحكم الذاتي، وإن عبارة الفوز (بالقلوب والعقل) ظهرت لأول مرة في الملايو، عندما أدعى المندوب السامي الفيلد مارشال سير غيرالد تمبلر، بأبوة مشكوك فيها لهذه (الكليشيه) التي أصبحت سائدة في مواجهة حالات التمرد.

١- مصدر سابق، الاقتباس لدى كارثرز، ص ٢٦٧.

ولكن كيف يمكن للمرء أن يمضي في ربح القلوب أو أسر العقول؟ لقد قامت السلطات في المستعمرات لابتكار مسارات متعددة في طريقها لتحقيق أهدافها، مع تطوير تكنولوجيا الاتصال كوسيط هام، وحتى من خلال اعتمادها على المطابع المحلية الفقيرة، عملت السلطات الاستعمارية على تنشئة وسائل إعلام جديدة لتؤثر من خلالها على رعاياها في المستعمرات وتنمي فيهم الرغبة للتحول التدريجي نحو الحكم الذاتي تحت توجيه وتدبير الأوربيين.

وبناء على ذلك الحاجة للوقوف بوجه الإرهابيين فيما بينهم، وفي الملايو عملت السلطات البريطانية الكولنيالية على إنتاج فيلم (مغامرات يا كوب)، وهو نسخة معدلة من أفلام طرازان، يقوم ببطولته بطل (معاد للعصابات). [١]

وفي أماكن أخرى كان الراديو هو الوسيلة المفضلة وفي جميع الأماكن وجد السكان المحليون أنفسهم يمطرون بملايين من المنشورات والمطويات، غالباً بشكل قصاصات من الكارتون، تحثهم على الانضمام لجانب الحكومة وتدين الإرهابيين وتنفر منهم.

وإذا كانت برامج وسائل الإعلام كانت الجزء من الإستراتيجية للفوز بـ (العقول) فإن (القلوب) كان يتم استهدافها من خلال الدعاية الاستعمارية بالأعمال التي اعتقدوا بأنها تكسب الناس من خلال توفير الاستقرار، الخدمات الاجتماعية، والأسباب العملية الأخرى لتحبيذ واقع الحال الراهن على أي شيء قد يحل محله، ولكن بينما قد يبدو هذا الأمر مناسباً جداً من الناحية النظرية، فإنه غالباً وعبر الممارسة، هذه المشاريع شكلت شكلاً آخر من أشكال العنف، وهكذا فإن (القرى النموذجية) في الملايو والجزائر على حد سواء، والتي قدمت على أنها مساحات آمنة للسكان القرويين لممارسة الديمقراطية محلياً، وللحصول على العناية الصحية والتعليم بعيداً عن خطر الإرهابيين وتهديداتهم، ظهرت وكأنها أشبه بمعسكرات العزل أو الاعتقال بالنسبة للأعين الغير مدربة، وهي محاطة بـ الأسلاك الشائكة وأبراج للمراقبة وحراس مسلحين يميلون لإطلاق النار على أي منتهك

١- مصدر سابق، انظر كاررثرز، ص ٩٤.

لحظر التجوال، فهي كانت بذلك تعطي دلائل كافية على أنها صممت لاحتجاز السكان وإبقاء الإرهابيين خارجاً.[1]

كما كانت بالفعل كذلك "كما أوضح ذلك بعض الضباط العسكريين بدون أي اعتذار أو تبرير" (ضمني فاشياً، إذا أردت!) يقول عقيد فرنسي كان يخدم في الجزائر لصحيفة (لوموند) الفرنسية، (ولكن يتوجب علينا إبقاء السكان سهلي الانقياد، ويمكن التحكم بهم، يجب السيطرة على أفعال الجميع)، ومن جانبهم فإن نقاد هذه السياسة، لم يترددوا في الحديث عنها بفظاظة أيضاً وبدون خجل.

وأعلن رافاييل ليمكن، الأميركي مهندس ميثاق الأمم المتحدة لمنع ومعاقبة جرائم الإبادة الجماعية، بدون تردد أن الفرنسيين قد انتهوا من هذا التشريع، وفي الخمسينات كان الضباط الأوربيون يشتكون بشكل متكرر بأن المراسلين دائماً ما يتجاهلون إنجازاتهم المستعمرات المتنازع عليها، ومنجذبين إلى الأحداث المدمرة والأكثر إثارة "وإلى الهجمات الإرهابية بشكل خاص"، فهم يتجاهلون (الأخبار الطيبة) الأقل درامية عن السلام والتقدم.

وكما سبق وأن رأينا، فإن هذه الشكوى برزت للسطح مرة أخرى في حرب فيتنام في عقد الستينات حيث كان (ألفيت كونغ) بشكل روتيني يتم دمغهم بـ (الإرهابيين) وكان المسئولون الأميركيون يعترضون على نقص الانتباه الصحفي إلى النجاح المتحقق في (التهدئة وفرض السلام)، وشهد عقد الثمانينات تكريراً مملاً لهذه التهم، وفي محاولة لمعالجة هذا النقص والإخفاق عمد ضباط الإعلام في الجيش البريطاني إلى اصطحاب الصحفيين في جولات لمحاولة التأثير فيهم، لرؤية الازدهار والسلام المنتشر في شمال أيرلندة.[2]

وفي الفترة الأخيرة، كانت التهم حول أن (الأخبار الطيبة) يتم تهميشها بشكل منتظم، أخذت تسمع من جديد من قبل الضباط الأميركيين والبريطانيين في العراق وأفغانستان، الذين يشعرون بالإحباط من أن جهودهم (الناجحة) في

1 - Purcell, V (1954) (Jalaya: Communist or free?) London, Victor Gollancz.
2 - Miller, D (1994) Don't mention the war: Northern Ireland Propaganda and the media, London: Pluto press.

استعادة النظام وكسب الأصدقاء لا تحظى بنفس الاهتمام الذي توليه وسائل الإعلام لانتصار المتمردين في نشر الفوضى والاضطرابات.

(الحرب على الإرهاب) في الثمانينات:

عندما أعلن الرئيس بوش الحرب العالمية على الإرهاب في خريف ٢٠٠١ استشهد بالعديد من الحوادث التاريخية السابقة، ببطولة (الجيل العظيم) الذي خاض الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، ولكن لم يول إلا القليل من الانتباه لـ (الحروب السابقة على الإرهاب)، تلك الحملات التي تكررت بشكل منتظم مثير للدهشة، وكل واحدة تقدم نفسها بالنتيجة على أنها الأولى "نظراً لأن الافتقار للنجاح في الحملات السابقة بشكل مؤكد ومثبت، قد يؤدي إلى إحباط حماسة الرأي العام للمشاركة في المعركة، في حالة استذكار فشل الحملات السابقة "وتنقل صحيفة (نيويورك تايمز) عن (حربها الأولى) على الإرهاب في سنة ١٩٨١، حيث عملت الحكومة الألمانية والروسية على تشديد قبضتها في نفس الوقت ضد الاغتيالات التي يقوم بها الفوضويون، وعندما أعلن وودرو ويلسون دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى، تعهد بشن الحرب على الإرهاب الألماني (في البر والبحر) في عام ١٩١٧، ولكن بالنسبة لجورج بوش (الأب) نائباً للرئيس، حينما أعد رونالد ريغان للعمل في حملة عالمية للاستئصال أيضاً تم وصمها بـ (الحرب على الإرهاب).

وكان المتوقع ان يخصص ريغان جزءاً من أول خطاب له بعد تنصيبه لإدانة الإرهاب، وفي ٢٠ يناير ١٩٨١، قبل ساعات من توليه السلطة رسمياً تم إطلاق سراح ٥٢ رجلاً وامرأة الذين كان قد تم احتجازهم لمدة ٤٤٤ يوماً في الفترة السابقة في السفارة الأميركية بطهران (في الحادثة الشهيرة لاقتحام السفارة الأميركية في الفترة التي تلت سقوط الشاه)، ومثلت مبادرة من إيران لحفظ ماء وجه الرئيس المغادر، الذي باءت كل محاولاته للتفاوض على إطلاق سراح الرهائن أو التخطيط لعمل عسكري لإنقاذهم بالفشل، وكانت عدم كفاءة (كارتر) الواضحة في أزمة

الرهائن، مترفقة مع مدى التوسع للنفوذ السوفييتي في العالم الثالث والمتمثل باجتياح (الجيش الأحمر) لأفغانستان في ديسمبر ١٩٧٩، أعطى لريغان فرصة ملائمة لتقديم نفسه على إنه رجل الأفعال والقرارات الحاسمة، (في تناقض واضح مع سلفه) فعندما تكلم كارتر عن ضعف الأوضاع الوطنية، وعد ريغان الأميركيين بفجر جديد منتج، وعندما نصح كارتر محذراً مواطنيه أن يعملوا على التقليل من آمالهم وطموحاتهم ونفقاتهم إلى درجات أكثر اعتدالاً، أعلن ريغان بأن الأميركيين هم أمة (عظيمة جداً) ليقصروا أنفسهم على (أحلام صغيرة)، وبالإضافة إلى الحد من الضرائب العالية، والإنفاق الحكومي العالي وكبح التضخم، فإن الرئيس الأربعين للولايات المتحدة، قد تعهد بذبح الوحش المتعدد الرؤوس (الإرهاب).

وإن فترة رئاسة ريغان الأولى هي أقل تذكراً الآن بـ (حربها على الإرهاب) من هجماتها التي جلدت بالنقد (إمبراطورية الشر) الشيوعية، وبنائها السريع للقدرات النووية التكتيكية في أوربا الغربية، ولكن بالنسبة لـ ريغان على كل حال، فإن الحرب ضد الإرهاب العالمي لم يمثل إلهاء عن المنافسة مع السوفييت، بل كان متكاملاً مع شن صراع الحرب الباردة، وطبقاً لمستشاري ريغان، فإن (شبكة الإرهاب) الممتدة من أفريقيا الجنوبية إلى أمريكا الوسطى، ومن بلفاست إلى بيروت، يمكن تتبع آثارها جميعاً وصولاً إلى الكرملين.[1]

ولذا فإن الحؤول دون مظاهر الإرهاب المحلي كان يعني لهذا وضع تطلعات السوفييت بالهيمنة على العالم في وضع حرج، وهو توجه جيوبوليتيكي وضع لمواجهة التمردات وما يصاحبها من تقديم المساعدة لـ (مقاتلي الحرية) في قلب عقيدة (ريغان) التي يعتنقها.

وإن التخلص من الشيوعية والإرهاب، في المقابل ضمن بأن العلاقة (التكافلية) بين الأخيرة ووسائل الإعلام، اكتسبت اهتماماً جديداً مرة أخرى نتج عنه زيادة مفرطة في التقارير والندوات، ومجموعات الرأي، والتحقيقات حول

1 - Sterling, C (1981) The terror net work: The seceret War of international Terrorism, London, Weidenfeld & Nicolson.

الموضوع خلال الثمانينات، وكانت التساؤلات حول تغطية وسائل الإعلام للإرهاب كانت تطرح الآن حتى قبل تولي ريغان لمنصبه، ومع (احتجاز في إيران ١٩٧٩، فإن تعامل المؤسسات الإخبارية مع الإرهاب كانت مسألة مقسمة، كما هو الحال لتعامل البيت الأبيض مع الصحافة.

وهاجم النقاد سياسة كارتر المسماة (إستراتجية الحديقة الوردية) لقيامه بالظهور بشكل مستمر إن لم يكن يومياً في حدائق البيت الأبيض لإعلام فرق الصحافة في واشنطن حول آخر التطورات حول الرهائن في طهران، وهذا التلويح المركز على مأساة (الرهائن) ساهم لأن يكون ورقة بيد محتجزيهم، كما يدعي منتقدو الرئيس، وكان تركيز كارتر على إعطاء إشارة إلى التضامن والتماسك مع موظفي السفارة المنكوبين، بدلاً من جذب الانتباه إلى مطالب الإرهابيين، ومن أبرزها تسليم الشاة السابق الذي لجأ للولايات المتحدة للحصول على العناية الطبية بعد هروبه من إيران بعد الثورة، وبالنتيجة فإن إستراتيجية (حديقة الورد) جعلت من كارتر أسيراً للكارثة الإيرانية مثل الرهائن أنفسهم، منتظراً لـ (رعب مقصلة الأخبار المسائية أن تنزل كل مساء) كما صاغها نائب الرئيس والتر مونديل فيما بعد.[1]

وبينما لم يكن بإمكان الرئيس الهرب من المصيدة التي كانت من صنعه لحد كبير فإن معاناة الرهائن تم إطالتها تبعاً لذلك نتيجة لسوء طالعه.

ولكن مثل هذه الآراء المشككة لم تلق كثيراً من الاهتمام في ظل الحجم الكبير من المقالات والأبحاث عن الإعلام والإرهاب في الثمانينات، فبعد ذلك كله، كان الرئيس كارتر قد ارتكب الخطيئة الكبرى في مواجهة الإرهاب، من خلال عمله على ضمان إن محتجزي الرهائن قد حصلوا على مؤونة يومية من السلعة التي كانوا يتوسلون من أجلها (التغطية الإعلامية...)، وهذه الفكرة ظلت ثابتة لفترة طويلة دون أن يتم تحديها أو مناقشتها، وعوضاً عن ذلك، فإن النقاش تركز على

1 - Shlesinger, P (1995) (terrorism) in smity.

إستراتيجيات (كيف يمكن ...) التي تساعد وسائل الإعلام الإخبارية في تصميمها الواضح على عدم توفير الانتباه للإرهابيين الذين يرغبون به.

طالما أن أي انتباه مهما كان سلبياً أو معادياً بشكل واضح سوف يؤدي إلى إرضاء رغبتهم للحصول على الأضواء، ووفقاً لذلك فإن أي خطوة لحرمان الإرهابيين من الدعاية ، من أوكسجينهم، كما أكدت مارغريت تاتشر في تصريح شهير لها في ١٩٨٥ ، سوف تعجل باليوم الذي يأتي بتقهقر لا رجعة فيه للإرهابيين.

وفي فترة حرب ريغان على الإرهاب تحول النقاش من الفوز على المدى الطويل بـ (القلوب والعقول) إلى (مشاهد الإرهابيين المذهلة) القصيرة العمر، وهذه الحلقات الدراماتيكية التي ظهر فيها الصحفيون كمشاركين أكثر من كونهم مجرد (مراقبين)، وكانت أخبار نشرات التلفاز هي الأكثر إساءة في هذا المجال.[١]

وازدادت الاتهامات لوسائل الإعلام بعدم المسؤولية قدماً، خلال فترة الـ ١٧ يوماً من اختطاف طائرة شركة (TWA) الرحلة (٨٤٧) من قبل مسلحين لبنانيين في حزيران ١٩٨٥ ، ويسلط النقاد الضوء على التغطية المفرطة من قبل شبكات التلفاز التي تم تخصيصها لهذه الحادثة: ما يقرب من ٥٠٠ مراسل و ١٢ ساعة من وقت نشرات الأخبار في المجمل.[٢]

والأسوأ من ذلك (بحسب النقاد) كان المعاملة (التمييزية) التي قدمت لنبيه بري رئيس منظمة (أمل) الشيعية، والذي يقال بأنه تلقى استشارة في العلاقات العامة من خريجي إحدى الجامعات الأميركية في الدراسات الإعلامية، وتم إجراء عدة مقابلات معه من قبل المحطات الأميركية وبحسب مصطلحات البيت الأبيض، قاموا بمعاملته وكأنه (قائد سياسي من الطراز الأول، لا فرق بينه وبين رئيس الولايات المتحدة الأميركية).

١- مصدر سابق، شميدودي غراف، ١٩٨٢، ص ١٤٢.

٢- مصدر سابق، شليسنجر، ص ٢٥١.

وفي إحدى المناسبات، أختتم كبير مذيعي الـ ABC دافيد هارتمان المقابلة بسؤاله نبيه بري فيما إذا كان لديه (أي كلمة أخيرة للرئيس ريغان هذا الصباح؟) وكانت هذه هي القشة الأخيرة: (فعندما يقوم مراسلو التلفاز بمقابلة الخاطفين (كذا)... فإن ذلك يخاطر بإظهار الخارجين عن القانون دولياً وكأنهم شخصيات مسئولية) كما تذمر وزير خارجية إدارة (ريغان) الكسندر هيغ و (على التلفاز أن يتجنب استغلاله بهذه الطريقة.[1]

وإن كلمات هيغ هذه شكلت إنذاراً بأن على الصحفيين أن يعدلوا سلوكهم وإلا فإنهم سوف يتعرضون لـ كبح الحكومة، وللتأكيد على الرسالة، فإن الرئيس ريغان، عين مجموعة خاصة للتعامل مع الإرهاب يترأسها نائب الرئيس جورج بوش، وكان الجو في العاصمة واشنطن متكثفاً بالحديث عن (فرض خطوط عامة (طوعية)، وهو تناقض بين عبارتين يعيدنا إلى أجواء الحرب العالمية الثانية، عندما كانت الرقابة تطوعية أيضاً، تحت خطر التعرض للملاحقة القضائية، إذا لم يحصل المحررون على إذن من الرقباء مسبقاً عن الأخبار حول المواضيع الحساسة.

واتخذت المؤسسات الإخبارية في هذه الأثناء موقفاً عدوانياً، ولكن استعدادها لتفادي موانع الحكومة لم يمتد أكثر من ذلك، حيث إن تهمة مساعدة أو التحريض على الإرهاب ليست بالتهمة التي يمكن التغاضي عنها، خصوصاً وأن المواطنين الأميركيين تعرضوا لسلسة من حلقات الهجمات كلها متعلقة بالشرق الأوسط وبضمنها اختطاف السفينة الإيطالية أكيلي لوارو في أكتوبر ١٩٨٥، واختطاف لطائرة أخرى لشركة (TWA) في نيسان ١٩٨٦ وبعد ثلاثة أيام تعرض ناد (ديسكو) في برلين يرتاده الجنود الأميركيون بكثرة، للتفجير نتج عنه ٣ وفيات (امرأة تركية واثنين من الجنود الأميركيين) وأكثر من ٢٠٠ إصابة.[2]

1 - nacos, B. Shapiro, R. and (Isernia, P . (194) Terrorism and the Media: From the Iran Hostage Cirisis to the World Trade Center Bombing. New York, Columbia University Press.
2 - Dobkin, b (1992) Tales of terror: television News and the construction of terrorist threat, Westport, Ct , Praeger.

ومع إدعاء المسئولين الأميركيين إلى اعتراض رسائل بين ليبيا وعملاء ألمان شرقيين تزايدت الكراهية إزاء الإرهابيين والزعيم الليبي العقيد معمر القذافي بشكل خاص وتصلبت، ولقى قرار الرئيس ريغان بقصف طرابلس وبنغازي تأييداً ساحقاً من الرأي العام ووسائل الإعلام في الولايات المتحدة.

وكان العديد من المشاركين في استطلاعات الرأي الأميركية غير مقتنعين بأن هذه الغارات العقابية سوف تمنع ليبيا من تمويل الإرهاب، ولكنهم أقروا بأنها على الأقل ترضي الرغبات المحلية في الانتقام بدون أي اهتمام زائد سواء بشرعيتها الدولية أو مدى ملائمتها إستراتيجياً، (الفعل) هو ما كان يهم مع تصريح وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز بأن الأميركيين لن (يسمحوا لأنفسهم أن يكونوا هاملت بين الدول، متسائلين إلى مالا نهاية إذا ما كان عليهم وكيف يستجيبوا).[1]

وفي هذا المناخ المتأزم، انشغلت المنظمات الإخبارية الأميركية في وضع قواعد موجهة داخلية خاصة بها في تقييد تغطيتها للإرهاب، حتى لا تضطر قوة (بوش الخاصة) للتدخل لعمل ما يلزم بهذا الخصوص.

وعلى جميع المستويات السياسية منها واللوجستية لم يمتلك الرئيس ريغان حليفاً متحمساً أكثر من مارغريت تاتشر، وفي أبريل ١٩٨٦، عندما رفض أعضاء الناتو الآخرين لتقديم المساعدة اللازمة، فإن تاتشر خولت القوة الجوية الأميركية لاستخدام قواعد سلاح الجو الملكي لغاراتهم في قصف ليبيا، وبالمقابل، فإن رئيسة الوزراء البريطانية حصلت على مساعدة تبادلية في حربها (على الإرهاب)، وحاثة واشنطن على التعاون في تسليم الأعضاء المشتبه في انتمائهم لمنظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي السري.

وسببت سلسلة من البرامج التي بثتها الـ BBC وبعض الشبكات المستقلة إثارة حنق وزارة تاتشر في الوقت الذي كانت فيه عملية زيادة القيود على هيئة الإذاعة البريطانية قد ساءت من العلاقات بين الحكومة البريطانية وصناعة التلفاز،

١- مصدر سابق، دويكين، ص ٩٩.

وكانت المظاهر المصورة للإرهابيين تمثل النقطة الأكثر التهاباً في هذه العلاقة المتأزمة، والقليل فقط من المقابلات في الواقع تم بثها على شاشة التلفاز البريطاني، والفضل في ذلك إلى قانون منع الإرهاب المؤقت في عام ١٩٧٤، والذي ظهر بأنه كان يمنع الظهور التلفزيوني من خلال عدها جنحة جرميه بعدم إعلام السلطات حول أي معلومات عن مكان وجود الإرهابيين ونشاطاتهم.

وبما أن تصوير المقابلات يتطلب مواعيد مثبتة مسبقاً مع الشخص، مما يضع قانونيتها محل تساؤل، وكان غموض القانون قد شجع مسئولي الإذاعة على اتخاذ الحذر، وهكذا فإن الـ BBC أجرت مقابلة مع أعضاء في منظمة (IRA) مرة في ١٩٧٢ ومرة أخرى في ١٩٧٤، ومن ثم حتى ١٩٧٧ مرة ولعدة، وفي نفس الفترة قامت محطة الـ (ITN) بعرض مقابلة مع دانييل أو كونيل، أحد قادة الـ (IRA) مرتين.(1)

وفي هذه المناسبات القليلة عندما عرضت الـ BBC هذه المقابلات على الهواء، ظلت مصرة "كما في الخمسينات" على أن هذه الأحداث كانت عبارة عن مواجهات أطرت بشكل خاص لإدانة وفضح أولئك الذين يوظفون العنف، وكما يؤكد رئيس مجلس أمناء الـ BBC لوزير الداخلية ريجنالد ماودلنغ في نوفمبر ١٩٧١:

{أن الـ BBC وكادرها يشمئزون بشدة من إرهاب منظمة الـ IRA وتغطي حملتهم من الجرائم بكثير من الاستنكار ... وكما بين الحكومة والمعارضة وكما بين مجتمعين في أيرلندا الشمالية، فإن من واجب الـ BBC أن تكون محايدة لا أقل مما تفعله في بقية أنحاء المملكة المتحدة، ولكن بين الجيش البريطاني والمسلحين المعارضين، فإن الـ BBC لا يمكنها أن تكون غير متحيزة}.(2)

---

1 - Dobkin, b (1992) Tales of terror: television News and the construction of terrorist threat, Westport, Ct, Praeger.

2 - Schlesinger, P. Murdock, and Elliot, P. (1983) Televising Terrorism: political Violence in Popular culture, London, comedia.

ولكن تاتشر ظلت غير مقتنعة، على الرغم من القواعد المعقدة داخل الـ BBC ، في إخضاع أي مقابلة مهمة لا على مستويات الفحص الإداري، وهي حالة ثابتة في مقاومة ومنع أي (مشاكل) قد تنتج عن مضمون البرامج وأولئك القلة من صناع البرامج من الذين يختارون أن يفعلوا ذلك يتلقون استجابة عنيفة من الحكومة.[1]

وكانت كراهية تاتشر ونفورها لها جذور شخصية عميقة، حيث أن أحد أصدقائها المقربين، الناطق باسم حزب المحافظين في شمال أيرلندة آري نابيف، تم اغتياله من قبل جيش التحرير الوطني الأيرلندي في سنة ١٩٧٩، في بداية اختبار الـ BBC لقانون (منع الإرهاب) وحظره لتسريب المعلومات من خلال مقابلة أحد ممثلي جيش التحرير الوطني (INLA)، وبالنتيجة فإن مدى حكمه مثل هذه الخطوة تعرضت للشكوك والتساؤل، بعد أن تم اغتيال اللورد ما ونتباتن في العام التالي على يد أعضاء من منظمة (IRA)، وهو فعل بدا وكأنه يؤكد النظريات عن (الأثر المعدي) للتلفاز في استثارة أفعال مقلدة للإرهاب في الزمان والمكان.

وبالتأكيد فإن برنامج بعد الآخر يتم بثه ساهم في رفع وتيرة الحرب بين الإذاعيين والحكومة، وفي ١٩٧٩، نقل عن تاتشر بأنها كانت (تتميز من الغيظ) من قيام فريق برنامج (بانوراما) في محطة الـ BBC، حول حادثة قطع الطريق من قبل منظمة (IRA) في منطقة كاريكمور " وهي اللقطات التي لم يتم بثها أبداً" ومع ذلك فإن الأمر الأكثر إثارة للفتنة كان برنامج وثائقي في سنة ١٩٨٥، ضمن سلسلة برنامج (حياة واقعية) التي تبثها الـ BBC، كان بعنوان (على حافة الاتحاد) ويصور حياة كل من مارتن ماك غينبيس من الـ (سين فين).

وزعيم الحزب الاتحادي الديمقراطي غريغوري كامبل، وطبقاً لرئيس الـ BBC دافني بارك، بأنه أشبه ببرنامج (هتلر يحب الكلاب)، فبعد عشرة أشهر من حادثة تفجير منظمة (IRA) لفندق برايتون الذي ترك خمسة قتلى من ضمنهم أحد

١- مصدر سابق، شليسنجر، ص ٢٠٥.

أعضاء البرلمان من حزب المحافظين، عندها فقط اعترفت تاتشر بعدم موافقتها على عرض البرنامج.[١]

موافقتها وكتب وزير الداخلية ليون بريتان إلى هيئة الإذاعة حاثاً إياها على التخلي عنه، مستعيداً عبارة تاتشر (اوكسجين الدعاية) وأصر على إنه (حتى إن كان البرنامج وأية مواد محيطة به كانت ككل شامل، تقدم المنظمات الإرهابية بضوء غير محبذ تماماً، فإنني أظل أسألكم بعد السماح له بأن يبث).[٢]

وتحت ضغوط شديدة وافق مجلس الأمناء لمحطة الـ BBC على هذه المطالب، ومن جانبه فإن المشرف العام أكد بأن الهيئة تحتفظ بحقها في توضيح (وجهات النظر والدوافع لدى أولئك الذين يميلون للنشاطات الإرهابية) ومستدركاً بأن الـ BBC لم وسوف (لن توفر أي فرصة للمدافعين عن الإرهاب بدون دحضها أو تفنيدها).[٣]

وهذا ما دعا موظفي قسم الأخبار وزملاءهم في محطة (ITN) لمسرحة إضراب لمدة يوم واحد احتجاجاً على سياسية إدارتهم نفسها وسياسة حكومة تاتشر، وبما أن الإذاعيين كانوا رافضين لكبح أنفسهم، فإن الحكومة كانت عازمة على فعل ذلك، وكان عليها أن تستشرف للنظر لما هو قادم، فإذا كانت حقيقة مجرد الظهور على شاشة التلفاز تعطي صبغة من الشرعية للإرهابيين، فيجب إيجاد سبل جديدة لتحويل هذه الوسيلة الساحرة إلى شيء أكثر تنفيراً ووصماً للإرهاب.

وتمخضت محاولات تاتشر في حظر الإذاعة عام ١٩٨٨، وهو واحد من أغرب وأكثر الخطوات التشريعية شمولاً تجاه حرية الصحافة يتم تشريعه من قبل حكومة بريطانية، سواء أثناء الحرب أو خارجها، وحتى تم رفعه في عام ١٩٩٤، أبقى الحظر

1 - Hill, C (1974) Behind the Screen: the Broad Casting Memoirs of Lord Hill of Luton, London. Sidgwick & Jackson.

2 - Milane, A(1988) Dg: the Memoirs of a British Broadcaster, London, Coronet.

٣- مصدر سابق، ميلاني، ص ١٩٤.

١١ ممثلاً للمنظمات الجمهورية والمنظمات الموالية لها، أو أولئك الذين تعتبر آراؤهم مؤيدة لهم، ممنوعة من الإذاعة (المباشرة) في الإذاعة والتلفاز البريطاني، وأثناء تقديمه قانون الحظر إلى مجلس العموم في أكتوبر ١٩٨٨، برر وزير الداخلية دوغلاس هيرد القانون بالإشارة إلى (الإساءة الواسعة الانتشار للمشاهدين والمستمعين) التي يسببها الظهور الإذاعي للإرهابيين، وهي نقطة يتنازع حولها الإذاعيون، خصوصاً وأن المقابلات غير متكررة، ولا تمثل (كما احتجوا) مناسبة للاحتجاج العام العميق.[1]

واعترف هيرد بأن هذا الحظر لا يمثل شكلاً من أشكال الرقابة ولا موجه نحو الإذاعيين: (هذا لا يمثل تقييداً على التغطية) كما أصر أمام مجلس العموم (بل هو تقييد على الظهور المباشر لأولئك الذين يستخدمون أو يساندون العنف).

ولكن إذا لم يكن الحظر (تقييداً على التغطية) فلماذا كان إذاً؟، أن هدفه الدقيق كان نوعاً مسألة يكتنفها الغموض، بالنسبة الحكومة كما بالنسبة للإذاعيين، ولكن ما كان يعنيه في الظاهر على ما يبدو هو منع ممثلي المنظمات المحظورة من أن يظهروا بشكل مباشر في مقابلات في الإذاعة أو التلفاز، حتى وأن تكن تصريحاتهم تبدو وكأنها محابية أو مؤيدة للإرهاب، ولكن هذا لم يعني بأن هؤلاء الأفراد كانوا ممنوعين من الظهور جميعاً معاً، رغم إن الحكومة كانت قد أملت بأن الإذاعيين سوف يكونوا أكثر حذراً من الآن فصاعداً لتجنب أي ظهور لهؤلاء الأفراد، ولكن هذا لم يتحقق، حيث إن (السين فين) كانت حزباً سياسياً شرعياً في أيرلندة الشمالية، رغم كونه الجناح السياسي لمنظمة الـ (IRA)، حيث إنه من الصعب التصور بأن السياسيين المنتجين بصورة قانونية ولهم مقاعد في مجلس العموم (رغم إنهم رفضوا شغل هذه المقاعد من حيث المبدأ).

1 - Leap man, M (1987) The Last Days of beeb, London Coronet.

يمكن أن يمنعوا جميعاً من الظهور في التلفاز البريطاني، وبالفعل فإنهم لم يحظروا جميعاً من الظهور في التلفاز، حيث كان بإمكانهم الظهور، وكانوا ما يزالون يظهرون على التلفزيون، ولكن على شكل رؤوس غير ناطقة.

حيث كانت كلماتهم تظهر على شريط على الشاشة أويتم التلفظ بها من قبل مذيعين (وبذلك فإن وجهات نظرهم لم يتم بثها مباشرة)!

لكن هل كان هذا ما قصدته تاتشر؟ من الصعب معرفة ذلك، ولكن بالتأكيد أن رؤية قادة الـ (سين فين) مثل جيري آدماز يظهرون مع (سبتاتيل) لتصريحاتهم على شاشة الـ BBC، يظهر سخافة هذا الحظر ومهندسيه لحد كبير، وتساءل العديد من المراقبين ما إذا كانت هذه المناورة قد أدت إلى الكثير من الضرر بدلاً من المنفعة، حيث سمحت للمنظمات المحظورة بتصوير نفسها على أنها ضحية لنظام قمعي، ولكن على العكس من ذلك، فإن صحافة المحافظين كانت تميل إلى تأديب أولئك الإذاعيين غير الملتزمين بالقواعد، ففي عام ١٩٨٥، لعبت صحيفة (الساندي تاميز) دوراً تحريضياً في مشكل برنامج (حياة واقعية) مشجعة تاتشر لتمديد مقولتها المسلم بها عن (أوكسجين الدعاية) إلى أي ظهور متلفز لقادة الـ (IRA)، وبشكل مشابه لذلك في ١٩٩٨، فإن المحررين وكتاب الأعمدة من المحافظين لم يصادقوا فقط على الحظر، بل دعوا إلى تشديده أكثر من خلال منع (السبتايتل) أو اللفظ المدبلج، وكانت هذه تمثل حرباً، كما صاغتها تاتشر (للتغلب على عدوك في الحرب يتوجب عليك تعليق بعضاً من حرياتك المدنية لفترة من الوقت).

وكما في الحروب الماضية، فإن بعض الصحف بدت وكأنها أكثر تلهفاً لشن الحرب على بعضها الآخر بدلاً من أن تهتم بتقديم دفاع مركز عن حرية

التعبير، (فهي ليست قضية شعبية) كما تلاحظ صحيفة (وول ستريت جورنال) حتى لدى (وخصوصاً لدى) المراسلين أنفسهم.[1]

ولكن ثمة سؤال أكبر يظل قائماً: هل تتضمن الحملات المضادة للإرهاب، إعلان حالة حرب في الواقع؟

وإذا ما كانت تمثل ذلك، فما هي الحريات المدنية التي يكون من الضروري تقييدها نظراً للتهديد الذي يمثله الإرهاب وفي الحالات المعلنة من الحرب التقليدية تكون مثل هذه التساؤلات خاضعة للتفاوض السياسي، ولا يوجد مثل هذا الكتاب الخاص بالقواعد حول أي الحريات التي يجب تعطيلها وإلى أي وقت في زمن الحرب، بل فقد درجات أعلى أو أقل من استعداد الرأي العام لغض النظر عن الحريات المدنية طالما إنها تؤدي إلى التعجيل بالنصر.

وبالتطبيق فإن حرب ريغان وتاتشر (على الإرهاب) تأرجحت قدماً أو للخلف في تعاملها مع الإرهاب على أنه حرب، يتم فهمها كظرف لا يمكن للقوانين المعتادة فيه أن تطبق، وبين كونه سلوكاً إجرامياً يمكن ويجب أن تتم مطاردته ومحاسبته في المحاكم المدنية، وهذا الأسلوب الأخير أثبت إنه الأكثر قبولاً لدى الرأي العام، وفي الولايات المتحدة، فلقد تراكم نقد الصحافة لعجز ريغان وإدارته عن إدانة المتهمين بالإرهاب أو حتى توجيه التهم للمشتبه بهم في المحاكم، وخلال فترة رئاسته الأولى، كان ريغان يميل إلى إنذار الإرهابيين (يمكنكم أن تهربوا، ولكن لا يمكنكم الاختباء!، وعموماً فكما يقول ستيفن اينغلبرغ في (صحيفة ينويورك تايمز) في ١٩٨٩، معلقاً في نهاية فترة ريغان الثانية (لقد أثبتت مرتكبو الإرهاب

1 - Henderson, L, Miller, D. and Reilly, J (1990) Speak No evil: the British Broadcasting Ban, Glasgow: Glasgow University Media Group.

العالمي قدرتهم على التكيف في كلا الحالتين الهرب والاختباء)، حيث تم جلب متهم واحد إلى الولايات المتحدة ليواجه المحاكمة (فواز يونس).(*)

وهذا على الرغم من تخويل ريغان للمخابرات الأميركية للقبض على المتهمين فيما وراء البحر وجلبهم إلى الولايات المتحدة، (كل شيء تقريباً أقل قليلاً من التعذيب مسموح به تنفيذه) يضيف اينغلبنيرغ.[1]

وكانت الحرب على الإرهاب قد اتخذت منعطفاً رهيباً غير مرئي، بعيداً عن أعين الصحافة، حيث تم الترخيص لـ CIA للقبض على المتهم بهم واستخلاص الأدلة المدنية للنفس منهم، ووضع هؤلاء الأسرى في السجون الأميركية، وكان بإمكان مؤيدو سياسة ريغان هذه، استحضار تأييد تاتشر لتبرير مثل هذه الخطوات المشكوك في قانونيتها، ولكن إدارة ريغان قامت بما هو أكثر من تقييد الحريات المدنية، حيث قامت بانتهاك القانون الدولي واستهزأت بالعديد من قرارات الكونغرس بطريقة مثيرة جداً.

كما أظهرت ذلك فضيحة إيران – اكونترا في عام ١٩٨٦، حيث ثمة فجوة واسعة تفصل بين القاعدة الأخلاقية العليا التي كانت حرب ريغان البلاغية على الإرهاب تشن وفقاً لها، وبين أسلوب العصابات والمافيات التي كانت تنفذ في الواقع وفقاً له، حيث إنها لضمان إطلاق سراح الرهائن المحتجزين من قبل منظمة (حزب الله) اللبنانية الشيعية، قامت الحلقة الداخلية المحيطة بـ ريغان بما هو أكثر من مجرد التفاوض مع إيران: وهي الدول التي كانت على رأس قائمة الدول التي تمول الإرهاب، وخاضعة لحظر دولي على إمدادها بالأسلحة فعن طريق وسطاء إسرائيليين (خصومها الأساسيين) تم بيع أسلحة إلى طهران كانت في حاجة ماسة إليها أثناء حربها الطويلة مع العراق، وبعد ذلك تم تخصيص حصص من الأرباح إلى (مقاتلي

---

* - أحد المتطرفين الإسلامي المتهمين بالإرهاب، وهو من أصل مصري ويلقب بـ (أبو عمار)، تم خطفه من شوارع مدينة ميلان في إيطاليا من قبل أناس مجهولين ويعتقد أن الـ CIA كانت وراء تدبير عملية خطفه بتلك الطريقة.

1- Kull, A (1985) (did the british press create the BBC Controversy? The wall Street Journal, August 7.17.

الحرية) في نيكارغوا، وهو مسار كاريكايتري كان ضرورياً بسبب تعديل قانون (بولندا)، وهي سلسلة من القيود التي فرضها الكونغرس على المساعدات الفيدرالية لحركة (الكونترا)، او (الإرهابيين) وفق أي مسمى آخر.

ورغم إن ريغان ظل مصراً على عدم معرفته بهذه الصفقات من تبادل الرهائن- مقابل السلاح، إلا إن ١٤ من مسئولي إدارته تم اتهامهم فيما بعد بجرائم مخالفة قوانين الكونغرس، وتم إدانة ١١ مسئولاً من بينهم، ومنهم وزير الدفاع كاسبر واينبرغر!

ولفترة بسيطة فإن فضيحة (إيران غيت) "كما عرفت آنذاك" هددت بإنهاء المسيرة المهنية للعديد من السياسيين والحط من العديد من المفاهيم السياسية الذائعة، إلا إنها لم تفعل أياً من ذلك، فكما إن الرئيس جورج بوش (الأب) منح عفواً عن الـ ١١ مسئولاً المدنين في نهاية فترة رئاسته، فإن أبنه كذلك أصدر إرجاء لتنفيذ الأحكام على عقيدة (الحرب على الإرهاب) في بداية فترة حكمه، ومن المثير للسخرية، إن خصوم أميركا الجدد (أسامة بن لادن، والقاعدة وطالبان)، في أفغانستان، كانوا منتفعين من الدعم الأمريكي السياسي والاستخباري وبما يقدر قيمته في المجموع بـ ٣ مليار دولار من المعدات والأسلحة والمساعدات تم تمريرها إلى (المجاهدين) ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان خلال فترة رئاسة ريغان، وبلغة عالم الاستخبارات، فإن اعتداءات ١١ أيلول مثلث ضربة (استرجاعية) على مقياس هائل.[1]

١- مصدر سابق، جونسون ، ٢٠٠٠ ما مداني، ص ٧٧- ١١٩.

النسخة الثانية من الحرب على الإرهاب:

خلال عملية (تعليب) الحرب العالمية على الإرهاب (GWOT)(*) وإخراجها بشكل جذاب للرأي العام يمكن تسويقه، تجنب بوش (الصغير) و مستشاروه أي ذكر للحروب السابقة المماثلة لصالح التأكيد أكثر على صراع تخرج الولايات المتحدة منه منتصرة، وتم وضع خطوط موازية مع الحرب العالمية الثانية لاستعارة الرغبة في صراع غير ملتبس أخلاقياً " حيث أن الأخيرة كانت آخر حرب شعبية خاضتها أميركا غير مشكوك فيها، ولكن نظراً لأن هذه الحرب الجديدة كانت معركة ذات طابع غير محدد من الاستمرارية كما هو واضح في التلميحات في أسماء العمليات مثل (عملية العدالة اللانهائية) و(عملية ضمان الحرية) فإن الإبعاد العسكرية لـ (GWOT)، كانت تحمل طابعاً من ملامح الحرب الباردة التي استمرت لما يقرب من نصف قرن، وبالفعل فإن مسئولي الإدارة الأميركية، والمتلاعبين بالرأي العام من مؤيديها، طوروا هذا التوازي من خلال أظهار (الحرب على الإرهاب) على إنها صراع خطير جداً ضد مد (الفاشية الإسلامية) التي تمثل أيدلوجية ميليشية (نسبة إلى ميليشيا) خطرة جداً، تزحف عالمياً مستفيدة من الحرمان والتضليل، كما فعلت الشيوعية في الأربعينات والخمسينات، وتوصل مهندسو الـ (GWOT) إلى استنتاج حاسم: أما الاستسلام غير المشروط أو انهيار كامل، كنهاية لهذا المد الخطر.

إلا إن النقاد سرعان ما طرحوا أسئلة مثل: كيف يمكن للمرء أن يشن حرباً على تكتيك (بوصف الإرهاب كذلك...)، وكيف أصبح العدو بمثل هذا الانتشار العالمي الواسع والمفتوح، صراع غير دقيق بلاغياً ضد: فرد (أسامة بن لادن) أو منظمة (القاعدة) أو فكرة (الأسلاموية، أو الفاشية الإسلامية) أو ضد عقيدة دينية بأكملها (الإسلام)؟

* - مختصر بالأحرف الأولى من عبارة الحرب العالمية على الإرهاب أو (Global War on Terror).

ومنذ عام ٢٠٠١، فإن عدداً لا يحصى من الباحثين قد عملوا على تفكيك بنية هذه الحرب المستطردة على الإرهاب وسياسات الرعب التي تستند إليها (Girox 2006, Jackson 2005, Altheide 2006)، وبدلاً من استعراض وإعادة قراءة تلك الأدبيات، فإن هدفنا هنا هو إعادة قراءة تاريخ هذه الحرب الحديثة على الإرهاب مع مشهد لمساءلة هذه الحكمة التقليدية التي دعمت الحملات المتتالية في منع (الأوكسجين) عن الإرهابيين بينما كانت تعمل على أسر قلوب وعقول مراقبيها، وهذه المهمة تبدو ضرورية جداً نظراً للتكرار الذي دأب عليه العديد من المعلقين من اليمين واليسار على حد سواء الذي قرروا فيه بأن عصر (ما قبل – الرقمي) هو آيل للزوال نظراً لبروز الإعلام الجديد سواء، كان لمصلحة الدول أو لمصلحة الإرهابيين.

والمدافعون عن الوضع الراهن كما هو يدفعون بأن الانترنت قد وفرت للإرهابيين ملعباً جديداً للتجنيد عبر الأثير: أو (أفغانستان الجديدة) بحسب كلمات مسئول شرطة نيويورك رايموند كيلي (بافتراض أن أفغانستان هي الملاذ الآمن المفقود للقاعدة، وليس بلداً يعاني من الاضطرابات وعدم الاستقرار، والذي فشل الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة بحملتها التي شنتها ضد في إعادة الاستقرار لهذا البلد).

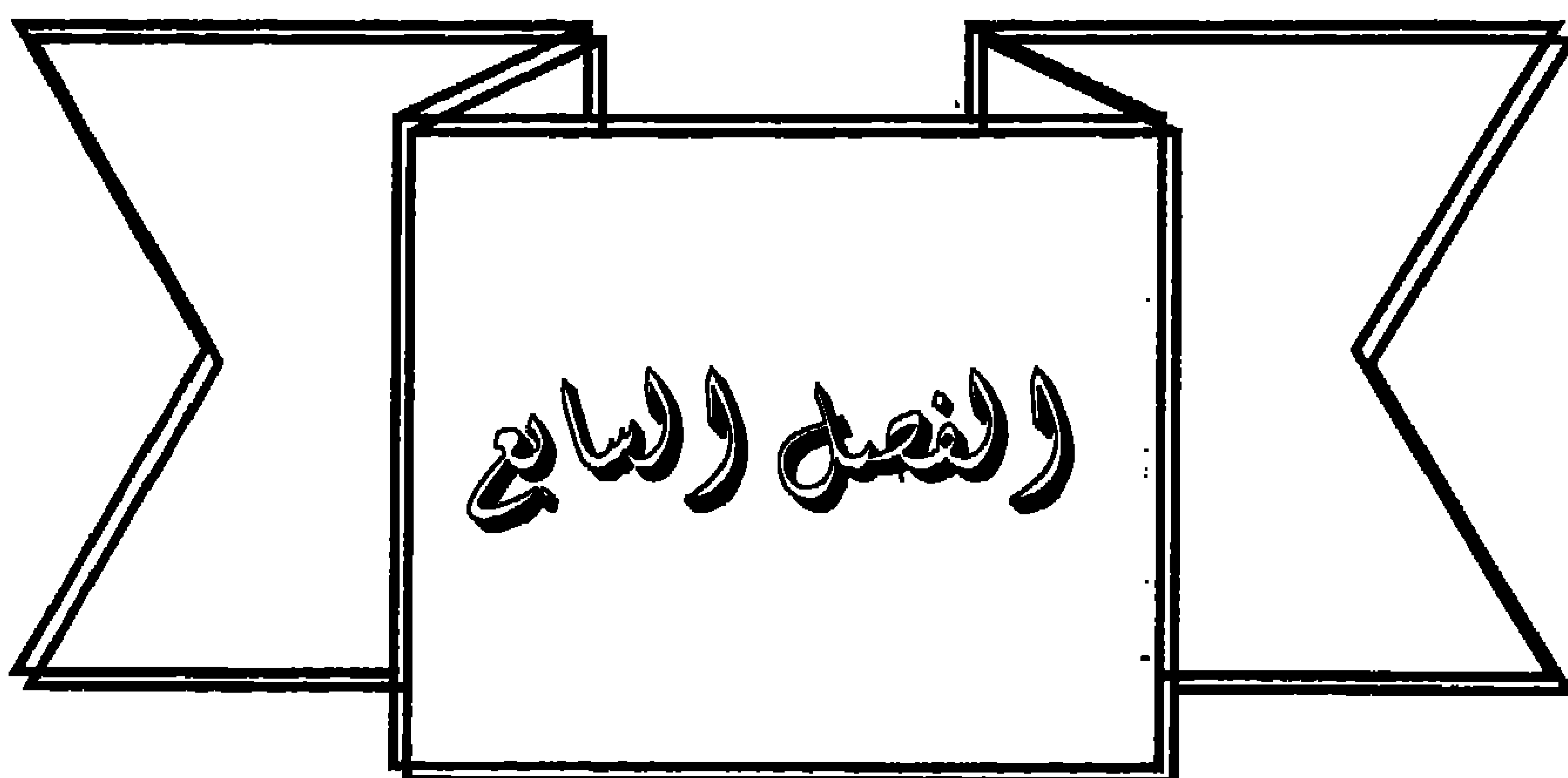
ولكن بنفس الدرجة من الاقتناع، فإن المفكرين اليساريين ينظرون إلى (الثقافة الرقمية) على أنها فخ لاصطياد الأفراد المحولين (بواسطة قوة هذه الوسيلة الجديدة) إلى ذرات في قناتي محكمة (الإغلاق ومفرغة من الهواء) من الرعب، بالضبط حيث تريدهم الدول الليبرالية الجديدة، مشلولين لدرجة كبيرة بواسطة مشهد الإرهاب بحيث لا يفعلون أي شيء عدا التسويق.[1]

وكما ينظر إليه من قبل المجتمع الدفاعي للناتو/ الولايات المتحدة، فإن القرن الواحد والعشرين قد تم تغييره من قبل وسائل الإعلام الرقمية (Digital

1 - Engel berg, S (1989) (Washington's War on terrorism Captures few soldiers) the New York times, March 5.

Media) التي عززت بشكل كبير من قدرات شبكات الإرهاب لتجنيد المؤيدين لها وزرع وجهات نظر عالم (الجهاديين) بين أفراد منتشرين على نطاق واسع، وشكراً لوسائل إعلام الشبكات الاجتماعية مثل غرفة المحادثة، ومواقع النقاشات والمدونات.. الخ، حيث أخذت تتشكل مجتمعات راديكالية جديدة على الانترنت، تعمل على تأكيد والإعلاء من معتقدات بعضها بعضاً المعادية للغرب، وبينما كان غاية الإرهابيين وما يسعون إليه هو لفت انتباه العناوين الكبرى في الصحف، فإن المتمردين في يومنا الحاضر يرون في الانترنت الطريق لمتابعة الإرهاب بوسائل أخرى، ولهذا فإن العنف الواقعي قد يأخذ في التناقض، بينما النشاطات (الافتراضية) تتزايد وتزدهر بمعدل لا يمكن معه للوكالات المكلفة بمناهضة الإرهاب مجرد متابعته.[1]

1 - Omissi, D (1990) Air Power and colonial control: the RAF 1919 -39, Manchester, Manchester University Press.



حروب في عصر الإعلام الرقمي:

حالتي العراق وأفغانستان

نحو ثورة رقمية؟

ابتدأ عقد التسعينات بنقاش ساخن جداً حول صعود قناة الـ CNN ، ونفوذ التلفزيون في الوقت الحقيقي، وبنهاية العقد المذكور كانت الحيرة والقلق من التكنولوجيا قد رحلت باتجاه مكان آخر، إذ لم يعد التلفاز يظهر على إنه المفتاح الأساسي للقوة الاتصالية، بل كانت شبكات الحواسيب المرتبطة مع بعضها هي المفتاح الجديد، وأصبح ما يدعى بـ الفضاء السايبري أو الافتراضي قد أصبح عاملاً حاسماً لخزن ومشاركة البيانات مع الآخرين حتى بانت الأخطار التي قد تهدد هذا المجال الغير المرئي وسببت مخاوفاً واسعة الانتشار، وكان الجو مشحوناً بالحديث عن (آفة الألفية الجديدة) التي ستؤدي إلى تعويق شبكات الكمبيوتر والأجهزة الالكترونية الأخرى المرتبطة بها نتيجة لعدم قدرة الكمبيوتر على انجاز الانتقال من (اختصار السنة بالرقم ٩٩ إلى النهاية الجديدة ٥٥ (التي تفترض أن تكون مع السنة الأولى الجديدة من القرن الجديد سنة ٢٠٠٠))

ما لم يتم اتخاذ إجراء تصحيحي، وانتشرت المخاوف عن أن النظام سوف ينهار، حينما يفشل نظام الأرقام المتصاعدة القديم، مما يؤدي إلى انهيار الشبكات المرتبطة بالانترنت، وسوف تعلق التحويلات والعمليات البنكية والمصرفية، وأضوية المرور تتوقف عن العمل، ومعدات المستشفيات تتوقف عن الأداء الصحيح (كما تناقلت التقارير الإعلامية ذلك لفترة طويلة في حينه))... وكما نعرف فإن هذه السيناريوهات الزائفة كلها لم تتحقق وثبت كذبها، وأنها لم يتم التثبت منها بصورة صحيحة، ولكنها أيضاً تذكرنا بالسرعة التي انتشرت فيها الكمبيوترات وعملت على تحويل كل جانب من جوانب الحياة في المجتمعات الصناعية، وحجم القلق والشكوك التي أحاطت بالتغير التكنولوجي في فجر بزوغ العصر الرقمي.

وللتأمل في مدى سرعة هذه الثورة في الاتصالات التي حصلت بها، دعنا نرجع إلى سنة ١٩٨٣، السنة التي شهدت عملية (الغضب العاجل) في غرينادا، وهي أيضاً السنة التي طورت فيها شركة موتورلا أول هاتف نقال، كانت أجهزة

الكمبيوتر مملوكة لقلة ضئيلة من الأشخاص العالي التعليم ومن الطليعيين في التفكير، وفي نفس الوقت يمتلكون الموارد المادية لامتلاك هذه الأجهزة المعقدة والغالية الثمن (في حينه) ولتعلم كيفية استخدامها، وعملية (البرمجة) ظلت تحاط بهالة من الولع بالعلم: سعي دائم وراء البحث والتطور التقني غالباً ما يتم في عزلة عن الناس، مثل بعض الهوايات الشائعة الأخرى، أما فكرة أن الكمبيوترات يمكن أن (تتحدث لبعضها الآخر) ما زالت تبدو وكأنها من قصص الخيال العلمي، والتي تستدعي العديد من المخاوف حول إمكانية اختراق الأجهزة الأمنية أو انهيارها نتيجة للاعتماد المفرط على أجهزة الكمبيوتر أو (الحوسبة)، ففي فيلم أنتجته هوليوود عام ١٩٨٣. وحظي بشعبية واسعة بعنوان (ألعاب الحرب) يقوم فيه مراهق مهووس بالكمبيوتر باختراق حاسوب (البنتاغون) الرئيسي الذي يتحكم بترسانة الصواريخ النووية ويقوم بدون وعي ببدء العد العكسي لإشعال الحرب العالمية الثالثة، عندما يتسجيب لدعوة (الآلة) الملتوية للعب ما يفهم منه ظاهرياً بأنها (لعبة حرب مع روسيا)، وفي المقابل فإن الفلم حث على إجراء جلسات استماع في الكونغرس الأميركي وتشريعات تهدف إلى تنظيم (تكنولوجيا المراهقين) هذه[1]

وفي ذلك الوقت، كان قلة فقط من المراهقين الأميركيين والأوربيين يملكون بالفعل أجهزة كمبيوتر خاصة بهم، والعديد من الأشخاص لم يشاهدوا أو يلمسوا جهازاً بالفعل، ولكن بعد عقدين لاحقاً، لم يكونوا يملكون أجهزة كمبيوتر شخصية فقط بل كانوا يمتلكون هواتف خلوية، وكاميرات رقمية، وأجهزة عرض رقمية، حتى أصبحت أجهزة حاضرة في معظم المنازل في الدول الأوربية وفي أميركا الشمالية، كما أصبحت أكثر عملية وأخف وزناً بكثير، فلم تعد تحتل حجم طاولة بأكمله، وجزءاً كبيراً من الأرضية تحتها، كما كانت الأجيال الأولى من الكمبيوترات الشخصية.

1 -Schulte, S (2008) (The War Games Scenario) regulation teenagers and teenaged technology (1980-1984) TV and news media, 9, Vi, 487-513.

كما إن أجهزة الكمبيوتر حالياً تؤدي العديد من الوظائف أكثر بكثير مما كان في السابق، الذي كان يقتصر على خزن أو معالجة البيانات، أما الآن فإنها تمارس العديد من التطبيقات وتغني عن الكثير من الأجهزة الالكترونية، فهي تقدم الألعاب الالكترونية كما تفعل (البلاي ستايشن)، وتعمل على خزن وتشغيل الموسيقى والأغاني والفيديو مثل أجهزة التسجيل أو الآي بود أو مشغلات الـ DVD الالكتروني والرسائل السريعة.. الخ.

وخلال عشر سنوات فقط من تجريبها الأولي في سنة ١٩٩٠ أصبحت الشبكة العنكبوتية العالمية عالماً هائلاً متنوعاً ومتخصصاً يمكن فيه للأفراد أن يسعوا وراء ويتبادلوا النصوص، والرسوم الغرافيكية ولقطات الفيديو، والتسوق، أو إجراء معاملاتهم مع زبائنهم المحتملين، أو إشهار وتبادل آرائهم الخاصة... الخ، وكل هذا وأكثر يمكن القيام به بكلفة منخفضة نسبياً وبسرعة هائلة متزايدة مع انتشار كوابل الألياف الضوئية التي تسهل انتقال المعلومات الرقمية المضغوطة بسرعة هائلة.

ومثل الاختراعات التكنولوجية السابقة لها، فقد أنتجت الانترنت تنبؤات غريبة عن انعتاق الحريات الفردية بشكل غير مسبوق من جهة أو عن تفسخ وعدم ترابط مدمر اجتماعياً من جهة أخرى.

ولهذا فإن المنادين بحرية المعلومات احتفوا بخصائصها المعززة للديمقراطية لتوفير (للمواطنين الكونيين) النفاذ إلى حالة من الوفرة الهائلة من الأخبار ووجهات النظر من مختلف إنحاء العالم، من دون ان تلمسها الحكومة أو يد الرقيب أو أن تمر عبر فلاتر وسائل الإعلام المؤسساتية، ومتحررة من القيود القديمة للمسافة، وعدم القدرة على التحرك أو النقل، والمحلية، حيث يكون بإمكان مستخدمي الويب تشكيل شبكات افتراضية تملك السلطة لتعزيز التغيير التطوري في كل مكان في العالم، أما الآخرون، على كل حال، فقد تطلعوا بعيداً نحو مستقبل أكثر كآبة من تحول الأفراد إلى ذرات بشكل راديكالي، والنخر الاجتماعي إذ يتراجع الأفراد المعزولون أكثر فأكثر من مجتمع الاتصال المواجهي، وجهاً – لوجه،

إلى العوالم المشخصة للمرء، حيث الفانتازيا، والعادات الاستهلاكية، والاستغراق في الذات تسترد تفوقها من جديد، وإلى يومنا الحاضر فإن العالم لم يتحول أو يتفكك بالطريقة المبالغ بها التي حلم بها هؤلاء الحالمون باليوتوبيا، أو كما توقع أولئك المتشائمون.

وصحيح أن العالم لم يتشجع لحد الآن بالوسيلة الجديدة (الانترنت)، على الرغم من نموها المتسارع بسرعة كبيرة، حيث أن الانترنت حالياً متوافرة لما يقرب من ربع سكان الكوكب فقط أو أكثر بكثير (مع اختلاف في نسب التركيز حسب البلد المعني، ومع ذلك فإن أجهزة الهاتف الخلوي والصحون اللاقطة قد انتشرت بمدى أكبر بكثير من ذلك في أجزاء العالم المتقدم في أوربا وأميركا، وفي بعض البلاد العربية كذلك، وهكذا فإننا عندما نلاحظ بأن القنوات والتي من خلالها يحصل قدر متنامي الأعداد من الناس عالمياً على الأخبار ويبقون على اتصال مع بعضهم بعضاً قد تغيرت بشكل لا نزاع فيه، يجب علينا أن نستذكر بأن هذا الأمر ليس شائعاً في نفس إنحاء المعمورة بنفس القدر، وإن العديد من هذه الأمور لم تتغير نتيجة لعدم توفر الانترنت لكل فرد.

أما الإرسال التلفازي فقد شهد تغيرات متعددة من جانبه، وإن الشبكات التلفازية الفضائية التي تقع مقراتها خارج الولايات المتحدة وأوربا أصبحت تهدد هيمنة الـ CNN و الـ BBC وغيرها من المحطات العالمية الانتشار، ولا يتجلى مثل هذا التحدي لسيطرة المحطات الانكلو – أميركية بشكل ظاهر أكثر من منطقة الشرق الأوسط، وعلى سبيل المثال فإن محطة (الجزيرة) منذ تأسيسها في سنة ١٩٩٦ (مقرها في قطر) قد حققت جمهوراً عالمياً معتبراً لنشرات أخبارها المميزة، وأسلوبها القوي في التغطية ومعالجة الأحداث بطريقة تعد غريبة وغير مألوفة بالنسبة للمحطات المنتشرة في المنطقة (والتي عادة تكون تابعة لسيطرة الدولة)، وإن ظهور هذه المحطة ونمو شعبيتها الكبير بسرعة ساعد على بلورة نشوء العديد من المحطات الناطقة باللغة العربية التي تحاول منافستها وبضمنها قناة تلفزيون أبو ظبي، والـ LBC (المؤسسة اللبنانية للإرسال) وقناة ANN (شبكة الأخبار العربية)، وأهمها

منافستها الرئيسية قناة العربية (مقرها دبي) والتي ترافق انطلاقها مع بدء الغزو الأميركي للعراق في آذار ٢٠٠٣، وهو انتشار وازدهار واسع مهدً للقول بـ (تأثير الجزيرة) وبحلول سنة ٢٠٠٥، كان هناك ما يقرب من ١٥٠ محطة فضائية عربية على الهواء مباشرة.(*)(١)

كما ازداد عدد المحطات الإخبارية الدولية الموجهة للمنظمة العربية وباللغة العربية، فمثلاً أقدمت تركيا على إنشاء محطة إخبارية موجهة باللغة العربية، وفي ٢٠١٠ تم أطلاق محطة (روسيا اليوم الإخبارية) ومقرها دبي. وفي نفس الأثناء فإن التطور التكنولوجي أدى إلى تصغير حجم معدات الاتصالات الرقمية لحد كبير وجعلها عملياتية أكثر مما سهل من عملية التغطية المباشرة من الأماكن التي يصعب الوصول إليها أو الغير مأهولة، وخلال حرب الخليج الأولى ١٩٩١، كانت وصلات الاتصال بالأقمار الاصطناعية ما زالت ثقيلة جداً، وكان الصحن اللاقط وملحقاته كبيرة جداً إلى حد أنها تحتاج لشاحنة مرافقة، وبعد عقد لاحقاً، مع قيام واشنطن بشن حرب على أفغانستان.

فإن أحدث هاتف – فيديو بالأقمار الصناعية، والملقب بـ (الرأس المتكلم Head talking) كان يزن ٥ كلغم وأكبر بقليل فقط من لابتوب كبير الحجم، وكان الهاتف مع ملحقاته المتعلقة بالاتصالات بالأقمار الصناعية كان يكلف تقريباً ١٦ ألف دولار، مما يفوق إمكانيات الصحفيين العاملين لحسابهم، ولكن في مقدور محطات التلفاز الإخبارية بسهولة، ومبدية إعجابها بهذا الابتكار الحديث جداً قالت مارغريت اينغل رئيسة محطة (News EUM) في أرلنغتون، الولايات المتحدة في صحيفة (الايكونومست) في ٢٠٠١، متنبئ بأن اليوم الذي سيكون فيه (لكل شخص أن يكون له مراسله الخاص وطاقم تصويره) سيحين قريباً، وبأن (سلطة الرقيب (سوف) تنهار قريباً)، وأن تشخيص اينغل تشير على بروز صحافة

---

* - حالياً يوجد ما لا يقل عن ٦٠٠ محطة عربية أو (ناطقة باللغة العربية) على الأقل، ومصدرها من منطقة الشرق الأوسط والمنطقة العربية، على القمر الصناعي (نايلسات) لوحده!

1 -Seib, P (2005) (Hegemonic No more: Western media, the Rise of Al- Jazeera, and the influence of Diverse Voices, international Studies review, 7, 601-15.

الهواة التي تسهلها وسائل الإعلام الرقمية الجديدة، وبينما أخذت المنظمات الإخبارية الرئيسية، وشبكات التلفاز والصحف على حد سواء، تنقل معظم محتواها إلى مواقع على الانترنت، فإن انتشار التدوين (blogging) "وهي ظاهرة كانت جديدة في مطلع العقد الأول من القرن الواحد والعشرين" قد سمح لكل امرئ يمتلك قدرة النفاذ للانترنت، لنشر التعليقات على الأحداث الجارية، لتوثيق التجارب الشخصية ومشاركة الصور ولقطات الفيديو مع جمهور عالمي لحد كبير، وهذه الظاهرة التي دعيت أحياناً بـ ظاهرة (المواطن الصحفي) فإن المدونات استقطبت قدراً كبيراً من الأحكام الصحفية.

وبعضاً من المعلقين أحسوا بهذه الظاهرة الجديدة السريعة النمو من (مجال التدوين) (Blogo Sphere) ضمن اتجاه مؤسف من النقد الصخاب غير المطلع جيداً الذي أخذ يحل محل أسلوب (تبادل المعلومات) الصحفي المحترف، ومن هنا يأتي حكم الصحفي راندال روثينبرغ على (التدوين) بأنه (ليس أكثر من إدعاء فارغ يقدم لحد كبير من قبل الآراء غير الصالحة للاستخدام إلى الذين بلا هدف).[1]

فيما البعض الآخر رحبوا بهذا النمط من (النشر التفاعلي) الذي لا تسمح به وسائل الإعلام التقليدية. بالإضافة إلى أسلوب إظهار الآراء الذي لا يحفل بالتظاهر بـ (الموضوعية والحياد)، وهي القيم الصحفية للمدرسة القديمة الصحافة التي تعمل على إيهام (اتخاذ الموقف) في كل التغطية الصحفية ولهذا فإن (التدوين) يستبعد المجالات ويصبح عبارة عن آراء صريحة تماماً تتجاهل القيم الصحفية التقليدية.

وهذه العملية من (دمقرطة)[*] تبادل المعلومات تتجاوز حدود المجتمع المدني لتصل إلى صفوف الجيش، وأبرز دليل على ذلك، مشاهدة الأفلام الوثائقية والتسجيلية العديدة وبرامج التلفاز التي تتحدث عن حرب العراق" مثل وثائقي ديبورا سكرانتون (أشرطة الحرب) ٢٠٠٦، وباول هاجيز (في وادي الله in Valley of

1 -Johnson, T. and Kaye, B (2006) (Blog Day of ternoon: Are Blogs Stealing Audiences Away From Traditional media Sources ?) in Berenger.

* - نسبة إلى ديمقراطية، اشتقاق لاسم المصدر، مثل يصلح = إصلاح!

(Elah) في ٢٠٠٧. وبرايان دي بالما (Redacted) (٢٠٠٧ أيضاً)، وسلسلة برامج (اقتل Kill) في ٢٠٠٨، وستجد الحجم المذهل للصور أو الأفلام التي يصفها الجنود عن المهمات التي يقومون بها والدوريات أثناء القيام بالواجب (لاحظ إن فضيحة سجن أبو غريب المدوية اعتمدت جرائم التعذيب المروعة!)، وهذا الأمر ليس مجرد انعكاس للشغف بأجهزة التصوير الحديثة أو الشغف الفني بتصوير الأحداث والأمور التي تحدث في الواقع.

ففي السنوات الأخيرة كان البنتاغون يكافح لمتابعة سبق الازدهار والانتشار الهائل لتقنيات الاتصال والتصوير الرقمي (التي على الرغم من استخداماتها العملياتية المتعددة) قد حولت الجنود على عاتقهم ولمصلحتهم الشخصية إلى فنانين وثائقيين أو دراميين، ونقاد ومعلقين وناشطين، بشكل أدى إلى تعقيد (محيط المعلومات) أكثر مما هو عليه بطرق وجدتها الرتب العالمية غير نافعة أبداً!

واستدعت مسائل السيطرة والتحكم (طوارئ من نوع جديد)، مع استشعار القادة العسكريين والسياسيين أن قدرتهم على إعاقة تدفق المعلومات قد ضعفت حيث إن (سلطة الرقيب تنهار تماماً)، ومع ذلك، كما رأينا بشكل متكرر من قبل، فإن النخب الحاكمة ما زالت نموذجياً تتخيل أنفسها بأنها تجهد أزاء الصعوبات والمعوقات التي تواجهها في مقابل العدو، والتي يتم ترجمتها بصورة معقدة في تشديد قبضتها على وسائل الاتصال الاقناعي واستخدامها للقوة الغاشمة والعنيفة جداً، وبكلمات أخرى، يتوجب علينا التعامل مع شكاوى صناع القرار من عجزهم وقلة حيلتهم، بمزيد من الحيطة والحذر.

وإذا كان الملمح الأكثر إثارة للذهول والإعجاب في الثورة الرقمية هو ظهور الانترنت وبروزها كوسيط اتصالي، وما ارتبط بها من وسائل إعلام (المواقع الاجتماعية) جديدة، فإن تغييرات أخرى ذات دلالة مهمة في منظر وسائل الاتصال كانت أكثر ملاءمة بكثير لحالة الوضع الراهن والأكثر وضوحاً فيها، هو تقلص ملكية وسائل الإعلام في أيدي قلة قليلة من الغيلان الذين تحكموا وأداروا إمبراطوريات واسعة من وسائل الإعلام المتعددة "وهي ظاهرة وضعت موضع العمل

نتيجة لسياسات ريغان وتاتشر التنظيمية المقيدة في الثمانينات" والتي قادت إلى تقلص وتماثل متنبئ به في المحتوى، حيث أن الصحف الأصغر ومحطات الراديو ومنشآت التلفزيون الصغيرة تم ابتلاعها أو إفلاسها تدريجياً من قبل الشركات الضخمة، وهكذا فإن تيار (الإعلام الشائع) قد ازداد في اتساعه بينما معايير التعبير قد تم تضييقها إلى أقصى حد.

وفي نفس الأثناء، اتسعت محاولات الشركات لتقليل ميزانيات التشغيل واقتطاعها والعمل على زيادة الربحية، وقد شجعت على نمو (القوالب الرخيصة) مثل برامج (الحوار) Talk Show، وتلفزيون (الواقع) على حساب البرمجة المكلفة، مثل الأخبار وبرامج الأحداث الجارية، وطوال عقد التسعينات أصبحت محطات التلفاز والراديو التجارية في الولايات المتحدة بشكل متزايد ساحة للأداء المسرحي المنافق، وكانت شخصيات التلفاز والإذاعة تقدم تعبيراً صاخباً وغير متوازن غالباً عن وجهات النظر السياسية. مع قيام منظمات (كلاب الحراسة) بدور أكثر فعالية في كشف (التحيز الليبرالي) الملاحظ في وسائل الإعلام السائدة، ومهما كان الهامش المتبقي لإظهار المعارضة الموجودة، فإنه تم اعتصاره لأقصى درجة في أعقاب أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، وهو الحدث الذي أعطى للبيت الأبيض سيطرة غير مسبوقة على صناعة الأخبار.

ورغم أن بيئة الاتصالات لم تكن تبدو أبداً صعبة على السياسيين للتحكم بها بدون اللجوء إلى القسر الثقيل القبضة الذي كانت بكين تدان به دوماً من قبل الغرب، فإن المناخ الأيديولوجي في أميركا بعد ١١ أيلول ٢٠٠١، كان مسهلاً بصورة غير مألوفة لشن حرب ثأرية، وفي الواقع كان من النادر لأي رئيس أن يحشد التأييد للحرب بهذه السهولة كما بالنسبة لجورج بوش (الصغير) في أكتوبر ٢٠٠١، ولكن الإجماع الشعبي من هذا النوع لا يستمر بالضرورة فترة طويلة، كما أظهرت ذلك حربي العراق وأفغانستان بوضوح، ولا كان كذلك الرفض في الداخل مماثلاً لما يحصل خارج الولايات المتحدة، مما يجعل من أحد الملامح المميزة لهاتين الحربين هو

ذلك التناقض التام بين كيف تم تصوير هذه الحروب للجمهور الأميركي، وكيف أن الآخرين " وبشكل خاص العالم الإسلامي" قد فهموا معنى والمغزى الأخلاقي لهذه المغامرات الأميركية.

أفغانستان: حربٌ أطول مما يجب !؟:

عندما أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش (الصغير) بداية العمليات القتالية ضد أفغانستان في ٧ أكتوبر ٢٠٠١، بعد رفض قيادة الطالبان تسليم أسامة بن لادن وقادة القاعدة الآخرين، كما طلبت ذلك واشنطن قبل أسبوعين من ذلك التاريخ، وكان غضب الرأي العام الأميركي بسبب أحداث ١١ أيلول قد ظل في ذروة التوتر العاطفي، وفي نفس ذلك اليوم ابتدأت أولى الضربات الجوية لما تم الإشارة إليه بداية بـ (عملية العدالة المطلقة) والتي تم إطلاقها من السفن والغواصات الأميركية والبريطانية.

وأعلن بوش: (بناء على أوامري بدأ الجيش الأميركي بتوجيه الضربات إلى معسكرات القاعدة لتدريب الإرهابيين، والتجهيزات العسكرية لنظام طالبان في أفغانستان) و (هذه الأفعال الموجهة بدقة كبيرة تهدف إلى تدمير استخدام أفغانستان كقاعدة للإرهابيين للعمليات، ولمهاجمة القدرات العسكرية لنظام طالبان) يضيف مشيراً إلى ما سيغدو ثيمة رئيسية في رواية البيت الأبيض لهذه الحملة: الاستخدام الدقيق للقوة الجوية.

وكما كان متوقعاً، فإن تأثير (التجمع حول العلم) الذي يرافق نموذجياً أي إعلان للحرب، كان قد ارتفع إلى أعلى مستوى له، حتى أن العديد من مقدمي الأخبار البارزين في محطات التلفاز الأميركية ظهروا ذلك اليوم وهم يرتدون (باحات) مؤيدة لرفع الروح الوطنية، وكان الرئيس بوش قد ابتدأ حملة (عداد الرأي العام الأميركي للحرب ضد أفغانستان بعد أيام قليلة من هجمات ١١ أيلول مباشرة، وتم تصوير الهجوم على أفغانستان كجبهة حيوية في (الحرب على الإرهاب) وتم

أخذها كبديهية مسلم بها من قبل شبكات التلفزة الأميركية، وليس فقط تقبلها بدون أي نقد بل تبينها بصوت عال.

وهكذا فإن الـ CNN قدمت رأياً تحليلياً في ٧ أكتوبر بأن بوش (لن يتخلى عن سعيه لتحقيق العدالة).[١]

وعملت وسائل الإعلام الإخبارية مستجيبة وناقلة لتعبير الرأي العام عن الغضب والألم والذهول، على تأطير أحداث ١١ أيلول بطرق تؤكد على الكره والغيظ الذي يتراكم ضد أميركا، ولكن في نفس الوقت مؤكدة على العزيمة الوطنية على معاقبة أياً من كان مسئولاً عن ذلك وحماية المواطنين من هجمات أضافية، وقدمت محطة NBC تغطيتها الإخبارية بعنوان رئيسي (أميركا ترد الضربة) وهي عبارة موهمة مستوحاة من ثلاثية أفلام (حرب النجوم)!

أما محطة فوكس نيوز فقد وضعت شريطاً يحمل عبارة (أميركا موحدة)، أما وسائل الإعلام المطبوعة فمن جانبها تبنت أطراً مماثلة تماماً، وحتى نهاية ٢٠٠١، قامت صحيفة النيويورك تايمز، بإعداد قسم خاص يومياً بعنوان (أمة تتحدى) والذي لم يكن فقط يغطي آخر التطورات المهمة في محاربة الإرهاب، بل كان يرسم (صوراً من الأسى) فردية، مخصصة لضحايا هجمات ١١ أيلول.[٢]

ومع دخول الولايات المتحدة في حالة من الإنذار والتأهب العالي ضد عدو يمكن أن يكون في أي مكان وفي كل مكان! وصلت درجة التكتم الرسمي إلى درجة غير مسبوقة حتى مع سماح قانون (الوطني الأميركي) Patriot USA، بالتصنت على الاتصالات الخاصة، حيث لم تعد حرية التعبير مفضلة كعلامة على دستور الولايات المتحدة المتحرر، بل تم تصويره على إنه ضعف ينتظر أن يتم استغلاله من قبل الإرهابيين (على الناس أن يحذروا مما يقولونه ويراقبوا ما يفعلونه) كما

1 - Jasperson, A. and El –Kikhia (2003) (CNN and al Jazeera's media Coverage of America's War in Afghanistan) in Norris Kern and just.
2 -Kaplan, R (2003) (American Journalism Goes to War, 1898- 2001: A manifesto on media and Empire) Media History, 9,Ííí , 209-19.

حذر آري فلايشر الناطق الصحفي باسم البيت الأبيض، قبل أن يتم محو ملاحظاته هذه من السجلات، في بادرة تذكر بأجواء رواية إورويل (١٩٨٤) الشهيرة.(١)

وسعياً وراء إبقاء سيادته على حقل المعلومات، عزم البيت الأبيض والبنتاغون على إبقاء الصحفيين عن مشهد العمليات: وهي خطوة أنتجت العديد من الشكاوى بأن الإجراءات الصحفية كانت أقرب إلى الحظر الذي تم فرضه أثناء غزو غرينادا في ١٩٨٣، من القيود التي فرضت في حرب الخليج ١٩٩١، وبشكل شامل رغم إن وسائل الإعلام الأميركية كانت أكثر حذراً من الموافقة على القواعد الجديدة مما كانت خلال الصراعات السابقة، لم يكن من الصعب رؤية لما كانت فكتوريا كلارك، الوكيل المساعد لوزير الدفاع لشؤون العلاقات العامة، تظل تذكر الصحافة بصورة متكررة، بأن استطلاعات الرأي تظهر بأن غالبية الأميركيين يعتقدون بأن وسائل الإعلام تكشف الكثير جداً من المعلومات، وبالتالي (في التطبيق) يجب أن يتم السيطرة عليها بصورة أكثر تشدداً.(٢)

وهذه النقطة تم توضيحها بصورة حيوية جداً على الهواء مباشرة في برنامج (تونايت شو) لمقدمة جاي ينو في منتصف نوفمبر ٢٠٠١، عندما جعل الممثل الكوميدي دينيس ميللر جمهور الاستديو يبدؤون بالهتاف (لا نريد أن نعرف!) ويوضح ميللر ذلك في الإشارة إلى حق الرأي العام في (ان يعرف) بالقول (إنه لكم فقط ولمحدثيكم في حفلات الكوكتيل في العاصمة واشنطن، تاركين أولادنا لوحدهم هناك).(٣)

وهذا المزاج الخاص للرأي العام سهل الأمر للأسلوب التقليدي للإدارة الأميركية، وكذلك فعلت التكتيكات العسكرية التقليدية في أفغانستان، وكما يستذكر وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد، بأن هذه كانت

1 - Kulman, L . New man, R. and Mazzetti, M (2001) (Covering all Bases) US New& World report, November 19, 44.

٢ - مصدر سابق، أوبراين، ٢٠٠٢، ص ١٦، هيس كالب، ص ١٠١.

3 -Hess, S, and Kalb, M (2003) The media and the war on Terror, washing ton, DC, Brookings institution press.

بالضرورة (حرباً غير تقليدية) تم شنها ضد عدو غير تقليدي (لا يملك جيوشاً، ولا بحرية، ولا قوة جوية) ويتفادى أي مواجهة مع القوات البرية، فهذه الحملة سوف تكون (استغلالاً للأفضلية الأميركية في التكنولوجيا، مع وجود الطائرات بدون طيار والأسلحة ذات الدقة العالية)، وكما لاحظ بيترجيه. وبير، في صحيفة (النيو يوركر): (سوف تقترب بقدر ما تستطيع أي أمة غربية من الاقتراب للرد على الإرهاب بكل عناية " مع نشر كامل للقوات الخاصة التي تعمل (وراء الخطوط) وتقاتل على الأرض، إلى المدى الذي سيكون فيه قتال فعلي، وسيتم فعله بواسطة قوات العمليات الخاصة بالاشتراك مع الميليشيات الأفغانية المحلية، وإذا ما واجهوا مقاومة ضارية، فإنهم يستدعون الدعم الجوي).[1]

ومن اللمحة الأولى، كانت الحملة بالدرجة الأولى عمليات جوية، مع شن القوات الأميركية والبريطانية لضربات بالصواريخ من القاذفات والمقاتلات المنطلقة من حاملات الطائرات، و صواريخ الكروز المنطلقة من السفن والغواصات الأميركية والبريطانية.

وفي حرب من هذا النوع، يتم خوضها بتكتم وسرية على مجرى العمليات التي تتم من الأعالي!، فهي لا تسمح بكشف نفسها للتغطية الإخبارية الأرضية عن قرب، وكانت فكرة أن يلتحق الصحفيون بشكل مؤقت بالوحدات، وفقاً لنظام التجميع(Pool) الذي كان خلال حرب الخليج، قد تم رفضها بشكل واضح ومباشر من قبل رامسفيلد وكلارك، وكان السماح بـ (دمج) الصحفيين مع القوات الخاصة كان يهدد بتلويث خصوصيتها إلى نقطة إفشال العمليات، فما فائدة مثل هؤلاء العملاء (بعضاً منهم كان تحت سيطرة وقيادة الـ CIA) إذا كان كل أحد وخصوصاً العدو يعرف حول إجراءاتهم العملياتية بمن فيهم العدو وحول روتينهم اليومي؟

وكانت الحاجة لحفظ غطاء (مقاتلي الظل) هؤلاء تبدو لا جدال فيها، رغم أن البنتاغون فيما بعد تراجع عن موقفه وسمح لبعض المراسلين المفضلين مثل مراسلة

1 -Boyer, P (2003) (the new war machine) the new Yorker, June 30, 54-71.

(النيوزويك) دونتيلا لورج أن ترافق القوات "ولكن فقط عندما كان هناك القليل فقط لهم ليشهدوه" وكما نستذكر فيما بعد (لورج) عن الأسبوع الذي قضته مع فريق القوات الخاصة (فريق A): (كان سيكون ألطف بكثير لو أنني كنت هناك عندما كان (فريق A) يقوم فعلاً ببعض القتال، ولكني ذهبت إلى هناك عندما كانوا قد وصلوا إلى مزار الشريف).[1]

ولم يتطلب الأمر طويلاً حتى أصبح الصحفيون محبطون بسبب اعتمادهم المطلق على وزارة (DOD) للسماح للقطان المصورة لكي تأخذ طريقها في العودة للوطن، ولم يكن من السهل بالنسبة للصحفيين أن يمضوا (على عاتقهم) لتغطية الأحداث، كما فعل البعض ذلك في عام ١٩٩١، نظراً للكتيبة الكبيرة من المعضلات التقنية والطبوغرافية والسياسية التي سوف تعترضهم.

وكما يلمح روبن كاميو، فإن الصحفيين الأجانب وجدوا أفغانستان بيئة غير مألوفة ومحبطة للغاية، فإلى أين ستحط هذه الحرب السريعة الزوال؟

حيث ان مشهدها بدا مراوغاً ومتملصاً بقدر ما كانت الحملة لتعقب وصيد أسامة بن لادن، التي بمجرد أن ظهرت وكأنها (الخبر الرئيسي) في أفغانستان، فإنها سرعان ما بدأت وانتهت في كهوف تور بورا الجبلية المهجورة، فما الذي يمكن تغطيته أيضاً؟

ما أطلق عليه اسم (التحالف الشمالي) وهي القوة المقاتلة التي تم العمل على تشكيلها بصورة مزدوجة من قبل البريطانيين والأميركيين مهندسي ما أصبح يعرف بسرعة باسم (عملية استدامت الحرية) " لأن الأفغان المسلمين اعترضوا بأن الله وحده من يحق له فرض (العدالة المطلقة)" والتي تم تشكيلها من قبل أفغان لديهم دوافع مختلفة ومتعددة، ومسلحة بشكل ضعيف، ولم تكن هذه القوات مغرية للصحفيين الغربيين ليعملوا على تغطيتها ومتابعتها، ولكن لاحقاً وجدوا أنفسهم مضطربين للاعتماد على هذه القوات المحلية، ولكنهم غالباً اعتبروا التحالف الشمالي، أبعد ما

١- مصدر سابق، انظر ريد، ٢٠٠٧، Rid، ص ١٠٦.

يمكـن مـن أن يـتم الوثـوق أو الاعتمـاد عليـه، وبحلـول نـوفمبر كـان الـصحفيون قـد أوردوا العديد من التقارير عن تعرضهم للضرب والاعتداء، والـربط بالحبـال والحجـز من قبل الجنود الأفغان، وفي أحيان كثيرة بتحريض من القوات الأميركية.

وكانت التوجيهات حول أين وكيف يمكن إيجاد ا(الأخبار) المهمة كانت تعترضها عوائق، الحدود الجبلية المحرمة، ونقص البنيـة التحتيـة اللازمـة لاتصالات، وعدم قدرة الصحفيين على التفاهم باللغات الأفغانيـة المحلية الرئيسية وتركـت هـذه المعوقات وسائل الإعلام معتمدة بشكل كبير على المرافقين المحليين للحصول علـى المساعدة في التنقـل وتغطيـة الأحـداث، والعديـد مـنهم وجـدوا مثـل هـذه العلاقـة غيـر مستقرة "صبيانية جـداً وغير ثابتـة إن لم تكـن مبنيـة علـى الاسـتغلال ماديـاً، فلقـد اشتكى الصحفيون بأنه في هذه الحرب كان الجميع يبغي جمع الأرباح، فلقد نقلت شـائعات عـن أن قـوات طالبـان كانـت تتقاضـى ٢٠٠٠ دولار عـن الـشخص مـن الصحفيين الغربيين في مقابل اصطحابهم في جولة في مدينة قندهار الجنوبية، عنـدما كانوا يحتفظون بالسيطرة على تلك المنطقة، حيث يكون بإمكانهم مشاهدة آثار الدمار الذي خلفته الضربات الجوية الأميركية، أما السواق فكانوا يتقاضون مبـالغ باهظة في مقابل النقل، بينمـا كانـت مستلزمات الإسـكان البدائية جداً في منطقـة جبال تورا بورا تكلف ٢٠٠ دولار في الليلة، وبما أن هذه السوق السوداء الغير رسمية أجبرت الصحفيين على حمل كميات كبيرة من النقد، فقد أصبحوا وفقاً لوصـف أحد الصحفيين مثل (صرافات آلية متنقلة) وهدفاً سائغاً للصوص والخـاطفين، ومثـل هذه المخوف لم تكن متخيلة، فبنهاية شـهر نـوفمبر ٢٠٠١، تم قتـل ٨ صـحفيين مـن جنسيات مختلفة واختطاف صحفي كندي.

وهـذه الأحـداث جعلـت مـن أفغانـستان المكـان الأكثـر خطـراً في العـالم لممارسة الصحافة، وطبقاً للجنة حماية الصحفيين التي مقرهـا في نيويـورك، إنـه مـن المذهل أن تكون هـذه البلد في نوفمبر ٢٠٠١ أكثر خطـراً علـى وسـائل الإعـلام، مـن

تهديدها للجيش الأميركي الذي لم يكن لحد الآن قد أعلن عن مقتل أياً من أفراده.[1]

وعدم التوازن الإحصائي لم يستمر بالطبع إلى ما لا نهاية، ولكن المخاطر التي كانت تتهدد المراسلين لم تختف مع إبعاد نظام طالبان، وبعد الموجة الأولى من القتل والاختطاف، توجب على الـ BBC والمحطات الأميركية الأخرى أن تسحب نفسها قليلاً حتى لا تعرض المزيد من كوادرها للخطر، وفي بداية ديسمبر ٢٠٠١، أوردت صحيفة الغارديان تقريراً بأن الطالبان قد وضعت جائزة مقدارها ٥٠ ألف دولار على رأس أي صحفي غربي، بينما أعلن والتر كرونكايت وهو أحد أشهر مذيعي محطات التلفاز الأميركية إن أفغانستان هي (الوضع الأكثر خطراً الذي وضع فيه الصحفيون أنفسهم مطلقاً في العصور الحديثة).[2]

وبنفس السرعة التي تجمعت فيها الصحافة وتكاثرت أعداد مراسيلها في أكتوبر ٢٠٠١، فإن الصحافة الغربية سرعان ما تبعثرت وغادرت في ديسمبر ٢٠٠١، لتعود لفترة قصيرة في منتصف ٢٠٠٢، عندما قام ممثلون عن القوى الوطنية مجلس (اللويا جيرغا) loya Jirga، بعقد اجتماع لاختيار رئيس أفغاني جديد، في أفغانستان من قبل وسائل الأعلام الإذاعية والمطبوعة، وأصبحت مرة أخرى معتمدة على المؤتمرات الصحفية الرسمية التي تزودها بها مصادر المراسلين المحليين ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت أفغانستان يشار إليها بـ (الحرب المنسية).

وهذا الإهمال أصبح واضحاً جداً بعد بداية (عملية حرية العراق) في آذار ٢٠٠٣، وبينما في يناير ٢٠٠٢، كان مجموع ما بثته الشبكات التلفازية الأميركية مجتمعة ١٠٦ دقيقة من مجموع الأخبار التلفازية الشهرية حول أفغانستان، كان هذا

1 - Paterson, H (2001) Me Against My Brother: At War in Somalia, Sudan and Rwanda, New York, Rout ledge.
2 -Campbell, K (2001) (today's war Reporting it's Digital but Dangerous) Christian Science Monitor, December 4, 2.

الرقم قد أصبح بعد عام لاحقاً ١١ دقيقة فقط، وفي آذار ٢٠٠٣، كانت عبارة عن ٦٠ ثانية فقط[١]

وبحلول عام ٢٠٠٥، كان لمؤسستين إخباريتين أمريكتين فقط مراسلين دائمين في كابول، وهما (نيوزويك) و (الواشنطن بوست)، وقدمت التغطية الإخبارية المسائية ما مجموعه ١٤٧ دقيقة طوال السنة كاملة.[٢]

ولتفسير هذا الهبوط، استشهد محررو الأخبار الأجنبية إلى انخفاض الاهتمام المحلي، بالإضافة إلى تقلص الميزانية بسبب الظروف الاقتصادية ونظراً لكون أفغانستان كانت باهظة التكاليف عند تغطيتها في ٢٠٠١، ولكون الموارد كانت تعاني من النقص، فإن الخيار الواضح، كان هو التركيز على العراق وهو موضوع اعتبره العديد من المحررين شديد الشبه بشكل أساسي ولكن بمقياس أكبر وأحدث زمنياً: عملية طرد (الأشرار) يتبعها جهد محموم لبناء أمة[٣]

وعلى ما تراجع الصحافة نتيجة المخاوف والفوضى في ديسمبر ٢٠٠١، سرعان ما تم دمغ حرب أفغانستان على أنها (نصر) على الأقل من قبل الإعلام الأميركي، وكان تعجل وعدم نضوج مثل هذا الحكم، ينبغي أن يكون واضحاً (وقد كان كذلك) لأولئك الذين يراقبون، ضعف قبضة حاكم أفغانستان الجديد والمدعوم من الولايات المتحدة على البلد ككل، ولكن نفس التبني لعملية (الحرية المستدامة) الذي أسكت النقد الموجه لتقييدات الـ DOD على التغطية، هي نفسها التي عوقت استعداد الصحفيين الأميركيين لطرح أسئلة استقصائية حول كيف، وكيف تم متابعة هذه الحرب بصورة جيدة أم لا، وبحسب أحد المراسلين الذي يسترجع الأحداث في ٢٠٠٣، بأن وسائل الإعلام كانت في وضع أقرب إلى (التغطية الإخبارية لفريق كرة قدم محلي، ومشجعي الفريق وأعضاء الفريق المحلي يتوجهون

1 - Robertson, L (2003) (Whatever Happened to Afghans tan) American Journalism Review, Jane/ July, 24-31.
2 - Ricchiardi, S (2006) (the forgotten war) American Journalism review, August / September, 4-55.

٣- مصدر سابق، روبرتسون، ص ١٧٣.

إلى مباراة البطولة الرئيسية، وبالطبع فإنه من المفهوم فإنك لا تريد "لا احد يريد ذلك كما أظن" أن تلقي بالماء البارد على هذا النمط من المزاج).[1]

وبناء على الدروس المستفادة من حرب كوسوفو، فإن إدارة بوش تمتعت بإشارة النجاح في تغليف الحرب في أفغانستان، بغطاء فضفاض من ستارة حقوق الإنسان، ففي منتصف نوفمبر، قامت فكتوريا كلارك ونظيرها البريطاني اليستير كامبل بإنشاء مراكز إعلامية جديدة للتحالف، قلقاً من اهتمام المراسلين على الأرض المتزايد بتصريحات حركة الطالبان حول ممارسات قوات التحالف، وتم إنشاء مركز في كل من إسلام آباد، لندن وواشنطن، وكانت إحدى الغايات الأساسية من شراكة كلارك – كامبل، هي تشجيع وسائل الإعلام (برسائل اليوم) الموافق عليها، وكانت أولى نجاحات هذه الشراكة (وأكبرها). متمثلة في (حملة النساء).[2] مع مشاركين في هذه الحملة يتراوحون من غونداليزا رايس إلى شيري بلير ولورا بوش، وتم طرح (عملية الحرية المستدامة) على إنها حملة لتخليص النساء والفتيات من قمع نظام طالبان.[3]

بالحكم عليها من هذا المنظور فإن العملية كانت ناجحة، أو على الأقل هكذا قدمها البيت الأبيض، حيث تم تحرر النساء الأفغانيات من برقعهن، ولأول مرة خلال سنين عدة، تمكنت الفتيات من الذهاب للمدارس، المدارس التي قامت القوات الأميركية بإعادة بنائها، وفي مواجهة هذا الكم المستمر من الرسائل، وجد النقاد الليبراليون أنفسهم موثقي الحركة.

وكانت المعارضة للحرب يمكن تصويرها بسهولة على أنها مؤذية لقضية حقوق المرأة، وهي قضية لا يود أحد تعطيلها، ولكن القلة من المعلقين فقط لاحظوا إن مجلس اللويا جيرغا المنعقد في حزيران ٢٠٠٢ تحت وصاية أميركية، لم يتضمن

١- مصدر سابق، هيس وكالب، ص ١٠٠.

٢- مصدر سابق، ريد، ص ١٠٣.

3 - Dubriwny, T (2005) (First Ladies and Feminism: Laura bush as Advocate For Women's and children's Rights) Women's Studies in Communication, 28,I, 84-114.

ولا حتى امرأة واحدة، لم يلفت أحد منهم الاهتمام إلى السجل المخزي لحقوق الإنسان لدى التحالف الشمالي، وعدد أقل عرض لمساءلة سياسات بوش التي تدعي إنقاذ النساء المسلمات من (البرقع).[1]

وكانت التقارير الإخبارية عن النساء الأفغانيات تميل إلى طابع القصص المهنئة والمحتفلة بالتحرر والانعتاق، ولكن جانب واحد من الرواية الرسمية تعرض لمزيد من التدقيق والفحص: قضية الخسائر البشرية المدنية نتيجة للضربات الجوية، ففي المرحلة الابتدائية من عملية (الحرية المستدامة)، شدد القادة السياسيون والقادة العسكريون الأميركيون والبريطانيون على أن القوة الجوية كانت توظف مع وضع الأهداف الإنسانية في البال بقوة.

ومشيرة إلى الطرود الغذائية التي كانت تلقى على المناطق النائية من أفغانستان وعملت مؤتمرات إيجاز وزارة الـ DOD على توضيح تفاصل الدقة الفائتة للصواريخ المستخدمة (للقضاء) على مخابئ الإرهابيين في أفغانستان، وصدق أو لا تصدق بوجود (الخطأ) الغريب والشاذ، وعندما بدأ المراسلون في كتابة التقارير عن استخدام قنابل (قاطعة زهور الربيع)، كان قد أصبح من الواضح بأن سلاح الجو الأميركي في أفغانستان، يمكن أن يغدو أيضاً أسلحة متبلدة الحس.

وعلى الرغم مما يوحيه الاسم عن دقة ورقة الزهور، فإن (قاطعة الزهور daisy cutter) تزن ١٥ ألف باوند، ويبلغ طولها ٥ أقداماً وخمسة أقدام في القطر " بنفس حجم سيارة الفواكس فاغن الألمانية (البتيل، الخنفساء)" وتفني أي شيء في دائرة قطرها ٦٠٠ قدم (أكثر من ١٨٠ متر)، وإن دقة التصويب نادراً ما تكون الهدف من مثل هذا السلاح، وبدلاً عن ذلك، فهي يقصد منها (تفكيك العدو سيكولوجياً) وتشجيع الجنود المرعوبين على الاستسلام أمام القوة العسكرية المتفوقة بلا منازع، ولكن مثل هذا التأثير النفسي لا يحدث بدون دمار مادي هائل، وهي نقطة تميل أوصاف منفعة هذا السلاح في الحرب النفسية إلى التغاضي عنه،

1 -Abu- Laughed, L (2002) (Do Muslim Women Really Need saving?) American Anthropologist, 104,III , 783-90.

ففي حرب غير عادية لا يوجد فيها فصل مميز بين المتمردين والسكان المدنيين، ومن هنا لا توجد مساحة واضحة للمعركة، فإن استخدام قنابل بحجم ١٥ ألف باوند سوف ينتج بالضرورة خسائر مدنية، فإن بعض البشر سوف لن يتم تحويلهم إلى (أشلاء يمكن الإمساك بها) حسب كلمات روبرت هيوسون (محرر مجلة جينس للأسلحة الجوية) من دون تحويل البعض الآخر إلى هباء أو إلى لا شيء على الإطلاق.[1]

وما من مسألة أظهرت التقارب بين وسائل الإعلام الأميركية وتغطية المنظمات الإخبارية الأخرى لأفغانستان بشكل ثابت مثل قضية الخسائر المدنية الناتجة عن الضربات الجوية، وكانت التقارير الأولية عن استخدام قنابل (قاطعة زهور الربيع) قد ألمحت إلى تقارب في الموقف سوف يعمق مع مرور الوقت، وكانت معظم تقارير الصحافة الأميركية في ٦ نوفمبر ٢٠٠١، قامت بإنتاج هذا التفصيل المؤكد من قبل البنتاغون على أنه حقيقة تؤكد (جدية الحلفاء في طرد إرهابيي القاعدة من مخابئهم الجبلية، وعلى الرغم من أن قدرة القنبلة التدميرية الهائلة كانت تذكر بصورة روتينية، فإن هذا الحجم الهائل من الدمار الذي تنتجه لم يجتذب أية تعليقات سلبية، فعلى كل حال، فإن هدف قاطعة الزهور الموجهة نحوه هو أسامة بن لادن ورجاله الخارجون على القانون، وهكذا فإن بعض العناوين الرئيسية والمقالات الافتتاحية كانت محتفلة بصورة إيجابية في نبرتها، وفي مقال لكاتب العمود الليبرالي ماورين دوود في صحيفة نيويورك تاميز عنوان (أعطوا الحرب فرصة) احتج بأن هذه القنابل لا يمكن الاعتماد عليها أكثر من ذلك (لاصطياد الجرذان) من دون مساعدة، أكثر من قوات التحالف الشمالي المضطربة، والتي (يدخن جنودها ويتذمرون أكثر مما يقاتلون)، وأن قنابل (قاطعة الزهور) هي أسلحة جيدة وفعالة، ولكن القوات الأرضية مطلوبة كذلك.[2]

1 -Williams, D (2001) (Pulverized by the Daisy Cutter: Taliban Face the Biggest Bomb in the Daily mail, November 7.
2 -Dowd, M (2001) (Liberties: talking, aint Fight in) the New York times, November 7.

وفي بريطانيا فإن الأخبار أثارت ردود أفعال أكثر تنوعاً، والعديد من الصحف حيث هذا التأكيد على تصاعد الحرب الجوية في نبرات فرحة بالانتقام وفي ٧ نوفمبر نشرت الديلي ميل مانشيتاً كبيراً بعنوان (يسحقون بقاطعة الزهور) ومقترحة بأنه مهما أمطر به الإرهابيين فإنه لا يحدث الدمار الكافي المطلوب.[١]

ولكن بما أن (الحرب على الإرهاب) في بريطانيا تتمتع بمشاعر كراهية أقل في بريطانية مما في الولايات المتحدة، فمن الممكن أيضاً توقع بأن بعض الافتتاحيات والأعمدة الصحفية سوف تطلق ملاحظات محذرة، فالكاتب سيموس ميلان من صحيفة (لغارديان) حذر بشكل فاتر من أن (شهية جديدة للتدخل (سوف) تزيد من احتمالية ظهور الإرهاب المعادي للغرب).

وسواء تسببت فيه (قاطعة الزهور) أو الأنواع الأخرى من الصواريخ المنطلقة من الطائرات التي يقودها طيارون أو الطيارات بدون طيار، فإن الخسائر المدنية أصبحت البؤرة المركزية للتغطية الإخبارية من أفغانستان في معظم الدول الأخرى خارج الولايات المتحدة، وفي المراحل الأولى من عملية (الحرية المستدامة) فإن المنافذ الإخبارية الأمريكية الرئيسية غالباً ما كانت رافضة للغاية لطرق هذا الموضوع بتاتاً، وبضمنها المنظمات الإخبارية مثل راديو (NPR) أو قناة CNN،والتي تعتبر على كونها (وسائل إعلام ليبرالية) من قبل منتقديها المنتمين للجناح اليميني، ومما يفصح بشكل خاص أن رئيس إدارة الـ CNN أصر على أن الأخبار التي تورد أعداد القتلى من المدنيين في أفغانستان، يتم التقليل نسبياً من هذه الوفيات، من خلال الإشارة (المتوازنة) إلى أولئك الذين قتلوا في أحداث ١١ أيلول[٢]

و (يجب أن نعيد مضاعفة جهودنا للتأكد من أننا لا نبدو وكأننا نقوم بالتغطية الإخبارية من نقطة مرجعية (الطالبان) أو (منظارها) يحذر والتر ايساكسون رئيس قناة الـ CNN في مذكرة داخلية لطاقم القناة، ويضيف (يجب

١- مصدر سابق، ويليامز، ص ١٦.

2- Bam ford, J(2001) (Is the press Up the task of Reporting thease stories/ Nieman Reports, Winter, 19-22.

علينا أن نتحدث كيف أن الطالبان تستخدم المدنيين كدروع بشرية وكيف (أنهم) قد آووا الإرهابيين المسئولين عن قتل ما يقرب من ٥ آلاف إنسان بريء).(١)

وبكلمات أخرى، فإن المدنيين الأفغان الذين يقتلون بالغارات الجوية لا يمكن النظر إليهم على إنهم ضحايا لا ذنب لهم، وإن لفت الانتباه إلى معاناتهم يعني لهذا الترويج لدعاية الطالبان، وإن احتساب القتلى هو ما (يفعلونه) وبالطبع فإن الطالبان سوف يبالغون بذلك لحد كبير.

ويصرح ايساكسون (يبدو إنه أمر متفش جداً، التركيز جداً على الخسائر البشرية والمعاناة في أفغانستان) معلناً. بوضوح أهمية المعاناة الأميركية التي لونت معظم التغطية الإخبارية الأميركية بعد ١١ أيلول.(٢)

وفي الولايات المتحدة، كان القليلون فقط يرغبون في السماع عن الخسائر المدنية في أفغانستان في نهاية ٢٠٠١، وأن توصية الـ CNNضد تغطية هذا الموضوع سرعان ما قامت به محطة فوكس نيوز أيضاً.(٣)

والمراسلون الذين قاموا فعلاً بنشر مثل هذه التقارير الإخبارية يجدون أنفسهم يوبخون بضراوة من قبل المستمعين، من قبل المستمعين، أو القراء، أو المشاهدين، وفي الفترة التي شهدت تركيزاً صحفياً متحفزاً أكثر على أفغانستان من أكتوبر ٢٠٠١ وحتى آذار ٢٠٠٣، وجدت إحدى الدراسات إنه بينما ركزت أكثر من ٨٠٠ قصة إخبارية التي تحدثت عن الخسائر البشرية، على المراسلين الذين قتلوا هناك، فإن أقل من ٤٠ تقريراً فصلت الحديث عن القتلى من المدنيين الأفغان.(٤)

وفي نفس الأثناء فإن الاحتجاج في العالم الإسلامي ضد (عملية الحرية المستدامة) تم تجاهلها من قبل الـ CNN لكونها (صاخبة وكثيرة الهرج، ولكن

١- مصدر سابق، كولمان، ينومان، ومازايتي، ص ٤٤.

2 - Nimmo, K (2002) (Yes, we censored News about Afghanistan) the Lapdog conversion of CNN) Counter Nimmo 0823, html, June 4,2010.

3 - Rotenberg, J (2001) (Fox Portrays a War of good and Evil, and Many Applaud) the New York Times, December 3.

٤- مصدر سابق، رينشلر ٢٠٠٤، Rents chler، ص ٣٠٢.

متحكم بها) وتمثل ملمحاً معتاداً من سرعة التقلب لدى المسلمين، مرتفعة الصوت والغضب بحيث لا يمكن أخذها على محمل الجدل[1]

ولكن الخسائر البشرية المتصاعدة لا يمكن تجاهلها كلها، رغم إن الجيش الأميركي حافظ على الخطوة التي تبناها في أثناء حرب الخليج ١٩٩١ " بأنه لم يعد يقوم بإحصاء القتلى بعد الآن" ، وقامت العديد من المنظمات مثل منظمة هيومان رايتس ووتش، وموقع (I casualties. org) بتوثيق وتوكيد الخسائر بين المدنيين، مستخدمة الانترنت لتسجيل وإذاعة البيانات.

كما خصص الصحفيون من جنسيات متعددة اهتماماً وانتباهاً مستمراً نحو قضية الخسائر المدنية، وخصوصاً في بلدان مثل بريطانيا وألمانيا التي تسببت مشاركتها في (الحرب على الإرهاب) معارضة عامة أكبر مما في الولايات المتحدة وعند سؤاله في برنامج حواري في شباط ٢٠٠٢، لماذا لم يبحث الصحفيون الأميركيون مسألة الخسائر المدنية بمزيد من الجهد والجدية، أورد توم سكويتري من صحيفة يواس تودي، الصعوبة البالغة في توكيد الوفيات بين المدنيين وتحديد الأعداد الدقيقة من القتلى، نظراً للمستوى المرتفع والمتفوق للمعايير التي تعتمدها وسائل الإعلام الأميركية والتي هي (معايير أعلى للتغطية من وسائل الإعلام الأجنبية)، وهي إجابة دفاعية تبدو إنها تميل إلى إضفاء الغموض على الأسباب الأخرى التي تفسر عدم إظهار الصحفيين الأميركيين اهتمام أكبر في توثيق خسائر هذه الحرب.[2]

ولكن التناقض الأشد، على كل حال، لم يكن بين المنظمات الإخبارية الأمريكية والأوربية بل بين وسائل الإعلام الغربية بشكل عام، وبين قناة الجزيرة القطرية التي حققت في سنة ٢٠٠١ جمهوراً يصل إلى ٣٥ مليون ناطق باللغة العربية.[3]

---

1 - CNN (2001) (bush: there's No ruies) CNN, September 17. Http: (archives, CNN. Com. 2001/05/09/17/ gen-bush. Transcript.

2 - Flee son, L (2002) (the civilian casualty conundrum) American Journalism review. 24,III ,18-27.

3 -Hickey, N (2002) (Perspective on war: Different cultures, Different coverage) Columbia Journalism review March, 40-3.

وسرعان ما اجتذبت الجزيرة الاهتمام الأميركي بعد ٩٦/١١، مع قدر كبير من الخزي "لأنها بثت رسائل بن لادن المسجلة على أشرطة" وهي الرسائل التي طلبت مستشارة الأمن القومي غوند اليزارايس من الشبكات التلفازية الأميركية عدم بثها قبل الموافقة الرسمية على الأسس المحتملة بأنها قد تحتوي على رسائل مشفرة إلى نشطاء القاعدة.(١)

ووفقاً للحكم التحريري لصحفية (النيويورك ديلي نيوز) فإن هذا جعل من القناة (واحدة من أكثر الأسلحة فعالية في ترسانة المتطرفين الإسلاميين).(٢)

أما من منظور قناة الجزيرة، فإن إعطاء بن لادن مساحة من وقت البث كان أمراً معقولاً جداً، ويتماشى مع شعار الشبكة الشهير (الرأي والرأي الآخر)، وبعيد هجمات القاعدة على برجي مركز التجارة العالمي ومقر البنتاغون، فإن بن لادن أصبح بلا شك خصماً رئيسياً في العلاقات الدولية، والذي تحتاج تصريحاته إلى أن يتم بثها وعرضها، كما هو الحال بالضباط لمسئولي إدارة بوش، ورداً على اتهام لقناة الجزيرة، بأنها بالنتيجة كانت (قناة بن لادن) ترد إحدى الموظفات السابقات في القناة (ربما، ولكن ذلك سوف يجعل منا أيضاً لسان حال الرئيس بوش كذلك، لأنه كان يحصل على وقت بث أكبر في الواقع).(٣)

وفي أكتوبر ٢٠٠١، كانت قناة الجزيرة هي المنظمة الإخبارية العالمية الوحيدة الممثلة في كابول، حيث كانت قد أسست مكتباً لها هناك منذ عام ١٩٩٩، وعندما بدأت الضربات الجوية الأميركية، أمرت حكومة طالبان الصحفيين الغربيين بالمغادرة، ولكن الجزيرة على كل حال، سُمح لها بالبقاء، ولهذا كانت قادرة على توثيق القصف بشكل فريد، ومباشرة كان طواقم مصوريها يجولون في شوارع كابول، يصورون الفوضى في الشوارع، ويجرون

1 - Krimsky, G (2002) (the View from abroad) American Journalism review, 54-7.
2 - Quinn, S. and Walters. T (2004) (Al – Jazeera: A Broadcasting creating ripples in a stagnant) in berenger.
3 -tat ham, S (2006) Losing Arab Hearts and minds: the coalition, Al – Jazeera and Muslim public opinion Rockville center, NY, Front street press.

المقابلات مع السكان الذين دمرت منازلهم، وهي اللقطات التي قامت القناة ببيعها لقناة الـ CNN.[1]

وبوضعها على موقع الجزيرة الالكتروني، كانت هذه المواد هي التصوير المرئي الوحيد الموجود حول ما كان يجري في كابول أثناء تلك الفترة "وجذب الملايين من المشاهدين على الانترنت.

وعندما تم تدمير مقر الجزيرة بقنبلتين أميركيتين زنة ٥٠٠ رطل في ١٢ نوفمبر عندما كانت كابول قد سقطت بيد قوات التحالف الشمالي، ساورت الشكوك حول مزاعم الجيش الأميركي بان هذه الضربة لم تكن مقصودة، وكانت الجزيرة متمسكة بأن موقع مكاتبها كانت معروفة بشكل جيد للسلطات الأميركية.[2]

وعلاوة على ذلك، فإن واشنطن لم تخف كرهها لقناة الجزيرة، حيث قام كل من نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الخارجية كولن باول بالضغط على أمير قطر الحالي لـ (تكميم) فم القناة، وكتب فؤاد عجمي (بروفيسور في جامعة جون هوبكنز ومؤيد بارز للحرب) في مجلة (نيويورك تايمرز) متفجعاً على تغطية الجزيرة الملتهبة والمنحازة لنزعات معينة: (في خطوطها العامة الواضحة، فإن رسالة الجزيرة مشابهة لتلك التي لطالبان: هناك لا توازن تكنولوجي هائل بين الخصوم، ولكن القوة الأجنبية مع ذلك سوف تحل بها كارثة) وكانت وجهة نظرة واضحة، فمن خلال عمل الجزيرة على تمثيل خطر بن لادن المهدد (نجم القناة) مع خطر طالبان وتكبيره فإنها لم تكن لساناً ناطقاً باسم العدو، لقد كانت (هي) العدو، (لقد كانت قوة خطيرة ويجب أن تعامل على هذا الأساس) ولاحظ عجمي إنه من المنطقي

١- مصدر سابق، والكيخيا، ص ١١٣.

2 -Zed nick, R (2002) (Perspectives war: inside Al Jazeera) Columbia Journalism Iism Review, March/ April 44-7.

أن (مشكلة دور الجزيرة في الأزمة الحالية هي مشكلة يحاول البيت الأبيض أن يجدلها حلاً).(١)

ومع ملاحظة إن مكتب الجزيرة في كابول قد تم قصفه بعد أيام قليلة فقط، يمكن رؤية مقالة عجمي على أنها مبرر مقدم مسبقاً، رغم إن موضوعه الذي تصدر الغلاف لم يقدم على أي ذكر للغارة الجوية التي وصفها البنتاغون بأنها كانت حادثاً بالخطأ.

وكان عجمي محقاً بأن الجزيرة لم تتردد في إيضاح عدم التكافؤ التكنولوجي بين الطالبان وقوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة بنفس الأسلوب الذي عملت فيه باستمرار على تصوير الانتفاضة الفلسطينية الثانية بين المدنيين الفلسطينيين وقوات (جيش الدفاع) الإسرائيلي كمعركة بين متنافسين غير متكافئين، الأول يقاوم إرهاب الأخير، وبشكل مشابه لذلك، فإن الجزيرة لم تكن تستخدم مسمى (عملية حرية العراق) بل مصطلح (الحرب على العراق)، وهو مصطلح لم تكن أي شبكة تلفازية أميركية تجرؤ على استخدامه، وبالنسبة للنقاد الدائمين، فإن هذه الأطر الإخبارية تحدد القناة على أنها تمارس التحيز بشكل مؤسسي مقصود، أما في أعين مدراء قناة الجزيرة فإن تصوير عدم التوازن المذهل هذا وجذب الانتباه إلى صفة لا مشروعية العدوان على العراق، أو عدوانية ووحشية الجيش الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين، ليس مظهراً من مظاهر الانحياز، بقدر ما هو إعلان لما هو واضح ومثبت(٢).

وأن مراسلي الجزيرة بشكل متساوي هم متمسكين بتغطية حرب تحتاج إلى معاملة غير متهيبة من كشف الخسائر البشرية لكلي جانبيها، وهو موقف زاد من الاتهامات الأميركية باستخدام أسلوب الإثارة الرخيصة لقناة نظروا إليها على إنها تلهب مشاعر وخيال (الشارع العربي)، وبكلمات رئيس التحرير المسئول في

---

1 -Ajami, f (2001) (What the Muslim World is Watching?) New York times Magazine, November 18.

2- EL- Nawawy, M (2007) (US Public Diplomacy and News Credibility of Radio Saw and TV Al turra in the world) in seib.

القناة إبراهيم هلال: (يتوجب علينا أن نوضح بأن هناك أناس يقتلون في هذه الحرب) وهذا الالتزام في إظهار (فظائع حملة القصف، الأدمغة المتناثرة،بقع الدم التي تلطخ أرصفة الشوارع، وصراخ الأطفال الرضع، والجثث) كان أمراً واضحاً في أفغانستان ٢٠٠١، وسيصبح أكثر وضوحاً في العراق في آذار ٢٠٠٣.[1]

عملية (حرية العراق) ٢٠٠٣:

على الرغم من تردد المنظمات الإخبارية الأميركية في مقاربة الأسئلة الصعبة في أفغانستان، فإن البنتاغون لم يكن راضياً كفاية كما هو ظاهر من أداء وسائل الإعلام ومن طريقة تعامله مع الصحافة على حد سواء، حيث أن رفض البنتاغون الأولي للسماح للصحفيين أن يكونوا في أي مكان بالقرب من مشهد العمليات، أدى إلى ظهور ما صار يعرف بـ (صحافة عجلات الدفع الرباعي) أو صحافة (رعاة البقر): مجموعة من المغامرين الذين يندفعون إلى أي مكان وهم مؤهلون لإنتاج مزاعم مبالغ فيها حول الخسائر البشرية المدنية من دون وجود التأثير المصحح للقوات الأميركية لكبح سذاجتهم وسرعة تصديقهم، وبالنسبة للجيش الأميركي، مثلت حرب أفغانستان مثالاً تحذيراً على ما يحصل عندما يحقق الخصم (الضربة الأولى) في وضع الأجندة حول الخسائر البشرية، ويصف الكابتن تيري ماك كريري (الرئيس المساعد لهيئة الأركان المشتركة الخاص بالشؤون العامة) مخاوفه حول هذا الوضع في أفغانستان: (تقوم بالإغارة على معسكر، ولا يوجد معك أي صحافة، تقوم بعمليتك وتغادر، ثم يعود العدو،وتأتي الصحافة، ويقوم كل شخص بأخبارهم إنك قتلت أناساً أبرياء وقمت بذبحهم، ويصبح خبراً لمدة الـ ٤٨ ساعة القادمة حتى تقوم أنت بـ تصحيحها).[2]

ولكن ما العمل؟ يأتي الجواب عند ماك كريري:

١- مصدر سابق، سيب، ٢٠٠٥، ص ٦٠٢.

٢- مصدر سابق، الاقتباس لدى ريد، ص ١٠٨.

{الطريقة الوحيدة لتواجه بها الخداع هو أن تقوم بسرد الحقيقة أولاً، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك، هو بجعل مخبر مستقل للحقيقة يرويها أولاً، والطريقة الوحيدة لجعل ذلك المخبر المستقل يرويها أولاً، هو بجعلهم معنا، والطريقة الوحيدة لجعلهم معنا هي بدمجهم}.[1]

(الدمج أو المصاحبة) (Embedding) كما يسميه البنتاغون، أصبح هو الإستراتيجية المفضلة في العراق لضمان إنه ما من حاجة (للتصحيح) المرتجع، حيث إن الخبر سوف يتم (تصحيحه) منذ البداية أو مستهلة، من قبل (رواة للحقيقة مستقلين) يسردون الأمور من منظار معتمد تماماً على الجيش الأميركي!

وفي عام ٢٠٠٦، فإن الإدعاء بأن عملية حرية العراق كانت مخطط لها بشكل غير كافٍ قد أصبح شكوى قياسية شائعة، ينطق بها أولئك الذين كانوا يؤيدون الغزو في آذار ٢٠٠٣، والنقاد المعادين للحرب على حد سواء.[2]

ولكن في مجال واحد على الأقل من الصعب المجادلة بأن التخطيط المسبق للحرب كان غير مكتمل أو بعزيمة متراخية، فقد كانت الحملة للتحكم بـ (المحيط ألمعلوماتي) ولتغليب هذه العملية بأفضل الأساليب المتبعة لدى هوليوود. قد استغرقت وقتاً ليس بالقليل، والكثير من المال والاهتمام في واشنطن، حتى أن البيت الأبيض أنشأ مكتباً جديداً لـ (الاتصال العالمي) لتنسيق العرض الفائق للتكنولوجيا باستخدام الوسائط المتعددة للحرب، بطريقة تكون مناسبة لمدى الانتباه السريع التلاشي لدى المواطن - المستهلك في العصر الرقمي، وبحسب تقديرات كارول برايتمان في صحيفة (ذا ناشن) فإن إدارة بوش قد نسقت حملة وسائل الإعلام في زمن الحرب بطريقة وقحة لم يسبق لها مثيل.[3]

وهذه المحاولات قدمت للصحفيين حوافز إيجابية ليكونوا إلى جانبها، في نفس الوقت الذي ألمحت إلى أن أولئك الذين سوف يقدمون رسائل غير موافق عليها

١- مصدر سابق، ريد، ص ١٠٨.

2 - Ricks, T (2006) Fiasco: The American Military adventure in Iraq, New York, Penguin.

3 - Bright man, C (2003) (in bed With the Pentagon) new states man, march, March 13, p 5-6.

يمكنهم توقع ما هو أكثر من مجرد التجاهل، وعندما قام وزير الدفاع الأميركي بأول إيجاز صحفي له، فعل ذلك أمام صورة لطفلة صغيرة ذات ضفائر مع تعليق بخط كبير (لا تقتلوا أباها، بكلماتكم غير المسئولة) وكان المغزى المطلوب منها واضحاً كما كان متلاعباً بالعواطف.[1]

وكان الخطاب الافتتاحي لقائد العمليات الجنرال تومي فرانكس في ٢٢ آذار ٢٠٠٣، بعد ثلاثة أيام من بدء عملية (حرية العراق)، محسوباً بتأن لإنتاج تأثير مثير للإعجاب بصورة مغايرة، فعندما ظهر في مركز إعلام الائتلاف (السينت كوم) خارج الدوحة، كان محاطاً بخريطة للعالم يبلغ طولها ٣٨ قدماً، وساعات رقمية توضح التوقيت في واشنطن والزمن في منطقة العمليات، ومجموعة متنوعة من شاشات البلازما لعرض صورة من ساحة المعركة، كما لاحظ مراسل صحيفة (النيويوركر) بيتر بوير ورغم إن الجنرال بدأ (في مركز للإيجاز الصحفي، الذي تم إنهائه بضعة أيام قبل الحرب (بكلفة ٢٥٠ ألف دولار) والذي تم ابتكاره من قبل مصمم لمسارح تصوير هوليوود، ليبدو تماماً مثل مركز اتخاذ القرارات. وبالتالي ضمنياً، الأخبار) وكما يلحظ بوير متهكماً فإن (الأخبار الواقعية انبثقت من مركز الائتلاف الإعلامي بطريق الخطأ فقط! على كل حال عندما يكون أحدهم قد استرسل بعيداً عن السيناريو.[٢]

وبالفعل فإن تومي فرانكس قام بظهورين آخرين فقط عبر مسار الحرب من آذار – أيار، وإن مصدر (الصورة الكبيرة) عن الحرب كان البنتاغون والذي عمل بالتعاون مع مكتب (الاتصال العالمي) الجديد على اتفاق أسلوب التقديم ليندمج بصورة مثالية مع قدرات (برامج الأخبار) الحديثة في عرض اللقطات المصورة، والصور الوثائقية، والرسوم المعقدة، والشاشات المقسمة (إلى أكثر من صورة) والعناوين الزاحفة أسفل الشاشة ... الخ. وغيرها من تقنيات التقديم الحديثة.[٣]

---

1 - Pardum, T. and Rotenberg, J (2003) Reporters Restimes, Marcn 23.

٢- مصدر سابق، بوير ٢٠٠٣.

3 -Brock us, S (2009) (Coming to you (Live): Exclusive Witnessing and the Battlefield Reporter) Journal of Communication inquiry, 33,1,27-42.

وكانت مؤتمرات الإيجاز الصحفي هذه تعقد في البنتاغون يومياً ويديرها أحد مستشاري وزير الدفاع يصحبه رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز، ولكن نمط تقديم الأخبار الذي أنتج القدر الأكبر من الإثارة والجدل في الأيام الأولى من عملية (حرية العراق) كان ذلك الذي تم تقديمه من قبل (المصاحبين) وهم المراسلين الذين تم دمجهم مع وحدات معينة من الجيش.

وتضمن البرنامج الذي تم إكباره من قبل البنتاغون على إنه ابتكار ثوري في سياسة صحافة الحرب، أكثر من ٦٠٠ صحفي ليتم دمجهم في الجيش والقوة البحرية وسلاح الجو وقوات المارينز الأميركية لفترات تتراوح من بضعة أيام إلى عدة أسابيع، مع ١٢٨ صحفي آخر التحقوا بالقوات البريطانية، وبحسب تقرير لمؤسسة (راند) للأبحاث في ٢٠٠٤، فإن المراسلين (كانوا يتنقلون مع الجنود في وحداتهم ويرون ما يراه الجنود، ويكونون تحت مرمى النيران عندما تكون القوات كذلك).[1]

وعلى عكس حرب الخليج ١٩٩١، عندما وجد العديد من أفراد فرق وسائل الإعلام أنفسهم مشلولين في مؤخرة الراكب، فإن البنتاغون وعد بأن المزيد من المراسلين (المدمجين) سوف يحصلون على نفاذ إلى خطوط القتال خلال عملية (حرية العراق) وبينما كان يتوجب على المراسلين الموافقة على بعض القواعد العملياتية الأساسية المتعلقة باستخدام معدات الاتصال والمواد الحساسة التي لا يسمح بالكتابة عنها، مع ذلك فإنهم سوف يخولون بإرسال نسختهم الخاصة مما يكتبونه واستخدام الهواتف الرقمية الشخصية المرتبطة بالأقمار الاصطناعية.[2]

ومثل هذا حالة فارقة عن عام ١٩٩١ عندما كانت كل النصوص والأفلام عرضة لـ (المراجعة الأمنية) قبل إرسالها عبر القنوات العسكرية، وفي عام ٢٠٠٣ استعادت المنافذ الإعلامية سيطرتها الحصرية على ما يرسله مراسلوها، وبطرق

1 -Kato sky, B, and Carlson, T (2003) Embedded: the Media at war in Iraq, Guilford, CT, Lyons Press.

٢- مصدر سابق، بأول وكيم، ص ٢٨.

أخرى فإن مشروع (الدمج) أدهش المؤسسات الإخبارية الكبرى باعتباره تطور متميز عن ما سبقه، وخلال الحالة الأولى من الحرب على العراق، فإن عضوية فرق المراسلين التي رافقت القوات الأميركية اقتصرت على الجنسية الأميركية، مع احتكارها تقريباً من قبل المؤسسات الإعلامية الكبرى، وهذه المرة على كل حال، كان هناك مراسلين من مختلف الجنسيات، ومن كلا الجنسين مع وجود ٦٧ امرأة ضمن المشاركين الأوائل.(١)

وأوضح البنتاغون لأغراض دعائية إن برنامج (الدمج او المصاحبة) تضمن ما يقرب من ١٠٠ مؤسسة إعلامية أجنبية، وبضمنها وكالة الأنباء الروسية (ايتار – تاس) وقناة الجزيرة، رغم إن مراسلي الأخيرة المدمجين سرعان ما انفصلوا عن مهمتهم، لأن الضباط الأميركيين رفضوا (إيجازهم) لأنهم يمثلون (محطة ذات سمعة ضارة).(٢)

كما اختلف البرنامج بشكل أكثر عن النظام الذي اتبع في ١٩٩١، من خلال تضمينه لتنوع أكبر ومختلف من الوسائل الإعلامية، وبضمنها محطة تلفاز الكابل MTV، والمجلات الشعبية الرائجة مثل (رولنغ ستون) و (بيبول) و(صحة الرجال) وهذا الأسلوب الأكثر اتساعاً يعكس تقدير البنتاغون بأن العديد من الأشخاص (الرأي العام المهتم عن طريق المصادفة) لا يقرؤون الصحف بانتظام أو يتابعون نشرات الأخبار التلفازية. بل يحصلون على المعلومات من البرامج الترفيهية المنوعة، والمعتمدة على قالب (الأخبار الخفيفة Soft News).(*)

مثل برامج الحوار (ومن أشهرها برنامج أوبرا) ومجلات أسلوب الحياة أو المعيشة... الخ.(٣)

١- مصدر سابق، ريد، ص ١١٢.

2 - Paul, C. and Kim, J (2004) Reporters on the Battlefield? The embedded Press System in Historical context, Santa Monica Monica , CA, Rand.

* - أنظر كتاب المؤلف (الإعلام والعنف) الصادر عن دار أسامة للنشر والتوزيع، للمزيد من التعمق حول الموضوع.

٣- مصدر سابق، انظر بوردم وروتنبيرغ، وباوم ٢٠٠٣.

ونظراً لطبيعة اهتمامات مؤسساتهم، فإن العديد من المراسلين (المدمجين) لم يكونوا مراسلي (أخبار) بالمعنى التقليدي، كما أنهم بالتأكيد لم يكونوا مراسلي شؤون دولية أو مهتمين بالشؤون العسكرية والدفاعية، وطالما أن بعضهم على الأقل سوف يصاحب القوات في عمليات خط الجبهة، فإن برنامج (الدمج) قد تضمن أيضاً تقديم لمحة موجزة عن أسلوب (إعلام الحملات العسكرية) للمراسلين والصحفيين المسجلين.(١)

وهذه التجربة بحد ذاتها أصبحت قصة إخبارية مختارة قبل الحرب سواء تم سردها بنبرات مستشارة بالعضوية الجديدة في البزات العسكرية ومسرورين من استخدام مناظير القتال، أو التي تقدم بمعالجة أكثر جدية تؤكد على الاستعدادات الموسعة تحسباً لهجمات بالغاز الذي يتوقع أن صدام سوف يستخدمه.(٢)

وتوجب على بعض المراسلين أن ينفكوا نتيجة لتجربة التدريب على الحياة العسكرية، وطارحين العديد من التساؤلات حول مخاطر تجربة التغطية الصحفية من خطوط القتال التي تفرضها على المدنيين غير المدربين لمواجهتها، مراسل صحيفة (الينويوركر) هامبتون سايدز أقلع في أول رحلة طيران عائداً، بعد أن أخبره أحد الضباط: (نريدكم هناك لتوثيق، الغاز والمواد الأخرى التي يمتلكها صدام في ترسانته، فإذا كان يملكها، أو لا سمح الله استخدمها، فإن العالم سوف لن يصدق الجيش الأميركي، لكنه سوف يصدقكم)(٣)

ولم يكن سايدز وحيداً في تراجعه عن المشاركة، وعلى كلن فإن الجيش قدم المزيد من الشروح والتفسيرات التي تركز على مزايا (الدمج).

وأن البنتاغون بحسب مزاعمه المبالغ فيها، إنه قد عمد إلى إتباع هذه السياسة الإستراتجية (الشجاعة والخطرة) من أجل رفع مستوى المعرفة عن تطورات الحرب، وقال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد (أشك بأنه في نزاع من هذا النوع، أن

1 -Lindner, A (2009) (Among the Troops: Seeing the Iraq War Through Three Journalistic Vantage Points) Social Problems, 56,i, 21-48.
2 -Ayres, C(2005) War Reporting fo Cowards, New York Grove press.
3 - Sides (2003) (Unembedded) the New Yorker, March 24.

كان مطلقاً مثل هذه الدرجة من حرية الصحافة في التغطية كما تشهدون في هذه الحالة).[1]

وبالنسبة للجيش الأميركي، فإن مثل هذه التغطية عن قرب، كان لها العديد من المزايا، ومنها إنها تعمل على تلميع السجل المرئي واللفظي للأداء العسكري الذي كان مفقوداً بشكل واضح في ١٩٩١، وفي رأي ميشيل كيللي من مجلة (أتلانتك مانثلي): (كان هناك احساس حقيقي بعد حرب الخليج الأخيرة بأن الشهادة قد فقدت، ... الناس في الجيش يعنون بالتاريخ لحد كبير، لأنه تاريخهم، واعتقد بأنه كان الحافز الرئيسي الذي ينبض هنا)، كما إن المراسلين (المدمجين) سوف يكونون قادرين على دحض المزاعم حول (الخسائر العرضية) مما مثل ميزة إضافية، كما يوضح نائب وزير الدفاع المساعد لشؤون الإعلام برايان وايتمان: (لقد أدركنا مبكراً بأن منافسنا كذاب بارع، وما هو السبيل الأمثل للتخفيف من آثار أكاذيب وخداع صدام حسين، من أن يكون هناك مراقبين مدربين وموضوعيين في الميدان)؟ وعلاوة على ذلك فإن الرأي العام الأميركي (يستحق أن يرى بالضبط، كم هي مدربة بصورة جيدة قواتهم المسلحة، وكم هي محترفة ومصممة).[2]

وهذا التصريح الصارم (الأميركيون (يستحقون) أن يعجبوا بمدى مهنية قواتهم) هو ما أثار القدر الأكبر من النقد ضد صحافة (الدمج)، وبالتحديد، القول بأن الغاية منه هو وضع منظور المراسلين والجنود في تلاحم وثيق، وكنتيجة لذلك فإن الجمهور في الولايات المتحدة سوف يدرك الحرب عبر المنظور العسكري، وهو موقع للمشاهدة والفرجة سوف يعزز المساندة الشعبية للغزو واحتلال العراق، فعلى كل حال، فإن وجهة نظر الجندي الذي يكون تحت مرمى النيران نادراً ما تكون موصلة للتأمل النقدي حول سياسات الحرب، وأن البقاء على قيد الحياة هو الاهتمام الأول، بالنسبة للقوات التي تواجه أطلاقات القناصة والانفجارات والهجمات

١- مصدر سابق، بوردم وروتبنبيرغ.

٢- مصدر سابق، بوردم وروتبنبيرغ.

الصاروخية، حيث وفقاً لهذا المنظور فإن القوات الغازية لا تبدو بالضرورة على أنها المعتدية وأنها هي المتسببة بالأضرار، بل تبدو على أنها ضحية منكوبة!

والتساؤلات حول مدى مشروعية عملية الحرية العراقية، لا يمكن مقاربتها بديهة من هذا المنظار، طالما إن التغطية الإخبارية (المدمجة) لا تسمح بأي مجال لانتقاد قوات التحالف، أو إن يتم فهمها على كونها أي شيء آخر غير قوات للتحرير.

وكيف يمكن للصحفيين الذين يكونون هم أنفسهم تحت مرمى النيران إلى جانب وحداتهم، أن لا يتماثلوا في الهوية مع الرجال والنساء الذين يرتدون جانب البزات العسكرية والذين تعتمد حمايتهم عليهم؟ ، (ما من شيء يخلق التعاطف مثل جولة طولها ٣٠٠ ميل داخل عربة القتال برادلي) كما يلاحظ أحد المراقبين، بينما يضفي أحد مراسلي وكالة (UPI) المزيد من الشفافية على هذه الحميمة (المراسلون يحبون القوات العسكرية، ضعنا مع هؤلاء الصبية الذين بعمر ١٨ عاماً، وسوف نذوب حباً فيهم بسهولة).[1]

ومن المنطقي إن الصحفيين سوف يقلدون وجهة نظر مرافقيهم، وبشكل لا واعٍ يتبنون اسم الفاعل في الخطاب والسرد، كما لاحظ أحد المراسلين (المندمجين) في ما بعد (عندما يتم إطلاق النار على الوحدة، كانت القصة الإخبارية تقول (تم إطلاق النار علينا) بدلاً من: الوحدة س تم إطلاق النار عليها، في معركة يأمل الصحفي فيها أن يتحقق النصر لوحدته، لأن حياته هو وسلامته تعتمد على ذلك.[2]

وبعض المراسلين مثل مراسل (بوسطن غلوب سكوت بيرنارد نيلس) اعترفوا بما هو أكثر من ذلك، بأنهم كانوا يساعدون الجنود في كشف مكان العدو

١- مصدر سابق، بوير.

٢- مصدر سابق، بروكس، ص ٢٤.

عندما كانوا يتعرضون لنيران أطلاقات القناصة، ويصبحون بذلك مشاركين نشطين في القتال، وليس مسجلي وقائعه.[1]

فيما يصر آخرون بأنه على الرغم من التقارب غير المشكوك فيه واعتماد أفراد وسائل الإعلام على الجيش، مع ذلك كله فإنهم تمسكوا بموضوعيتهم المهنية، ولهذا فإن تيد كوبل Koppel من قناة الـ ABC يعلن بفخر: (أنا مواطن أميركي، وأنا أحب هؤلاء الرجال والنساء الشباب لما يقومون به، ولكن ذلك لا يعني بأنني كصحفي لا استطيع المحافظة على موضوعيتي).

ولكن ما الذي تعنيه الموضوعية في ظل مثل هذه الظروف على كل حال؟، وكما يوضح جورج سي نيلسون من صحيفة (المراسل الوطني) فإن كون المرء (مدمجاً) كان أشبه أن يكون المرء، الكلب الثاني في فريق كلاب (جر الزحافات) حيث (يمكنك أن ترى وتسمع الكثير من الكلب الذي أمامك ولكنك لا يمكن أن تخرج عن أثره لتستكشف المناظر المثيرة التي تمر بها، بدون فقدان موقعك في الفريق).[2]

وباختصار كانت هناك قصة واحدة يسمح موقعهم بالأخبار عنها: تلك الرواية عن الرجال والنساء الأميركيين في الحرب، وما من أفراد بشريين آخرين يقعون ضمن مدى رؤية المراسل أو نفاذه ليتمكن من مقابلتهم.

والطريقة التي نظر بها كوبل لعدم وجود تناقض بين حبه الظاهر لجيش بلاده (وهو من حقه) وبين الموضوعية المهنية، يعطي إنذاراً خطيراً حول الأسلوب الذي ينظر من خلاله للشراكة الوطنية على أنها ليست بمعضلة في تغطية زمن الحرب الإخبارية، وهو تعلق طبيعي جداً لا ينظر إليه على إنه يشكل أي نوع من التحيز، وكان بالفعل هو حال العديد من المراسلين الأميركيين (المندمجين)، فالعديد من هؤلاء المراسلين اتخذوا موقفاً احتفالياً تجاه الأفراد في البزات العسكرية المشاركين في الحرب على العراق، موثقين جهودهم، وشجاعتهم ومخاوفهم

1 - Nelson, S (2003) (Embedded Reporter Comes Away from lines torn) The Boston Globe, April 22.

٢- مصدر سابق، الاقتباس لدى لندنر ٢٠٠٩، ص ٢٣.

والتزامهم، بشكل تفصيلي لا نهاية له، ولكن بتركيز غير متغير على الموضوع ومن التعاطف.

وأدى الإرسال المباشر إلى مضاعفة هذه التأثيرات لعملية (الدمج) حيث كان المشاهدون يراقبون تقارير متلفزة من العراق مع مخاوف من معرفة بأنه إذا حصل أي شيء (سيئ)، إذا ما حصل تفجير موجه عن بعد، أو إذا ما أصاب قناص أحد أفراد دورية أميركية مارة، فإن المراسل سوف يلتقط الحدث وينقله في الزمن الحقيقي، أو حتى هو نفسه / أو نفسها تصبح ضمن الخسائر، وهذه النوعية من النقل (في هذه اللحظة) كان يتم التأكيد عليها باستمرار من قبل المذيعين في أستوديو البث في القناة، والذي لا يجذب انتباه المشاهدين إلى السمة المباشرة والحصرية لما يشاهدونه فقط، ولكن أيضاً يتفاعل باستمرار ويتحاور مع المراسلين في الميدان عبر هاتف الأقمار الصناعية، وهذه الحوارات تركز على جدة إجراءات (الدمج) وتنقل إحساساً بالخطر يتضمن ردة فعل مباشرة نحو أفعال قوات التحالف، بينما تزرع في المشاهد حساً بامتياز خاص: امتياز الوجود بالنيابة عن الآخرين.[1]

وإن المباشرة التي حظيت بها هذه التقارير عملت على تأكيد سلطة المراسلين المدمجين كشهود عيان من الدرجة الأولى: أو مفسر الحرب في الوقت نفسه للمدنيين الذين يقبعون على مسافة بعيدة من الحدث، ومع ذلك فإن هذه الصلة الحية مع مذيع الربط في الأستوديو بالضباط هي ما يعطي المراسل المدمج شيئاً ما ليفعله، ومسبلاً القناع على حقيقة أنهم لا يملكون عموماً إلا القليل من الأخبار الهامة لتقديمها، المحادثة بدلاً من التغطية، كانت هي الوظيفة الأساسية للمراسل التلفزيوني (المدمج)، فعلى كل حال، إن ما رأوه من تقدم العمليات كان محدوداً جداً ومقيداً، كما كان وصولهم إلى مصادر أوسع، وكما اعترف تيد كوبل في حوار بينه وبين المذيع الرئيسي الـ ABC، بيتر جيننغز عندما اعترف: نحن نحصل

١- مصدر سابق، بروكس، ص ٣٩.

على معظم أخبارنا أما عندما نتحادث (معك) أو عندما (نستمع) إلى ... أخبار الـ BBC على الموجة القصيرة على رأس الساعة!(1)

وبدلاً من القيام بما يعرف عن مراسلي الحرب إنهم يقومون به عادة "توفير المسودة الأولى الخام من التاريخ" فإن (المدمجين) خدموا بشكل رئيسي كموصلين للطاقة بين ساحات المعارك والمجتمع المدني، ومع ذلك فإن التقارير التي يقصد بها تقديم كشف كامل للحرب بكل آنيتها المثيرة للأعصاب في الواقع تم اقتصارها على نسخة مبتورة لوجهة نظر لطرف واحد فقط.

وبينما طرح بعض المعلقين تساؤلات حول سياسة (الدمج) أو المصاحبة فإن الآخرين طرحوا اهتمامات فنية أو تجارية حول إذا ما كانت هذه العملية في الواقع تقدم (تلفزيوناً جيداً).(2)

وكتب شارلز ماك غارث في صحيفة النيويورك تايمز متذمراً (خلال أسبوع أو نحو ذلك، فإن تغطية التلفاز للاجتياح أصبحت مشوشة جداً، مكررة جداً "ومملة في أغلب أجزائها" حتى إنه كان أمراً مرهقاً تقريباً، أن تطفئها وكأنها لم تكن أصلاً، واللقطات، مثل تلك اللقطات الطويلة في متابعة الصحراء كما تشاهد من على قمة دبابة متحركة، لم تكن مثيرة للاهتمام مثل حقيقة كونها تبث مباشرة من خطوط القتال المتحركة في العراق، وهذه الإثارة سرعان ما تبددت، مهما كانت مملة صورياً أو غير مؤكدة، فإن تلك المواد كان يتم بثها لأنها ببساطة يمكن بثها، ولأنه في العصر الذي تكون فيه المباشرة (أو البث الحي) تمثل المفتاح الأساسي لما يعتبر بثاً تلفازياً جيداً، فإن آنية وفورية هذه (الصور) كانت تعد بالقضاء على كل أنواع النقص والمساوئ الأخرى.(3)

ولكن هل كان مخططو عملية (حرية العراق) يتوقعون بأنها سوف تنتهي بسرعة حتى إنه لن يكون هناك وقت كاف لجمهور الجبهة الداخلية في الوطن أن

١- مصدر سابق، بويز، ٢٠٠٣.

٢- مصدر سابق، ميللر، ٢٠٠٤.

٣- مصدر سابق، بروكس، ص ٢٩- ٣٠.

تفقد اهتمامها أو تطرح أسئلة موجهة، مثل لم لا يحيي العراقيون محرريهم بطريقة غامرة من التعبير عن الامتنان والتقدير؟

ولقد ظهر من المؤكد إن القوات الأميركية كان يتم إعادتها للوراء نتيجة للمقاومة الضاربية التي واجهتها قوات التحالف في مسارها نحو بغداد، وبسبب القلق من أن المراسلين (المدمجين) سوف يشددون على تغير مفاجئ في نبرة التغطية الإخبارية، من التركيز على النصر إلى عرض غير مسبوق لخطر الكارثة أو التورط في مستنقع لا خروج منه!

وتم بذلك جهود مكثفة من قبل المتحدثين باسم البنتاغون للتخفيف من (تأرجح الأسبوع الثاني) عندما تعثرت العمليات القتالية بعد بدايتها الديناميكية الفاترة، وفي نفس الوقت فإن الأخبار المزعجة طفت للسطح، مع الأخبار التي تحدثت عن إسقاط طائرة بريطانية بصاروخ باتريوت (بالقرب من مدينة البصرة جنوباً) في حادثة (نيران صديقة) أدت إلى مقتل كل طاقمها، وكذلك الحادثة المحطمة للغاية في الفرقة المحمولة جواً (١٠١) في عمق أراضي الكويت.[١]

وباختصار فإنه يبدو بأن الأفضلية التي حصل عليها الجيش من خلال التغطية (المدمجة) من خلال المنظار الذي تستخدمه، قد أصبحت عرضة للشكوك، وكما تم اتهام الصحفيين من قبل بسوء التمثيل في أحداث التيت سنة ١٩٦٨، بالتركيز حصرياً على ا لاضطرابات الماثلة أمامهم مباشرة وليس على الصورة الإستراتيجية الاشمل، وهكذا فإن طواقم وزارة الدفاع كانوا يخشون أن يقوم (المدمجون) بشيء مماثل في نيسان ٢٠٠٣، من خلال النقل بأن وحداتهم (تغوض في مستنقع) ملاقية مقاومة مستمرة، أو يظهرون علائم على عدم الانضباط في صفوف القوات الأميركية، حيث ان المراسلين المرتعبين يهددون بتوليد رأي عام معارض لما يبدو أنه سيكون حرباً طويلة "وليست (المسيرة السهلة) التي كان الأميركيون يتوقعونها.[٢]

١- مصدر سابق، بوير، ٢٠٠٣.

٢- مصدر سابق، باول وكيم، ص ٥٥.

وعلى كل حال فإن هذا التأرجح والارتعاش ما لبث أن توقف، وفي نيسان فإن عملية الإنقاذ المتلفزة للمجندة جيسيكا لينش من قبل قوة عمليات خاصة بعد أن تم وضعها تحت الحراسة في مستشفى عراقي (في مدينة الناصرية) قدمت لمركز (السينت كوم) الإعلامي فرصة (لنقطة مؤثرة في رسائل الحرب) والتي كانت عبارة عن دراما آسرة ومسرحة والتي سوف تتعرض فيما بعد للمزيد من التعليق المنتقد والمشكك.[1]

وفي ٩ نيسان، كانت مشاهد مجموعة من العراقيين وهم يتجمعون حول تمثال لصدام حسين منهالين عليه بالضرب بعد إسقاطه بمساعدة القوات الأميركية التي استعانت بدبابة أميركية لإطاحته في ساحة الفردوس داخل بغداد قد قدمت نهاية مذهلة لكتاب الحملة العسكرية، على الأقل وفقاً للتأطير الذي قدمته وسائل الإعلام الأميركية، مبلورة نجاح عملية (حرية العراق) في الإطاحة بنظام الطاغية.[2]

وبحلول الأسبوع الثالث كان العديد من المراسلين (المدمجين) قد عادوا إلى الوطن مرة أخرى، وبمجرد أن قام الرئيس بوش (بإعلان النصر) في ٢ أيار ٢٠٠٣، أخذ الحديث عن (حرب العراق) يتم كحدث غير مترابط بصيغة الزمن الماضي.

وبالعودة وراء للنظر إلى الستة أسابيع من حملة (حرية العراق)، فإن العديد من المحللين أعلنوا سرورهم بالطريقة التي عمل بها المراسلون (المدمجون) ويسلم بعض المعلقين العسكريين على أن مثل هذه الصحافة المركزة على التفاصيل الدقيقة أنتجت منظراً للعالم أشبه بالروية عبر قشة (شراب الصودا)![3]

ولكنهم شددوا أيضاً على قدرة الاختراق العميقة التي عوضت نوعاً ما عن النظر من خلال فجوة ضيقة التي سمحت بما يطلق عليه برايان واتمان (تغطية غنية وعميقة للغاية) في عصر يعتمد فيه مستخدمو وسائل الإعلام بشكل كبير على

---

1 - Mc Alister, M (2003) (Saving Private Lynch) The New York Times, April 6.

٢- مصدر سابق، تاتهام، ص ١٣٦.

٣- مصدر سابق، جيمس دي فرانك، مقتبساً عند ريد، ص ١٥٢.

الانترنت للحصول على المعلومات مشكلين وجهة نظرهم الخاصة عن العالم بأسلوب معتمد على مصادر متعددة جداً، وكان هذا الأسلوب في تغطية الحرب مرضياً حتى هذه اللحظة، وكما يعبر عن ذلك فنسنت موريس من (نيويورك بوست): (هذه الحرب هي مهما كان قطعة الوحل التي تجلس فيها، أنا أعمل مع وحدة مروحيات، ولذلك إذا كانت تقرآني الآن، فسوف تظن بأن الحرب كلها تدور حول المروحيات) لكن بالطبع مثل هذه المبالغة لن تنطبق تقريباً على أي من متابعي وسائل الإعلام ولكنها تعرض وجهة نظر عن صحافة (الدمج أو المصاحبة).[1]

وعلاوة على ذلك، إذا كانت الشرائح الصغيرة التي تقدم فردياً من قبل المراسلين المدمجين عن الواقع يمكن أن تكون في النهاية صورة أكبر وأوضح عند جمعها مع بعض، فإن البنتاغون كان يعمل على تقديم صورة شاملة ورؤية بـ ٣٦٠° متكاملة.

وتعبيراً عن رضاها عن هذه التجربة الجريئة، فإن وزارة الدفاع وعبر مسئوليها الذين استشهدوا بأدلة من استطلاعات الرأي لتأكيد حماسة الرأي العام الأميركي نحو صحافة (الدمج)، وفي نتيجة لاستطلاع قام به مركز أبحاث بيو (Pew) تم تداوله على نطاق واسع، وجدت إن ٨٠٪ من المستجيبين اعتبروا بأن تقارير التغطية (المدمجة) هي (منصفة وموضوعية).[2]

وكما رأينا من قبل، فالفكرة بأن الحرب يمكن أن تمثل ظاهرة متعددة الوجوه تستدعي استجابات إنسانية متصارعة على كل جوانبها تمثل نموذجياً موقف الأقلية في زمن الحرب، وعندما يكون بلدهم في حالة حرب فإن العديد من المواطنين يتوقعون بوضوح " أو حتى يطالبون" بأن تكون التقارير الإخبارية عن الحرب بشكل حصري من جانب وجهة نظرهم الخاصة، وعلاوة على ذلك، فإنه باسم (مساندة القوات) فإن المساحة المتبقية كمتنفس للانتقادات حول أغراض الحرب أو أعبائها

١- كار، ٢٠٠٣، Carr.

2- Jurkowitz, M (2003) The media's con flict: Experts say Access to troops Helped More than Hurt) The Boston Globe April 22.

البشرية يتم ضغطها بشكل كبيرة أو حظرها تماماً، وهذا الأمر ظهر واضحاً تماماً في عام ٢٠٠٣، مع العديد من الحالات الشهيرة مثل مقاطعة المستهلكين لأسطوانات أفضل فرق موسيقى الريف مبيعاً، وهي فرقة ديكسي جيشك (Dixie Chicks) لتعبيرها عن معارضتها للحرب، التي نادى بها الرئيس بوش من ولايتهم الأم (تكساس)، وتجمع المعجبون بالفرقة ليعبروا عن غضبهم ليكوموا أكداساً من الأقراص المدمجة لأسطوانات الفرقة، ليتم سحقها بالبلدوزرات!

كما قامت إحدى محطات إذاعة ولاية كولورادو بطرد اثنين من منسقي أغانيها (DJ) الذي استمرا في عرض أغاني الفرقة.

كما أن التعصب نحو القيام بأدوار متعددة كان ظاهراً في ممارسات الجيش الأميركي على الأرض في العراق، وبينما زعم وايتمان لفترة من الوقت أن (صورة أكبر) سوف تنشأ عندما يضع الأفراد جنباً لجنب العديد من الصور الصغيرة من مصادر متعددة، ولكن مع ذلك فإن قطعة صغيرة من الحقيقة ظلت غائبة دائماً: الأهداف العراقية، فعندما بدأت حملة قصف (الصدمة والترويع) الجوي فإن تأثيرها على المستوى الأرضي تم تغطية بتقارير قليلة من حفنة من المراسلين الأجانب وتحت سيطرة وزير الإعلام العراقي الصحاف الذي كان تواقاً لكي يعرض على هؤلاء الصحافيين الخسائر والأضرار الناتجة عن القصف الجوي.[1]

وبمجرد سقوط نظام صدام، فإن هؤلاء المراسلين المتمركزين في بغداد، سرعان ما أنضم لهم سيل من المراسلين الآخرين المدعوين (على عاتقهم) والمقصود بهم أولئك المراسلين والصحفيين غير (المدمجين) مع قوات التحالف بشكل رسمي، ولكنهم مع ذلك موافقين على مجموعة القواعد الأساسية التي وضعها البنتاغون ويحملون (باجات) كتب عليها (على عاتقهم) بأحرف باللون الأحمر.[2]

1 - Garrels A (2004) Naked in Baghdad: The Iraq War and the Aftermath as seen by NPR's Correspondent, New York Picador.

٢- مصدر سابق، لندنير، ٢٠٠٩، ص ٢٤.

ومن ضمن الـ ٢٢٠٠ مراسل الذين كانوا في العراق في آذار/ نيسان ٢٠٠٣، كان ما يقرب من ١٤٠٠ مراسل ضمن هذه الفئة.[1]

وكما أوضح العديد منهم، فإنهم واجهوا قدراً كبيراً من الأعمال العدائية من قبل القوات الأميركية، التي عملت على تحويل مصطلح (على عاتقهم) كمصطلح تندرج تحت خيمته (الخيانة)، وتم إطلاق النار على العديد منهم حتى في الأيام التي سبقت دخول القوات الأميركية إلى بغداد، وقتل بضعة صحفيين على الأقل منهم مصور وكالة رويترز وصحفي إسباني.

وبحسب وجهة نظر الجيش الأميركي، فإن القيام بخطوة خارج نطاق إجراءات (الدمج) أو المصاحبة كان يعني إعلان المرء لمعارضته لعملية (حرية العراق) ولهذا فهو يستدعي معالجة فظة، ولاحظ حال شافتر وهو يكتب في الصحفية الالكترونية (سلايت State) في ١ أيار ٢٠٠٣، (أن الصحفيين الذين كانوا يعملون (على عاتقهم) غالباً ما عوملوا على إنهم وحوش لا يحق لهم بالوصول إلى ساحة المعركة، وفي المدن الجنوبية من العراق، البصرة، وأم قصر وصفوان والناصرية تم منعهم جميعاً من التغطية، ووصل التوتر إلى أقصاه في ٢٣ آذار ٢٠٠٣، مع مقتل الصحفي تيري لويد من محطة (ITN) البريطانية مع اثنين من زملائه الذين تمت أصابتهم من قبل أفراد القوات الأميركية "أو أنهم علقوا بالمصادفة في نيران متقاطعة، طبقاً لنسخة القصة التي يعتمدها المرء، رغم إن العجلة التي كانوا يستقلونها كانت معلمة بكلمة (TV) بحروف كبيرة بارزة.[2]

وبنفس الطريقة كان مثيراً للجدل حادث قصف مكتب الجزيرة في بغداد والذي أدى إلى استشهاد الصحفي الأردني طارق أيوب، رغم إن الغارة الجوية بررت بأن القصف كان دفاعاً عن النفس، حيث زعمت القوات الأميركية تعرض إلى أطلاق نار كثيف مستمر من تلك البناية وهذه الرواية تم رفضها واستهجانها من قبل رئيس التحرير المسئول لقناة الجزيرة إبراهيم هلال،

1 - Haigh, M. etal (2006) A com parison of embedded and No embedded Print Coverage of the US invasion and occupation of Iraq Harvard international Journal of press/ Politics, 11, II, 139 -53.
2 - Gopsill, T (2004) (Target the media) in miller.

خصوصاً إن البناية كانت تقع في مجمع إعلامي ومعروفة بأنها تحتوي بالكامل على مقرات لمؤسسات صحيفة.(١)

وفي نفس الأثناء، وبعد أن طالت الحملة من أجل تهدئة الأوضاع في العراق وفرض الأمن طويلاً، وبالتوافق مع ازدياد حدة العنف في أفغانستان، نما إلى السطح تقارير صحفية تكشف بأن البنتاغون كان يوظف شركة (علاقات عامة) خاصة وهي مجموعة ريندون Rendon لتجميع مرشحين لبرنامج (الدمج أو المصاحبة) ليتم وضعهم في البلدين.(٢)

وتضمن الفحص في خلفياتهم استعراض نماذج من الموضوعات الصحفية السابقة للمتقدم للتأكد فيما إذا كانت نظرتهم تميل بشكل أساسي نحو الجيش، وأوردت صحيفة (ستارز اندسترايبز) أن اثنين من مرسليها تم إبعادهما من أفغانستان نتيجة لمثل هذا الفحص في الخلفيات المهنية، ورغم إن البنتاغون أنكر مثل هذا التحقق من الملفات.

فإنه قام فعلاً بإلغاء عقد مجموعة ريندون في ٢٠٠٩ (وفقاً لصحيفة نيويورك تايمز في ٢٠٠٩) ولكن نظام التدقيق نفسه يوحي بدرجة غير اعتيادية من الحساسية الرسمية تجاه التغطية السلبية، مترافقة مع الافتقار إلى الثقة بأن (الدمج) سوف يؤدي غرضه كدعاية إيجابية في صفوف الصحفيين لزيادة تقديرهم للجهود المبذولة في حربي العراق وأفغانستان.

وأن تلهف إدارة بوش لإذاعة المواقف المعادية تجاه الحروب في أفغانستان والعراق "كلا من الرأي العام المحلي والأجنبي الذي اتسعت ملاحظاته العدائية تجاه تصرفات القوات الأميركية" أدى إلى بذلها المزيد من الجهود للتكتم والسرية على أحداث الحرب، وإن نفس مجموعة (ريندون) التي كانت منشغلة بإجراء التدقيق في ملفات الصحفيين، قامت بمساعدة البنتاغون في محاولته لإخفاء قضية الخسائر في صفوف المدنيين.

١- مصدر سابق، انظر اسكندر النواوي، ٢٠٠٤، ص ٣٢٥.

٢- مصدر سابق، بامفرود، ٢٠٠٥.

ومراقبة تغطية المنظمات الإعلامية العالمية، وإقناع الجماعات ومراكز الأبحاث في مساعدة الإدارة الأميركية في توصيل رسائلها المرغوبة.(١)

وفي ٢٠٠٢، كافأ البنتاغون (مؤسسة ريندون) بعقد آخر، وهذه المرة مركزة بشكل رئيسي على (الجزيرة): لتوفير ملخص يومي لبثها، وتحديد التحيزات الصحفية الفردية، وتتبع أثر (العلاقات الخاصة والممولين) وبكلمات أخرى، التلميح إلى الصلات الجاسوسية، وكانت الأخبار عن مثل هذه النشاطات تطفو إلى السطح في صحافة الولايات المتحدة بصورة دورية من دون الدعوة بصورة حازمة إلى إيقاف مثل هذه الممارسات التي لم تكن على كل حال غير مسبوقة، وكان جون ريندون ناشطاً كذلك في مساعدة الأسرة الحاكمة الكويتية في نحت رسالة العلاقات العامة الخاصة بها في سنة ١٩٩٠، وفيما بعد أوكل إليه مهمة توفير الإعلام الأميركية الصغيرة التي لوح لها الكويتيون تحية للقوات الأميركية وحلفائها الداخلة لمدينة الكويت.(٢)

والأمر الأكثر إفصاحاً ودلالة، من ضمن جهود إدارة بوش للاستمرار في صناعة صورة الحرب، تمثلت في عملية الحظر المفروضة على الصور الفوتوغرافية للنعوش التي تحتوي على جثث أفراد القوات الأميركية المقتولين في العراق وأفغانستان، وفي آذار ٢٠٠٣، استعاد البنتاغون سياسة يمكن ملاحظتها من الآن فصاعداً، تعود في تاريخها إلى حرب الخليج في ١٩٩١، وكما أعلن أحد المسؤولين في وزارة الدافع (لن يكون هناك أي مراسيم استقبال أو تغطية إعلامية لأفراد الجيش المتوفين العائدين إلى أو المغادرين من قاعدة رامشتاين الجوية أو من قاعدة دوفر وبضمنها التوقفات الداخلية) مشيراً إلى القواعد في ألمانيا وولاية ديلاوير الأميركية التي تخدم كمنشآت رئيسية والتي من خلالها تعود جثث الجنود الأمريكيين، والخطر أمتد ليشمل منع عوائل الجنود المتوفين من حضور وصول الجثث.

1 - Pen rod, G (2004) (Letting Loose the Images of War) News Media & the Law, Summer, 7-9.

٢- مصدر سابق، بامفورد، ٢٠٠٥.

وهـو الأمـر الـذي تم رفعـه في عـام ٢٠٠٤، مـع الإبقـاء علـى حظـر التـصوير الفوتوغرافي في مجلة، ودفاعاً عن هـذه السياسة، أخبـر السيناتور جون وارنـر رئيس لجنـة مجلس الـشيوخ للقـوات المسلحة، صحيفة (الواشـنطن بوسـت) بأنـه كـان مـن الضروري لـ (حفظ وحدة من أهم الأولويات، وهـي خصوصية العوائل).[1]

ومثـل هـذه الوسـاوس لم تكـن سـائدة في الحـروب الـسابقة الـتي خاضـتها الولايات المتحدة، على العكس من ذلك، فإن صور النعوش الملفوفة بالعلم الأميركي شـكلت حـافزاً لتجنيـد المزيـد مـن المتطـوعين، وإحـدى النقـاط الهامـة في إسـتراتيجية مكتب (OWI) خلال الحـرب العالمية الثانية كانت اعتماد المزيد من الواقعيـة المرئيـة وتمثلـت في الترخـيص للمجـلات الإخباريـة بنـشر مثـل هـذه الـصور بالـذات، بعـد أن كانت الحكومـة الفيدراليـة ممانعـة في ذلك أولاً، وفي ٥ تمـوز ١٩٤٣، حملـت مجلـة (لايف) صورة على غلافها الأول لستة رجال من أفـراد القـوات المسلحة يحملـون نعشاً ملفوفاً بالعلم الأمريكي.[2]

وعوضاً عن قدح زناد المشاعر المعادية للحرب، فمثل هذه الصور خدمت بقوة لإعادة توليد الالتزام المدني بجهود الحرب.

وهكذا كـان يمضي منطق مكتب إعـلام الحـرب (OWI) في عـام ١٩٤٣، ولكن هذا ليس التفكير السائد لـدى إدارة بوش بعـد حـوالي ٦٠ عامـاً لاحقـاً، وفي سـنة ٢٠٠٣. يـدا أن البنتـاغون غير متمـرس في فهـم الآثـار الـصحية المعافيـة لمثـل هـذه الـصور بـنفس الدرجـة مـن عـدم اهتمامـه بالاسـتجابات المتنوعـة الحزينـة لعوائـل الـضحايا، رغـم إن الـرئيس الأميركـي نفـسه حـض الأميركـيين لتقبـل (المزيـد مـن الخسـائر في الأرواح سعياً وراء النصر الذي سوف يبرر مثل هذه الخسـائر) وفي مواجهة مثل هذا الخطـر، عبر أفراد العوائل المنكوبة بأنهم يقدرون الخصوصية العائلية أقل بكثير من الاعتراف الرسمي بخسائرهم في مقابل الاختفاء الرسمي المبجل لها علناً،

1 - Strobel, W. and Ian day, J (2001) (Pentagon Gets help With PR: Firm is to Help Explain Military strike to foreign Audiences) Charlotte observer, October 19.

٢- مصدر سابق، بريور، ٢٠٠٩، ص ١٢٢.

فيما أمل آخرون إن زيادة بخسائر الحرب قد تؤدي إلى تحريك المعارضة للحرب التي لا يؤمنون بأن دوافعها تستحق مثل هذه التضحيات، بينما عبرت بعض عوائل العسكريين بغض النظر عن رأيها في الحرب عن رغبتها وحقها في رؤية وتسجيل وصول نعوش أبنائها الأعزاء وهم ينتقلون من طائرات النقل في قاعدة دوفر الجوية.(١)(*)

ولقد تم تحدي حظر البنتاغون على نشر مثل هذه الصور بطرقه مختلفة، وهاجم النقاد ما رأوا فيه سياسة ذات أغراض سياسة بحتة (لإخفاء الكلف الحقيقية للحرب) للقضاء على ما دعوه (تأثير وفر) المفترض، (وبالتحديد أكثر، انحدار موافقة العامة تجاه الحرب مع رؤية النعوش وهي تعود)، وهذه المسالة الحساسة كانت مجرد ستارة من الدهان، طالما ان وزارة DOD تمتلك موقعاً على الانترنت يعرض صور النعوش التي تحتوي جثث الجنود الذين قتلوا في كوريا وفيتنام، وكما إن الرئيس بوش نفسه قد استغل صور نعوش ضحايا ٩/١١ في حملته الدعائية للحرب، وبدا أن مبدأ احترام الخصوصية كان مطاطاً للغاية في التطبيق الرسمي.(٢)

وعلى كل حال، فإن تعديلاً للقانون كان يفترض به أن يسقط الحظر في مجلس الشيوخ الأميركي، تم رفضه بهامش بسيط ٥٤- ٣٩ في ٢١ حزيران ٢٠٠٣، وفي نيسان التالي واجهت سياسة الـ DOD هذه مقاومة ضارية من مصدرين غير متوقعين أبداً: مستخدمي مقاول دفاعي أميركي خاص وأفراد سلاح الجو الأمريكي.

وفي يوم الأحد ١٨ نيسان ٢٠٠٤، نشرت صحيفة (سياتل تايمز) صورة كبيرة على الصفحة الأولى تصور عدة نعوش مغطاة بالعمل داخل طائرة للنقل في مطار الكويت الدولي تحت عنوان رئيسي (المهمة الوقورة في تكريم من سقطوا)، وكانت

١- مقال في مجلة التايم، ٣ أيار ٢٠٠٤، ص ١٠- ٢٨.

* - انظر كتاب المؤلف (الغزو الأميركي للعراق: حقائق وأرقام) للمزيد عن الخسائر الأميركية في هذه الحرب، والصادر عن دار المعتز للنشر والتوزيع.

2 -Quill Magazine (2004) (Despite Ban, News Papers coffin photos) June/ July, 6-7.

قد تم التقاطها من قبل تامي سيلييسيو (Tami Silicio) وهي عامل شحن جوي مستخدمة لدى شركة خطوط (مايتاج) في الكويت، والتي كانت عاملة حتى يوم ٢١ نيسان عندما تم فصلها لعدم احترامها (قواعد الحكومة والشركة) مع رفيقها في العمل ساعة التصوير.[١]

وأصرت تامي وهي تحاول توضيح دوافعها، بأنها لم يكن لديها أي دوافع سياسية في بالها، بل لأنها من حجم التوقير الذي يبديه أفراد الجيش في تعاملهم مع (الذين سقطوا) ولكونها هي نفسها أماً فقدت طفلاً لها، فقد أملت بأن هذه الصور قد توفر بعض العزاء للعوائل التي سترى الكرامة والمهابة التي يتم بها نقل أحبائها، وقامت بإرسال الصور إلى صديق لها في مدينتها سياتل الذي قام بتمريرها إلى الصحيفة المحلية هناك، وفي نفس اليوم الذي فصلت فيه تامي من قبل شركة مايتاج، استلم زوجها روس كيك قرصاً مدمجاً من سلاح الجو استجابة لطلبه بناء على قانون حرية المعلومات لكل الصور التي تظهر نعوش أفراد الجيش الأميركي التي وصلت إلى قاعدة دوفر الجوية منذ شباط ٢٠٠٣، ما يقرب من ٢٨٨ صورة لوفيات الحرب، روس كيك وبصفته ناشطاً معارضاً لسرية الحكومة، ومنشئ موقع www.thememoryhole.org، قام بنشر الصور فوراً على موقعه.[٢]

ورغم ان حظره على نشر الصور قد تم خرقه من قبل القوة الجوية، إلا إن البنتاغون ظل مصراً على أن الحظر ما زال في محله سارياً المفعول، وهذا الموقف استمر على حالة، حتى أمر خليفة بوش بارك أوباما بمراجعة أدت إلى رفعه في نيسان ٢٠٠٩، مع القلق العميق من نشر الصور حول القتلى الأميركيين في ساحات

١- مصدر سابق، انظر كويل، ص ٦.

٢ - مصدر سابق، بينرود، ص ٢٧.

المعارك، رغم إن الصحف الأميركية لم تكن في حاجة لمن يقول لها أن تعامل هذه الصور بكثر من الحذر.[1]

ولكن على الرغم من الدرجة العالية من الانسجام التي حصلت عليها إدارة بوش من المؤسسات الإعلامية في تقييد تصور الرأي العام لهذه الحرب، إلا أن ثمة قصة ظهرت بعد أسبوع واحد من طرد تامي من عملها، أظهرت مدى هشاشة التحكم الرسمي في صناعة الصور، وكما كانت الصور التي التقطتها تامي بـ كاميرا رقمية صور هواة، صادف أنها كانت تحمل كاميرتها معها حينها، كذلك كانت الصور التي بثتها قناة CBC في يوم ٢٨ نيسان في برنامج (ستون دقيقة) الإخباري والتي صعقت المشاهدين ساعة رؤيتها، وهي صور تم التقاطها من قبل جنود أميركيين، وأفراد الشرطة العسكرية، وكانت الصور تظهر سجناء عراقيين في سجن أبو غريب في العراق وهم يتعرضون للإساءة من قبل حراسهم الأميركيين، وكانت الصور مسيئة بدرجة كبيرة، وتظهر الرجال العراقيين وهم يتعرضون لمختلف أنواع الإذلال وفي وضعيات مختلفة في سيناريوهات مذلة جنسياً، أو مقيدين إلى الأسرة، ومغطين الرؤوس بأكياس ويظهر إنهم مربوطين بأسلاك كهربائية، أو عراة من ملابسهم مع وضع ملابس تحتية نسائية على رؤوسهم، أو تنبحهم الكلاب حتى يلتصقون بزوايا جدران السجن القذرة، وبعض اللقطات تظهر معذبيهم من الأميركيين وهم مستمعون ومسرورون بمراسيم الإذلال والاهانة هذه، وبعضهم يستعرض أمام الكاميرا التي تلتقط الصور، وما أثار الدهشة والاستغراب أكثر أن بعض هؤلاء الشرطة العسكرية السياديين كانوا من النساء، ليس فقط لعدم توقع مشاركة النساء، في مثل هذه الممارسة، ولكن لأنها كما يظهر كانت محسوبة بدقة لاهانة كرامة الرجل العربي أكثر فأكثر.

1 -Eiseman, S(2007) The Abu Ghraib Effect, London, Reaktion.

واستجابة لهذه الصور، فإن العديد من المعلقين الأميركيين توقعوا أن تمثل نقطة تحول مؤثرة في الحرب، ونشر سيمور هيرش الصحفي المعروف الذي فضح مذبحة (ماي لاي)، مقالة مطولة في صحيفة (نايويوركر) حول سجن (أبو غريب) بعد يومين فقط من البث الذي قامت به (CBS)، مقترحاً بأن بوش سوف لن يكون قادراً بعد الآن أن ينال تأييداً شعبياً في الولايات المتحدة لهذه الحملة والتي على مدى عام كامل ظهر بأنها تتم بصورة سيئة للغاية.[1]

ولم يشك أحد بأن هذه الصور سوف تشعل المشاعر المعادية لأميركا في الشرق الأوسط والبلاد العربية، وهو خوف تعاملت معه الإدارة الأميركية بجدية كبيرة حتى إن الرئيس بوش نفسه ظهر مرتين على شبكات التلفزة العربية (تلك الممولة من قبل الإدارة الأميركية ومنها قناة الحرة) ليشرح للرأي العام بأن هذه الصور المخزية (لا تمثل أميركا).

وبلا شك فإن صور (سجن أبو غريب) ساهمت في زيادة تحديد ظلال صورة الولايات المتحدة السوداء والشائنة بما فيه الكفاية في العالم الإسلامي المتخم بمشاعر الكراهية ضد الولايات المتحدة، ولكن على الرغم من الضجة التي أحدثتها هذه الصور في الولايات المتحدة مباشرة، فإنها لم تجعل من هذه الحرب غير لائقة بالصورة التي تنبأ بها هيرش والآخرون، فليس كل الأمريكيون الذين كانوا ينظرون إلى صور أبي غريب كانوا يرون نفس الشيء وحتى أولئك الذين شعروا بالغثيان من معاملة السجناء بالصورة التي كشفت عنها هذه الصور لم يكونوا متفقين فيما إذا كانت تعد تعذيباً أو مجرد (انتهاكات)!

ولكن البعض عبر عن تحذير خاص من أن إحدى الصور على الأقل تظهر حارسة أنثى تعطي إشارة الـ (KO) بإبهامها بالقرب من جثة عراقي،

١- هيرش، ٢٠٠٤، صحيفة النيويوركر.

كانت ملفوفة بإهمال بأكياس نايلون ومغطاة بأكياس الثلج، مما يوحي باحتمالية كبيرة أن يكون هذا السجين قد تم ضربه ضرباً مبرحاً حتى الموت، مما يؤكد أن عنصر التعذيب الشديد أمر لا يمكن ان تخطئه العين.

ومهما كان أي شيء آخر يمكن تصويره على أنه مجرد (معاملة قاسية) فإن الجثة تشير بوضوح لا لبس فيه إن (إساءة المعاملة) قد تخطت حدودها المسموح بها، فإن قتل أي معتقل، هو في جميع الأحوال عبارة عن جريمة، وليس مجرد إساءة معاملة، ومع حصول هذه الصور على مركز الانتباه الإعلامي فإن انتباه إعلامي أقل ركز على إعلان البنتاغون في ٣ أيار ٢٠٠٣، بأنه كان يحقق في وفاة ٢٥ معتقلاً في الحجز.[١]

واحد الأسباب التي جعلت المعاني المأساوية المتضمنة في صور أبو غريب تمضي بدون عناية واهتمام أكبر، هو إن العديد من نظروا إلى هذه الصور (من جانب الرأي العام الأميركي) كانوا أقل اهتماماً بموضوعاتها من العراقيين المساء إليهم. من اهتمامهم بالأميركيين الذين كانوا في إطار الصورة: أفراد الشرطة العسكرية وملتقطي الصور، فبدون هذه الصور (كما كان مقبولاً على نطاق واسع) ما كان هناك أي فضيحة (أحد أفراد الشرطة العسكرية - وبعضاً من الصور التي احتوى القرص عليها تم بثها من قبل الـ CBS لاحقاً.[٢]

١- انظر شكل (١:٧) مقالة توماس فريدمان في صحيفة نيورك تايمز الأميركية.

٢- مصدر سابق، هيرش، ٢٠٠٤.

موت السجناء تحت التعذيب ... وجهة نظر أميركية



شكل (١:٧)

ماس فريدمان في صحيفة نيويورك تايمز حول موت السجناء في السجون الأميركية (منشوراً مترجماً في صحيفة الغد الأردنية في ٢٧ آذار ٢٠٠٥.

ومع كون الصور ضمن التداول العام، لم يعد بالإمكان إبقاء حالة السجون العراقية تحت الغطاء، واستحث الكشف الذي قامت به الـ CBS العديد من التساؤلات مثل لماذا يقوم حراس السجن بتصوير أنفسهم وما هو نوع التبادل والتوزيع غير المعلن لمثل هذه الصور يجري بين أفراد الجيش.

وهل كانت هذه الصور نوعاً من الصور التي يتبادلها، قوة مضاعفة في الإساءة يمكن ان تستخدم لزيادة الشعور بالخزي والإذلال، للسجناء الذين تم تصويرهم بهذه الطريقة؟[1]

وبالنسبة لبعض المعلقين والمراقبين، فإن القضية الأساسية وراء هذه الصور، ليس حول الهدف من التصوير في أبو غريب، بل مدى تراكم الأفعال التي تصورها وتكرارها، ومن (إذا كان أحد قد فعل ذلك) الذي خول القيام بها، وما هو العقاب الملائم للقائمين بها، وما إذا كان أفراد الشرطة العسكرية هؤلاء مجرد (بضعة تفاحات فاسدة) كما أصر رامسفيلاد على ذلك، أم إن الفساد قد سرى من الأعلى إلى الأسفل؟

وما إذا كانت هذه الممارسات الفظيعة قد تم السماح بها من قبل مجمع البنتاغون والنظام القضائي الأميركي؟

وأن هذه النقاشات سوف تستمر لعدة سنوات، من خلال ما كشفت عنه بعض التحقيقات الرسمية، والأحاديث حول إن سياسة جديدة في البيت الأبيض سوف تمهد لاتخاذ إجراءات تجريمية إزاء أولئك مثل الوزير دونالد رامسفيلد والمدعي العام ألبيرتو غوانزاليز الذي خول بالفعل (أي أساليب لتعزيز التحقيقات) بما في ذلك الإجراءات التي تحدث الألم إلى أية نقطة ممكنة دون الموت نفسه.[2]

1 - Chase, R (2009) (media Witness return of war casualty at Dover) Associated press, April 6.
2 - Danner, M (2004) torture and Truth: America. Abu Ghraib, and the war on terror, New York, New York review of Book.

وفي أيار ٢٠٠٤، على كل حال، فإن العديد من صناع الرأي العام البارزين كانوا ميالين للقول بأن الصور لا تمثل إساءة للسجناء فضلاً عن التعذيب وعوضاً عن ذلك، أيدوا نظرية عن (بيت الحيوانات في وجه الحراسة الليلية) ومقدمو برامج الراديو الذائعي الصيت مثل راش لمبوغ (الذي يصل تعداد جمهور برنامجه الأسبوعي إلى ما يقرب من ٢٠ مليون شخص) شددوا على أن هذه الصور هي مجرد صور لحراس محبطين ومتوترين ينفسون عن الضغط المتفجر ويتسلون قليلاً!

فما أظهرته الصور حقاً لم يكن شيئاً أسوأ من نوعية الأمور التي تجري بشكل روتيني في بيوت الأخوية الأميركية، كما يدعي بيل أو رايلي من محطة فوكس ينوز، وفي نفس الوقت دعى مشاهديه للتفكر فيما إذا كانت صحيفة (لوس أنجلس تايمز) بوضعها صور وأخبار أبي غريب على صفحتها الأولى لمدة ٢٦ يوماً في الأيام الـ ٢٨ الماضية لم تعلن بذلك (الحرب على إدارة بوش)! (١)

إذن ما الذي تظهره فضيحة أبو غريب عن قوة وسائل الإعلام في القرن الحادي والعشرين؟ ، ويصر رامسفيلد في نيسان ٢٠٠٤، في محاولة للعب الأوراق القليلة المتبقية لدى البنتاغون، على أنها أظهرت كم انحرفت الصحافة الاستقصائية عن المسار الطبيعي، وإن وزارته كانت تعمل على هذه القصة قبل ان شم أي صحفي أية رائحة لها، مع وجود عدة تحقيقات عسكرية حتى تلك اللحظة تأخذ مسارها منذ أسابيع عديدة قبل أن تضع وسائل الإعلام يدها على الخبر.(٢)

ولكن مزاعم وزير الدفاع رغم أنها لامست عصباً صحفياً حساساً ولكنها أظهرت نوعاً من الغباء وتبلد الحس كذلك فإن الصحف الأميركية والوكالات الإخبارية العالمية قد أوردت مزاعم عن الانتهاكات بحق السجناء وعن الاعتداءات الجنسية المتصاعدة ضمن الجيش الأميركي قبل أن تبث محطة الـ CBS الصور الفوتوغرافية سيئة السمعة في ٢٨ نيسان.(٣)

---

1 - Ricchiardi, S. and Cirillo, M(2004) (Missed signals) American Journalism Vevew, August, 9-22.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٢٢.

3 - Shanker, T (2004) (6 GIsin Iraq are charged with Abuse of Prisoners) the new York times, March 21.

ونشرت وكالة الاسوشيتد بريس (AP) تقريراً عن إساءة المعاملة في ثلاثة مراكز اعتقال بضمنها أبو غريب، في وقت مبكر مثل الأول من نوفمبر ٢٠٠٣، وإن كون صحفي الشبكات التلفازية والوسائل المطبوعة لم يتتبعوا هذه الدلائل ويبحثوا ورائها باهتمام أكبر يوحي بالعديد من الأمور، بضمنها حجم الذعر من نشر الأخبار والتقارير التي يمكن النظر لها على أنها متعاطفة مع العراقيين أو الأفغان، وبكلمات أخرى فإن المؤسسات الإخبارية كانت قلقة من تقديمه بالضبط، ما عناه الطعن الذي قامت به محطة فوكس نيوز عندما دمغ أورايلي، إساءة معاملة السجناء بأنها مجرد سلاح بيد الصحف الحزبية أو المعارضة، وكان الأمر يتطلب عزيمة أكبر في ظل مثل هذه الظروف لمتابعة قصة إخبارية حول تعذيب سجناء المفترض إنهم (مشتبه بهم بالإرهاب) حتى وأن كان العديد من الرجال العراقيين (كما اعترفت بذلك قيادة الجيش لاحقاً) قد انتهى بهم الحال في أبي غريب عشوائياً، وأطلق سراح عدد كبير منهم بدون أية تهم.

ولكن حتى إذا كان الصحفيون عازمين على متابعة مثل هذه الأخبار، كما فعلت الـ CBC فيما بعد، فإنهم سيواجهون بمشكلة عويصة في (إمكانية الوصول) فكما هو واضح فإن هذه السجون ليست تملك الأماكن التي يمكن لأي أحد ان يزورها بسهولة، وللتحقق من مثل هذه الشائعات يتوجب أولاً الحصول على موافقة الجيش، وهذا الأمر مفقود بشكل واضح، والقصة التي نشرتها محطة الـ CBC تم تأخيرها لمدة أسبوعين، كما يدعي مخرج البرنامج مولي مابس فيما بعد نظراً لعجز الجيش عن إيجاد مصدر مخول كفاية ومطلع بشكل ملائم للتعليق على هذه الحادثة، وهكذا فإن حادثة أبو غريب أظهرت بأن شبكات التلفاز والوسائل المطبوعة (الأبطا)، عملت بالفعل على الاستمرار بأجراء تحريات جدية، أما الإعلام الجديد، وخصوصاً موقع Salon. Com الإخباري البارز فقد اتبع ذلك بالمزيد من طلبات قانون حرية المعلومات" كما فعل روس كيك سابقاً مع صور النعوش" لتأمين إطلاق المزيد من الصور، والتي تم حجز العديد منها من قبل البنتاغون لأنها صادمة أكثر لإحساس العامة، وقام الموقع بنشر ما استطاع استخلاصه منها في شباط

٢٠٠٦، وعلى الرغم من وعده باتخاذ منهج مغاير لسلفه، فإن باراك أوباما حافظ على هذا الأسلوب المقيد عندما أصبح رئيساً في يناير ٢٠٠٩، ومستمراً بالمجادلة أن كشف المزيد من الصور يهدد الأمن الأمريكي!

أما من جانب الإدارة الأميركية فإن أهم ما كشفته حادثة أبو غريب لم يكن تآكل الصحافة الاستقصائية وضعفها، بل بدلاً عن ذلك المخاطر التي تفرضها الصور التي يلتقطها الهواة الغير محترفين، وعلى وجه الخصوص من قبل الجنود أنفسهم، ففي الثورة الجديدة المتفاخر بها في الشؤون العسكرية في القرن الجديد، فإن الجنود تمت إعادة تخيلهم كلاعبين في ساحات قتال رقمية، الذي يتم تبع تنسيق جهودهم بدقة من خلال تكنولوجيا الـ GPS، والذين سوف يميزون ويدركون البيئات المحيطة بهم من خلال كاميرات مركبة على خوذهم، أشبه بجنود تقنيين مصنوعين من الأجساد الطرية!

أما ان الرجال والنساء في البزة الرسمية قد يتحولون إلى موثقين للحرب وصحفيين مصورين على ما يبدو لم يتم تصورها مسبقاً، أو حتى إذا كان هذا الاحتمال موضوع نظر، فإنه لم تتخذ إجراءات مسبقة أو تدابير احترازية لمواجهته.

وفي الحروب السابقة في القرن العشرين، كان أفراد الجيش يمنعون بوضوح من حمل الكاميرات إلى ساحة المعركة، وعاملت كل من بريطانيا وفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، امتلاك كاميرا في الجبهة على أنها انتهاك كبير، على الرغم من صعوبة امتلاك الكاميرات في ذلك الوقت كحاجة للاستعمال اليومي أو سهولة التنقل بها، ولكن تم اتخاذ ذلك كأجراء احتياطي، وبحلول السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، فإن القليل فقط من الجنود لم يكونوا يمتلكون كاميرات رقمية، لعل التفسير الأكثر قبولاً، حول لماذا قام أفراد الشرطة العسكرية في أبي غريب، بالتقاط تلك الصور التي أدت إلى انتهاء ١١ فرداً منهم في السجن، هو إن التقاطهم لتلك الصور أكان أمراً انعكاسياً طبيعياً تماماً، وأن التقاط الصور الرقمية وتحميلها وتبادلها عبر الايميل أو بأي طريقة أخرى.

وإن أخذ الصور هو أمر طبيعي جداً وهو ما تفعله باستمرار أو هكذا على الأقل هذا ما احتج بعض الحراس المدانين في الأفلام الوثائقية التي أعدت حول انتهال السجناء مثل فيلم روري كينيدي (أشباح أبو غريب) وأليكس غبني (الجانب المظلم)، وأيرول موريس (مجرد عملياتي معتاد) .

وهذه العملية من (المشاركة الديمقراطية) في صناعة الصور والرموز تعطي إشارة على تلاشي سلطة الصحفي المصور في خلق الصور المجازة عن الحرب وكما يلاحظ محرر الصور في مجلة (الواشنطن بوست) كيث. دبليو. جينكنز في إشارة إلى حادثة أبي غريب وتامي سيلسيو، بقوله:

{مع التقنية المتوافرة الآن، فإن المصور الهاوي هو متمكن بقدر المصور الصحفي المحترف، وهو يعمل بنفس الأداة: الكاميرا الرقمية. اللاب توب والانترنت}.[1]

والعديد من المراقبين الآخرين بشكل مشابه رددوا صدى أقوال جيكنز في موضع نظرهم في أيار ٢٠٠٤، بأن تداول الصور الرقمية، التي تؤخذ بإهمال وبصورة مبتذلة، إذا لم تكن مأخوذة بصورة متعمدة، عبر البريد الالكتروني أو توضع على الانترنت، لن يكون بالإمكان بعد الآن التحكم بها من قبل السلطات المدنية أو العسكرية، سواء للأفضل أو للأسوأ.

إعلام جديد: قواعد جديدة للعبة:

الصور الفوتوغرافية، كما ترى سوزان سونتاغ في ٢٠٠٣، هي وسيلة عرضة للتحامل غير المهني:

{بالنسبة للصور عن الأعمال الوحشية للحرب، فإن الناس يريدون نقل الشهادة من دون الصبغة الفنية، والتي تعادل بـ عدم البراءة أو حتى مع التحايل، وأن

1- Simon, E (2004) Digital Amateurs Amid the straggle: Unembedded – and Shap- Happy) AP, May 9،

صور الأحداث المروعة تبدو موثوقة أكثر عندما لا يكون لها ذلك المظهر المتأني من كونها تضاء وتصاغ (بصورة لائقة)}.[1]

ومع بروز دور (المدونات) وهي ظاهرة تصادفت مع السنوات الأولى للحرب في العراق، يمكن للمرء المحاجة بشيء مماثل حول دور الصحافة في عصر الإعلام الرقمي، فإن القيم المتحكمة بالعمل المهني (الموضوعية، الحياد، التوازن، التجرد) يتم الجدال بأنها كلها قد اكتسحت جانباً لصالح صحافة المواقع الالكترونية التي من الواضح أنها تعج بالرأي والعاطفة والميل للجدل والنقاش، ورغم إن المدونات ينظر إليها دوماً من قبل القوالب الصحفية التقليدية على أنها خطر يتهددها بالحلول محلها، فإن صيغها التي تختلف لحد كبير عما هو تقليدي، ومع ذلك فهي أبعد ما تكون عن تشكيل حقل أو عالم منفصل تماماً، وأن (مجال المدونات أو التدوين) يوجد الواقع في صلة مع وسائل الإعلام الأخرى الأقدم، كما أن العديد من المدونين ألذائعي الصيت هم مراسلون محترفون مثل مراسل الـ CNN، كيفن سايتس والكاتب الحر في (التايم) جوشوا كوسيرا، مراسل الـ (AP) السابق كريستوفر ألبريتون، مؤلف مدونة (العودة إلى العراق، النسخة الثانية).[2]

وفي العديد من الحالات الأخرى فإن علاقة المدونين مع الصحافة التقليدية هي علاقة خصومة وعلاقة طفيلية في نفس الوقت، وفي أثناء عملهم على توبيخ وذم الـ MSM(مختصر لـ وسائل الإعلام السائدة) فإن المدونين المحافظين يتجادلون بشكل روتيني حول النقص الذي تعانيه، والتحيزات، والثغرات في التغطية الإخبارية للصحف أو الشبكات التلفازية، وهم يعتبرون أنفسهم أحياناً بأنهم يقدمون التصحيح المطلوب، ومع ذلك فإنهم يعيشون علاقة تكافلية مع نفس المصادر التي

---

1 - Son tag, S (2003) Regard in The Pain of others, New York, Picador.
2 - Wall, M (2006) (Blogs over Baghdad: Anew Genre of War Reporting) In Berenger.

ينتقدونها بشكل لاذع باستمرار، وكما يقول الناقد غلين رينولدز: (إذا لم تكن تقرأ الصحيفة، فإنك لن يجن جنونك منها)[(١)]

ولم يكن هناك في الواقع أي نقص في الأمريكيين الذين جن جنونهم بسبب التغطية الصحفية للحرب في عام ٢٠٠٣، وثمة مسح أجري في نيسان /أيار من ذلك العام، أظهر بأن المدونات تعج بشكل رئيسي مهين، بالرجال البيض، المتعلمين جيداً، وذوي الدخل المرتفع، وأصحاب المهن العالية الاحتراف ومعظمهم منزعجين مما اعتبروه (التحيز الليبرالي) في وسائل الإعلام المائل بسخاء زائد نحو (الإرهاب الإسلامي)، والمتسرع دائماً نحو (شيطنة) الجنود الأميركيين والباحث باستمرار عن العلاقات التي تظهر بأن الحرب تجري بصورة سيئة.[(٢)]

وعمل المدونون المحافظون بسرعة على الشجب بقوة، لهذه المظاهر في مواقف أفراد وسائل الإعلام البارزة، ففي شباط ٢٠٠٥، برهنوا عن قوتهم الباهرة في تشكيل المهن المحترفة عندما أجبرت قوتهم الضاغطة على استقالة الرئيس التنفيذي للإخبار في قناة CNN ايسون جوردن، وكان الأخير قد أبدى ملاحظات ليس للنشر، خلال جلسة في المنتدى الاقتصادي العالمي، لمح فيها إلى أن الصحفيين كان يتم قتلهم واستهدافهم في العراق بشكل متعمد، ولهذا فإنها لا يمكن اعتبارها (خسائر عرضية أو بالمصادفة)، ورغم أن جوردان أسرع بالرد بأنه لم يقصد بأن الصحفيين تم أصابتهم عمداً من قبل القوات الأميركية، فإن كرة النار التي نتجت عن تعليقه تم النفخ عليها من قبل المدونين الذين أنشئوا E asongate.com موقعاً (أي بوابة أيسون!) لتحشيد الغضب من قبل الرأي العام ضد المدير التنفيذي لـ CNN، وفي غضون أسبوع فقط نجحت هذه الحملة في مهمتها لإجبار أيسون على الاستقالة.[(٣)]

١- كاي وجونسون، ٢٠٠٤، Kaye & Johnson، ص ٢٩٦.

٢- نفس المصدر السابق، ص ٩٢٩.

3 - Allan, S(2006) online News: Journalism and internet: Opet university press, Maidenhead.

ولكن الانزعاج وعدم الرضا من جانب الجناح اليميني، لم يكن هو نوع عدم الرضا الوحيد الذي دفع الناس إلى السعي وراء الروايات والتقارير على الويب حول الحرب على العراق، وبينما هاجم المحافظون (التحيز الليبرالي)، فإن العديد من المثقفين الليبراليين في المقابل اعتبروا مؤسسات وسائل الإعلام، على إنها مهيمن عليها من قبل أولئك المحابين لوجهات نظر الحكومة، وأولئك الذين يركزون على ان يتم تأطير أفعال القوات الأميركية وأهدافها في العراق بالطريقة الأكثر تعظيماً وتشريفاً، أما أولئك الذين كانوا متلهفين لمعرفة تفاصيل الحرب في العراق اليومية من وجهة نظر سكانه المدنيين فقد لجأوا إلى المدونات للحصول على الروايات من منظار عين المواطن والذي يكاد يكون مفقوداً تماماً من تقارير وسائل الإعلام التجارية، وفي الأشهر الأولى من عملية (حرية العراق)، وثمة مدونتين جذبتا المزيد من الانتباه والكثير من النقاش، حيث تناقلت المواقع الالكترونية والايميلات ومجموعات النقاش على الويب وتقارير وسائل الإعلام المطبوعة، عبارة (أين رائد؟) وهي عبارة يوميات مواطن عراقي وذكرياته عن حملة غزو العراق، تم وضعها على الانترنت من قبل مواطن عراقي تحت اسم مستعار هو (سلام باكس).

الذي أصبح مدوناً مشهوراً بعد ذلك، وتم طباعة يومياته هذه في كتاب وزع في الأسواق الأميركية، والثانية تم كتابتها من قبل فتاة عراقية شابة، وقعت أسمها تحت مسمى (River bend)، وكانت كتاباتها بعنوان (بغداد تحترق).

وبينما تشير مدونات التعليق السياسي (ولكن أهي أخبار!)، فإن مثل هذه الكتابات الشخصية الحميمة تثير مسائل مختلفة حول مدى مصداقيتها ومصدرها وعلى كل حال فإن أياً من هذين المؤلفين كانا يضعان نفسيهما على أنهما جيل متفوق من الصحفيين، وإنما يقدمان ذكريات مسترجعة على الويب وهذا النوع من الكتابات يعتمد أساساً على الثقة لدى العديد من القراء بمثل هذه المدونات لكونها شهادة حية ذات مصداقية، وبالتأكيد أنه كان في مجتمع مثل الولايات المتحدة ذو

ثقافة تقدر البوح الشخصي ولكن يفتقد أي تحمل للكشف الذين يثبت بأنه إما بالكامل عبارة عن خيال أو جزئياً، من المهم حداً للقراء معرفة إذا ما كان سلام (باكس) حقيقة، وليس مجرد أمين مكتبة متقاعد من نيويورك لديه معرفة جيدة بطوربورغرافيا بغداد وموهبة في اختراع العواطف، ولهذا فلم يمر وقت طويل حتى جرى بحث مكثف للكشف عن حقيقة (مدون) بغداد، ورغم إن الاسم المزيف كان ضرورياً لحماية هذا المدون فإن ذلك لم يكن كافياً لإقناع أولئك الذين كانوا متلهفين للتعرف على هويته الحقيقة، خصوصاً مع انتشار العديد من الشائعات بأن هذه المدونة كانت مجرد زيف، وإنها من عمل مسئول عراقي سابق، أو حتى جزءاً من خطة لتضليل المخابرات المركزية (CIA).[1]

ولكن فقط ضمن فئة فرعية واحدة من المدونات، كانت معضلة الهوية الغير محددة هذه كانت أقل أهمية وتفشياً، وهي المدونات المعتمدة على البريد الالكتروني، والتي هي عبارة عن وقائع حياة أفراد القوات المسلحة الناشطين في الخدمة التي تنبثق من واقع ساحات القتال، وفي ترادف مع بروز ما يدعى بـ (صحافة المواطن)، أصبح التدوين أمراً شائع الانتشار لحد كبير في صفوف الجنود الذين يخدمون في العراق وأفغانستان، وبشكل مرتبط بذلك أمراً غير مرغوب فيه لدى آمريهم من الضباط الكبار، المكافحين لمتابعة التحديات التي يفرضها الإعلام الجديد مع الطرق القديمة للتحكم والسيطرة على المعلومات، وعندما نشبت الحرب في العراق، كانت ظاهرة (التدوين) ما زالت جديدة حتى إن وزارة الـ DOD لم يكن لديها (أية توجيهات أو قواعد للتعامل مع التدوين) وهكذا عندما كان الجنود يمضون أوقات فراغهم في التدوين باستخدام حاسباتهم المحمولة فإن هذه الممارسة كانت بشكل أولي مقبولة.[2]

١- مصدر سابق، الآن، ص ٣٦٠.

٢- مصدر سابق، سيمون، ص ٧٦.

ولكن مع انتشار هذا النوع الجديد من التعبير الخاص الشخصي علناً من بعضه مدونات على الويب من مذكرات الجنود اليومية إلى أكثر من ألف مدونة الذين كانت مدوناتهم تجمع تحت مظلة موقع mil blogging.com الذي يزعم إنه يملك عضوية ٣٠ مليون مشترك.[1]

وعلى الأقل بخصوص بعض المجالات، فإن مواقع التواصل الاجتماعي بدت جذابة لقيادات الجيش، فهذه التكنولوجيا الجديدة التي تسمح للعسكري الذي ينشر ما وراء البحر بالاتصال بسهولة وبدون تكلفة مع الأصدقاء والعائلة في الوطن، عبر الايميل والرسائل الفورية، والتدوين والاتصال عبر سكاي بي Sky Pe، الذي يكون لها تأثر هام على المعنويات، فإن الاتصال والتواصل بسهولة مع (العالم الخارجي) تقلل من مشاعر الاغتراب والحنين إلى الوطن، وموفرة منفذاً لإطلاق البخار المضغوط من مشاعر الخوف والإحباط والتوحد في حياة (منطقة الحرب).[2]

وبالنسبة للعديدين في الجيش فإن بزوغ (مجال التدوين) وفر بديلاً مرغوباً لأغلب وسائل الإعلام التقليدية غير الموثوق بها، فالجنود الذين شعروا بأن (وسائل الإعلام البارزة المحبة للجهاديين) "حسب كلمات أحد مدونات الجنود" قد فشلت في إظهار الوجه الحقيقي للحرب، من خلال الاستخفاف وذم المهمات الأميركية في العراق وأفغانستان، كانت لهم الفرصة لإصلاح وتعويض التوازن.[3]

وأن التدوين لا يوفر فرصة فقط للمحيط الموجود مسبقاً في مواقع التواصل الاجتماعي الموجود مسبقاً، بل لتقديم بجمهور متباين من القراء، منظار بديل عن (الجنود على الأرض) حول العمليات، ويمكن للمدونات أن تحتوي على لغة غير ملائمة للصحافة المطبوعة، كما أن مواقع تبادل أفلام الفيديو يمكنها نشر صور ولقطات لا تجد طريقها أبداً إلى الصفحات المطهرة لـ (نيويورك تايمز) أو نشرات

١- مصدر سابق، وول، ص ٣٧.

٢- Chenelly، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

3 - Oshry, (2007) (Bloggers under Siege) Atlas Shrugs, may 2.

الأخبـار التلفازيـة، ومـن خـلال توسـيعهم لحـد كـبير للسـجلات اللفظيـة والمرئيـة للأحداث في العراق وأفغانستان، فإن المدونين أيضاً خدموا لتذكير المدنيين بأن هـذه الحروب ما زالت مستمرة فعلاً، وهي حقيقة يبدو أن العديد من الأمريكيين ووسائل الإعلام العالمية كانت تنحدر نحو نسيانها شيئاً فشيئاً، وقمع كل صـراحتهم، ومبالغـاتهم، وسـخريتهم، والقـذارة الـتي خاضـوا فيهـا كـان المـدونون قـد قـاموا بـ (أفضل حملة علاقات عامة حظي بها الجيش) بحسب كلمات ماثيو بوردن محرر الانطولوجيا المطبوعة(مدونة الحرب The Blog of War).[1]

وإذا كان بعضاً من المدونين هم أفضل مسوقي (الحرب على الإرهـاب) فإن البعض الآخر كانوا من أسوأهم على الإطلاق، ومن وجهة نظر القيادة فلم يكن من المناسب أن بعضاً من الجنود كانوا يستخدمون المدونات لـ (الاحتجـاج) ضد الحـرب، متحـدين أهـداف (عمليـة حريـة العـراق) وكـذلك نتائجهـا العمليـة، بالنسبة للعراق وأميركا على حد سواء، وإذا كانت غالبية المدونات العسكرية أو مـدونات (Mil blogs) كمـا أصبحت تعـرف هـذه المـدونات تعـرف بشـكل جماعي في عام ٢٠٠٥، كانت مؤيدة للعمليات في أفغانستان والعراق، فإن العديد منها عبرت عن معارضتها للحـرب، فـإن الجنـود المعارضـين أصبحوا الآن يتمتعـون بمنفذ غير مسبوق، لإدانة الظروف والعمليات التي يجبرون على القيام عليها يومـاً بعـد يـوم، لكـشف المعنويـات المتـدهورة في صـفوف المراتـب، وقبـضة الجـيش الحديديـة لاسـتبقاء والتمسك بالـذين يريـدون المغـادرة (الـسياسة المعروفـة باسـم (وقف الخسارة)).

فلم يتمتع جيل في السابق بمثل هذه الأرضية، فأوراق الجنود المعادين للحـرب في فيتنـام، ظلـت حبيـسة في الـدوائر العـسكرية، وفي الحـروب الـسابقة كانـت

١- مصدر سابق، انظر اوشري.

الرسائل إلى الوطن عرضة أيضاً للرقابة الرسمية، حيث كان يتم حجز المواد التي تعتبر حساسة لأمن العمليات العسكرية أو تلك المضرة بسمعة الجيش.

ولكن بالنسبة للرجال والنساء الصغيرين في السن الذين ترعرعوا في عصر الانترنت ٢، فإن الفحص الرسمي للاتصال الفردي الخاص يبدو من المستحل تخيله أو تصوره، وكذلك الحال بالنسبة للضباط الكبار في العمر لينشئوا على نمط الرسائل الفورية والفيسبوك، فإن اعتراض مواقع التواصل الاجتماعي يبدو تقريباً " "مستحيل التنفيذ " لأنه سيكون أمراً غير مقبول ولا يحظى بالشعبية إضافة لما يطرحه من مشاكل تقنية.

ومع ذلك فإنه من الواضح أن الجيش الأميركي كان قلقاً جداً بخصوص أمن العمليات العسكرية ولدرجة أكبر بخصوص حسن صورته، وكذلك الحال بالنسبة لوزارة الـ DOD ونظيراتها البريطانية والاسترالية، حيث تم بذل المزيد من الجهود لتعطيل مدونات الجنود.[١]

وفي آب ٢٠٠٥، أصدر الجيش الأميركي تعليمات تتطلب من الجنود إعلام قادتهم إذا ما كانوا يخططون لإنشاء مدونة، وتم زيادة صراحة الأنظمة في ٢٠٠٧، مثل إن على المدونين الحصول على ترخيص بالنشر من آمر يهم قبل تحميل أية مواد جديدة.[٢]

وتم تبريرها باسم حفظ الأمن العملياتي من الجهاديين المتعاملين عبر الانترنت الباحثين عن أدلة أو إشارات إلى مكامن ضعف الجيش الأميركي، ومثل هذه القيود والمعوقات، قابلها كما هو متوقع صرخات احتجاج من المدونين العسكريين وحلفائهم من المدونين المدنيين، ولكن لم يمض وقت طويل حتى حققت القواعد الموضوعية أحد تأثيراتها المقصودة، فلقد انخفض عدد المدونات لحد كبير إثر ذلك.

١- مصدر سابق، وول، ص ٤٠.

2 -Bald or, L (2008) (Army Warns) AP Archive, may 2.

وبفترة قصيرة بعد إعلان القواعد الجديدة في آيار ٢٠٠٧، أعلن البنتاغون مجدداً إن أفراد الجيش لن يكون بإمكانهم التمتع بعد الآن بوصول مجاني إلى مواقع مثل يوتيوب وماي سبايس و١١ موقعاً آخر من مواقع التواصل الاجتماعي معلنة إن الدخول بأعداد هائلة يؤدي إلى عرقلة وبطء الشبكة المتاحة ولذلك، فمن ذلك الحين فصاعداً سيكون بإمكان أفراد القوات المسلحة العاملين استخدام مثل هذه المواقع فقط من خلال مقاهي الانترنت الخاصة في العراق أو في مكان يكونون يخدمون فيه، وكانت قيادة الجيش منزعجة بشكل خاص من ما يوضعه الجنود من لقطات فيديو على موقع يوتيوب تشير إلى نتائج التفجيرات عن بعد ضد القوات الأميركية، وإساءة معاملة المعتقلين والسجناء، وغيرها من اللقطات التي تقع تحت التصنيف المعروف بـ (الفظائع الجسدية body horror)، ومثلت مثل هذه اللقطات الثابتة أو الفيديو تناقضاً تاماً مع الصور المحسنة عن الحرب التي تقدمها وسائل الإعلام الأخرى، وبينما كان أولئك الذي التقطوا أو نشروا وشاهدوا هذه الصور قد فعلوا ذلك بدون شك لأغراض واستخدامات متعددة، فإن وزارة الدفاع كانت تخشى بشكل ظاهر (حسب زعمها) بأن مثل هذه المواد سوف تعرض الأهداف الأميركية للخطر "وكحافز للميليشيات الإسلامية لزيادة قدراتها في التجنيد" وللمشاعر المعادية للأمريكان الواسعة الانتشار عالمياً، وكذلك للناشطين المحليين المعادين للحرب على حد سواء.

وهذه الرغبة في الحفاظ على صورة أنظف عن الذات بالنسبة للجيش، لم تكن مفرحة لأولئك الذين كانوا متلهفين لتقديم الحرب بكل قذارتها، والذين وجدوا بأن نفاذهم إلى وسائل الإعلام الجديد قد تم تعطيلها، كما لم يساعد في تهدئة معارضة وغضب مراتب الجيش المستائين، من أنه قبل أسبوع واحد من إعلان القواعد الجديدة المقيدة في أيار ٢٠٠٧، كانت وزارة الدفاع قد كشفت عن صفحتها على اليوتيوب MNIRAQ(القوات متعددة الجنسيات – العراق) مع هدفها المعلن في إعطاء (المشاهدين حول العالم منظار (الجنود على الأرض) حول عملية حرية العراق من قبل أولئك الذين يخوضونها)، واستضافت صفحة MNIRAQ

لقطات فيديو قصيرة تم تصويرها من قبل القوات الأميركية، في تناقض تام مع المواد التي كانت تصور بشكل فردي من قبل الجنود والتي كانوا يضعونها على موقع اليوتيوب، وهذه الأفلام تجنبت اللغة اللاتوقيرية، وتحاشت (التصوير المبالغ فيه، للمضمون المزعج أو العنيف جداً) وعرضت حالة نموذجية من التفاعل الإيجابي بين الجنود الأميركيين والمدنيين العراقيين وفي نفس الوقت عملت على تصوير عمل وجهود قوات الاحتلال يوماً بيوم؛ مواجهة (الإرهابيين)، دوريات الشوارع، وتفتيش المنازل منزلاً فمنزل.[1]

ومثلت صفحة الـ (MNIRAQ) واحدة من محاولات وزارة الدفاع لتوظيف الإعلام الجديد، جزءاً من حملة الحكومية الأميركية لشن حرب المعلومات أو (بحسب لغة المسئولين الحكوميين) لتعزيز قدرات (الدبلوماسية العامة) للدول، في عالم الشبكات العنكبوتية المضطردة، ومن خلال تمييز كفاءة تطبيقات وسائل الإعلام الاجتماعية، فقد شوهد الجيش الأميركي وهو يعمل على تطوير نسخته الداخلية من (ماي سبايس) بشكل رئيسي سعياً وراء الضباط الصغار الذين يمكنهم التواصل مع بعضهم بعضاً، ويتبادلون النصائح، ويحافظون على مدوناتهم المحمية جميعاً برموز سرية، في موقع (Milspace) المؤمن، وفي ٢٠٠٨ أصبح التدوين جزءاً من متطلبات السيرة المهنية على مستوى الخريجين في فورت ليفن وورث، كانساس، وفي أيلول التالي، أوردت صحيفة (النيويورك تايمز) بأنه مهما كانت القيود التي يواجهها الجندي العادي فإن الجنرال راي أوديرنو قائد القوات العسكرية الأميركية في العراق له صفحة على الفيسبوك، أما رئيس هيئة الأركان المشتركة الأدميرال مايك مولن فإنه يملك صفحة على اليوتيوب ويضع تحديثات باستمرار على التويتر Twitter.[2]

---

1 - Christensen, C (2008) (Uploading Dissonance: You tube and the US Occupation of Iraq) Media, war and Conflict 1.

2 -Dao, J (2009) Pentagon Keeps wary watch as troops and their superiors blog) The New York times, September 9.

وبينما كانت تعمل على تطوير جهودها في مجال للإعلام الجديد، فإن وزارة الدفاع عملت أيضاً على اتخاذ إجراءات نشيطة لتربية المدونين المدنيين الذين يوظفون للكتابة حول الشؤون العسكرية، حيث يحضر رئيس عمليات البنتاغون في الإعلام الجديد المؤتمرات والندوات البارزة حول التدوين والتكنولوجيا الجديد بينما يعمل فريق (القيادة المركزية) للتدخل في الإعلام الالكتروني، لتفحص (مجال المدونات المتغير) مزوداً الكتاب المحابين بالنشرات الصحفية والترتيب لإجراء لقاءات مع أفراد الجيش المختارين، واتخاذ التدابير للمدونين المختارين ليتم (دمجهم) مع وحدات القوات الأميركية، ونفس الفريق ينشر استجابات وردود على المدونات حول العراق وأفغانستان التي تتطلب ردوداً.(1)

وباختصار كما عملت بعض الصحف على تسخير بعض المدونين الذين حصلوا على شهرة وشعبية من خلال دعوتهم للنشر بصورة منتظمة على مواقعها الالكترونية، وعملت دور النشر التجاري على الاستثمار في هذه الظاهرة من خلال طباعة أعمال (سلام باكس) و(ريفير بيند) والمدون العسكري (كولبي بازل)، كذلك فإن الحكومة الأمريكية حاولت أن تستثمر ذلك في وسيلة ميزتها بشكل واضح على إنها سلاح أساسي في العصر الرقمي.

وبالنسبة للحربين الطويلتين في العراق وأفغانستان، فإن باحثي وأكاديمي الاتصال والإعلام ما زال أمامهم المزيد من الوقت والجهد لإطلاق أحكام نهائية حولهما، ولكن على الأقل يمكن القول وفق منطق ما، بأن الحربين قد تم خسارتها كليهما، بمعايير جهود الإدارة الأميركية لكسب الرأي العام وكسب المساندة الشعبية في داخل أميركا وخارجها، وفي العديد من أجزاء العالم فإن شرعية هذه الحروب كانت محل تساؤل منذ بدايتهما، وهذا الأمر لم يقتصر على دول الشرق الأوسط والعالم الإسلامي مثل إندونيسيا وماليزيا، بل حتى في بعض الدول المقربة من واشنطن والتي شككت في أهداف الأخيرة من شن الحرب، وفي ٢٠٠٩ وفقاً

١- مصدر سابق، وول، ص ٣٧.

لاستطلاع دولي أجراه مركز بيو للبحوث وجد بأنه في خمس دول فقط من التي تم مسحها كان ٥٠ ٪ أو أكثر من المشاركين في الاستطلاع كانوا يحبذون وجود قوات الناتو والقوات الأميركية في أفغانستان، بينما العديد من الدول الأخرى كان التأييد أقل من ٢٠٪ بكثير وبضمنها دول مثل مصر، الصين، روسيا والأرجنتين.

وعدا عن الباكستان، فإن الرفض الشعبي للحروب التي تقودها الولايات المتحدة كان مرتفعاً جداً في الشرق الأوسط بشكل غير مفاجئ لأي أحد بالطبع، فبوجود الحرب في العراق، فإن الولايات المتحدة خسرت بشكل ظاهر (قلوب وعقول) العرب، كما يرى ستيفن تاتهام (الذي خدم كضباط صحافة في مركز إعلام الحرب في البحرين)، وبالطبع يمكن للكثيرين المجادلة بأن أميركا منذ زمن طويل قد فقدت هذه المكانة بسبب مساندتها الدائمة لإسرائيل على حساب الحقوق العربية وكونها (الأخيرة) تتمتع بمنزلة الحليف الإستراتيجي مع الولايات المتحدة منذ زمن طويل، بالإضافة إلى دعم الولايات المتحدة لبعض أكثر الأنظمة العربية شمولية، في الوقت الذي تدعو فيه إلى (نشر الديمقراطية) في المنطقة العربية، مع استمرارها بفرض عقوبات جائرة على العراق استمرت أكثر من ١٣ عاماً بعد حرب الخليج ١٩٩١، ولهذا فإن العرب والمسلمين بشكل أعم كانوا أكثر معاداة للحرب في العراق وأفغانستان التي كانت أرواح المدنيين فيها تبدو رخيصة جداً، بالإضافة إلى انتهاك المقدسات الإسلامية والعديد من الأمور الحساسة الأخرى بشكل روتيني على أساس يومي من قبل قوات التحالف.

مثل قيام الجنود الذكور بتفتيش النساء في مناطق التفتيش، واقتحام حرمة البيوت بدون أذن، تدنيس المساجد والمصاحف، واعتقال الآلاف من الأفغان والعراقيين لفترات غير محددة، وغالباً على أسس واهية، وبالنسبة للعديد من المسلمين فإن هذه الحروب العدوانية وما نتج عنها من احتلال غير شرعي، مما جعل هذه المؤسسات العسكرية تفقد مبرراتها للحرب منذ البداية، ولم ينفع واشنطن إنها عمدت بسرعة إلى شيطنة وسائل الإعلام العربية، معاملة إياها بالنتيجة على إنها، وكيلة للعدو، رغم إنه قبل بضعة سنوات قليلة فقط، كان المحافظون الجدد في

أميركا قد حيوا الجزيرة لكونها قد عملت على فرض تحد ديمقراطي من خلال إجبار شبكات التلفزة العربية المملوكة للدولة على تغيير سياساتها ولو جزئياً، أما الآن فإن دونالد رامسفيلد يدين تغطية الجزيرة بكونها (خبيثة وغير دقيقة وغير مقبولة)، بينما مساعدة بول وولفترز أتهم القناة بأنها (تحرض على العنف) وتعرض للخطر (أرواح الجنود الأمريكيين في العراق، وحتى أن الرئيس بوش في خطاب الاتحاد في سنة ٢٠٠٤، صنف تغطية القناة للحرب في العراق على إنها (دعاية مليئة بالكراهية).(١)

ولعله كان من السهل وصم هذه القنوات بكونها (معادية للأميركيين) بدلاً من العمل على التعرف لماذا ترفض وسائل الإعلام هذه بشكل كامل، الروايات المفضلة لدى واشنطن عن أفعالها وتصرفاتها في العراق وأفغانستان، والواقع ان تشخيص الجزيرة على أنها ليست سوى جناح العلاقات العامة للقاعدة، لم يساعد كثيراً سوى إنه جعل الأمور أكثر سوءاً وتعقيداً.

وأن الحركة المحسوبة بتأن في استبعاد ممثلي وسائل الإعلام العربية من المؤتمرات الصحفية التي تم فيها إعلان خطط التحالف العسكرية في آذار ٢٠٠٣، تشير بشكل لا يمكن التغاضي عنه بأن الصحفيين العرب لا يمكن الوثوق بهم لحفظ الأمن العملياتي.(٢)

وبشكل مثير للسخرية، فقد كان مراسل محطة الـ فوكس نيوز المبالغة في وطنيتها، جيرالدو رفيرا، هو من ثبت بأنه الأقل أهلية للثقة، عندما رسم أمام بث حي مباشر، خريطة لموقع وحدته العسكرية على الرمل!

كما إنه لم يغب عن بال (الجزيرة) بأن نفس الناس الذين يوعظونها باستمرار ويلقون المحاضرات عن التحيز وعدم الموضوعية، هم أنفسهم من فرض

1 -Powers, S and Gilboa, E (2007) (the public Diplomacy of Al- Jazeera) in sieb.

٢- مصدر سابق، تاتهام، ص ١١٥.

على المذيعين الأمريكيين حمل (شارات) العلم الأمريكي على صدورهم بعد أحداث ٩/١١.[1]

وإذا كان المذيع المعروف دان راذر يصر بأنه لا يوجد تناقض بين الوطنية والموضوعية، إذن لماذا لا يتقبل طروحات الجزيرة بأن تبني منظار عربي للأحداث "الذي لا يميل أو يتأثر بأي تفضيلات وطنية محددة" هو متطابق تماماً مع المهنية الصحفية؟

ومع مرور الوقت، فإن الحروب التي كانت بداية تحظى بالشعبية في الولايات المتحدة سرعان ما انقلبت إلى حروب مكروهة كذلك، ومنذ عام ٢٠٠٦، أظهرت استطلاعات الرأي بشكل متكرر بأن معارضة الحرب في العراق تتراوح حول معدل ٦٠٪ ، وهو انخفاض بالغ الأهمية، عندما نستذكر بأن عملية (حرية العراق) ابتدأت بمعدلات تأييد تراوحت بين ٧٠- ٧٧٪ في بعض الأشهر، وبنهاية ٢٠٠٩، حتى بالرغم من أن أغلبية من الأميركيين اعتبروا زيادة بوش لأعداد القوات الأميركية في ٢٠٠٧ (المسماة المد Surge) بأنها كانت ناجحة فلقد ظلوا متمسكين بأن الحرب نفسها كانت غلطة كبيرة (هيئة بحوث الرأي العام/ قناة الـ CNN، ٢٠٠٩).

أما بالنسبة لأفغانستان فإن الصورة أقل وضوحاً، والمعلومات متناثرة ومشتتة، مما يعكس إن الحرب قد تلاشت من شاشة رادار الرأي العام، فعندما أعلن أوباما عن التزام بزيادة مقدارها ٣٠ ألف جندي من القوات الإضافية في ديسمبر ٢٠٠٩، فإن استطلاع لقناة الـ CNN أظهر بأن موافقة العامة نحو الحرب كانت نسبة ٤٦٪ (هيئة بحوث الرأي العام، CNN، ٢٠٠٩)، وبينما أعلنت منظمات استطلاع الرأي العام لخطورة دعوة أوباما بزيادة القوات بين ٥١٪ إلى ٦٢٪، وهي نفس النسبة من المشاركين الذين يعتقدون بأنها لن تحقق نجاحاً، وعند سؤالهم عن

١- نفس المصدر السابق، ١٩٨.

ما هو المحتمل أن يكون الناتج النهائي للحرب، أجاب ٢٩٪ فقط عن ثقتهم بالنصر، ومع ٥٧٪ يتوقعون تجمدها على حالها، فيما توقع ١٢٪ الهزيمة.

وعلى الرغم من انخفاض شعبية الحملات في العراق وأفغانستان والتأييد لها، فإن القليل جداً من الأبحاث والأكاديميين خاضوا في العلاقة بين انحدار تأييد الرأي العام الأميركي، والتمثيل الإعلامي للحرب، وهي علاقة تم بحثها بإصرار وتكرر خلال وبعد حرب فيتنام، وربما يصر بعض الأيدلوجيين المحافظين على أن وسائل الإعلام (الليبرالية) قد ساهمت طوعاً وعن إرادة في تعطيل التقدم في العراق، مصممة على رؤية أميركا تخسر الحرب، من أجل تبرير وضعيتها المعارضة لتبني مشروع الرئيس بوش، وهذه النظرية عن وسائل الإعلام المعارضة، وجدت القلة فقط ممن يؤيدونها، حيث إن العديد من المراقبين، كانوا يرون بأن الجانب الأكثر إيحاء في المواقف من الحرب، هو ليس انحدار التأييد الشعبي بل يكمن في استمراره أطول مما هو متوقع، بشكل مفاجئ فعلى كل حال، منذ تكون ظاهرة (الخزي من الخسائر) لدى عقلية الجمعية الأميركية في السبعينات، فإنها أصبحت جزءاً من اعتقاد راسخ يجعل من احتمال خوض حملات عسكرية مطولة أمراً لا يمكن التفكير فيه، وهذه الفكرة الثابتة) فرضت المزيد من الانتقادات لعملية (استعادة الأمل) في الصومال عندما نتج عنها خسارة أعداد قليلة فقط في أفراد الجيش الأميركي العامل هناك، وبناء على قراءتهم لبيانات استطلاعات الرأي حول حرب العراق، فإن علماء السياسة كريستوفر غيلبي، وبيتر فيافز، وجساون ريفلر يرون بأن الرأي العام الأميركي يمكن أن يعامل في الواقع على إنه مصاب بـ (رهاب الهزيمة) أكثر من كونه متحسساً للخسائر البشرية، وبكلمات أخرى ما دام الناس يؤمنون بأن الحرب تظهر (منافع) تفوق كلفتها، وتعيد الثقة بالنتائج الناجحة المترشحة عنها، فإنهم سوف يستمرون في تأييد الجهود اللازمة بغض النظر عن الخسائر البشرية المتصاعدة.[1]

---

١ - غيلبي، فيافر وريفلر، ٢٠٠٩، ص ٢٣٦.

ومع ذلك فإن غالبية الأميركيين كانوا يعتقدون في ٢٠٠٦، بأن الحرب على العراق كانت خطأ، وتدريجياً أكثر فأكثر، فإن مستوى مماثل من التحرر من الوهم حول العمليات في أفغانستان بدأ يظهر، ومع ذلك فإن قليلاً من التحليل والدرس قد خصص للأسلوب المحدد الذي أصبحت فيه هذه الحروب غير شعبية في الولايات المتحدة، أما أولئك الذين كانوا منجذبين للنقد السياسي للحرب، ولهذا يميلون للسعي وراء الصور الممثلة للحرب، وتفاصيل أكبر عن تعداد القتلى، وشهادات حية عن الحرب، والتعليقات النقدية المطلعة جيداً، تمتعوا بقدرة الوصول إلى ما يبحثون عنه من هذه المواد بصورة غير مسبوقة قياسياً لما كان يحدث في ما قبل العصر الرقمي، حيث سمحت مواقع التواصل الاجتماعي بما لا يقبل الشك في تسهيل الحصول على هذه المواد وتسهيل تنسيق النشاطات والحملات المعادية للحرب داخل وخارج الانترنت.

وبالفعل فإن المنظمات المعادية للحرب قامت باستغلال خلاف للانترنت لتحشيد المعارضة، ولكن بعيداً عن مثل هذا الجمهور الانتقائي لمثل هذه الحملات والموارد الالكترونية، فإن الحربين في العراق وأفغانستان كان يصعب تجاهلها نسبياً، مع العلم أن عدم دعم الحروب وعدم تخصيص المزيد من الاهتمام بها كان دائماً استجابة شائعة بين المدنيين الأميركيين، وإن تغير المحطة للاستماع أو مشاهدة محطة أخرى كان دائماً أمراً سهل المنال، ونظراً للاهتمام الآخذ بالتلاشي نحو الحرب في العراق وأفغانستان من قبل أخبار التلفاز والمطبوعات الخفيفة التي تحمل طابع الثقافة الشعبية، فإن بعضاً من الأفلام القليلة التي أنتجتها هوليوود حول تجربة الجيش الحديثة هذه، كان أداؤها منخفضاً لحد كبير في شباك التذاكر مثل فيلم (موطن الشجعان)، و (في وادي الله) و(أسود في مقابل خرفان)، والتي تفجعت أكثر على دولة الديمقراطية الأميركية، أكثر من اهتمامها بمصير المدنيين العراقيين والأفغان، بينما حقق فيلم مثل (المنطقة الخضراء Green Zone)[*] المنتج في ٢٠١٠،

* - هذا الفيلم مستوح عن كتاب (حياة إمبراطورية في المدينة الخضراء) للصحفي الأميركي، راجيف شاندر سيكران والصادر في عام ٢٠٠٦.

نجاحاً كبيراً وتصدر قائمة أفضل عشرة أفلام لعدة أسابيع في الولايات المتحدة، لأنه قدم صورة مخالفة عن الحرب وأكثر معارضة.

وهنا أيضاً حتى قصة إخبارية يفترض أنها أكثر أضراراً بمواقف الرأي العام الأميركي نحو الحرب في العراق مثل الكشف عن حادثة سجن أبي غريب ظهرت نسبياً على أنها نقطة مضيئة لفترة وجيزة فقط على رادار الرأي العام الأميركي فخلال أشهر عديدة، أجابت غالبية من الأمريكيين الذين تم سؤالهم من خلال استبيانات للرأي لتحديد ما الذي يعد في فضيحة أبو غريب بأنه عمل غير صائب، وفي استطلاع لوكالة اسوشيتد بريس في أيام ٢٠٠٩، وجد بأنه ٢٠٪ من الذين تم استجوابهم كانوا يعتقدون بأن التعذيب (غالباً مبرر) و ٣٢٪ أجابوا (بعض الأحيان مبرر)، وهذا في سياق إن أعداد الذين اعتبروا بأن (الغمر في الماء) وأوردت صحيفة (الايكونومست) تقريراً بأن معظم المواطنين الأميركيين يعتبرون بأن التعذيب مقبول في ظروف معينة، وملاحظة (النتيجة المفاجئة)، وأن (الأميركيين أكثر استعداداً لتقبل استخدام التعذيب من الصينيين)، وعلى كل حال فإن أي شخص على صلة وثيقة بالثقافة الأميركية سوف لن يجد هذا الأمر مفاجئاً، وعموماً، فإن البرامج الدرامية الشعبية (ومن أهمها على سبيل المثال المسلسل (٢٤) لمحطة فوكس) تساعد على تشجيع الاعتقاد بأن التعذيب ليس فقط أمراً مقبولاً بل هو الطريقة الوحيدة لاستخلاص المعلومات الاستخبارية[1]

وأن نشرات الأخبار التلفازية أيضاً تشجع على الاعتماد بالقوة المذهلة للتعذيب في انتزاع الاعترافات، ومن المذهل إن المحاكمة العسكرية للاختصاصي شارلز غادنر، المتهم الرئيسي في أحداث سجن أبو غريب كانت غائبة تماماً عن أخبار التلفاز الأميركي في يناير ٢٠٠٥، وحسب كلمات كاتب العمود فرانك ريتش في صحيفة نيويورك تايمز):

---

1 -Prince, S (2009) (Firestorm: American film in the age of Terrorism, New York, Columbia University press.

{ إذا لم يكن خبراً ما موجود على التلفاز في أميركا، فإنها لا توجد في ثقافتنا}.

وعلى الرغم من غثيان الرأي العام من الكلف المتصاعدة لهذه الحروب، فإن الحربين في العراق وأفغانستان، لم تنتجا ذلك القدر من التحريض على المشاعر المعادية للحرب كما فعلت حرب فيتنام، وهي تلك الحركة الراديكالية التي تم شحنها (على الأقل بشكل جزئي) بالنقد العميق للامبريالية والظلم الاجتماعي، ولكن ثمة سمة واحدة من التشابه على الأقل توحد بين الحروب الثلاثة: استمرارها لفترة طويلة بعد أن يكون غالبية الأمريكيين قد توقفوا عن مساندتها، وعلى سبيل المثال فإن حرب فيتنام استمرت لـ خمس سنوات، بعد أن تحول الرأي العام بشكل عازم ضدها في سنة ١٩٦٨.

وتحت مظهر (الفيتنمة) لم يستمر نيكسون فقط في شن الحرب، بل زاد من تصعيدها في لاووس وكمبوديا، حتى مع جذب انتباه الصحافة إلى أماكن أخرى، أصبح عندها السرد الرسمي مركز على أن أميركا في طريقها (للخروج من هناك) وكذلك فإنه مع انخفاض التأييد الشعبي ومع تحول انتباه الصحافة نحو اتجاه آخر، كانت كذلك عملية (المد) في عام ٢٠٠٧ وزيادة القوات الأميركية في العراق، بينما كانت الرسالة المعلنة بأن هذه الإستراتيجية سوف تسرع من خروج أميركا من هناك مع (عرقنة) الحرب، وبنفس الاتجاه يأتي زيادة ضخ القوات من قبل أوباما في أفغانستان هادفاً إلى إسناد قدرات القوات المحلية الوطنية إلى (تطهير والتمسك) بالمناطق التي يتم استعادتها من طالبان.

وربما يكون الباحثون والأكاديميون قد ترددوا في طرح ومناقشة مثل هذه الموضوعات بتفصيل أكبر من قبل، لأنها قد تكشف عن تناقض صارخ بين النظرية الليبرالية والتطبيق، فبينما يكون السياسيون مهتمون جداً بالرأي العام بلا شك، وكما سبق أن رأينا، يقومون بجهود منظمة ومركزة لمراقبة الرأي العام والتلاعب به بطرق ملائمة، فإنهم كذلك لا يقلقون بشكل بارز حول الرأي العام السلبي في وقت الحرب حتى يعملوا على نبذ المغامرات العسكرية غير المرغوبة، وأن كل من

بوش، بلير وأوباما كلهم قد واجهوا رأياً عاماً، هو في الغالب يعارض الحروب التي صمموا على خوضها، ومع ذلك فإنهم اندفعوا في طريقهم غير عابئين، إذا ما كانوا يستثمرون في نجاح مستقبلي مضمون، أو ما إذا كانوا سيواجهون فشلاً ذريعاً مباشراً الذي قد يجعلهم يتراجعون أو يترددون، وفي مثل هذه الحال أين يترك استمرار ووجود مثل هذه الحروب التي لا تحظى بالشعبية، المفاهيم الديمقراطية والليبرالية عن الإعلام (كسلطة رابعة)، والعرضة للمحاسبة أمام الجماهير الشعبية؟!.

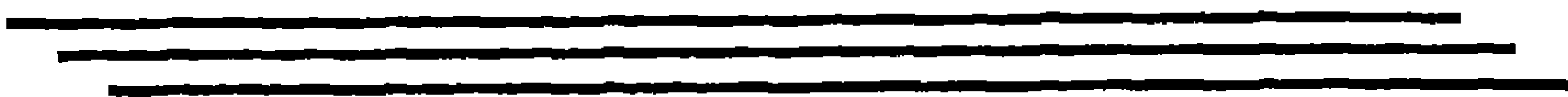
قائمة بالصور والأشكال الملحقة:

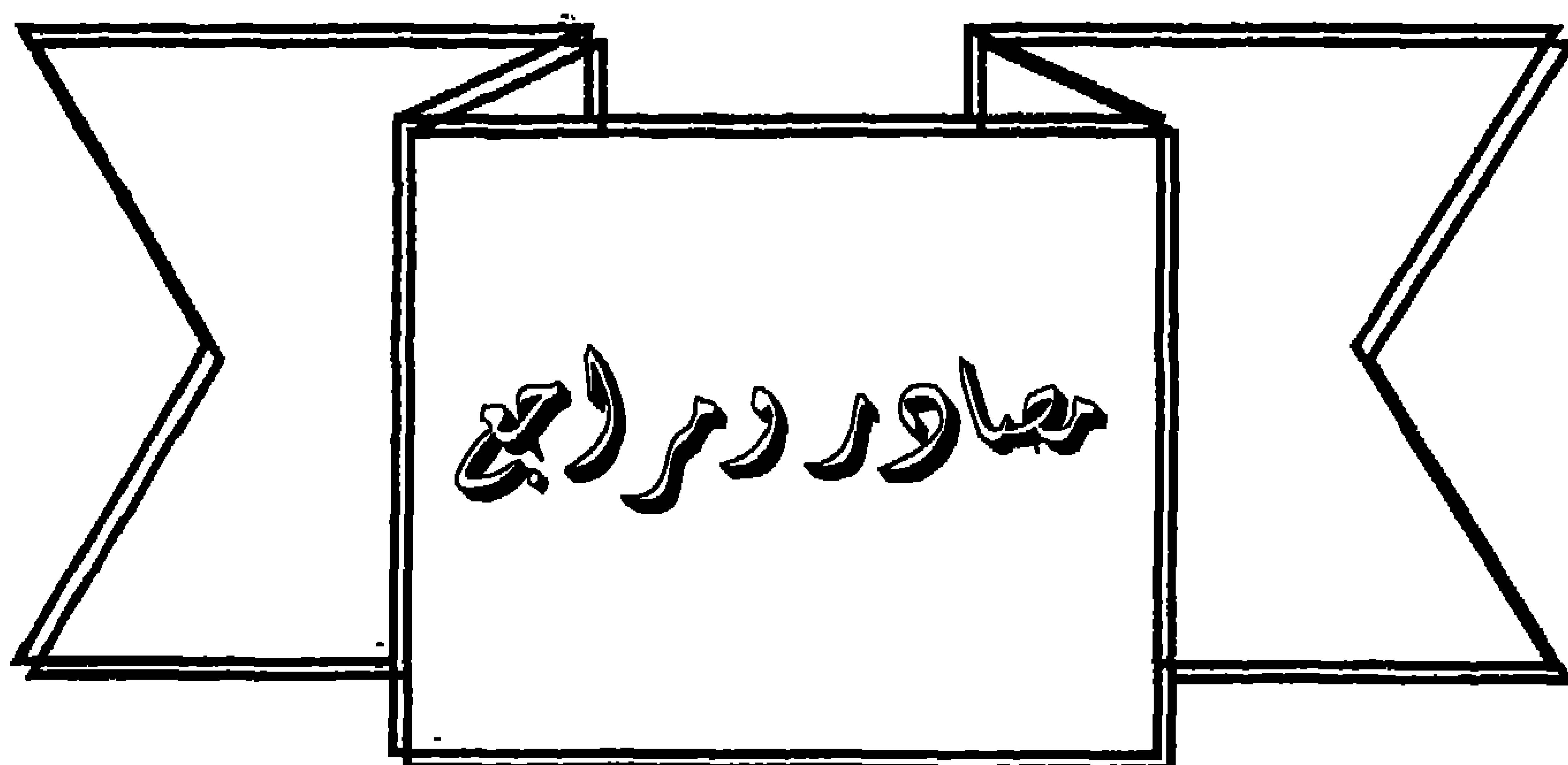
رموز ومختصرات:

شـركة الإذاعـة الأميركيـة (محطـة تلفازيـة) في الولايـات المتحدة، تعد واحدة من ثلاث محطات قومية كبرى وكالة الاسوشيتد بريس الإخبارية العالمية.	ABS
هيئة الإذاعة البريطانية.	BBC
هيئة رقابة الأفلام البريطانية.	BBFC
مكتب الصورة المتحركة.	BMP
محطة تلفاز أميركية، (نظام إذاعة كولومبيا).	CBS
(شبكة أخبار الكابل) المركزية الأميركية.	CIA
وزارة الدفاع الأميركية.	DOD
قانون الحقول الدفاعية.	DORA
منظمـة آيتا الانفصالية مختصـر لـ (Euskadi Ta askata Suna) بالإسبانية التي تعنى (الباسك وطننا والحرية).	ETA
جهاز تفجير مطور.	IED
جيش التحرير الوطني الأيرلندي (حركة إنفصالية).	INLA
محطة أخبار التلفزيون المستقل (بريطانية).	ITN
مكتب الإعلام المشترك (الجيش الأميركي).	JIB
مكتب الإعلام في هيئة الأركان المشتركة العليا للجيش الأميركي (في زمن الحرب في فيتنام).	MACOI
قيادة بعثة المساعدة الأميركية، فيتنام.	MACV
مفقود أثناء العمليات.	MIA

وزارة الدفاع البريطانية.	MOD
وزارة الإعلام البريطانية في الحرب العالمية الثانية.	MOI
فرق التغطية الإعلامية في حرب الخليج ١٩٩١.	MRT
شركة الإذاعة الوطنية (الولايات المتحدة) واحدة من المحطات التلفازية القومية الكبرى.	MVC
منظمات الغير الحكومية.	Ngo
جبهة التحرير الوطني (فيتنام) التي كانت تعرف أيضاً بـ (ألفيت كونغ).	NLF
قيادة الجيش العليا (ألمانية ٣٣- ١٩٤٥).	OKW
ضباط علاقات عامة.	PAO
شركة علاقة عامة مرتبطة بالجيش الألماني اختصاراً من (Propaganda Kompanien).	Pk
مكتب إعلام الحرب في الحرب العالمية الثانية (الولايات المتحدة).	OWI
مسئول علاقات عامة.	PRO
هيئة الرايخ للأفلام (ألمانيا من ٣٣- ١٩٤٥).	RFK
هيئة الرايخ للثقافة (ألمانيا من ٣٣- ١٩٤٥).	RKK
وزارة الرايخ للدعاية والتنوير الشعبية (ألمانية ٣٣-١٩٤٥).	RMVP
جبهة الوطنيين الرونديين.	RPF
قوة المهمة التابعة للأمم المتحدة في الصومال.	UNITAF
مفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين، مسئول عن إغاثة اللاجئين في العام.	UNHCR

بعثة عمليات الأمم المتحدة في الصومال.	UNOSOM
قوة الأمم المتحدة للحماية في البوسنة.	UNPROFOR
وكالة يوناتيد بريس الإخبارية الأميركية، واحدة من أكبر الوكالات الإخبارية في العالم.	UPI




مصادر ومراجع

أولاً : المصادر باللغة العربية

١) د. عبد الرزاق الدليمي (الدعاية والإرهاب)، عمان، دار جرير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٢) د. فلاح المحنة: (علم الاتصال بالجماهير: الأفكار، النظريات، الأنماط، عمان، مؤسسة الوراق، ٢٠٠١، الطبعة الأولى.

٣) عبد الله الكندي (تغطية الصحافة العربية للحروب)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

٤) محمود الزواوي (صناعة الأحلام) دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٦.

٥) ضياء الدين سردار، وميريل وين ديفيز (الحلم الأميركي، كابوس العالم)، ترجمة فاضل جتكر، الرياض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

٦) سؤدد الآلوسي (الإعلام والعنف)، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١١.

٧) سؤدد الآلوسي (الإعلام والصراعات السياسية)، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١١.

٨) بيتر سكاون (أميركا: الكتاب الأسود) ترجمة إيناس أبو حطب الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

٩) د. فارس الخطاب (حرب بلا رتوش)، عمان، دار ايلة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

١٠) آمي غودمان وديفيد غودمان (تعتيم ...) شركات المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، العنوان الأصلي (Government Lairs).

١١) ستيفن اينزلايير (لعبة وسائط الإعلام: السياسة الأميركية في عصر التلفزيون)، ترجمة د. شحدة فارع، دار البشر، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

١٢) آسيا بريغز (التاريخ الاجتماعي للوسائط) ترجمة مصطفى محمد قاسم سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٣١٥، مايو ٢٠٠٥.

١٣) د. رخيمة الطيب عيساني (العولمة الإعلامية: وآثارها على مشاهدي الفضائيات الأجنبية)، إربد، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠١٠ .

ثانياً: المصادر باللغة الانكليزية:

1. Abu- Lughod, L (2002) (Do Muslim Women really need Saving? American Anthropologist. 104. iíí , 783-90.
2. Adams, V (1985) The media and the Falk Lands campign. London, Macmillan.
3. Ajami, F(2001) (What the muslim World is Watching) New York Times Magazine, November 18.
4. Alale, O. and Eke, K (1991) Media Coverage of Terrorism Methods of Diffusion, New York Bark, Ca, Sage.
5. Aldgate, A. and Richards J (1994) Britain Can Take it: the British Cinema in the Second World War, Edinburgh: Edinburgh University Press.
6. Alexander, Y. and Picard R (eds) (1991) in the Comer's Eye: News Coverage of teorrist Events, Washing ton, DC. Grasser's.
7. Alexievich, S (1992) Zinky Boys: Soviet Voices From Afghan - Stan War, New York, W.W Nor tom.
8. Al – Jdda, S (2007) (Does AL- Jazeera Belong in USA?) today, December 19.
9. Allan, S(2006) Olin News: Journalism and internet, Maiden Head, Open University Press.
10. Atlas, S and Thorsen, E(2009) Citizen : Journalism: Global Perspective, , New York, Peter lang.
11. Allan's and Zelizer, B (eds) (2009) Reporting War: Journalism in Wartime, London, Rout ledge.
12. Allen, T, and Seaton, J (eds) (1999) (The media of Conflict: War Reporting and Representations of Ethnic Violence, London Zed.
13. Alleyne, M (1997) News Revolution: Political and Economic Decisions about Global In Formation, London Macmillan.
14. Andersen, R (2006) A century of Media, A Century of war, New York: peter lang.
15. Anderegg. M (ed) (1991) Inventing Vietnam: The War in Film and TV, Phil Adelphi a: temple University Press.
16. Arnett, P (1995) Live from the Battle Field, London, Corgi.
17. Arraf. J (2009) (Disappearing Iraq) Columbia Journalism Review, Septemer/ October, 29-31.

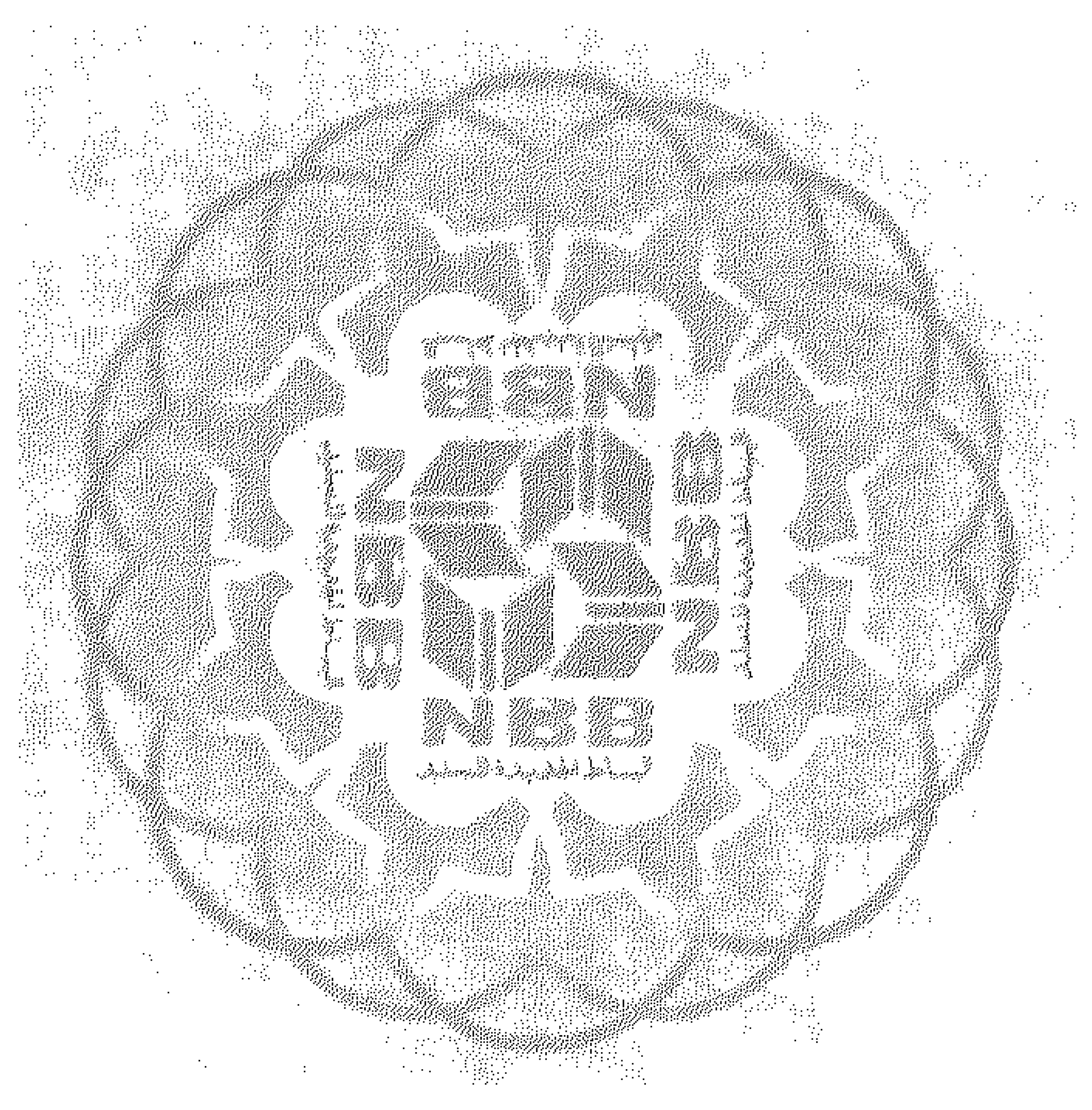
18. Atkinson, R (1994) Crusade, The untold story of Gulf war, London, Harper Collins.
19. Atkinson, R (2001) (Special, Not super) The Washington post. October 4, P 31 A.
20. Ayres, C (2005) War Reporting For Cowards . new York, Grove Press.
21. Badsey, S (1983) (Battle of the Somme: British War Propaganda) Historical) Historical Journal of film, Radio & TV, 3, 99-115.
22. Badsey, S (1994) Modern Military Operations and the Media) Camberly: Strategic& Combat Studies institute paper, No. 8.
23. Baker, N (2008) Human Smoke: The Beginning of World WarII, The End of civilization, New York, Simon & Schuster.
24. Bal four, M (1979) Propaganda in War: 1939 – 1945, London. Rout ledge, Keg an Paul.
25. Barber, B (1969) Jinad VS Mc World: How Glbalism and Tribalism are Reshaping the World, , New York, Ball an tine.
26. Bell, M (1998) (The Truth is our Currency) Press/ Politics 3, I , 9-102.
27. Bennett, W. and Paltz, D (ed) (1994) Taken by storm: The media, Public Opinion and US Foreign Policy in the gulf war, chicapo, University of Chicago Press,
28. Berenger, R (ed) (2004) Global Media Go to War: Role of news and Entertainment during the 2003 Iraq War, Spokane, WA, Marquette.
29. Berenger, R (ed) (2006) Cyber media Go to war. Role of Converging Media During and After The 2003 Iraq War, Spokane, WA, Marquette.
30. Berkowitz, D (1997) Social meaning of News: Atect – Reader, London, sage.
31. Bishop, P (1993) Famous Victory: the gulf war, London, Sinclair – Stevenson.
32. Blake, M (2005) (From all Sides: in the Deadly Cauldron of Iraq, Even Arab Media are being pushed off the story) Columbia Journalism Review, March/ April, 16-18.
33. Boggs, C and Pollard, T (2007) The Holly wood war Machine: US Militarism and Poplar Culture, Boulder, Co, Pradigm.
34. Borden, A (1993) (to War of Words and Pictures) in Scott and Jones.

35. Bourdieu. P (1998) on televison and Journalism) London, Pluto Press.
36. Bram sted, E (1965) Goebbls and National Socialist Propaganda, 1925-45, London Cresset press.
37. Brewer, S (2009) Why America Fights: Patriotism and War Propaganda From The Philippines to Iraq, New York. Oxford university press.
38. Briggs, A (1985) The BBC: the first Fifty Years, oxford Oxford University press.
39. Brown low, K (1979) The War, The west, an d the wilderness. London, Secker & Warburg.
40. Caruthers, S (1996) Winning Hearts and Minds: British Governments, The Media and Colonial Counterinsurgency, 1944-60, London, Leicester University Press.
41. Casey, S (2001) Cautious Crusade: the American Public, and the war against Nazi Germany, New York Oxford university press.
42. Chalinad, G(1987)Terrorism: From Popular Struggle to Media Spectacle, London, Saqi.
43. Chandler, D (2002) From Kosovo to Kabul: Human Rights and international intervention, London, Pluto Press.
44. Chomsky, N (1989) The culture of Terrorism, London, Pluto Press.
45. Clutter buck, R (1981) The media and Political Violence, London, Macmillan, 1981.
46. Cook, E (1920) The Press in war Time, London. Macmillan.
47. Cumings, B (1992) War and Television, London, Verso.
48. Dadge, D (2006) The war in Iraq and Why the media Failed US , Westport, CT, Preager.
49. De Bauche, L (1997) Real Patriotism: A Personal account of the Gulf war, University of Wisconsin press.
50. Der Derian, J (2001) Virtous war: Mopping the Military industrial Media – Entertainment Net Work, Co , West view press.
51. Eisenman, S (2007) The Abu Ghraib Effect, London, Reaktion.
52. Elsaesser, T (ed) (1996) A second life: German Cinema's First Decades, Amsterdam, Amsterdam University press.
53. Entman, R(2004) Projections of Power: Framing New, Public opinion, and US foreign Policy, Chicago, University of Chicago press.

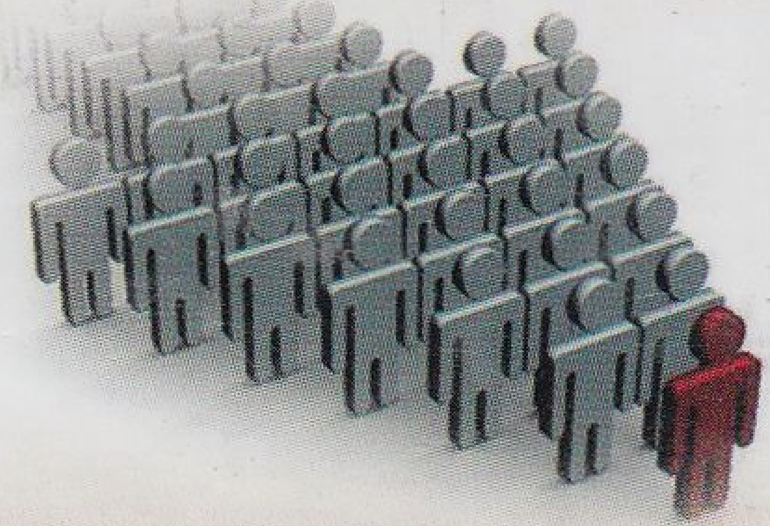
54. Farrar, M (1998) News From the Front: war correspondents on the western front, 1914-18, Stroud, Sutton.
55. Rowe, C. and berg, (1991) The Veitnam War and American Culture, New York, Columbia University Press.
56. Said, E (1996) Covering Islam: How the media and experts Deter mine How we see the rest of the World London, Verso.
57. Royle, T (1989) War Report, London: Grafton.







وسائل الاعلام
والحرب



الدكتور موسى علي الفهد
أ. سؤود فؤاد الآلوسي

دار أسامة
للنشر والتوزيع





دار أسامة
للنشر والتوزيع
الأردن - عمان

هاتف: 00962 6 5658253 / 00962 6 5658252
فاكس: 00962 6 5658254 ص.ب: 141781
البريد الإلكتروني: darosama@orange.jo
الموقع الإلكتروني: www.darosama.net